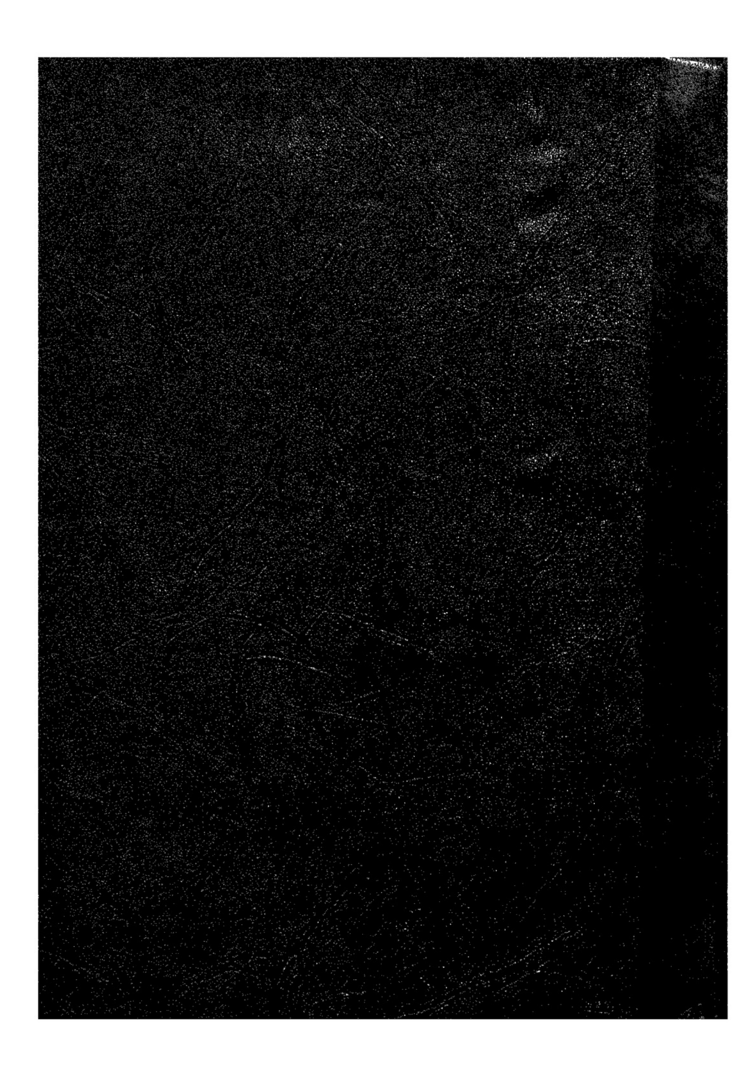


اهداءات ٢٠٠١
الدكتور/ القطب محمد طبلية
القاهرة

كتاب الشعب



للحافظ ابن كثير
٧٠٠-٧٧٤هـ

تحقيق
عبد العزيز غنيم   محمد أحمد عاشور   د. محمد إبراهيم البنا

المجلد الرابع

٢٣

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت ٣١٨١

موقوفا ومرفوعا ، وعمر بن الخطاب ، نحوه — رضى الله عنهم — : أيما مال أدّيت زكاته فليس بكنز ، وإن كان مدفونا فى الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض.

وروى البخارى من حديث الزهرى ، عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر ، فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طُهرًا للأموال .

وكذا قال عمر بن العزيز ، وعراك بن مالك : نسخها قوله تعالى : (خذ من أموالهم) ،

وقال سعيد عن محمد بن زياد ، عن أبى أمامة أنه قال : حلية السيوف من الكنز ، ما أحدثكم إلا ما سمعت » .

وقال الثورى ، عن أبى حصين ، عن أبى الضحى ، عن جعدة بن هبيرة ، عن على رضى الله عنه قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، فما كان أكثر منه فهو كنز (١) .

وهذا غريب . وقد جاء فى مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما ، أحاديث كثيرة ؛ ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقى ، فقال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى ، أخبرنى أبو حصين ، عن أبى الضحى ، عن جَعْدة بن هُبَيرة ، عن على رضى الله عنه فى قوله : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) ، قال نبى صلى الله عليه وسلم : تَبًّا للذهب تبًّا للفضة ، يقولها ثلاثا ، قال : فشق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : فأىّ مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك ، فقال : يا رسول الله ، إن أصحابك قد شق عليهم ، قالوا : فأىّ المال نتخذ ؟ قال : لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه (٢) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، حدثنى سالم ، حدثنى عبد الله بن أبى الهُذَيل ، حدثنى صاحب لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تبا للذهب والفضة — قال : فحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، قولك : تبا للذهب والفضة ، ماذا ندخر (٣) ؟ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وزوجة تُعين على الآخرة (٤) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة ، عن أبيه ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن ثَوبان قال : لما نزل فى الفضة والذهب مانزل قالوا : فأى المال نتخذ ؟ قال [عمر : أنا أعلم ذلك لكم فأوضع على بعير فأدركه ، وأنا فى أثره ، فقال يارسول الله أى المال نتخذ قال](٥) ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا ، وزوجة تعين أحدكم فى أمر الآخرة (٦) » .

ورواه الترمذى ، وابن ماجه (٧) ، من غير وجه ، عن سالم بن أبى الجعد — وقال الترمذى : حسن ، وحكى عن البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٥٨ : ١٤/٢١٩

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٦٣ : ١٤/٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٣) فى المسند : « تبا للذهب والفضة ، ماذا ، قال » دون ذكر « ندخر » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٦٦ .

(٥) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، أثبتناه من المسند .

(٦) لفظ المسند : « وزوجة تعينه على أمر الآخرة » ، ينظر مسند أحمد : ٥/٢٨٢ .

(٧) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٩٢ ، ٨/٤٩١ — ٤٩٢ . وابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « أفضل النساء » ، الحديث ١٨٥٦ ، ١/٥٩٦ .

قلت : ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلا ، والله أعلم .

حديث آخر ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حميد بن مالك ، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي ، حدثنا أبي ، حدثنا غيلان بن جامع المحاربي ، عن عثمان أبي اليقظان ، عن جعفر بن إياس ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (والذين يكنزون الذهب والفضة) ... الآية ، كَبُر ذلك على المسلمين ، وقالوا : ما يستطيع أحد منا [أن يترك] لولده مالا يبقى بعده . فقال عمر : أنا أفرّج عنكم . فانطلق عمر واتبعه ثوبان ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يانبي الله ، إنه قد كَبُر على أصحابك هذه الآية . فقال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم ـ قال : فكبّر عمر ، ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

ورواه أبو داود ، والحاكم في مستدركه ، وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى ، به ـ وقال الحاكم : صحيح على شرطهما ، ولم يخرجاه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا روح(١) حدثنا الأوزاعي ، عن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر ، فنزل منزلا ، فقال لغلامه : « ائتنا بالشَّفرة (٢) نعبَث بها» ، فأنكرت عليه ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخْطمُها(٣) وأزمُّها غير كلمتي هذه ، فلا تحفظونها على ، واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب »(٤) .

وقوله تعالى : (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون) ، أي : يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما ، كما في قوله : (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم) (٥) ، أي : هذا بذاك ، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم . ولهذا يقال : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله ، عُذب به . وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم ، عذبوا بها ، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا في عداوة الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وامرأته تعينه في ذلك ، كانت

---

(١) المستدرك ، تفسير سورة التوبة : ٣٣٣/٢ .
(٢) الشفرة والشفيرة : التي تقنع من النكاح بأيسره ، وهي نقيض القعيرة . (اللسان) .
(٣) أي : أربطها وأشدها . يريد الاحتراز فيما يقوله ، والاحتياط فيما يلفظ به ، ومثله : وأزمها .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٢٣/٤ .
(٥) سورة الدخان ، آية : ٤٨ ، ٤٩ .

يوم القيامة عوناً على عذابه أيضا (في جيدها) ، أي : عنقها (حبل من مسد) ، أي : مجمع من الحطب في النار وتلقى عليه ، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه — كان — في الدنيا ، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم ، وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم :

قال سفيان ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله غيره ، لا يكوى عبد بكنز ، فيمس دينار ديناراً ، ولا درهم درهما ، ولكن يوسّع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته (١)

وقد رواه ابن مرْدُويه ، عن أبي هريرة مرفوعا ، ولا يصح رفعه ، والله أعلم :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا (٢) يتبع صاحبه ، وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك ! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه (٣) :

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن ثوبان أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : من ترك بعده كنزا مثّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتان ، يتبعه ، يقول : ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك ! ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيَقْصَقِصَهَا(٤) ثم يتبعه سائر جسده (٥) ؛ :

ورواه ابن حبان في صحيحه ، من حديث يزيد ، عن سعيد به : وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (٦) .

وفي صحيح مسلم ، من حديث سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله ، إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس ، ثم يُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار (٧) ... ؛ وذكر تمام الحديث ؛

وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن حُصين ، عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالرَّبَذَة (٨) ، فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ، قال : كنا بالشام ، فقرأت : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ، فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب ! قال قلت : إنها لفينا وفيهم (٩) :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٨٢ ، ١٦٦٨٣ : ٢٣٣/١٤ .
(٢) الشجاع — بضم الشين وكسرها — : الحية .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٨١ : ٢٣٣/١٤ .
(٤) كذا في مخطوطة الأزهر ، وقصقص الشيء : كسره . وفي تفسير الطبري : « فيقضمها » .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٨٠ : ٢٣٢/١٤ .
(٦) البخاري ، تفسير سورة التوبة : ٨٢/٦ .
(٧) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إثم مانع الزكاة » : ٧٢،٧١/٣ .
(٨) الربذة : من قرى المدينة ، على ثلاثة أميال منها ، بها قبر أبي ذر .
(٩) البخاري ، تفسير سورة التوبة : ٨٢/٦ .

ورواه ابن جرير من حديث عَبْثر(١) بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر رضي الله عنه، فذكره وزاد : فارتفع في ذلك بيني وبينه القول ، فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلى عثمان أن أقبل إليه ، قال : فأقبلت ، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي : تَنَحّ قريبا : قلت : والله لن أدع ما كنت أقول (٢) .

قلت : كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتي بذلك ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ في خلافه . فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشي أن يضر بالناس في هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، وأنزله بالربذة وحده ، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده ، هل يوافق عمله قوله ؟ فبعث إليه بألف دينار ، ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال : إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت ، فهات الذهب ! فقال : ويحك ! إنها خرجت ، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به .

وهكذا روى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس أنها عامة .

وقال السدي : هي في أهل القبلة .

وقال الأحنف بن قيس : قدمت المدينة ، فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش ، إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكانزين برَضْف (٣) يحمى عليه في نار جهنم ، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْض (٤) كتفه ، ويوضع على نُغْض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل - قال : فوضع القوم رءوسهم ، فما رأيت أحدا منهم رَجَع إليه شيئا - قال : وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية ، فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم . فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئا (٥).

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر : مايسرني أن عندي مثل أحد ذهبا يمر عليه ثالثة وعندي منه شيء ، إلا دينار أرصده لدين (٦) .

فهذا - والله أعلم - هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن سعيد بن أبي الحسن ، عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه : أنه كان مع أبي ذرّ ، فخرج عطاؤه ومعه جارية [له] ، فجعلت تقضي حوائجه ، ففضلت معها

(١) كذا في مخطوطة الأزهر دون نقط وفي تفسير الطبري : هشيم عن حصين . وفي التهذيب ٥/١٣٦ : «عبثر بن القاسم الزبيدي، أبو زبيد الكوفي ، روى عن حصين بن عبد الرحمن ... وعنه أحمد بن عبد الله بن يونس ، وابنه أبو حصين عبد الله بن أحمد» ونحسب ما في تفسير الطبري خطأ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٧١ : ١٤/٢٢٧ .

(٣) الرضف : الحجارة المحماة على النار .

(٤) مضى شرح هذه الكلمة في : ١/٤٠٢ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٧٦ : ١٤/٢٣١ .

(٦) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب وقول النبي صلى الله عليه وسلم : «ما أحب أن لي مثل أحد ذهبا» : ٨/١١٧ ، ولفظ الصحيح : «وعندي منه دينار إلا شيئا» .

سبعة ، فأمرها أن تشترى به فلوسا ـ قال قلت : لو ادخرته للحاجة تَنُوبك وللضيف ينزل بك ! قال : " إن خليلي عهد إليّ أنْ أيما ذهب أو فضة أُوكِيَ (١) عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل (٢) ".

ورواه عن يزيد ، عن همام ، به ـ وزاد : إفراغا(٣) .

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي فى ترجمته ، عن محمد بن مهدى : حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، عن صدقة بن عبد الله ، عن طلحة بن زيد ، عن أبي فروة الرّهاوى ، عن عطاء ، عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً ـ قال : يارسول الله ، كيف لى بذلك ؟ قال : ما سُئلتَ فلا تمنع ، وما رُزقتَ فلا تَخْبَأ ـ قال : يارسول الله ، كيف لى بذلك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو ذاك وإلا فالنار ـ إسناده ضعيف .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عيينة ، عن يزيد بن الصرم قال : سمعت علياً رضى الله عنه يقول : مات رجل من أهل الصُّفَّة ، وترك دينارين ـ أو : درهمين ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كَيَّتان ، صلوا على صاحبكم(٤) .

وقد روى هذا من طرق أخر(٥) .

وقال قتادة ، عن شَهر بن حَوشب ، عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان قال : مات رجل من أهل الصُّفَّة ، فوجد فى مئزره دينار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كية ! ثم تُوفى رجل آخر فوجد فى مئزره ديناران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيتان(٦) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسى ، حدثنا معاوية بن يحيى الأطرابلسى : حدثنى أرطاة ، حدثنى أبو عامر الهَوْزَنى ، سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض ، إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمود بن خداش ، حدثنا سيف بن محمد الثورى ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لايوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ، ولكن يُوسَّع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» .

سيف هذا : كذاب ، متروك .

---

(١) أى : ربط وشد عليه وكاء ـ بكسر الواو ـ وهو الخيط الذى تشد به الصرة .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٥٦ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/١٧٥ ، ١٧٦ ، أى رواية يزيد : « حتى يفرغه إفراغا فى سبيل الله » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/١٠١ .
(٥) ينظر المسند : ١/١٣٧ ، ١٣٨ ، ومسند عبد الله بن مسعود : ١/٤١٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٦٤ : ١٤/٢٢٢ .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، أخبرنا محمد بن سيرين ، عن أبي بكرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته ، فقال: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة [حرم ، ثلاثة] متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جُمَادى وشعبان . ثم قال : ألا أيّ يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ،قال : أليس يومَ النحر ؟ قلنا ، بلى . ثم قال : أيّ شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا بلى . ثم قال : أيّ بلد هذا ؟ . قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليست البلدة ؟ . قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم ـــ قال : وأحسبه قال : وأعراضكم ـــ عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدى ضُلاَّلًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب منكم ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه (١) :

ورواه البخاري في التفسير وغيره ، ومسلم من حديث أيوب ، عن محمد ـــ وهو ابن سيرين ـــ عن عبد الرحمن ابن أبي بكرة ، عن أبيه به (٢) .

وقد قال ابن جرير : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا روح ، حدثنا أشعث ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان (٣) .

ورواه البزّار ، عن محمد بن معمر ، به . ثم قال: [لا يروى] عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، وقد رواه ابن عون وقرة ، عن ابن سيرين ، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه ، به .

وقال ابن جرير ، أيضاً : حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي ، حدثنا زيد بن حباب ، حدثنا موسى بن عبيدة الرّبَذى ، حدثني صدقة بن يسار ، عن ابن عمر قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال : أيها الناس ، إن الزمان قد استدار ، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٣٧ .

(٢) صحيح البخاري ، تفسير سورة التوبة : ٦/ ٨٣ . ومسلم ، كتاب القسامة ، باب « تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال » : ٥/ ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٨٥ : ١٤/ ٢٣٥ .

وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، أولهن رَجَبُ مضر بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم (١) .

وروى ابن مَرْدُويه من حديث موسى بن عُبَيْدة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، مثله أو نحوه .

وقال حماد بن سلمة : حدثني على بن زيد ، عن أبي حُرّة : حدثني الرّقاشي ، عن عمه - وكانت له صحبة - قال : كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق ، أذود الناس عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم(٢) .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا أبو معاوية ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله : (منها أربعة حرم) ، قال : محرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : « إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض » ، تقرير منه - صلَوات الله وسلامه عليه - وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نَسِيء ولا تبديل ، كما قال في تحريم مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » ، وهكذا قال هاهنا : « إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض » ، أي : الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض .

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث : إن المراد بقوله : « قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » ، أنه اتفق أن حَجَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السنة في ذي الحجة ، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء ، يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها ، في غير ذي الحجة ، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة ، وفي هذا نظر ، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء .

وأغرب منه ما رواه الطبراني ، عن بعض السلف ، في جملة حديث : أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد ، وهو يوم النحر ، عام حجة الوداع ، والله أعلم .

[حاشية فصل]

ذكر الشيخ علم الدين السّخاوي في جزء جمعه سماه « المشهور في أسماء الأيام والشهور » : أن المحرم سمى بذلك لكونه شهراً محرماً . وعندي أنه سمى بذلك تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تَتَقَلَّب به ، فتحله عاماً وتحرمه عاماً - قال : ويجمع على محرمات ، ومحارم ، ومحاريم .

صفر : سمى بذلك لخلو بيوتهم منهم ، حين يخرجون للقتال والأسفار ، يقال : « صَفِر المكان » : إذا خلا ، ويجمع على أصفار كجَمَل وأجمال .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٦٨٤ : ١٤/٢٣٤ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ، من حديث طويل ٥/٧٢ ، ٧٣ .

شهر ربيع الأول : سمي بذلك لارتباعهم فيه ، والارتباع الإقامة فى عمارة الرَّبع ، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء ، وعلى أربعة ، كرغيف وأرغفة .

ربيع الآخر : كالأول .

جُمادى : سمي بذلك لجمود الماء فيه — قال : وكانت الشهور فى حسابهم لا تدور : وفى هذا نظر ؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة ، ولا بد من دورانها ، فلعلهم سموه بذلك ، أول ما سُمِّي عند جمود الماء فى البرد ، كما قال الشاعر :

وَلَيلَةٍ مِنْ جُمادى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ • لا يُبْصِرُ العَبْدُ فى ظَلْمائها الطُّنُبَا(١)

لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غَيرَ وَاحِدَةٍ • حَتَّى يَلُفَّ عَلَى خُرْطُومه الذَّنَبَا

ويُجمع على جُمَاديات ، كحبارى وحُبَاريات ، وقد يذكر ويؤنث ، فيقال : جمادى الأولى والأول ، وجمادى الآخر والآخرة .

رجب : من الترجيب ، وهو التعظيم ، ويجمع على أرجاب ، ورِجَاب ، ورَجَبات (٢) .

شعبان : من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شَعَابين وشَعْبانات .

رمضان : من شدة الرمضاء ، وهو الحر ، يقال : « رَمِضَت الفصال » : إذا عطشت ، ويجمع على رَمَضَانات ورَماضِين وأرْمِضة(٣) — قال : وقول من قال « إنه اسم من أسماء الله » خطأ لايعرج عليه ، ولا يلتفت إليه .

قلت : قد ورد فيه حديث ، ولكنه ضعيف ، وبينته فى أول كتاب الصيام .

شوال : من شالت الإبل بأذنابها للطِّراق ، قال : ويجمع على شَوَاول وشَوَاويل وشَوَّالات .

القعدة : بفتح القاف — قلت : وكسرها — لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، ويجمع على ذوات القعدة .

الحجة : بكسر الحاء — قلت : وفتحها — سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه ، ويجمع على ذوات الحجة .

أسماء الأيام : أولها الأحد ، ويجمع على آحاد ، وأُحاد ووحود(٤) : ثم يوم الاثنين ، ويجمع على أثانين . الثلاثاء : يمد ، ويُذَكَّر ويؤنث ، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث : ثم الأربعاء بالمد ، ويجمع على أربعاوات وأرابيع . والخميس : يجمع على أخمسة وأخامس ، ثم الجمعة — بضم الميم ، وإسكانها ، وفتحها أيضا — ويجمع على جُمَع وجُمُعات(٥) : السبت : مأخوذ من السَّبْت ، وهو القطع ، لانتهاء العدد عنده : وكانت العرب تسمى الأيام أول ، ثم أهون ، ثم جُبَار ، ثم دبار ، ثم مؤنس ، ثم العروبة ، ثم شيار ، قال الشاعر ، من العرب العرباء العاربة المتقدمين(٦) :

---

(١) الطنب : حبل الخباء والسرادق .

(٢) ورجوب أيضاً ، (اللسان) .

(٣) وأرمضاء وأرمض أيضاً (اللسان) .

(٤) كذا ، وفى اللسان والتاج أنه يجمع على : آحاد وأحدان .

(٥) فى المخطوطة : « وجماعات » . والمثبت من المرجعين السابقين .

(٦) البيتان فى تاج العروس ، واللسان ، مادة : جبر ، ودبر ، وغيرهما .

أُرَجِّي أن أعيش وأن يومي ... بأوّلَ أو بأهونَ أو جُبَارِ
أو التالي دُبَارِ فإن أفُتْهُ ... فمؤنس أو عروبةَ أو شِيَارِ

وقوله تعالى : (منها أربعة حرم) : فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه ، وهو الذى كان عليه جمهورهم ، إلا طائفة منهم يقال لهم « البَسْل »(١) ، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر ، تعمقا وتشديداً :

وأما قوله : « ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » ، [فإنما أضافه إلى مضر ، ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان] ، لا كما كانت تظنه ربيعة من أنّ رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال ،وهو رمضان اليوم ، فبين — عليه السلام — أنه رجب مضر لا رجب ربيعة . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة. ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة . فحرم قبل شهر الحج شهر ، وهو ذو القعدة ، لأنهم يقعدون فيه عن القتال ، وحُرِّم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك ، وحرم بعده شهر آخر ، وهو المحرم ، ليرجعوا فيه إلى نائى (٢) أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ،فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا .

. قوله : (ذلك الدين القيم) ، أى : هذا هو الشرع المستقيم ، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم ، والحَذْو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول :

وقال تعالى :(فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، أى : فى هذه الأشهر المحرمة ، لأنه آكد وأبلغ فى الإثم من غيرها ، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف ، لقوله تعالى : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم (٣) ، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى ، وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا فى حقّ من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم :

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس، فى قوله : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، قال : فى الشهور كلها (٤) :

وقال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) ... الآية ، (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) : فى كلّهن : ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما ، وعَظّم حُرُماتِهن، وجعل الذنب فيهن أعظم . والعمل الصالح والأجر أعظم (٥) :

---

(١) ينظر خبرهم فى سيرة ابن هشام : ١/١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) فى المخطوطة « تالى أقصى » ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) سورة الحج ، آية : ٢٥ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٩٧ : ١٤/٢٣٨ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٩٦ : ١٤/٢٣٨ .

وقال قتادة فى قوله : (فلاتظلموا فيهن أنفسكم) : إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا ، من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء . قال : إن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد . واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فعظموا ما عظم الله ، فإنما تُعَظَّم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل (١) .

وقال الثورى ، عن قيس بن مسلم ، عن الحسن بن محمد بن الحنفية : بأن لا تحرموهن كحرمتهن (٢) .

وقال محمد بن إسحاق : (فلاتظلموا فيهن أنفسكم) ، أى : لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما ، كما فعل أهل الشرك ، فإنما النسىء الذى كانوا يصنعون من ذلك ، زيادة فى الكفر (يضل به الذين كفروا) (٣) الآية .

وهذا القول اختيار ابن جرير .

وقوله : (وقاتلوا المشركين كافة) ، أى : جميعكم ، (كما يقاتلونكم كافة) ، أى : جميعهم ، (واعلموا أن الله مع المتقين) .

وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام : هل هو منسوخ أو محكم ؟ على قولين :

أحدهما ، وهو الأشهر : أنه منسوخ ، لأنه تعالى قال ها هنا : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، وأمر بقتال المشركين . وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عاما ، فلو كان محرما فى الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر أهل الطائف فى شهر حرام ــ وهو ذو القعدة ــ كما ثبت فى الصحيحين : أنه خرج إلى هوازن فى شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ، ورجع فَلُّهم (٤) . فلجئوا إلى الطائف ــ عَمَد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوما ، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام .

والقول الآخر : أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام حرام ، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام ، لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام (٥) ، وقال : (الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (٦) الآية ، وقال : (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين (٧)

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة ، لا أشهر التسيير على أحد القولين .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٩٨ : ١٤/٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، الأثر ١٦٧٠١ : ١٤/٢٣٩ ، ولفظ الطبرى : « ظلم أنفسكم : أن لا تحرموهن كحرمتهن » .

(٣) المصدر السابق ، الأثر ١٦٦٩٩ : ١٤/٢٣٩ .

(٤) أى : المنهزمون منهم .

(٥) سورة المائدة ، آية : ٢ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٩٤ .

(٧) سورة التوبة ، آية : ٥ .

وأما قوله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ، فيحتمل أنه منقطع عما قبله ، وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أى: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون. ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص)[١] ، وقال تعالى : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم) ... الآية ، [٢] وهكذا الجواب عن حصار رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال ، وجمعوا الرجال ، ودعوا إلى الحرب والنزال ، فعندها قصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما . وكان ابتداؤه فى شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام ، فاستمر فيه أياما ، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا هو أمر مقرر ، وله نظائر كثيرة والله أعلم ؛ ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك[٣]، وقد حررنا ذلك فى السيرة ، والله أعلم .

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام ، ويحرمون الشهر الحلال ، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة ، كما قال شاعرهم — وهو عمير بن قيس المعروف — بجذل الطعان[٤] :

لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمِي ... كِرَامُ النَّاسِ أَنَّ لَهُمْ كِرَامَا
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا
فأيّ النَّاسِ لَمْ نُدْرِكْ بِوِتْرٍ؟ ... وأيّ النَّاسِ لم نُعْلِكْ لِجَامَا[٥]؟

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر) ،قال : النسىء أن جنادة بن عوف ابن أمية الكنانى ، كان يوافى الموسم فى كل عام ، وكان يكنى « أبا ثمامة » ، فينادى: « ألا إن أبا ثمامة لا يُحَاب[٦]

(١) سورة البقرة ، آية : ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٩١ .

(٣) لم يذكر ابن كثير هذه الأحاديث . وبعده فى مخطوطة الأزهر فراغ يسع أربعة أسطر .

(٤) الأبيات فى سيرة ابن هشام : ١/ ٤٥ ، وقال السهيلى فى الروض الأنف ١/ ٤٢ : « وسمى « جذل الطعان » ، لثباته فى الحرب ، كأنه جذل شجرة واقف . وقيل : لأنه كان يستشفى برأيه ويستراح إليه ، كما تستريح البهيمة الجرباء إلى الجذل تحتك به » .

(٥) يقول : أى الناس لم نقدعهم ونكفهم كما يقدع الفرس باللجام ؟ .

(٦) أى : لا ينسب إلى الحوب وهو الإثم .

ولا يُعاب ، إلا وإن صفر العام الأول العامَ حلال ، فيحله للناس ، فيحرم صفرا عاما ، ويحرم المحرم عاما ، فذلك قول الله : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) [إلى قوله : (الكافرين) . وقوله : (إنما النسىء زيادة فى الكفر(١)] ، يقول : يتركون المحرم عاما ، وعاما يحرمونه (٢) .

وروى العوفى ، عن ابن عباس نحوه .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول : « يا أيها الناس ، إنى لا أعاب ولا أحاب ، ولا مَرَدّ لما أقول ، إنا قد حرّمنا المحرم ، وأخّرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : « إنا قد حرمنا صفر ، وأخرنا المحرم » ، فهو قوله : (ليواطئوا عدة ما حرم الله) ، قال : يعنى الأربعة ــ (فيحلوا ما حرم الله) ، لتأخير هذا الشهر الحرام (٣) .

وروى عن أبى وائل ، والضحاك ، وقتادة نحو هذا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) ... الآية ، قال : هذا رجل من بنى كنانة يقال له : « القَلَمَّس » ، وكان فى الجاهلية ، وكانوا فى الجاهلية لا يُغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يَمُدّ إليه يده ، فلما كان هو ، قال : « اخرجوا بنا » قالوا له : « هذا المحرم » ! قال : « لنسئه العام ، هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرَّمين » . قال : ففعل ذلك ، فلما كان عام قابل قال : « لا تغزُوا فى صفر ، حرّموه مع المحرم ، هما محرمان (٤) » .

فهذه صفة غريبة فى النسىء ، وفيها نظر ، لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط ، وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر ، فأين هذا من قوله تعالى : (يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله) ؟ .

وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا ، فقال عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) الآية ، قال : فرض الله عز وجل الحج فى ذى الحجة . قال : وكان المشركون يسمون [الأشهر] ، ذا الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع ، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوالا ، وذا القعدة : وذو الحجة ، يحجون فيه مرة أخرى ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفر [صفرا] ، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ، ثم(٥) يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون شوالا رمضان ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة ، فيحجون فيه ، واسمه عندهم ذو الحجة . ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون فى كل شهر عامين ، حتى وافق حجةُ أبى بكر الآخر من العامين فى القعدة .

---

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٠٦ : ١٤/٢٤٥ ، وأثر العوفى بعده .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧١٠ : ١٤/٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧١٦ : ١٤/٢٤٩ .

(٥) لفظ الطبرى : « ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون رمضان شوالا ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة » .

ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم حجته التي حج ، فوافق ذا الحجة ، فذلك حين يقول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض (١) » :

وهذا الذي قال مجاهد فيه نظر أيضا ، وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة ، وأنى هذا ؟ وقد قال الله تعالى : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) ... الآية ، وإنما نودى بذلك في حجة أبي بكر ، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى : (يوم الحج الأكبر) : ولا يلزم من فعلهم النسىء هذا الذي ذكره ، من دوران السنة عليهم ، وحجهم في كل شهر عامين ؛ فإن النسىء حاصل بدون هذا ، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا ، وبعده ربيع وربيع إلى آخر [السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه ، وبعده صفر ، وربيع وربيع إلى آخرها] فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، أي : في تحريم أربعة أشهر من السنة ، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم ، وتارة ينسئونه إلى صفر ، أي : يؤخرونه : وقد قدمنا الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر » ، أي : أن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها ، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي ، لا كما يعتمده جهلة العرب ، من فصلهم تحريم بعضها بالنسىء عن بعض ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني ، حدثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة ، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : « وإنما النسىء من الشيطان ، زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما » : فكانوا يحرمون المحرم عاما ، ويستحلون صفر ، ويستحلون المحرم ، وهو النسىء :

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في « كتاب السيرة » كلاما جيداً ومفيداً حسنا ، فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب ، فأحل منها ما حرم الله ، وحرم منها ما أحل الله عز وجل « القَلَمَّس » ، وهو : حذيفة بن عبد فُقَيم ابن عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدّ ابن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد ثم من بعد عباد ابنه : قَلَع بن عباد ، ثم ابنه أمية بن قلع ، ثم ابنه : عوف ابن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جُنَادة بن عوف ، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام . فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه ، فقام فيهم خطيباً ، فحرم : رجبا ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، ويحل المحرم عاما ، ويجعل مكانه صفر ، ويحرمه عاما ليواطىء عدة ما حرم الله ، فيحل ما حرم الله ، يعني : ويحرم ما أحل الله (٢) :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧١٣ : ٢٤٨/١٤

(٢) سيرة ابن هشام : ٤٤/١ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحَمارَّة القيظ ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله)، أى : إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله (اثاقلتم إلى الأرض)، أى: تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار ، (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟) أى : مالكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ؟.

ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا ، ورغب فى الآخرة ، فقال : (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس ، عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم ترجع» ؟ وأشار بالسبابة(١) .

انفرد بإخراجه مسلم(٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصى بحمص ، حدثنا الربيع بن روح ، حدثنا محمد بن خالد الوهبى ، حدثنا زياد ــ يعنى الجصاص ــ عن أبى عثمان قال قلت : يا أبا هريرة ، سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول : سمعتَ نبى الله يقول : «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة ؟ قال أبوهريرة : بل سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة » ، ثم تلا هذه الآية : (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) .

فالدنيا مامضى منها وما بقى منها عند الله قليل .

وقال الثورى ، عن الأعمش فى الآية : (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) .

قال : كزاد الراكب .

وقال عبد العزيز ابن أبى حازم، عن أبيه : لما حضرت عبدَ العزيز بن مروان الوفاةُ قال : ائتونى بكفنى الذى أكفَّن فيه، أنظر إليه : فلما وُضع بين يديه نَظَر إليه فقال : أمَالى مِن كَبِير ما أخلّف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أفٍّ لك من دار : إن كان كثيرُك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة » : ٨/١٥٦ .

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال : (إلاتنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) ، قال ابن عباس : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً من العرب ، فتثاقلوا عنه ، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم(١) .

(ويستبدل قوماً غيركم) ، أى : لنصرة نبيه وإقامة دينه ، كما قال تعالى: (وَإِن تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم (٢) .

(ولا تضروه شيئاً) ، أى : ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه، (والله على كل شيء قدير) ، أى : قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

وقد قيل : إن هذه الآية ، وقوله : (انفروا خفافا وثقالا(٣) ، وقوله : (ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله(٤) — إنهن منسوخات بقوله تعالى : (وماكان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة(٥) ، روى هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، وزيد بن أسلم . ورده ابن جرير وقال : « إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد ، فتعين عليهم ذلك، فلوتركوه لعوقبوا عليه »(٦) ، وهذا له اتجاه ، والله تعالى أعلم .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى : (إلاتنصروه) ، أى : تنصروا رسوله ، فان الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه ، كما تولى نصره (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين) ، أى: عام الهجرة ، لما همّ المشركون بقتله أوحبسه أونفيه ، فخرج منهم هارباً صحبة صدّيقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا فى آثارهم ، ثم يسيرا نحو المدينة ، فجعل أبوبكر رضى الله عنه يجزع أن يَطّلع عليهم أحد ، فيخلص — إلى الرسول عليه السلام منهم أذى ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يسكّنه ويثبّته ويقول : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، كما قال الإمام أحمد :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٢١ : ١٤/٢٥٤ ، ٢٥٥ ، والقطر : المطر .
(٢) سورة محمد ، آية : ٣٨ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٤١ .
(٤) سورة التوبة ، آية : ١٢٠ .
(٥) سورة التوبة ، آية : ١٢٢ .
(٦) ينظر نص ابن جرير فى تفسيره : ١٤/٢٥٦ .

حدثنا عفان ، حدثنا همّام ، أنبأنا ثابت ، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . قال : فقال : « يا أبابكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »(١) ، أخرجاه في الصحيحين(٢) .

ولهذا قال تعالى : (فأنزل الله سكينته عليه) ، أي : تأييده ونصره عليه ، أي : على الرسول في أشهر القولين ؛ وقيل : على أبي بكر ، وروى عن ابن عباس وغيره ، قالوا : لأن الرسول لم تزل معه سكينة ، وهذا لاينافي تجدّد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : (وأيده بجنود لم تروها) ، أي : الملائكة ، (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) .

قال ابن عباس : يعني « كلمة الذين كفروا » : الشرك و« كلمة الله » هي : لاإله إلا الله(٣) .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حَمِيَّة ، ويقاتل رياء ، أيّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٤).

وقوله : (والله عزيز) ، أي : في انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب ، لايُضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه ، (حكيم) في أقواله وأفعاله .

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال سفيان الثوري ، عن أبيه ، عن أبي الضُحَى مسلم بن صبيح : هذه الآية : (انفروا خفافاً وثقالا) أولُ ما نزل من سورة براءة(٥).

وقال معتمر بن سليمان ، عن أبيه قال : زعم حَضْرَميّ أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاأوكبيراً ، فيقول : إني لا آثم(٦) ، فأنزل الله : (انفروا خفافاً وثقالا) . . الآية(٧) .

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عام غزوة تبوك ، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر ، فقال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٤ .
(٢) صحيح البخاري ، تفسير سورة التوبة : ٦/٨٣ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧٣٣ : ١٤/٢٦١ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب « من سأل - وهو قائم - عالما جالساً » ١/ ٤٢ / ٤٣ ، ومسلم كتاب الإمارة باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » : ٦/٤٦ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧٥٨ : ١٤/٢٧٠ .
(٦) لفظ الطبري : « إن أجتنبه إياه ، فاني آثم » .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧٥٣ : ١٤/٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(انفروا خفافاً وثقالا) .

وقال على بن زيد ، عن أنس ، عن أبي طلحة(١) : كهولا وشبّانا ، ما أسمع الله عذر أحداً ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِل .

وفي رواية : قرأ أبو طلحة سورة براءة ، فأتى على هذه الآية : (انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) ، فقال : أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشبّانا ، جهزونى يا بَنِىّ . فقال بنوه : يرحمك الله : قد غزوت مع رسول الله حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى ، فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه بها .

وهكذا روى عن ابن عباس ، وعكرمة وأبى صالح ، والحسن البصرى ، وشمر بن عطية ، ومقاتل بن حيان ، والشعبى وزيد بن أسلم : أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية : (انفروا خفافا وثقالا) قالوا كهولا وشبابا . وكذا قال عكرمة والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغير واحد .

وقال مجاهد : شبابا وشيوخا ، وأغنياء ومساكين . كذا قال أبو صالح ، وغيره .

وقال الحكم بن عُتَيبة : مشاغيل وغير مشاغيل .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (انفروا خفافا وثقالا) ، يقول : انفروا نشاطاً وغير نشاط . وكذا قال قتادة .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مُجاهد : (انفروا خفافا وثقالا) ، قالوا : فإن فينا الثقيل ، وذا الحاجة ، والضيعة والشغل ، والمتيسر(٢) به أمره ؟ فأنزل الله وأبى أن [يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا(٣)] وعلى ما كان منهم .

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى أيضاً : فى العسر واليسر . وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية ، وهذا اختيار ابن جرير .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى : إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفر الناس إليها خفافا وركبانا ، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا ، ركبانا ومشاة . وهذا تفصيل فى المسألة .

وقد رُوى عن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعطاء الخراسانى وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة) . وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله .

وقال السدى قوله : (انفروا خفافا وثقالا) ، يقول : غنيا وفقيرا ، وقوياً وضعيفاً . فجاءه رجل يومئذ ، زعموا أنه المقداد ، وكان عظيماً سميناً ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فأبى . فنزلت يومئذ : (انفروا خفافا وثقالا) ، فلما

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٣٦ : ١٤/٢٦٢ . وفى المخطوطة : « عن أنس ، عن على بن أبى طلحة » ، وهو خطأ . وأبو طلحة هو زيد بن سهيل الأنصارى البخارى ، عقبى بدرى . يروى عنه أنس بن مالك .

(٢) فى الدر المنثور : « والمنتشر به أمره فى ذلك » .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين من الدر : ٣/٢١٦ ، ومكانه فى المخطوطة : « يعذبهم » .

نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله ، فقال : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) :

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب ، عن محمد قال : شهد أبو أيوب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو فى آخرين إلا عاماً واحداً قال : وكان أبو أيوب يقول : قال الله : (انفروا خفافا وثقالا) ، فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلا(١) :

وقال ابن جرير : حدثني سعيد بن عمرو السكوني ، حدثنا بقية ، حدثنا حريز ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، حدثني أبو راشد الحُبْرانى قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وقد فضل عنها من عظمه ، يريد الغزو ، فقلت له : لقد أعذر الله إليك . فقال : أتت علينا « سورة البحوث(٢) » : (انفروا خفافا وثقالا)(٣)

وبه قال حريز : حدثني حبان بن زيد الشرعبي قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، وكان والياً على حمص قِبَل الأفسوس(٤) ، إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً همّاً(٥) ، وقد سقط حاجباه على عينيه ، من أهل دمشق ، على راحلته ، فيمن أغار ، فأقبلت إليه فقلت : ياعم ، لقد أعذر الله إليك . قال : فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخي ، استنفرنا الله خفافا وثقالا ، إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيبقيه . وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل(٦) :

ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله ، وبذل المُهَج فى مرضاته ومرضاة رسوله ، فقال : (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) ، أى : هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة ، ولأنكم تغرمون فى النفقة قليلا ، فيغنمكم الله أموال عدوكم فى الدنيا ، مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وتكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله نائلا مانال من أجر أو غنيمة »(٧) :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٥٤ : ١٤/٢٦٧ .

(٢) فى المخطوطة : « سورة البعوث » . بالعين ، والمثبت عن تفسير الطبرى ، والنهاية لابن كثير ، وفى النهاية : « يعنى سورة التوبة ، سميت بها لما تضمنت من البحث من أسرار المنافقين ، وهو إثارتها والتفتيش عنها . والبحوث : جمع بحث . ورأيت فى الفائق « سورة البحوث » بفتح الباء ، فان صحت فهى فعول ، من ابنية المبالغة ، ويقع على الذكر والأنثى ، كامرأة صبور ، ويكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٥٦ : ١٤/٢٦٨ .

(٤) فى المخطوطة : « الأفسون » . ومثله فى مخطوطة الطبرى . وقد أثبت السيد محقق تفسير الطبرى « الأفسوس » ، وقال : « بلد بثغر طرسوس ، وطرسوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم . والجراجمة : نبط الشام ، ويقال : هم قوم من العجم بالجزيرة .

(٥) الهم – بكسر الهاء ، وتشديد الميم – : الشيخ الكبير الفانى .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٤٥ : ١٤/٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٧) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٦٦ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله » : ٦/٣٤ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٢٣١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٩ ، ٤٢٤ ، ٤٩٤ .

ولهذا قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون).

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا محمد ابن أبي عدى ، عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : أسلم . قال : أجدني كارهاً . قال : أسلم وإن كنت كارهاً» (١) .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وقعدوا عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما استأذنوه في ذلك ، مظهرين أنهم ذوو أعذار ، ولم يكونوا كذلك ، فقال : (لو كان عرضاً قريباً) — قال ابن عباس : غنيمة قريبة ، (وسفراً قاصداً) ، أي : قريباً أيضاً ، (لاتبعوك) ، أي : لكانوا جاءوا معك لذلك ، (ولكن بعُدت عليهم الشقة) . أي : المسافة إلى الشام ، (وسيحلفون بالله) ، أي : لكم إذا رجعتم إليهم (لواستطعنا لخرجنا معكم (، أي : لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم — قال الله تعالى : (يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون).

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبوحصين بن [يحيى بن](٢) سليمان الرازي ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن مسعر ، عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) . وكذا قال مورِّق العجلي وغيره .

وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ، ثم أنزل التي في سورة النور ، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاء : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم)(٣) . وكذا رُوي عن عطاء الخراساني :

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا(٤)

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٠٩/٣ . ورواه الإمام أحمد أيضاً عن يحيى ، عن حميد ، به . المسند : ١٨١/٣ .

(٢) ما بين القوسين عن ترجمته في الجرح والتعديل لأبن أبي حاتم : ٣٦٤/٢/٤ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧٦٤ : ٢٧٣/١٤ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧٦٣ : ٢٧٣/١٤ .

ولهذا قال تعالى : (حتى يتبين لك الذين صدقوا) ، أى : فى إبداء الأعذار ، (وتعلم الكاذبين) ، يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك ، فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه ؛ ولهذا أخبر تعالى أنه لايستأذنه فى القعود عن الغزو] أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال : (لايستأذنك) ، أى : فى القعود عن الغزو (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) لأن أولئك يرون الجهاد قربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ، (والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك) ، أى : فى القعود ممن لاعذر له (الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر) ، أى : لايرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم ، (وارتابت قلوبهم) ، أى : شكت فى صحة ماجئتهم به ، (فهم فى ريبهم يترددون) ، أى : يتحيرون ، يُقَدِّمون رجلا ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قَدَم ثابتة فى شىء ، فهم قوم حَيارى هَلْكى ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

يقول تعالى : (ولو أرادوا الخروج) ، أى : معك إلى الغزو (لأعدوا له عدة) ، أى : لكانوا تأهبوا له ، (ولكن كره الله انبعاثهم) ، أى : أبغض أن يخرجوا معك قَدَراً ، (فثبطهم) ، أى أخرهم ، (وقيل : اقعدوا مع القاعدين) ، أى : قدراً .

ثم بين وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين ، فقال : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) ، أى : لأنهم جبناء مخذولون ، (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) ، أى : ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ، (وفيكم سماعون لهم) ، أى : مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدى هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير .

وقال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، وابن جرير : (وفيكم سماعون لهم) ، اى : عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم[1] ؛

وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم ، بل هذا عام فى جميع الأحوال ، والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

وقال محمد بن إسحاق : كان فيما بلغنى — من استأذن — من ذوى الشرف منهم : عبد الله بن أبى بن سلول والجدّ ابن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم ، فثبطهم الله ، لعلمه بهم : أن يخرجوا معه ، فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : (وفيكم سماعون لهم) [2] .

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٤/٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٧٨١ : ١٤/٢٨١ .

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال : (والله عليم بالظالمين) ، فأخبر بأنه ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون . ولهذا قال تعالى : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) ، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا ، كما قال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (١) ، وقال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) (٢) ، وقال تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيما) (٣) ، والآيات فى هذا كثيرة .

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين : (لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلّبوا لك الامور) ، أى : لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة : رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبى وأصحابه : هذا أمر قد توجّه(٤) . فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى : (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من يقول لك يا محمد : (ائذن لى) فى القعود (ولا تفتنّى) بالخروج معك ، بسبب الجوارى من نساء الروم . قال الله تعالى : (ألا فى الفتنة سقطوا) ، أى : قد سقطوا فى الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، ويزيد بن رُومان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن [عمر بن] قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وهو فى جهازه ، للجدّ بن قيس أخى بنى سلمة : هل لك ياجدّ العامَ فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقال : يارسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنّى ، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٢٨ .
(٢) سورة الأنفال ، آية : ٢٣ .
(٣) سورة النساء ، الآيات : ٦٦ — ٦٨ .
(٤) أى القصد والنحو ، يقال الرجل إذا كبر سنه : قد توجه . يعنى عبد الله بن أبى أنه لا أمل له فى الملك والسيادة لظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنصر الله له .

قد أذنت لك : ففي الجد بن قيس نزلت هذه : (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) ... الآية ، أي : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه ، أعظم (١) .

وهكذا روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : أنها نزلت في الجَدّ بن قيس . وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة ، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : «من سيدكم يابني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس ، على أنا نُبَخِّله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأيّ داء أدوأ من البخل . ولكن سيّدكم الفتى الأبيض الجَعْد بشرُ بن البراء بن مَعْرُور(٢) » .

وقوله تعالى : (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ، أي : لا مَحيد لهم عنها ، ولا مَحيص ، ولا مَهرَب .

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له ، لأنه مهما أصابه من (حسنة) ، أي : فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ، ساءهم ذلك ، (وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) ، أي : قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ، (ويتولوا وهم فرحون) . فأرشد الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ـــ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة ، فقال : (قل) ، أي : لهم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) ، أي : نحن تحت مشيئة الله ، وقدره ، (هو مولانا) ، أي : سيدنا وملجؤنا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ، أي : ونحن متوكلون عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : (قل) لهم يا محمد : (هل تربصون بنا) ؟ أي : تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسنيين) : شهادة أو ظَفَر بكم . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) ، أي : ننتظر بكم هذا أو هذا ، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا ، بسبي أو بقتل ، (فتربصوا إنا معكم متربصون) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٧٨٨ : ١٤/٢٨٣ ، وينظر سيرة ابن هشام : ٢/٥١٦ .

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ، في أسماء من شهد العقبة : ١/٤٦١ . والروض الأنف للسهيلي : ١/٢٨٢ . وأسد الغابة : الترجمة ٤١٧ : ١/٢١٨ .

وقوله : (قل أنفقوا طوعاً أو كرها) ، أى : مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين (لن يتقبل منكم ، إنكم كنتم قوماً فاسقين) :

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك ، وهو أنهم لا يتقبل منهم ، (لأنهم كفروا بالله وبرسوله) ، أى : والأعمال إنما تصح بالإيمان ، (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) ، أى : ليس لهم قصد صحيح ، ولا همة فى العمل ، (ولا ينفقون) نفقة (إلا وهم كارهون) :

وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تملوا ، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً ، فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا ، لأنه إنما يتقبل من المتقين .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى لرسوله — صلوات الله وسلامه عليه — : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) ، كما قال تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى (١)) ، وقال : (أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون (٢)) :

وقوله : (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) ، قال الحسن البصرى : بزكاتها ، والنفقة منها فى سبيل الله (٣) :

وقال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم [فى الحياة الدنيا] إنما يريد الله ليعذبهم بها [فى الآخرة (٤)] .

واختار ابن جرير قول الحسن (٥) ، وهو القول القوى الحسن :

وقوله : (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) ، أى : ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياذا بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه :

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم (يحلفون بالله إنهم لمنكم) ، يميناً مؤكدة ، (وما هم منكم) ، أى : فى نفس الأمر ، (ولكنهم قوم يفرقون) ، أى : فهو الذى حملهم على الحلف : (لو يجدون ملجأ) ، أى : حصنا يتحصنون به ، وحرزا يحترزون به ، (أو مغارات) ، وهى التى فى الجبال ،

---

(١) سورة طه ، آية : ١٣١ .

(٢) سورة « المؤمنون » ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨٠٦ : ١٤/٢٩٦ . ولفظ الطبرى : « بأخذ الزكاة » .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨٠٤ : ١٤/٢٩٥ ، ٢٩٦ ، وما بين القوسين عنه .

(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١٤/٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(أو مدخلا) ، وهو السَّرَب فى الأرض والنفق : قال ذلك فى الثلاثة ابنُ عباس ، ومجاهد ، وقتادة – (لولوا إليه وهم يجمحون) ، أى : يسرعون فى ذهابهم [عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم] لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغَمّ ، لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عزّ ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال : (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ ﴾

يقول تعالى : (ومنهم) ، أى : ومن المنافقين (من يلمزك) ، أى : يعيب عليك (فى) قَسْم (الصدقات) إذا فرقتها ، ويتهمك فى ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ، ولهذا إن (أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون) ، أى : يغضبون لأنفسهم .

قال ابن جريج : أخبرنى داود بن أبى عاصم قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بصدقة ، فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت . قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل ؟ فنزلت هذه الآية (١) .

وقال قتادة فى قوله : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) ، يقول : ومنهم من يطعُنُ عليك فى الصدقات . وذُكر لنا أن رجلاً من البادية حديثَ عهد بأعرابية ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة ، فقال : يا محمد ، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ، ما عدلت . فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : ويلك . فمن ذا يعدل عليك بعدى : ثم قال نبى الله : احذروا هذا وأشباهه فان فى أمتى أشباه هذا ، يقرءون القرآن لا يجاوز تَرَاقِيَهم ، فاذ خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم : وذُكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : والذى نفسى بيده ، ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه ، إنما أنا خازن (٢) .

وهذا الذى ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان من حديث الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى سعيد فى قصة ذى الخُوَيصرة – واسمه حُرقُوص – لما اعترض على النبى صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين ، فقال له : اعدل ، فانك لم تعدل . فقال : لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفيا : إنه يخرج من ضِئْضِىء هذا قوم يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين مُرُوق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فانهم شر قتلى تحت أديم السماء (٣) ... وذكر بقية الحديث .

ثم قال تعالى مُنَبِّهًا لهم على ما هو خير من ذلك لهم ، فقال : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) ، فتضمنت هذه الآيةُ الكريمةُ أدباً عظيما وسرا شريفا ،

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨١٤ : ١٤/٣٠٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨١٥ : ١٤/٣٠٢ .
(٣) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم : ٣/١١٢ .

حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله : (وقالوا حسبنا الله) ، وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبى صلى الله عليه وسلم ولمزهم إياه فى قَسْم الصدقات ، بيّن تعالى أنه هو الذى قسمها وبيّن حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يَكِلْ قَسْمها إلى أحد غيره ، فجزّأها لهؤلاء المذكورين ، كما رواه الإمام أبو داود فى سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم — وفيه ضعف — عن زياد بن نعيم ، عن زياد بن الحارث الصُّدَائى رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة فقال له : « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فان كنت من تلك الأجزاء أعطيتك (١) » .

وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية : هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يجب ذلك ، وهو قول الشافعى وجماعة .

والثانى : أنه لا يجب استيعابها ، بل يجوز الدفع إلى واحد منها ، ويعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين ، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف ، منهم : عمر ، وحذيفة ، وابن عباس ، وأبو العالية ، وسعيد بن جبير ، وميمون بن مهران .

قال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فانما ذكرت الأصناف هاهنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء .

ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا (٢) ، والله أعلم .

وإنما قدم الفقراء هاهنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور ، لشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير ، وهو كما قال ، قال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، أنبأنا ابن عون ، عن محمد قال : قال عمر رضى الله عنه : الفقير ليس بالذى لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب — قال ابن علية : « الأخلق » ، المحارَفُ عندنا (٣) .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « من يعطى الصدقة ، وحد الغنى » ، الحديث ١٦٣٠ : ٢/١١٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٢٢/١ .

(٣) تفسير الطبرى ١٦٨٣٣ : ٣٠٨/١٤ . والأخلق : الخالى ، وفى حديث فاطمة بنت قيس : « وأما معاوية فرجل أخلق من المال » ، يقال : حجر أخلق : أى أملس مصمت لا يؤثر فيه شىء . و « المحارف » : هو المنقوص الحظ المحروم الذى إذا طلب الرزق لم يرزق ، ضد المبارك .

والجمهور على خلافه . ورُوى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا ، والمسكين هو الذى يسأل ويطوف ويتّبع الناس .

وقال قتادة : « الفقير » من به زمانة ، « والمسكين » الصحيح الجسم [١] .

وقال الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم : هم فقراء المهاجرين قال سفيان الثورى : يعنى ولا يُعطَى الأعرابُ منها شيئا [٢] .

وكذا روى عن سعيد بن جبير ، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى .

وقال عكرمة : لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين ، وإنما المساكين [مساكين] أهل الكتاب [٣] .

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية .

فأما « الفقراء » ، فعن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحل الصدقة لغنىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ » . رواه أحمد [٤] ، وأبو داود ، والترمذى .

ولأحمد أيضا [٥] ، والنسائى ، وابن ماجه عن أبى هريرة ، مثله .

وعن عبيد الله بن عدىّ بن الخيار : أن رجلين أخبراه : أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة ، فقلّب فيهما البصر ، فرآهما جَلْدين ، فقال : « إن شئتما أعطيتُكما ، ولا حَظّ فيها لغنى ولا لقوىّ مكتسب » .

رواه أحمد [٦] ، وأبو داود ، والنسائى باسناد جيد قوى .

وقال ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح [والتعديل : أبو بكر العبسى قال قرأ عمر رضى الله عنه (إنما الصدقات للفقراء) ، قال : هم أهل الكتاب][٧] روى عنه عمر بن نافع ، سمعت أبى يقول ذلك .

قلت : وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد ، فان أبا بكر هذا ، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته ، لكنه فى حكم المجهول .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨٢٦ : ١٤/٣٠٧ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨٢٧ ، ١٦٨٢٨ : ١٤/٣٠٧ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٨٣٥ : ١٤/٣٠٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٤ ، ١٩٢ ، وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « من يعطى الصدقة ، وحد الغنى » ، الحديث ١٦٣٤ : ٣/١١٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الزكاة ، باب « ما جاء من لا تحل له الصدقة » ، الحديث ٦٤٧ : ٣/٣١٦ ، ٣١٧ ، وقال الترمذى : « حديث عبد الله بن عمرو حديث حسن » . (والمرة – بكسر الميم وتشديد الراء : القوة ، والسوى : السليم الأعضاء) .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٧٧ ، ٣٨٩ . والنسائى ، كتاب الزكاة ، باب « إذا لم يكن له دراهم ، وكان له عدلها » : ٥/٩٩ . وابن ماجه ، كتاب الزكاة ، باب « من سأل عن ظهر غنى » ، الحديث : ١٨٣٩ : ١/٥٨٩ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٢٤ ، ٥/٣٦٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « من يعطى الصدقة وحد الغنى » ، الحديث ١٦٣٣ : ٢/١١٨ . والنسائى ، كتاب الزكاة أيضا ، باب « مسألة القوى المكتسب » : ٥/٩٩ ، ١٠٠ .
(٧) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر . وقد وقع فى ترجمة « أبى بكر العبسى » فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم مختلط . ينظر : ٤/٢/٣٤١ .

وأما « المساكين » ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يجدُ غنًى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » .

رواه الشيخان (١) : البخاري ومسلم .

وأما « العاملون عليها » فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث : أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستعملهما على الصدقة ، فقال : « إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس(٢) » .

وأما « المؤلفة قلوبهم » فأقسام ، منهم من يعطى ليُسلم ، كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين ، وقد كان شهدها مشركا — قال : فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إلي ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا زكريا بن عدي ، أنا ابن المبارك ، عن يونس ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى [صار] وإنه لأحب الناس إلي (٣) .

ورواه مسلم والترمذي ، من حديث يونس ، عن الزهري ، به (٤) .

ومنهم من يُعطى ليحسُن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم : مائة من الإبل ، مائة من الإبل ، وقال : « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه ، مخافة أن يكبَّه الله على وجهه في نار جهنم (٥) » .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد : أن عليا بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذُهَيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعُيَينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال : أتألفهم (٦) .

---

(١) روياه في كتاب الزكاة ، ينظر البخاري ، باب قول الله تعالى : (لا يسألون الناس إلحافا) : ٢/١٥٤ ، ومسلم ، باب « المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه » : ٣/٩٥ .

(٢) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ترك استعمال آل النبي على الصدقة » : ٣/١١٨ ، ١١٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٦٥ ، وما بين القوسين عنه .

(٤) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا ، وكثرة عطائه » : ٧/٧٥ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الزكاة ، باب « ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم » ، الحديث ٦٦١ : ٣/٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٥) البخاري ، كتاب الزكاة ، باب قول الله تعالى : (لا يسألون الناس إلحافاً) : ٢/١٥٤ . ومسلم ، كتاب الزكاة أيضاً ، باب « إعطاء من يخاف على إيمانه » : ٣/١٠٤ .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) : ٤/١٦٦ ، ١٦٧ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ذكر الخوارج وصفاتهم » : ٣/١٠١ .

ومنهم من يُعطَى لما يرجى من إسلام نظرائه ؛ ومنهم من يَعطَى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حَوْزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع ، والله أعلم .

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيه خلاف ، فرُوى عن عمر ، وعامر الشّعبي وجماعة : أنهم لا يُعطَون بعده ، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ، ومكّن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد (١) .

وقال آخرون : بل يُعطَون ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هَوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم :

وأما « الرقاب » ، فرُوى عن الحسن البصرى ، ومقاتل بن حيان ، وعمر بن عبد العزيز ، وسعيد بن جُبَير ، والنخَعى ، والزهرى ، وابن زيد : أنهم المكاتَبون ، وروى عن أبي موسى الأشعرى نحوه ، وهو قول الشافعى والليث :

وقال ابن عباس ، والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ومالك ، وإسحاق ، أى : إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب ، أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالا . وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ، (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) :

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة حق على الله عونُهم : الغازى في سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » :

رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود (٢) :

وفى المسند عن البراء بن عازب قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ، دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويباعدنى عن النار . فقال : أعتق النَّسَمة وفك الرقبة . فقال : يا رسول الله ، أوليسا واحدا ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تُفرِد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها (٣) » :

وأما « الغارمون » فهم أقسام ، فمنهم من تحمّل حمالة (٤) أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله ، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب ، فهؤلاء يدفع إليهم . والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالى قال : تحملت حمالة ،

---

(١) ينظر الآثار في ذلك في تفسير الطبرى : ١٤/٣١٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٥١ ، ٤٣٧ . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل الجهاد ، باب « ما جاء في المجاهد ، والمكاتب والناكح وعون الله إياهم » ، الحديث ١٧٠٦ : ٥/٢٩٦ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » ، وابن ماجه ، كتاب العتق ، باب « المكاتب » ، الحديث ٢٥١٨ : ٢/٨٤١ ، ٨٤٢ . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب « معونة الله الناكح الذى يريد العفاف » : ٦/٦١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٩٩ .

(٤) الحمالة – بفتح الحاء – : ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة ، مثل أن يقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء ، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ، ليصلح ذات البين .

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها ، فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة : فنأمر لك بها : قال : ثم قال : يا قبيصة . إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك . ورجل أصابته جائحة (١) اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما (٢) من عيش " أو قال : سدادا من عيش " ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه ، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة(٣) فحلت له المسألة ، حتى يصيب قواما من عيش — أوقال: سدادا من عيش — فما سواهن من المسألة سحت(٤) يأكلها صاحبها سحتاً . رواه مسلم (٥).

وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها ، فكثر دينه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا عليه . فتصدق الناس ، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغرمائه : خذوا ما وجدتم ، وليس لكم إلا ذلك » : رواه مسلم (٦) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، أنبأنا صدقة بن موسى ، عن أبى عمران الجونى ، عن قيس بن زيد عن قاضى المصرين (٧) ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ، فيقول : يا ابن آدم ، فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب ، إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ، ولكن أتى على يدى إما حَرق وإما سَرق وإما وضيعة(٨) . فيقول الله : صدق عبدى ، أنا أحق من قضى عنك لليوم : فيدعو الله بشيء فيضعه فى كفّة ميزانه ، فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته(٩) :

وأما « فى سبيل الله » فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم فى الديوان ، وعند الإمام احمد ، والحسن ، وإسحاق : « والحج من سبيل الله » للحديث :

وكذلك « ابن السبيل » وهو المسافر المجتاز فى بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال : وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته فى ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية ، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحل الصدقة لغنىّ

(١) الجائحة : الآفة التى تهلك الثمار والأموال وتستأصلها ، وكل مصيبة عظيمة .

(٢) أى : أى يجد ما تقوم به حاجته . والسداد — بكسر السين — : ما يسد به حاجته .

(٣) أى : حتى يقوموا على رءوس الأشهاد قائلين : إن فلاناً أصابته فاقة. والمراد المبالغة فى ثبوت الفاقة . وذوو الحجا : ذوو العقل .

(٤) السحت : الحرام .

(٥) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « من تحل له المسألة » : ٣/ ٩٧ ، ٩٨ .

(٦) مسلم ، كتاب البيوع ، باب « استحباب الوضع من الدين » : ٥/ ٢٩ ، ٣٠ .

(٧) قاضى المصرين : هو شريح ، والمصران : البصرة والكوفة . ينظر مسند الإمام أحمد : ١/ ١٩٧ .

(٨) الوضيعة : الخسارة .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١/ ١٩٧ ، ١٩٨ .

إلا لخمسة : العامل عليها ، أو رجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز فى سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى (١) » :

وقد رواه السفيانان ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء مرسلا . ولأبى داود عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحل الصدقة لغنى إلا فى سبيل الله ، وابن السبيل ، أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك(٢) » .

وقوله : (فريضة من الله) اى حكما مقدرا بتقدير الله وفرضه وقسمه ، (والله عليم حكيم) ، أى : عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده،(حكيم) فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به،لا إله إلا هو،ولا رب سواه :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام فيه ويقولون : (هو أذن) ، أى : من قال له شيئا صدقه ، ومن حدثه فينا صدقه ، فاذا جئنا وحلفنا له صدقنا . روى معناه عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . قال الله تعالى : (قل أذن خير لكم) ، أى : هو أذن خير ، يعرف الصادق من الكاذب ، (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) ، أى : ويصدق المؤمنين ، (ورحمة للذين آمنوا منكم) ، أى : وهو حجة على الكافرين ، ولهذا قال : (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

قال قتادة فى قوله تعالى : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) ... الآية ، قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقا ، لهم شر من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت أشر من الحمار . قال : فسعى بها الرجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : ما حملك على الذى قلت ؟ فجعل يلتعن(٣) ، ويحلف بالله ما قال ذلك . وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله عز وجل : (يحلفون بالله ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) (٤) .

وقوله تعالى : (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها)، أى : ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله ، أى : شاقه وحاربه وخالفه ، وكان فى حد والله ورسوله فى حد (فأن له نار جهنم خالداً فيها) ، أى : مهاناً معذبا ، (ذلك الخزى العظيم) ، أى : وهذا هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير .

(١) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « من يجوز له أخذ الصدقة وهو غنى » ، الحديث ١٦٣٥ : ١١٩/٢ . وابن ماجه ، كتاب الزكاة أيضاً ، باب « من تحل له الصدقة » ، الحديث ١٨٤١ : ٥٨٩/١ ، ٥٩٠ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « من يجوز له أخذ الصدقة وهو غنى » ، الحديث ١٦٣٧ : ١١٩/٢ .

(٣) أى : يلعن نفسه .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٠٦ : ٣٢٩/١٤ ، ٣٣٠ .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ، ثم يقولون : « عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا (١) » :

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول . حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٢)) . وقال فى هذه الآية : (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) ، أى : إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ، ويبين له أموركم كما قال : (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) إلى قوله : (ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم (٣)) ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة « الفاضحة » ، فاضحة المنافقين (٤) .

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قال أبو معشر المديني ، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء . فرُفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب . فقال : (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) إلى قوله : (مجرمين) وإن رجليه لتنسفان (٥) الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متعلق بنسْعَة (٦) رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس : ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء ، أرغبَ بطونا ، ولا أكذبَ ألسُناً ، ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل فى المسجد : كذبتَ ، ولكنك منافق . لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن — قال عبد الله بن عمر : وأنا رأيته متعلقا حَقَب(٨) ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تَنْكُبُهُ (٩)

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٠٨ : ١٤/٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٢) سورة المجادلة ، آية : ٨ .

(٣) سورة محمد ، آية : ٢٩ ، ٣٠ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٠٩ : ١٤/٣٣٢ .

(٥) فى المخطوطة : « ليسفعان » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، والنسف : القلع ، وناقة نسوف : تنسف التراب فى عدوها . وتنسفان الحجارة : كناية عن عدوه وجريه .

(٦) النسعة — بكسر فسكون — : سير مضفور يجعل زماما للبعير .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩١٦ : ١٤/٣٣٥ .

(٨) الحقب — بفتح الحاء والقاف — : حبل يشد به الرحل فى بطن البعير .

(٩) نكبته الحجارة : لثمته ، أى نالته وآذته .

الحجارة ، وهو يقول : « يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون : لاتعتذروا قدكفرتم بعد إيمانكم (١))

وقد رواه الليث ، عن هشام بن سعد ، بنحو من هذا .

وقال ابن إسحاق : وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت ، أخو بنى آمية بن زيد ، من بنى عمرو ابن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له : مُخَشّن (٢) بن حُمَيّر يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر (٣) كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً مُقَرّنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين . فقال مُخَشّن (٤) بن حُمَيّر : والله لوَددتُ أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإنا نَنْفَلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — لعمار بن ياسر : أدرك القوم فانهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فان أنكروا فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا : فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه ، فقال وديعة ابن ثابت ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على راحلته ، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبها : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، [فأنزل الله عز وجل : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب)](٤) فقال مُخَشّن بن حُمَيّر يا رسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى : فكان الذى عُفِى عنه فى هذه الآية مخشن بن حُمَيّر ، فتسمى عبد الرحمن (٥) وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر (٦) :

وقال قتادة : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) ، قال : فبينما النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا : « يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها : هيهات هيهات » : فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فقال : عَلَىَّ بهؤلاء النفر : فدعاهم ، فقال : قلتم كذا وكذا : فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب(٧) .

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية : كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : « اللهم إنى أسمع آية أنا أعنَى بها ، تقشعر منها الجلود ، وتجِبُ (٨) منها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك ، لا يقول أحد : أنا غَسّلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت » : قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِد غيره (٩) .

وقوله : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ، أى : بهذا المقال الذى استهزأتم به (إن نعف عن طائفة منكم نعذب

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩١٢ : ١٤/٣٣٣ ، ٣٣٤ . وأثر الليث قبله .
(٢) قال ابن هشام فى السيرة : « ويقال : مخشى » . وينظر ترجمته فى أسد الغابة .
(٣) يعنى : الروم .
(٤) ما بين القوسين عن سيرة ابن هشام .
(٥) كذا وفى السيرة . وفى أسد الغابة : « وسأل النبى أن يغير اسمه ، فسماه عبد الله بن عبد الرحمن » .
(٦) سيرة ابن هشام : ٢/٥٢٤ ، ٥٢٥ . وينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩١٤ : ١٤/٣٣٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩١٥ : ١٤/٣٣٤ ، ٣٣٥ .
(٨) تجب : تضطرب .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩١٣ : ١٤/٣٣٤ .

طائفة) ، أى : لا يُعفَى عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضكم ، (بأنهم كانوا مجرمين) ، أى : مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان هؤلاء (يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) ، أى : عن الإنفاق فى سبيل الله ، (نسوا الله) ، أى : نسوا ذكر الله ، (فنسيهم) ، أى : عاملهم معاملة من نَسيهم ، كقوله تعالى : (وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا (١)) (إن المنافقين هم الفاسقون) ، أى : الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون فى طريق الضلالة .

وقوله : (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم) ، أى : على هذا الصنيع الذى ذُكر عنهم ، (خالدين فيها) أى : ماكثين فيها مخلدين ، هم والكفار ، (هى حسبهم) ، أى : كفايتهم فى العذاب ، (ولعنهم الله) ، أى : طردهم وأبعدهم ، (ولهم عذاب مقيم) :

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، (فاستمتعوا بخلاقهم) ـــ قال الحسن البصرى بدينهم(٢) ، (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا) ، أى : فى الكذب والباطل ، (أولئك حبطت أعمالهم) ، أى : بطلت مساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة (فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) ، لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب :

قال ابن جُرَيج عن عُمَر بن عطاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (كالذين من قبلكم) ... الآية ، قال ابن عباس : ما أشبه الليلة بالبارحة ، (كالذين من قبلكم) هؤلاء بنوا إسرائيل ، شبهنا بهم ، لا أعلم إلا أنه قال : « والذى نفسى بيده ، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضَبّ لدخلتموه (٣) » :

---

(١) سورة الجاثية ، آية : ٣٤ . وكان فى المخطوطة : « فاليوم ننساكم » وليست آية ، وآية الأعراف ٥١ هى : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٣٤ : ١٤/٣٤٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٣١ : ١٤/٣٤١ ، ٣٤٢ .

قال ابن جريج : وأخبرني زياد بن سعد ، عن محمد بن زيد بن مهاجر ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، وباعا بباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : فَمَه (١) » .

وهكذا رواه أبو معشر ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكره وزاد : قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم القرآن (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) — قال أبو هريرة : الخلاق الدين — (وخضتم كالذى خاضوا) — قالوا : يا رسول الله ، كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم (٢) » .

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل : (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم)، أي : ألم تُخبَروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل (قوم نوح) ، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ، (وعاد) كيف أهلكوا بالريح العقيم ، لما كذبوا هودا عليه السلام ، (وثمود) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة، (وقوم إبراهيم) كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ، (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة : (والمؤتفكات) : قوم لوط ، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى : (والمؤتفكة أهوى) (٣) ، أي : الأمة المؤتفكة ، وقيل : أم قراهم ، وهي « سدوم » . والغرض : أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

(أتتهم رسلهم بالبينات) ، أي : بالحجج والدلائل القاطعات ، (فما كان الله ليظلمهم) ، أي : بإهلاكه إياهم ؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أي : بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٩٣٢ : ٣٤٢/١٤ . و « مه » اسم استفهام ، أصلها « ما » ثم وقف عليها بالهاء .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٩٣٠ : ٣٤١/١٤ .

(٣) سورة النجم ، آية : ٥٣ .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة ، فقال : (بعضهم أولياء بعض) ، أي : يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء فى الصحيح : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »(١) ، وشبك بين أصابعه . وفى الصحيح أيضا : « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسّهر »(٢) » ؛

وقوله : (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، كما قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون(٣) ؛

وقوله تعالى : (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) ، أى : يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ، (ويطيعون الله ورسوله) ، أى : فيما أمر ، وترك ماعنه زجر ، (أولئك سيرحمهم الله) أى سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ، (إن الله عزيز حكيم) ، أى : عزيز ، من أطاعه أعزه ، فان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، (حكيم) فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء ، وتخصيصه ، المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فان له الحكمة فى جميع ما يفعله ، تبارك وتعالى ؛

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) ، اى : ماكثين فيها أبدا ، (ومساكن طيبة) ، أى : حسنة البناء ، طيبة القرار ، كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجَوْنى ، عن أبى بكر بن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عَدْن(٤) » ؛

---

(١) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره » : ١/١٢٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » : ٨/٢٠ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الناس والبهائم » : ٨/٩١ ، ١٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » : ٨/٢٠ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٤

(٤) البخارى ، تفسير سورة الرحمن : ٦/١٨١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى » : ١/١١٢ .

وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفة ، طولها ستون ميلا فى السماء ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم ، لا يرى بعضهم بعضا (١) » . أخرجاه .

وفى الصحيحين أيضا ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة وصام رمضان ، فان حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر فى سبيل الله ، أو جَلَس فى أرضه التى ولد فيها » قالوا : يا رسول الله ، أفلا نخبر الناس ؟ قال : إن فى الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه اعلى الجنة واوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » (٢) .

وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه ، من رواية زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... فذكر مثله (٣) .

وللترمذى ، عن عبادة بن الصامت ، مثله (٤) .

وعن أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة فى الجنة ، كما تراءون الكوكب فى السماء (٥) » . أخرجاه فى الصحيحين .

ثم ليعلم أن أعلى منزلةٍ فى الجنة مكانٌ يقال له « الوسيلة » لقربه من العرش ، وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صليتم علىّ فسلوا الله لى الوسيلة . قيل : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة فى الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو (٦) » .

وفى صحيح مسلم ، من حديث كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن جُبَير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ ، فانه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تَنْبَغى إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلّت عليه الشفاعة يوم القيامة (٧) » .

---

(١) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فى صفة خيام الجنة ، وما للمؤمنين فيها من الأهلية » : ١٤٨/٨ . والبخارى ، تفسير سورة الرحمن : ١٨٢/٦ .

(٢) البخارى ، كتاب التوحيد : ١٠٣/٩ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى صفة درجات الجنة » ، الحديث ٢٦٥٠ : ٢٣٥/٧ — ٢٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، والباب ، الحديث ٢٦٥١ : ٢٣٧/٧ .

(٥) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « صفة الجنة والنار » : ١٤٣/٨ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « تراءى أهل الجنة أهل الغرف ، كما يرى الكوكب فى السماء » : ١٤١/٨ ، ١٤٥ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٦٥/٢ .

(٧) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القول مثل قول المؤذن » : ٤/٢ . ولفظ مسلم : « حلت له الشفاعة » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن على الأبار ، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني ، حدثنا موسى ابن أعين ، عن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله لى الوسيلة ، فانه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا - أو شفيعا - يوم القيامة » .

وفى مسند الإمام احمد ، من حديث سعد أبي مجاهد الطائى ، عن أبي المدلّه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنة ذهب ، ولبنة فضة ، وملاطها (١) المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه (٢) » .

وروى اعن بن عمر مرفوعا ، نحوه .

وعند الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لغُرَفا يُرَى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها : فقام أعرابى فقال : يا رسول الله ، لمن هى ؟ فقال : لمن طيب (٣) الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام »

ثم قال : « حديث غريب (٤) » .

ورواه الطبرانى ، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعرى ، كلٌّ منهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه ، وكل من الاسنادين جيد حسن ، وعنده أن السائل هو « أبو مالك » فالله أعلم .

وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل مُشَمِّرٌ (٥) إلى الجنة ؟ فان الجنة لا خَطَرَ (٦) لها ، هى - وربِّ الكعبة - نور يتلألأ ، وريحانة تَهتزّ ، وقصر مَشِيد ، ونهر مُطَّرِد ، وثمرة نَضيجة ، وزوجة حسناء جَميلة ، وحُلَل كثيرة ، ومقام فى أبد (٧) ، فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحَبْرة (٨) ونعمة فى محلة عالية بهية . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها ، قال : قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله » رواه ابن ماجه (٩) .

وقوله تعالى : (ورضوان من الله أكبر) ، اى : رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما قال الإمام مالك رحمه الله ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخُدْرى رضى الله عنه أن رسول

---

(١) الملاط - بكسر الميم - : الطين الذى يجعل بين ساف البناء ، يملط به الحائط ، أى يخلط . والساف : كل صف اللبن ، بكسر الباء .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٠٤/٢ ، ٣٠٥ .

(٣) لفظ الترمذى - كما فى تحفة الأحوذى - : « لمن أطاب الكلام » .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى صفة غرف الجنة » ، الحديث ٢٦٤٧ : ٢٣١/٧ .

(٥) أى : هل فيكم ساع إلى الجنة غاية السعى ، طالب لها عن صدق ورغبة ؟ .

(٦) أى : لا مثل لها .

(٧) لفظ ابن ماجه : « فى مقام أبداً » .

(٨) الحبرة : النعمة وسعة العيش

(٩) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة الجنة » ، الحديث ٤٣٣٢ : ١٤٤٨/٢ ، ١٤٤٩ .

الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك ، والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا مالم تُعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب ، وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا (١) » أخرجاه من حديث مالك .

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي : حدثنا الفضل الرخامي ، حدثنا الفريابي ، عن سفيان ، عن محمد ابن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل : هل تشتهون شيئا فأزيدَكم ؟ قالوا : ياربنا ، ماخير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر » .

ورواه البزار في مسنده ، من حديث الثوري ؛ وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه « صفة الجنة » : هذا عندي على شرط الصحيح ، والله أعلم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة . وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف ، سيف للمشركين : (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) ، وسيف للكفار أهل الكتاب : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) ، وسيف للمنافقين : (جاهد الكفار والمنافقين) ، وسيف للبغاة : (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) .

وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير (٢) .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين) قال : بيده ، [فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه](٣) فان لم يستطع فليكفهر في وجهه (٤) .

(١) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « صفة الجنة والنار » : ٨/١٤٢ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً » : ٨/١٤٤ .

(٢) تفسير الطبري : ١٤/٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٣) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، أثبتناه عن تفسير الطبري ، وهو سقط نظر .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٩٦١ : ١٤/٣٥٨ .

وقال ابن عباس : أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ، وأذهب الرفق عنهم(١) .

وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف ، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم(٢). وعن مقاتل، والربيع مثله .

وقال الحسن وقتادة : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم .

وقد يقال : إنه لا منافاة بين هذه الأقوال ، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا ، وتارة بهذا بحسب الأحوال ، والله أعلم .

وقوله : (يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم) ، قال قتادة : نزلت في عبد الله ابن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جُهَنِي وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار : ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : « سمِّن كلبك يأكلك » ، وقال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل) : فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية(٣) .

وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ، عن عمه موسى بن عقبة قال : فحدثني عبد الله بن الفضل ، أنه سمع أنس ابن مالك رضي الله عنه يقول : حزنت على من أصيب بالحَرَّة(٤) من قومي ، فكتب إلى زيد بن أرقم ، وبلغه شدة حزني ، يذكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار — وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار — قال ابن الفضل : فسأل أنساً بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم ، فقال : هو الذي يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوفى الله له بأذنه : (٥) وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول — ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب — : لئن كان هذا صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ، ولأنت شر من الحمار : ثم رُفِع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجَحَده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد — يعني قوله : (يحلفون بالله ما قالوا) الآية .

رواه البخاري في صحيحه ، عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة : إلى قوله : « هذا الذي أوفى الله له بأذنه » (٦) : ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة ، وقد رواه محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال : « قال ابن شهاب . فذكر ما بعده عن موسى ، عن ابن شهاب .

والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق ، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية ، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٩٦٢ : ١٤/٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٩٦٤ : ١٤/٣٥٩ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثران ١٦٩٧٤ ، ١٦٩٧٥ : ١٤/٣٦٤ .

(٤) كانت وقعة « الحرة » سنة ثلاث وستين ، وهي « حرة واقم » تقع بظاهر المدينة ، وذلك أن أهل المدينة خرجوا على يزيد لقلة دينه . فجهز لحربهم جيشاً ، فالتقوا بهذا المكان في ذي الحجة ، فقتل من أولاد المهاجرين والأنصار ٣٠٦ أنفس ، كما قتل بعض الصحابة . (العبر للذهبي : ١/٦٧ ، ٦٨) .

(٥) أي : أظهر الله صدقه في إخباره عما سمعت أذنه .

(٦) البخاري ، تفسير سورة « المنافقون » : ٦/١٩٢ .

[حاشية]

قال « الأموى » فى مغازيه : حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، عن جده قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذنى قومى فقالوا : إنك امرؤ شاعر ، فان شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض العلة ، ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه .. وذكر الحديث بطوله ، إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ، ونزل فيه القرآن منهم ، ممن كان مع النبى صلى الله عليه وسلم : الجلاس بن سويد بن الصامت ، وكان على أم عُمَير بن سعد ، وكان عمير فى حجره ، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل فى المنافقين ، قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير . فسمعها عُمَير بن سعد فقال : والله ــ يا جلاس ــ إنك لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزهم على أن يصله شىء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لتفضحنَّك(١) ولئن كتمتها لتهلكنى ، ولإحداهما أهون على من الأخرى : فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ماقال الجلاس : فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فحلف بالله ماقال ماقال عمير بن سعد ، ولقد كذب على : فأنزل الله عز وجل فيه : (يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم) ، إلى آخر الآية : فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها . فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ، ونزع فأحسن النزوع (٢) : هكذا جاء هذا « مدرجا » (٣) فى الحديث متصلا به ، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه ، لا من كلام كعب بن مالك :

وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية فى الجُلاس بن سويد بن الصامت ، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التى نحن عليها . فقال مُصعب : أما والله ــ يا عدو الله ــ لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وخفت أن ينزل فى القرآن ، أو تصيبنى قارعة ، أو أن أخلط بخطيئته ، فقلت : يا رسول الله ، أقبلت أنا والجلاس من قباء ، فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك . قال : فدعا الجلاس فقال : يا جلاس ، أقلت الذى قاله مصعب ؟ فحلف ، فأنزل الله : (يحلفون بالله ما قالوا) ... ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم الآية (٤) .

---

(١) فى المخطوطة : « لتفضحنى » . والصواب ما أثبتناه ، ولفظ سيرة ابن هشام ١/٥١٩ : « لئن رفعتها عليك لأفضحنك » . وينظر ترجمة « الجلاس » فى أسد الغابة : ١/٣٤٧ بتحقيقنا .

(٢) ينظر سيرة ابن هشام : ١/٥١٩ ، ٥٢٠ .

(٣) المدرج ــ بضم الميم ، وفتح الراء ــ أقسام ، منها : أحدها مدرج فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يذكر الراوى عقيبه كلاما لنفسه أو لغيره ، فيرويه من بعده متصلا بالحديث من غير فصل ، فيتوهم أنه من الحديث . والثانى : أن يكون عنده متنان بإسنادين ، فيرويهما بأحدهما . والثالث : أن يسمع حديثا من جماعة مختلفين فى إسناده أو متنه ، فيرويه عنهم باتفاق ، ولا يبين ما اختلف فيه . وقد قال المحدثون : تعمد كل واحد من الثلاثة حرام ، وصاحبه ممن يحرف الكلم عن مواضعه ، وهو ملحق بالكذابين . إلا ما كان لتفسير غريب فلا يمنع ، وقد فعله الزهرى وغير واحد من الأئمة .

والمدرج الذى عناه ابن كثير هنا هو من القسم الأول .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٦٨ : ١٤/٣٦٢ .

وقال محمد بن إسحاق : كان الذى قال تلك المقالة — فيما بلغنى — الجلاس بن سويد بن الصامت ، فرفعها عليه رجل كان فى حجره ، يقال له : عمير بن سعيد(١) ، فأنكرها ، فحلف بالله ما قالها . فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته ، فيما بلغنى (٢) .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنى أيوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة ، فقال : انه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى الشيطان ، فاذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق (٣) ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ . فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، حتى تجاوز عنهم ، فأنزل الله عز وجل : (يحلفون بالله ما قالوا) ... الآية(٤) .

وقوله : (وهموا بما لم ينالوا) ، قيل : نزلت فى الجلاس ، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال : لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : فى عبد الله بن أبى ، هم بقتل النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال السدى : نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى ، وإن لم يرض رسول الله .

وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى غزوة تبوك ، فى بعض تلك الليالى ، فى حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلا — قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية .

وذلك بيّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب « دلائل النبوة » من حديث محمد بن إسحاق ، عن الأعمش عن عمرو بن مُرة ، عن [أبى] البَختَرى ، عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به ، وعمار يسوق الناقة — أو أنا : أسوقه ، وعمار يقوده — حتى إذا كنا بالعقبة فاذا أنا باثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم [بهم] فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا ، يا رسول الله ، قد كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله فى العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول الله ، أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى [إذا] أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدُّبَيْلَة . قلنا : يا رسول الله ، وما الدُّبَيْلَة ؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك (٥) .

---

(١) كذا فى المخطوطة : « سعيد » . ومثله فى تفسير الطبرى ، وقد تقدم : « عمير بن سعد » . وقد ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة الخلاف فى اسمه .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٦٩ : ١٤/٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٣) يعنى أزرق العين ، والزرقة : خضرة فى سواد العين . وقيل أن يتغشى سوادها بياض . وكانت العرب تتشاءم بالأزرق .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٧٣ : ١٤/٣٦٣ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٧ حديث ، الجزء السادس ، ورقة ١٧٩ .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يزيد ، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جُمَيع ، عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، أمر مناديا فنادى : « إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد » ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوقه عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة : « قد ، قد » (١)حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [فلما هبط] نزل ورجع عمار ، فقال : ياعمار ، هل عرفت القوم ؟ : فقال : قد عرفت عامة الرواحل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدرى ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيطرحوه . قال : فسار (٢) عمار رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر . فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعذر(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادى رسول الله ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد(٤) .

وهكذا روى ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة بن الزبير نحو هذا ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يمشى الناس في بطن الوادى ، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة ، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون ، وهم متلثمون ، فأرادوا سلوك العقبة ، فأطلع الله على مرادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر حذيفة فرجع إليهم ، فضرب وجوه رواحلهم ، ففزعوا ورجعوا مقبوحين (٥) ، وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة وعمارا بأسمائهم ، وما كانوا هموا به من الفتك به ، ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأمرهما أن يكتما عليهم (٦) .

وكذلك روى يونس بن بُكَير ، عن ابن إسحاق ، إلا أنه سَمَّى جماعة منهم ، فالله أعلم . (٧) .

وكذا قد حكى في معجم الطبراني ، قاله البيهقى . ويشهد لهذه القصة بالصحة ، ما رواه مسلم :

حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا أبو أحمد الكوفى ، حدثنا الوليد بن جميع ، حدثنا أبو الطفيل قال : كان [بين] رجل من أهل العقبة [وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله ، كم كان أصحاب العقبة] ، قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك . قال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فان كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادى رسول الله

---

(١) أى : حسبك .
(٢) فى المسند : « فساب » .
(٣) فى المسند : « فعذر » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٥٣ ، ٤٥٤ .
(٥) فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب « ١ » تفسير : « منوخين » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٦) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٧ ، الجزء السادس ، ورقة : ١٦٧ ، ١٦٨
(٧) المرجع السابق ، ورقة : ١٦٨ - ١٧٠ .

صلى الله عليه وسلم ، ولا علمنا بما أراد القوم ؛ وقد كان فى حرة فمشى فقال : إن الماء قليل ، فلا يسبقنى إليه أحد ، فوجد قوما قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ [١] ؛

وما رواه مسلم أيضا ، من حديث قتادة ، عن أبى نضرة ، عن قيس بن عباد ، عن عمار بن ياسر قال : أخبرنى حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فى أصحابى اثنا عشر منافقا ، لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها حتى يلج [الجمل] فى سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة : سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » [٢]

ولهذا كان حذيفة يقال له « صاحب السر — الذى لا يعلمه غيره » ؛ أى : من تعيين جماعة من المنافقين ، وهم هؤلاء ، قد أطلعه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره ، والله أعلم ؛

وقد ترجم الطبرانى فى مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ، ثم روى عن على بن عبد العزيز ، عن الزبير بن بكار أنه قال : هم مُعَتِّب ، [٣] بن قشير ووديعة بن ثابت ، وجد بن عبد الله بن نبتل [٤] بن الحارث من بنى عمرو بن عوف ، والحارث بن يزيد الطائى ، وأوس بن قيظى ، والحارث بن سويد ، وسعد بن زرارة [٥] ، وقيس بن فهد ، وسويد وداعس من بنى الحبلى ، وقيس بن عمرو بن سهل ، وزيد بن اللصيت ، وسلالة بن الحمام ، وهما من بنى قينقاع أظهرا الإسلام .

وقوله : (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) ، أى : وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به ، كما قال عليه السلام للأنصار : « ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمَنّ » [٦] ؛

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ، وكما قال عليه السلام ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله [٧] ؛

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال : (فإن يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة) ، أى : وإن يستمروا على طريقهم (يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا) ، أى : بالقتل والهم والغم ، (والآخرة) ، أى : بالعذاب والنكال والهوان والصغار ، (وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير) ، أى : وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ، ولا يحصل لهم خيرا ، ولا يدفع عنهم شراً ؛

---

(١) مسلم ، كتاب صفات المنافقين : ١٢٣/٨ .

(٢) مسلم ، الكتاب المتقدم : ٨/١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣) كذا فى الطبعات السابقة ، وفى مخطوطة الأزهر ودار الكتب : « معتب بن قير » .

(٤) كذا فى الطبقات ، وفى المخطوطتين السابقتين : « نبيل » .

(٥) كذا فى الطبعات السابقة ، وفى المخطوطتين : « سعد بن وراه » .

(٦) مضى تخريج هذا الحديث فى : ٤/٢٨ .

(٧) البخارى ، كتاب الزكاة ، باب قول الله تعالى : (وفى الرقاب وفى سبيل الله) : ٢/١٥١ ، ومسلم ، كتاب الزكاة أيضاً ، باب « فى تقديم الزكاة ومنعها » : ٣/٦٨ .

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه : لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله ، وليكونن من الصالحين . فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة ، عياذا بالله من ذلك .

وقد ذكر كثير من المفسرين ، منهم ابن عباس ، والحسن البصرى : أن سبب نزول هذه الآية الكريمة فى « ثعلبة ابن حاطب الأنصارى » .

وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير هاهنا وابن أبى حاتم ، من حديث معان بن رفاعة ، عن على بن يزيد ، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن ، مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية ، عن أبى أمامة الباهلى ، عن ثعلبة ابن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يرزقنى مالا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ، فو الذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت . قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا . قال : فاتخذ غنما ، فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ، ويترك ما سواهما ؛ ثم نمت وكثرت ، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة . فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ، يسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة . فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة . وأنزل الله جل ثناؤه : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ... الآية — قال : ونزلت عليه فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة : رجلا من جهينة ، ورجلا من سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ، وقال لهما : « مرا بثعلبة ، وبفلان — رجل من بنى سليم — فخذا صدقاتهما . فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، واقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماهذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية . ما أدرى ما هذا . انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى . فانطلقا وسمع بهما السلمى ، فنظر إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها . فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك . قال : بلى ، فخذوها فان نفسى بذلك طيبة ، وإنما هى له (١) . فأخذوها منه . فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة ، فقال : أرونى كتابكما . فنظر فيه ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى أرى رأيى .

(١) فى تفسير الطبرى : « وإنما هى لى » .

فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآهما قال : يا ويح ثعلبة ، قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمي ، فأنزل الله عز وجل : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) إلى قوله : (وبما كانوا يكذبون) — قال : وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : [هذا] عملك ، قد أمرتك فلم تطعني ، فلما أبى أن يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله ، وموضعي من الأنصار ، فأقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ! فقبض ولم يقبلها ثم ولى عثمان رضى الله عنه [فأتاه] فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ، وأنا أقبلها منك فلم يقبلها منه وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان (١) .

وقوله تعالى : (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) ، أى : أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما جاء فى الصحيح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان (٢) . وله شواهد كثيرة ، والله أعلم .

وقوله : (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) ، يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه [إن] حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فانه أعلم بهم من أنفسهم ، لأنه تعالى علام الغيوب ، أى : يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وهذه أيضا من صفات المنافقين : لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، كما قال البخارى :

حدثنا عبيد الله بن سعيد ، حدثنا أبو النعمان البصرى ، حدثنا شعبة ، عن سليمان ، عن أبى وائل ، عن أبى مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل (٣) على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : « مرائى » ، وجاء رجل

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٩٨٧ : ١٤/٣٧٠ — ٣٧٢ .

(٢) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « علامة المنافق » : ١/١٥ ، مسلم كتاب الإيمان أيضاً ، باب « بيان خصال المنافق » : ١/٥٦ .

(٣) نتكلف الحمل بالأجرة لنكتسب ما نتصدق به . و « نتحامل » هذه رواية البخارى فى كتاب التفسير . وأما فى كتاب الزكاة فهى : « نحامل » .

فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، فنزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم(١) الآية .

وقد رواه مسلم أيضا فى صحيحه ، من حديث شعبة ، (٢) به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد، حدثنا الجريرى، عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال : حدثنى أبي ــ أو : عمى ــ أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع ، وهو يقول : من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة ؟ قال : فحللت من عمامتى لوثا أو لوثين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركنى ما يدرك ابن آدم ، فعقدت على عمامتى . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد سوادا [ولا] أقصر قمة(٣)، ولا أدمَ بعير منه [يقود ناقة](٤) ، لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، أصدقة ؟ . قال : نعم . فقال : دونك هذه الناقة . قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه : فو الله لهى خير منه : قال : فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كذبت . بل هو خير منك ومنها ــ ثلاث مرات ــ ثم قال : ويل لأصحاب المئين من الإبل ــ ثلاثا ــ قالوا : الا من يا رسول الله ؟ قال : [إلا من قال] (٥) بالمال هكذا وهكذا، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ، ثم قال : قد أفلح المزهد المجهد(٦) ــ ثلاثا ــ المزهد فى العيش ، المجهد فى العبادة(٧) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية ، قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء : وقالوا : إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع (٨) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : إن رسول الله خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم : أن اجمعوا صدقاتكم : فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا صاع من تمر [بت ليلتى أجر بالجرير الماء(٩) ، حتى نلت صاعين من تمر] فأمسكت أحدهما ، وأتيتك بالآخر . فأمره رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخارى ، كتاب الزكاة ، باب « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... » : ٢ / ١٣٦ . وأخرجه البخارى من وجه آخر فى تفسير سورة التوبة : ٦ / ٨٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحمل بأجرة يتصدق بها ، والنهى عن تنقيص المتصدق بقليل ٣ / ٨٨ .

(٣) فى المخطوطة : « أشد سواداً أصغر منه » . وفى المسند : « أصغر منه » . والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠١٥ : ١٤ / ٣٩٠ . ولفظه : « لا أرى بالبقيع رجلا أقصر قمة ، ولا أشد سواداً » . والقمة : القامة .

(٤) فى المخطوطة : « ولا أدم » بيمير ساقه » . وفى المسند : « يعير بناقة » والمثبت من المرجع السابق . وما بين القوسين منه . « وأدم » من « الدمامة » وهى القبح .

(٥) قال بالمال هكذا : يعنى تصدق به ، فالعرب تطلق القول على جميع الأفعال .

(٦) المزهد ــ بضم الميم وكسر الزاى ــ : القليل الشىء . والمجهد ــ بهذا الضبط أيضا ــ : ذو الجهد والمشقة .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٣٤ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٠٣ : ١٤ / ٣٨٢ .

(٩) الجرير : الحبل . وأراد أنه كان يستقى الماء بالحبل .

وسلم أن ينثره فى الصدقات ، فسخر منه رجال ، وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا ، وما يصنعان بصاعك من شيء . ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال [لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بقى أحد من أهل الصدقات ؟ فقال لا فقال له عبد الرحمن بن عوف : فان] عندى مائة أوقية من ذهب فى الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أمجنون أنت ؟ قال : ليس بى جنون : قال : فعلت ما فعلت ؟ قال : [نعم] ، مالى ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف فأقرضها ربى ، وأما أربعة آلاف فلى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، ولمزه المنافقون فقالوا : « والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء » ، وهم كاذبون ، إنما كان به متطوعا ، فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذى جاء بالصاع من التمر ، فقال تعالى فى كتابه : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات (١) ... الآية .

وكذا روى عن مجاهد ، وغير واحد .

وقال ابن إسحاق : كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات : عبد الرحمن بن عوف ، تصدق بأربعة آلاف درهم(٢) وعاصم بن عدى أخا بنى العجلان ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغب فى الصدقات ، وحض عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما وقالوا : ماهذا إلا رياء . وكان الذى تصدق بجهده : أبو عقيل أخو بنى أنيف الإراشى حليف بنى عمرو بن عوف ، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة ، فتضاحكوا به وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل(٣) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا ، فإنى أريد أن أبعث بعثا ، قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ، عندى أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما ربى ، وألفين لعيالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت ، وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله ، أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربى ، وصاع لعيالى . قال : فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء ! وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) ... الآية .

ثم رواه عن أبى كامل ، عن أبى عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه مرسلا — قال : ولم يسنده أحد إلا طالوت .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا زيد بن الحباب ، عن موسى بن عبيدة ، حدثنى خالد ابن يسار ، عن ابن أبى عقيل ، عن أبيه قال : بت أجرّ الجرير على ظهرى ، على صاعين من تمر ، فانقلبت بأحدهما إلى أهلى يتبلّغون به ، وجئت بالآخر أتقرب [به] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر فى ١٧٠٠٤ : ١٤ / ٣٨٣ .

(٢) فى تفسير الطبرى : « بأربعة آلاف دينار » . على أنه بعد ذلك فى خلال الأثر قال : « فتصدق بأربعة آلاف درهم » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠١٢ : ١٤ / ٣٨٧ .

فأحبرته ، فقال : اثره في الصدقة . قال : فسخر القوم وقالوا : لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين ، فأنزل الله : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) ... الآيتين (١) .

وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب ، به . وقال : « اسم [أبي] عقيل حَبْحاب (٢) ، ويقال : عبد الرحمن (٣) بن عبد الله بن ثعلبة

وقوله : (فيسخرون منهم سخر الله منهم) ، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر بهم ، انتصارا للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً .

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء المنافقين ليسوا [أهلا] للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم ، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم .

وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم ، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ، ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقيل : بل لها مفهوم ، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : أسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ، لعل الله أن يغفر لهم ! فقال الله من شدة غضبه عليهم : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (٤)) .

وقال الشعبي : لما ثَقُل عبد الله بن أبيّ ، انطلق ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبي قد احتضر ، فأحب أن تشهده وتصلي عليه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما اسمك . قال الحباب بن عبد الله . قال : بل أنت عبد الله ابن عبد الله ، إن الحباب اسم شيطان . قال فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق ، وصلى عليه ، فقيل له : أتصلي عليه [وهو منافق] ؟ قال : إن الله قال : (إن تستغفر لهم سبعين مرة) ، ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين .

وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبر ، وقتادة بن دعامة . رواها ابن جرير بأسانيده (٥) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٠١٤ : ١٤ / ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
(٢) في المخطوطة : « حباب » . وينظر ترجمة حبحاب في أسد الغابة ١ / ٤٣٨ بتحقيقنا .
(٣) ينظر أسد الغابة : ٣ / ٤٦٦ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٠٣٠ : ١٤ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ .
(٥) ينظر تفسير الطبري : ١٤ / ٣٩٥ - ٣٩٧ .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ، (وكرهوا أن يجاهدوا) معه (بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا) ، أى : بعضهم لبعض : (لا تنفروا فى الحر) . وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، فلهذا قالوا : (لا تنفروا فى الحر) ، قال الله تعالى لرسوله : (قل) لهم : (نار جهنم) التى تصيرون إليها بسبب مخالفتكم (أشد حرا) مما فررتم منه من الحر ، بل أشد حرا من النار ، كما قال الإمام مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «نار بنى آدم التى يوقدون بها جزء من سبعين جزءا [من نار جهنم : فقالوا : يارسول الله ، إن كانت لكافية ، قال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا] (١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل [الله] فيها منفعة لأحد (٢) » . وهذا أيضا إسناده صحيح :

وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه ، عن عباس الدورى ، عن يحيى بن أبى بكير ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء كالليل المظلم » . ثم قال الترمذى : لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى (٣)

كذا قال . وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد ، عن محمد بن الحسين بن مكرم ، عن عبيد الله بن سعد ، عن عمه ، عن شريك – وهو ابن عبد الله النخعى – به . وروى أيضا ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة ، عن ثابت ، عن أنس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (نارا وقودها الناس والحجارة) ، قال : « أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى احمرت . وألف عام حتى اسودت ، فهى سوداء كالليل لا يضىء لهبها .

---

(١) الموطأ ، كتاب جهنم ، باب « ما جاء فى صفة جهنم » : ٢ / ٩٩٤ . والبخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة النار وأنها مخلوقة » : ٤ / ١٤٧ . وما بين القوسين سقط من المخطوطة أثبتناه من الموطأ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٢٤٤ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة جهنم ، الحديث ٢٧١٧ ، ٢٧١٨ : ٧ / ٣١٦ ، ٣١٧ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة النار » ، الحديث ٤٣٢٠ : ٢ / ١٤٤٥ .

وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث تمام بن نجيح ـ وقد اختلف فيه ـ عن الحسن ، عن أنس مرفوعاً لو أن شرارة بالمشرق ـ أى من نار جهنم ـ لوجد حرها مَن بالمغرب » .

وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبى إسرائيل ، عن أبى عبيدة الحداد ، عن هشام بن حسام ، عن محمد بن شبيب ، عن جعفر بن أبى وحشية ، عن سعيد بن جُبير ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون ، وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه ، لاحترق المسجد ومن فيه » : غريب .

وقال الأعمش عن أبى إسحاق ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار ، يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ، لا يرى أن أحدا من أهل النار أشدُّ عذابا منه ، وإنه أهونهم عذابا » : أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث الأعمش (١) .

وقال مسلم أيضا : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا يحيى بن أبى بُكَير ، حدثنا زهير بن محمد ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن النعمان بن أبى عياش ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار ، يغلى دماغه من حرارة نعليه (٢) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن ابن عجلان ، سمعت أبى ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه (٣) » .

وهذا إسناد جيد قوى ، رجاله على شرط مسلم ، والله أعلم .

والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة ، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز : (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) (٤)، وقال تعالى : (يصب من فوق رءوسهم الحميم : يصهر به ما فى بطونهم والجلود : ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) (٥)، وقال تعالى : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) (٦) .

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : (قل: نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون)، أى: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر، ليتقوا به من حرّ جهنم ، الذى هو أضعاف أضعاف هذا ، ولكنهم كما قال الآخر (٧) :

« كالمستجير من الرمضاء بالنار »

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أهون أهل النار عذابا » : ١/ ١٣٥ ، ١٣٦ . والذى أمامنا فى البخارى الآن رواية « شعبة » و « إسرائيل » عن أبى إسحاق . ينظر كتاب الرقاق ، باب « صفة الجنة والنار » : ٨/ ١٤٤

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أهون أهل النار عذابا » : ١ / ١٣٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٤٣٨ ، ٤٣٩ . وينظر أيضا : ٢ / ٤٣٢ .

(٤) سورة المعارج ، آية : ١٥ ، ١٦ .

(٥) سورة الحج ، الآيات : ١٩ – ٢٢ .

(٦) سورة النساء ، آية : ٥٦ .

(٧) صدره : والمستجير بعمرو عند كربته .

وقال الآخر :

عُمركَ بالحميةِ أفنيتَه مخافةَ البارد والحار
وكانَ أولَى بك أنْ تتقى من المعاصى حذرَ النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا : (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) .

قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الدنيا قليل ، فليضحكوا [فيها] ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل ، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً . وكذا قال أبو رزين ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن خُثَيم ، وعون العقيلي ، وزيد بن أسلم(١) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش ، حدثنا محمد بن جبر(٢) ، عن ابن المبارك ، عن عمران بن زيد ، حدثنا يزيد الرّقاشي ، عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس ، ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل [الدماء] فتقرح العيون ، فلو أن سفُناً أزْجيتْ فيها لجرَت » . (٣)

ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش ، عن يزيد الرقاشي ، به (٤) .

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن العباس ، حدثنا حماد الجزرى ، عن زيد بن رفيع ، رفعه قال : إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ، ثم بكوا القيح زماناً — قال : فتقول لهم الخزَنة : يامعشر الأشقياء ، تركتم البكاء فى الدار المرحوم فيها أهلها فى الدنيا ، هل تجدون اليوم من تستغيثون به ؟ قال : فيرفعون أصواتهم : يا أهل الجنة ، يامعشر الآباء والأمهات والأولاد ، خرجنا من القبور عطاشاً ، وكنا طول الموقف عطاشاً ، ونحن اليوم عطاش ، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعُون أربعين سنة لا يجيبهم ، ثم يجيبهم : (إنكم ماكثون) ، فييأسون من كل خير » .

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام : (فإن رجعك الله) ، أى : ردك الله من غزوتك هذه (إلى طائفة منهم) — قال قتادة : ذُكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا ، (فاستأذنوك للخروج) ، أى : معك إلى غزوة أخرى ، (فقل : لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا) ، [أى : تعزيراً لهم وعقوبة . ثم علل ذلك بقوله] : (إنكم

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٤ / ٤٠١ — ٤٠٣ .

(٢) كذا فى المخطوطة ، ولا ندرى من « محمد بن جبر » هذا ؟

(٣) يقال : رجاه ، وزجاه — بتضعيف العين — وأزجاه : ساقه .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة النار » ، الحديث ٤٣٢٤ : ٢ / ١٤٤٦ .

وضيتم بالقعود أول مرة) ، وهذا كقوله تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)(١) ، فإن من جزاء السيئة السيئةَ بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كما قال في عُمرة الحديبية : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل (٢)،

وقوله تعالى : (فاقعدوا مع الخالفين) ــ قال ابن عباس : أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ، وقال قتادة : (فاقعدوا مع الخالفين) ، أى : مع النساء .

قال ابن جرير : وهذا لا يستقيم ، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ، ولو أريد النساء لقال : فاقعدوا مع الخوالف ، أو الخالفات ، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما (٣) .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ، لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا عليه ، وهذا حكم عام في كل من عُرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في ، عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ، رأس المنافقين ، كما قال البخارى :

حدثنا عبيد بن إسماعيل ، عن أبي أسامة ، عن عُبَيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله ــ هو ابن أبيّ ــ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيرني الله فقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، وسأزيده على السبعين ، قال : إنه منافق ! قال : فصلى عليه [رسولُ الله صلى الله عليه وسلم] فأنزل الله عز وجل آية (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) (٤) .

وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة ، به (٥) .

ثم رواه البخارى عن إبراهيم بن المنذر ، عن أنس بن عياض ، عن عبيد الله ــ وهو ابن عمر العمرى ــ به وقال : فصلى عليه ، وصلينا معه ، وأنزل الله : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً) ... الآية (٦) .

وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن عبيد الله ، به (٧) .

(١) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .
(٢) سورة الفتح ، آية : ١٥ .
(٣) ينظر الآثار وقول ابن جرير في تفسيره : ١٤ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة براءة : ٦ / ٨٥ .
(٥) مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : ٨ / ١٢٠ .
(٦) البخارى ، تفسير سورة براءة : ٦ / ٨٦ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢ / ١٨ .

وقد رُوى من حديث عمرَ بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن إسحاق ، حدثنى الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما تُوفى عبد الله بن [أُبَىّ دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمت فى صدره ، فقلت : يارسول الله ، أعلى عدوّ الله عبد الله بن (١)] أُبىّ القائل يوم كذا كذا وكذا — يُعدِّد أيامه — قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم، حتى إذا أكثرتُ عليه قال : أخِّرْ عنى ياعمر ، إنى خُيِّرت فاخترتُ ، قد قيل لى : (استغفرلهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفِر له لزدت. قال : ثم صلى عليه ، ومشى معه ، وقام على قبره حتى فُرِغ منه — قال : فعَجَبٌ لى وجرَاءتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم ! قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون) : فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عز وجل(٢) :

وهكذا رواه الترمذى فى « التفسير » من حديث محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، به — وقال : حسن صحيح(٣) ؛ ورواه البخارى عن يحيى بن بُكَير ، عن الليث ، عن عُقَيل ، عن الزهرى ، به — فذكر مثله وقال : أخِّر عنى يا عمر : فلما أكثرت عليه قال: إنى خُيِّرت فاخترتُ ، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يُغْفَر له لزدت عليها ؛ قال : فصلى عليه رسول الله ثم انصرف ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) ... الآية ، فعجبتُ بعد من جُرْأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عُبَيد ، حدثنا عبد الملك ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أُبىّ ، أتى ابنه النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنك إن لم تأته لم نزل نُعيَّر بهذا : فأتاه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فوجده قد أدخل فى حفرته ،فقال : أفلا قبل أن تدخلوه ! فأُخرِجَ من حُفرته ، وتفَل عليه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه(٥) :

ورواه النسائى ، عن أبى داود الحرانى ، عن يعلى بن عبيد ، عن عبد الملك — وهو ابن أبى سليمان — به .
وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن عثمان ، أخبرنا ابن عُيَيْنة ، عن عمرو ، سمع جابر بن عبد الله قال :

---

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ١٦ .
(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة براءة ، الحديث ٥٠٩٥ : ٨ / ٤٩٥ — ٤٩٩ . ولفظ الترمذى : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .
(٤) البخارى ، تفسير سورة براءة : ٦ / ٨٥ ، ٨٦ . ولفظ البخارى : « والله ورسوله أعلم » .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٣٧١ .

« أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن أبيّ بعد ما أدخل فى قبره ، فأمر به فأخرج ، ووَضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه ، والله أعلم » (١) .

وقد رواه أيضاً فى غير موضع مع مسلم والنسائى ، من غير وجه ، عن سفيان بن عيينة به (٢) .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا يحيى ، حدثنا مجالد ، حدثنا عامر ، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى ، حدثنا مجالد ، عن الشعبى ، عن جابر قال : مات رأس المنافقين ــ قال يحيى بن سعيد : بالمدينة ــ فأوصى أن يُصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك ــ وهذا الكلام فى حديث عبد الرحمن بن مغراء ــ قال يحيى فى حديثه : فصلى عليه ، وألبسه قميصه ، فأنزل الله تعالى : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) ــ وزاد عبد الرحمن : وخلع النبى صلى الله عليه وسلم قميصه ، فأعطاه إياه ، ومشى فصلى عليه ، وقام على قبره ، فأتاه جبريل عليه السلام لما ولى قاله : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) وهذا إسناد لا بأس به ، وما قبله شاهد له .

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى : حدثنا [أحمد بن إسحاق ، حدثنا] أبو أحمد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن يزيد الرقاشى ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يصلى على عبد الله بن أبيّ ، فأخذ جبريل بثوبه وقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره)(٣) .

ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده ، من حديث يزيد الرقاشى ، وهو ضعيف .

وقال قتادة : أرسل عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ، فلما دخل عليه قال له النبى صلى الله عليه وسلم : أهلكك حبّ يهود » قال : يارسول الله ، إنما أرسلتُ إليك لتستغفر لى ، ولم أرسل إليك لتؤنبنى ! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفَّن فيه أباه ، فأعطاه إياه ، وصلى عليه ، وقام على قبره ، فأنزل الله عز وجل : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) (٤) .

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه ، لأن عبد الله بن أبيّ لما قدم العباس طُلب له قميص ، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبيّ ، لأنه كان ضخماً طويلا ، ففعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مكافأة له ، فالله أعلم » ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ، ولا يقوم على قبره ، كما قال الإمام أحمد :

---

(١) البخارى ، كتاب اللباس ، باب « لبس القميص » : ٢ / ١٨٥ ـ وقد رواه البخارى أيضا فى كتاب الجنائز عن مالك ابن إسماعيل عن ابن عيينة بإسناده ، باب « الكفن فى القميص » : ٢ / ٩٧ ورواه أيضا عن على بن عبد الله ، عن سفيان فى باب « هل يخرج الميت من القبر ؟ » ٢ / ١١٦ .

(٢) مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : ٨ / ١٢٠ ـ والنسائى ، كتاب الجنائز ، باب « القميص فى الكفن » : ٤ / ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٥٢ ، ١٤ / ٤٠٧ .

(٤) المرجع السابق ، الأثر ١٧٠٥٩ ، ١٤ / ٤١٠ .

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن أبيه ، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعي لجنازة سأل عنها ، فإن أثني عليها خير قام فصلى عليها ، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها : شأنكم بها، ولم يصل عليها (١) .

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جُهِل حاله ، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان ، لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان يقال له « صاحب السر » الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة .

وقال أبو عُبَيد في كتاب « الغريب » ، في حديث عُمَر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل ، فَمرَزَه حُذيفة ، كأنه أراد أن يَصُدّه عن الصلاة عليها ، ثم حكى عن بعضهم أن « المرز » بلغة أهل اليمامة هو : القَرْص بأطراف الأصابع .

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين ، فشرع ذلك . وفي فعله الأجر الجزيل ، لما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من شهد الجنازة حتى يصلّى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان . قيل : وما القيراطان ؟ قال : أصغرهما مثل أحد (٢) .

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود : حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي ، أخبرنا هشام ، عن عبد الله بن بَحِير ، عن هانيء - وهو أبو سعيد البربري ، مولى عثمان بن عفان - عن عثمان رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » .

انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله (٣) .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قد تقدم (٤) تفسير نظير هذه الآية الكريمة ، ولله الحمد .

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه مع القدرة عليه ، ووجود السعة والطَّوْل (٥) ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) أخرجاه في كتاب الجنائز ، ينظر البخاري ، باب « من انتظر حتى تدفن » ، ٢ / ١١٠ . ومسلم ، باب « فضل الصلاة على الجنازة واتباعها » ، ٣ / ٥١ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، باب « الاستغفار عند القبر للميت » ، الحديث ٣٢٢١ ، ٣ / ٢١٥ .

(٤) ينظر تفسير الآية : ٥٥ ، من هذه السورة .

(٥) الطول - بفتح فسكون - : الغنى .

واستأذنوا الرسول فى القعود ، وقالوا : (ذَرنا نكن مع القاعدين) ، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء ، وهن الخوالف ، بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أَمن كانوا أكثر الناس كلاماً ، كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى : (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) (١) ، أى : علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن ، وفى الحرب أجبنُ شىء ، وكما قال الشاعر :

أفى السِّلم أعياراً جفاءً وَغلظةً وفى الحَرْب أشباهَ النِّساءِ العَوارِكِ (٢)

وقال تعالى فى الآية الأخرى : (ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة ،وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نَظرَ المغشى عليه من الموت ، فأولى لهم : طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) (٣) :

وقوله : (وطبع على قلوبهم) ، أى : بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله ، (فهم لا يفقهون) ، أى : لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه :

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

لما ذكر تعالى ذمّ المنافقين ، بيّن ثناء المؤمنين ، وما لهم فى آخرتهم ، فقال : (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا) ... إلى آخر الآيتين ، من بيان حالهم ومآلهم .

وقوله : (وأولئك لهم الخيرات) أي : فى الدار الآخرة ، فى جنات الفردوس والدرجات العلى .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

ثم بيّن تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد ، الذين جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف ، وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة :

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ١٩ .

(٢) البيت فى سيرة ابن هشام منسوبا إلى هند بنت عتبة : ١ / ٦٥٦ . وهو من شواهد سيبويه فى الكتاب : ١ / ١٧٢ ، والمبرد فى المقتضب : ٣ / ٢٦٥ ، والكامل : ٩٠٢ .
والأعيار : جمع عير – بفتح العين – وهو الحمار ، أهليا كان أم وحشيا . وأما العوارك فهن الحوائض ، قال السهيلى فى الروض ٢ / ٨٧ : « يقال : عركت المرأة ودرست وطمثت : إذا حاضت » .

(٣) سورة محمد ، آية : ٢٠ ، ٢١ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنه كان يقرأ : (وجاء المعْذ رون) ، بالتخفيف ، ويقول : هم أهل العذر (١) :

وكذا روى ابن عيينة ، عن حُمَيد ، عن مجاهد (٢) سواء :

قال ابن إسحاق : وبلغنى أنهم نفَر من بنى غفار [منهم] . خُفاف بن إيماء بن رَحَضة (٣) :

وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية لأنه قال بعد هذا : (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) ، أى : لم يأتوا فيعتذروا :

وقال ابن جريج عن مجاهد : (وجاء المعذرون من الأعراب) ، قال : نفر من بنى غفار ، جاءوا فاعتذروا فلم يَعذرْهم الله . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، والقول الأول أظهر والله أعلم ، لما قدمنا من قوله بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) ، أى : وقعد آخرون من الأعراب عن المجىء للاعتذار ، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم ، فقال : (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) .

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

ثم بين تعالى الأعذار التى لاحَرَج على من قعد فيها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لاينفك عنه ، وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاد فى الجهاد ، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما ،ولهذا بدأ به : ما هو عارض بسبب مرض عَنّ له فى بدنه ، شغله عن الخروج فى سبيل الله، أو بسبب فقره لايقدر على التجهّز للحرب ، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ، ولم يرجفوا بالناس ، ولم يُثَبِّطوهم ، وهم محسنون فى حالهم هذا ، ولهذا قال : (ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم) :

وقال سفيان الثورى ، عن عبد العزيز بن رفيع ، عن أبى ثمامة رضى الله عنه قال : قال الحواريون : يا روح الله ، أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال : الذى يُؤْثِر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران ــ أو : بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة ــ بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا :

وقال الأوزاعى : خرج الناس للاستسقاء ، فقام فيهم بلال بن سعد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرّين بالإساءة ؟ قالوا : اللهم نعم . فقال : اللهم إنا نسمعك تقول : (ما على المحسنين من سبيل) ، اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا : ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسُقوا .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٧٣ : ١٤ / ٤١٦ .

(٢) المرجع السابق ، الأثر ١٧٠٧٦ : ١٤ / ٤١٨ .

(٣) المرجع السابق ، الأثر ١٧٠٧٧ : ١٤ / ٤١٨ ، ٤١٩ .

وقال قتادة : نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى :

[وقال] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى ، حدثنا ابن جابر ، عن ابن فروة ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتبُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت أكتب « براءة » فإنى لواضعٌ القلم على أذنى إذ أُمِرْنا بالقتال ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فأنزل الله (ليس على الضعفاء) ولا على المرضى) ، الآية .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم «عبد الله بن مُغَفَّل المزنى (١) » ، فقالوا : يا رسول الله ، احملنا : فقال لهم : والله لا أجد ما أحملكم عليه : فتولوا ولهم بكاء ، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملا : فلما رأى الله حرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه ، فقال : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج) إلى قوله تعالى : (فهم لا يعلمون) (٢) » :

وقال مجاهد فى قوله : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) نزلت فى بنى مُقَرِّن من مزينة (٣) :

وقال محمد بن كعب : كانوا سبعة نفر ، من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عُمَير (٤) - ومن بنى واقف : هَرَمى (٥) ابن عمرو - ومن بنى مازن بن النجار : عبد الرحمن بن كعب ، ويكنى أبا ليلى - ومن بنى المُعَلَّى : [سلمان بن صخر - ومن بنى حارثة : عبد الرحمن بن يزيد ، أبو عبلة ، وهو الذى تصدق بعرضه فقبله الله منه (٦)] ومن بنى سَلِمة : عمرو ابن عَنَمة (٧) ، وعبد الله بن عمرو المزنى (٨) .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر ومخطوطة الدار « ١ » تفسير : « عبد الله بن معقل بن مقرن المزنى » وهو إم تابعى يروى عن على وابن مسعود . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٧٩ : ١٤ / ٤٢٠ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٨٠ - ١٧٠٨٣ : ١٤ / ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٤) فى المخطوطة : « سالم بن عوف » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، وأسد الغابة . الترجمة ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ : ٢ / ٣١٠ ، ٣١١ ، ويقال له أيضا : « سالم بن عمرو » .

(٥) فى المخطوطة : « حرمى » . بالحاء ، وكان مثله فى مخطوطة الطبرى . والطبعات السابقة . والمثبت عن أسد الغابة : ٥ / ٥٨ ط الوهبية ، والاصابة ، الترجمة ٨٩٥٢ : ٣ / ٥٧٠ .

و « هرمى بن عمرو » هكذا فى المخطوطة ، وتفسير الطبرى ، والذى فى الإصابة : « هرمى بن عبد الله » وفى الإصابة وأسد الغابة نقلا عن أبى عمر بن عبد البر : أنه من بنى عمرو بن عوف ، فلعل صواب اسمه : « هومى بن [عبد الله من بنى] عمرو » فسقط ما بين القوسين المعقوفين ، فاصبح « هرمى بن عمرو » . ولم نجد خلافا فى نسبه سوى ما ساقه ابن الأثير فى أسد الغابة عن ابن ماكولا أنه قال : « وقيل فيه : هرمى بن عقبة » ، وعليه فيحتمل أن يكون « عمرو » محرفة من « عقبة » ، والله أعلم .

هذا ، وقد ورد فى سيرة ابن هشام ٢ / ١٨٥ : « هرمى بن عبد الله » .

(٦) ما بين القوسين المعقوفين عن تفسير الطبرى . ومكانه فى المخطوطة : « فضل الله » .

(٧) فى تفسير الطبرى : « غنمة » بالغين المعجمة ، والمثبت عن المخطوطة ، ويقول الحافظ فى الإصابة ، الترجمة ٥٩٢٥ / ٢ / ٩ : « عنمة - بمهملة ، ونون مفتوحتين » .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٨٨ : ١٤ / ٤٢٣ . وينبغى أن نشير هنا إلى أنه وقع خلاف كبير فى تسمية البكائين . ومن يتتبع ابن الأثير فى أسد الغابة يجده قد نبه على هذا .

وقال محمد بن إسحاق فى سياق غزوة تبوك : « ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم البكاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم : من بنى عمرو بن عوف : سالم ابن عُمَير ، وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بنى مازن بن النجار ، وعمرو بن الحمام بن الجموح ، أخو بنى سلمة ، وعبد الله بن المغفَّل المزنى ؛ وبعض الناس يقول : بل هو عبد الله بن عمرو المزنى ، وهَرَمِىّ بن عبد الله، أخو بنى واقف ، وعرْباض (١) بن سارية الفَزارى، فاستحملوا رسول (٢) الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمر بن الأودى ، حدثنا وكيع ، عن الربيع ، عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم واديا ، ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم فى الأجر ، ثم قرأ : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه) الآية .

وأصل هذا الحديث فى الصحيحين من حديث [أنس] (٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ، ولا سرتم إلا وهم معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : نعم حبسهم العذر (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ، ما قطعتم واديا ، ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض (٦) » .

ورواه مسلم ، وابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٧) .

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون فى القعود وهم أغنياء ، وأنَّبهم فى رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف فى الرحال ، (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ، (قل [لا تعتذروا] لن نؤمن لكم) ، أى :

---

(١) فى المخطوطة : « وعياض » . والمثبت من سيرة ابن هشام ، وأسد الغابة ، الترجمة ٣٦٢٤ : ٤ / ١٩ .

(٢) أى : طلبوا منه ما يحملهم عليه .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢ / ٥١٨ .

(٤) ما بين القوسين مكانه بياض فى المخطوطة . والمثبت من البخارى ، والذى أمامنا فى صحيح مسلم من رواية جابر ، ينظر كتاب الإمارة ، باب « ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر » : ٦ / ٤٩ .

(٥) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « من حبسه العذر عن الغزو » : ٤ / ٣١ . وآخر كتاب المغازى : ٦ / ٩ ، ١٠ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٣٠٠ .

(٧) سبق تخريج حديث مسلم . والحديث فى سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب « من حبسه العذر عن الجهاد » ، الحديث ٢٧٦٥ : ٢ / ٩٢٣ .

لن نصدقكم ، (قد نبأنا الله من أخباركم) ، أى : قد أعلمنا الله أحوالكم ، (وسيرى الله عملكم ورسوله) ، أى : سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا ، (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ، أى : فيخبركم بأعمالكم ، خيرها وشرها ، ويجزيكم عليها .

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم ، (فأعرضوا عنهم) ، احتقارا لهم ، (إنهم رجس) ، أى : خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم ، (ومأواهم) فى آخرتهم (جهنم) ، (جزاء بما كانوا يكسبون) ، أى : من الآثام والخطايا .

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم ، (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) ، أى : الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله ، فان الفسق هو الخروج ، ومنه سميت الفأرة « فويسقة » لخروجها من جحرها للإفساد ، ويقال : « فسقت الرطبة » : إذا خرجت من أكمامها .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد ، وأجدر ، أى أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى فقال زيد : ما يريبك من يدى ؟ إنها الشمال ؟ فقال الأعرابى : والله ما أدرى ، اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله : (الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله [1]) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان ، عن أبى موسى ، عن وهب بن منبه ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن [2] .

ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى من طرق ، عن سفيان الثورى ، به ــ وقال الترمذى : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث الثورى [3] » .

ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى [4]) ولما أهدى ذلك الأعرابى ، تلك الهدية لرسول

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٩٣ : ١٤ / ٤٢٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٥٧ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الصيد ، باب « فى اتباع الصيد » ، الحديث ٢٨٥٩ : ٣ / ١١١ وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، الحديث ٢٣٥٧ : ٦ / ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، والنسائى ، كتاب الصيد ، باب « اتباع الصيد » : ٧ / ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ .

الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه أضعافها حتى رضى ، قال : « لقد هممتُ أن لا أقبل هدية إلا من قُرشى ، أو ثقفى أو أنصارى ، أو دَوْسِىّ (١) » ؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة ، والطائف ، والمدينة ، واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب : لما فى طباع الأعراب من الجفاء .

حديث [الأعرابى](٢) فى تقبيل الولد ، قال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبو أسامة وابن نُمَير ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : قَدِم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم . قالوا: لكنا والله ما نُقبّل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وَأَمْلِكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ — وقال ابن نمير : من قلبك الرحمة (٣) .

وقوله : (والله عليم حكيم) أى : عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ، (حكيم) فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل ، لعلمه وحكمته .

وأخبر تعالى أن منهم (من يتخذ ما ينفق) ، أى : فى سبيل الله (مغرماً) أى : غرامة وخسارة ، (ويتربّص بكم الدوائر) ، أى : ينتظر بكم الحوادث والآفات ، (عليهم دائرة السوء) ، أى : هى منعكسة عليهم والسَّوء دائرٌ عليهم ، (والله سميع عليم) ، أى : سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان .

وقوله : (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول) : هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قُربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ، (ألا إنها قربة لهم) ، أى: ألا إن ذلك حاصل لهم، (سيدخلهم الله فى رحمته، إن الله غفور رحيم) .

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ، ورضاهم عنه بما أعدّ لهم من جنات النعيم ، والنعيم المقيم .

قال الشعبى : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية (٤) .

---

(١) النسائى ، كتاب العمرى ، باب « عطية المرأة بغير إذن زوجها » : ٦ / ٢٨٠ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس ١ / ٢٩٥ .

(٢) ما بين القوسين المعقوفين ساقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة ، وهو حديث مسلم كله . وكان فى هذه الطبعات : « قال حديث مسلم » فاسقطنا كلمة « حديث » .

(٣) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك » : ٦ / ٧٦ ، ومعنى : « وأملك » ، أى : أو أملك ؟ على الاستفهام الذى يقصد به النفى ، أى : لا أملك أن أدفع ما ثبت فى قلوبكم ، وما قدره الله عليكم . ورواية البخارى فى كتاب الأدب ، باب « رحمة الولد وتقبيله ومعانقته » : ٨ / ٩ : « أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ . » وهى أوضح .

(٤) ينظر تفسير الطبرى : ١٤ / ٤٣٥ .

وقال أبو موسى الأشعرى ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين ، والحسن ، وقتادة : هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) :

وقال محمد بن كعب القرظى : مرّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) ، فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال : أبىّ بن كعب . فقال : لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه : فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم : قال : وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم : قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال أبىّ : تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) ، وفى سورة الحشر : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وفى الأنفال : (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) الى آخر ، الآية (رواه ابن جرير (٢)) ،

قال : وذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤها برفع (الأنصارُ) عطفا على (والسابقون الأولون) (٣) :

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان : فياويل من أبغضهم أو سبّهم أو أبغض أو سبّ بعضهم ، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم ، أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة ، رضى الله عنه ، فان الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسبّونهم ، عياذاً بالله من ذلك : وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن ، إذ يسبّون من رضى الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فانهم يترضون عمن رضى الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

يخبر تعالى رسوله صلواتُ الله وسلامه عليه ـ أن فى أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفى أهل المدينة أيضا منافقون (مرَدوا على النفاق) ، أى : مرنوا واستمروا عليه : ومنه يقال : « شيطان مرِيد ومارد » ، ويقال : « تمرد فلان على الله » أى عتا وتجبر .

وقوله : (لا تعلمهم نحن نعلمهم) ، لاينافى قوله تعالى : (ولو نشاء لأريناكهم فلعَرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول) (٤) ... الآية : لأن هذا من باب التوسّم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال :

---

(١) المرجع السابق : ١٤ / ٤٣٦ ، ٤٣٧ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١١٧ : ١٤ / ٤٣٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ٤٣٩ .
(٤) سورة محمد : آية : ٣٠ .

حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم ، عن رجل ، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال قلت : يا رسول الله ، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة ، فقال : لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جُحر ثعلب ، وأصغى[١] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال : إن في أصحابي منافقين .

ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ، ومن مثلهم صَدَرَ هذا الكلامُ الذى سمعه جبير ابن مطعم . وتقدم في تفسير قوله : (وهموا بما لم ينالوا) أنه عليه السلام أعلم حُذَيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم ، والله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة « أبي عمر البيروتي » من طريق هشام بن عمار : حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا ابن جابر ، حدثني شيخ ببيروت يكنى أبا عمر ، أظنه حدثني عن أبي الدرداء : أن رجلا يقال له « حرملة » « أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « الإيمان ها هنا — وأشار بيده إلى لسانه — والنفاق ها هنا — وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلاقليلا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل له لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حُبّى ، وحبَّ من يحبنى ، وصَيِّر أمره إلى خير » فقال : يا رسول الله ، إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر على دينه فالله أولى به ، ولا تخرقن — على أحد سترا » .

قال : وكذا رواه أبو أحمد الحاكم ، عن أبي بكر الباغندى ، عن هشام بن عمار ، به .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة في هذه الآية أنه قال : ما بال أقوام يتكلّفون علم الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار . فاذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لاأدرى ! لَعَمْرى أنت بنفسك[٢] أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك . قال نبي الله نوح : (وما علمى بما كانوا يعملون) ، وقال نبي الله شعيب : (بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ)، وقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : (لاتعلمهم نحن نعلمهم[٣] .

وقال السدى ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس في هذه الآية قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة فقال : اخرج يافلان ، فإنك منافق ، واخرج يافلان فإنك منافق ، فأخرج من المسجد ناساً منهم ، فضحهم فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ، ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر [ياعمر] ، قد فضح الله المنافقين اليوم ، قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني عذاب القبر[٤] .

---

(١) يعني : مال إليه برأسه .

(٢) في المخطوطة : « بنصيبك » ، والمثبت من تفسير الطبرى ، والدر المنثور ٣ / ٢٧١ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٢١ : ١٤ / ٤٤١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٢٢ : ١٤ / ٤٤١ ، ٤٤٢ .

وكذا قال الثورى ، عن السدى ، عن أبى مالك نحو هذا .

وقال مجاهد فى قوله : (سنعذبهم مرتين) ، يعنى : القتل والسباء ، وقال ـ فى رواية ـ بالجوع ، وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم(١) .

وقال ابن جريج : عذابُ الدنيا ، وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب النار(٢) ؛

وقال الحسن البصرى : عذاب فى الدنيا ، وعذاب فى القبر(٣) ؛

وقال عبد الرحمن بن زيد : أما عذابٌ فى الدنيا فالأموال والأولاد ، وقرأ قول الله : (فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) ، فهذه المصائب لهم عذاب ، وهى للمؤمنين أجر ، وعذاب فى الآخرة فى النار ـ (ثم يردون إلى عذاب عظيم) ، قال : النار(٤) .

وقال محمد بن إسحاق : (سنعذبهم مرتين) ، قال : هو ـ فيما بلغنى ـ ما هم(٥) فيه من أمر الإسلام ، ومايدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذى يُرَدّون إليه ، عذاب الآخرة والخلد فيه (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة فى قوله : (سنعذبهم مرتين) : عذاب الدنيا ،وعذاب القبر ، (ثم يردون إلى عذاب عظيم) ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم أسرّ إلى حذيفة باثنى عشر رجلا من المنافقين ، فقال : «ستة منهم تكفيكهم الدّبيلة : سراج من نار جهنم ، يأخذ فى كتف أحدهم حتى يفضى إلى صدره ، وستة يموتون موتاً» ، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يُرى أنه منهم ، نظر إلى حذيفة ، فان صلى عليه وإلاتركه ، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة : أنشدك بالله ، أمنهم أنا ؟ قال : لا ، ولا أومن منها أحداً بعدك (٧).

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

لما بيّن تعالى حالَ المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبا وشكا ، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة ، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) ، أى : أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربّهم ، ولهم أعمال أخر صالحة ، خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٤٤٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٣٣ : ١٤ / ٤٤٤ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٣١ : ١٤ / ٤٤٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٤٣ : ١٤ / ٤٤٤ .
(٥) لفظ الطبرى : « غمهم بما هم فيه ... » .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٣٥ : ١٤ / ٤٤٤ ، ٤٤٥ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٣٩ : ١٤ / ٤٤٣ .

وهذه الآية — وإن كانت نزلت في أناس معينين — إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين .

وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لُبابة لما قال لبني قريظة : « إنه الذبح » ، وأشار بيده إلى حلقه (١) .

وقال ابن عباس : (وآخرون) ، نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه ، تخلفوا عن غزوة تبوك ، فقال بعضهم : أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل : وسبعة معه ، وقيل : وتسعة معه ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوته ، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد ، وحلفوا لايحلهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أنزل الله هذه الآية : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) ، أطلقهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعفا عنهم .

وقال البخاري : حدثنا مُؤمَّل بن هشام ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا عوف ، حدثنا أبو رجاء ، حدثنا سَمُرة ابن جُندَب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : « أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولَبِن فضة ، فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم : اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذا منزلك ، قالا : أما القوم الذين كانوا شَطر منهم حَسَنٌ وشَطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فتجاوز الله عنهم » (٢) .

هكذا رواه مختصراً ، في تفسير هذه الآية .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخُذَ من أموالهم صَدَقَة يطهرهم ويزكيهم بها ، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في « أموالهم » إلى « الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » ؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لايكون ، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم) ، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة ، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يُؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال الصديق : والله لو منعوني عقالا(٣) — وفي رواية : عَناقاً(٤) يُؤدّونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنّهم على منعه(٥)

---

(١) ينظر تفسير الطبري : ١٤ / ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة براءة : ٦ / ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) العقال ، بكسر العين : ما يشد به ظلف البعير بذراعه حال بروكه ، حتى لا يقوم فيشرد .

(٤) العناق ، بفتح العين : الأنثى من ولد المعز .

(٥) البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب « الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ٩ / ١١٥ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله » : ١ / ٣٨ .

وقوله : (وصل عليهم) : أى : ادع لهم واستغفر لهم ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أُتىَ بصدقة قوم صَلّى عليهم ، فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صَلِّ على آل أبى أوفى»(١) وفى الحديث الآخر أن امرأة قالت : يارسول الله ، صلّ علىّ وعلى زوجى : فقال : صلى الله عليك ، وعلى زوجك(٢) :

وقوله : (إن صَلَوَاتك) ، قرأ بعضهم : (صَلَوَاتك) على الجمع ، وآخرون قرأوا : (إن صلاتك) على الأفراد ، (سكن لهم) ، قال ابن عباس : رحمة لهم . وقال قتادة : وقار .

وقوله : (والله سميع) ، أى : لدعائك (عليم) ، أى : بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا أبو العُمَيس ، عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة ، عن ابن الحذيفة ، عن أبيه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا لرجل أصابته ، وأصابت ولده ، وولد ولده(٣) .

ثم رواه عن أبى نُعَيم ، عن مِسْعَر ، عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة ، عن ابن الحذيفة ــ قال مسعر : وقد ذكره مرة عن حذيفة ــ : إن صلاة النبى صلى الله عليه وسلم لتُدرك الرجل وولده وولد ولده (٤) .

وقوله : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) : هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحطّ الذنوبَ ويمحّصُها ويمحقها .

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فان الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربّيها لصاحبها ، حتى تصير التمرة مثل أحد . كما جاء بذلك الحديث ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كما قال الثورى ووكيع ، كلاهما عن عباد بن منصور ، عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم ، كما يربى أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتَصيرُ مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : « وهو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات(٥) » و(يمحق الله الربا ويربى الصدقات(٦)) :

وقال الثورى والأعمش كلاهما ، عن عبد الله بن السائب ، عن عبد الله بن أبى قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الصدقة تقع فى يد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل . ثم قرأ هذه الآية : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات (٧) .

---

(١) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الدعاء لمن أتى بصدقته » ٣ / ١٢١ .
(٢) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على غير النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٥٣٣ : ٢ / ٨٨ ، ٨٩.
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٣٨٥ ، ٣٨٦ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٤٠٠ .
(٥) كذا ، وليست آية ، وينظر تفسير الطبرى ، وتعليق الأستاذ محمود شاكر .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٦٨ ، ١٧١٦٩ : ١٤ / ٤٦١ . وينظر الأحاديث الواردة فى ذلك عند الآية ٢٧٦ من سورة البقرة : ١ / ٤٨٧ – ٤٨٩ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧١٦٤ ، ١٧١٦٦ : ١٤ / ٤٦٠ .

وقد روى ابن عساكر فى تاريخه ، فى ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى – وأصله حمصى ، وكان أحد الفقهاء . روى عن معاوية وغيره ، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى – قال : غزا الناس فى زمان معاوية رضى الله عنه ، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فغَلّ رجل(١) من المسلمين مائة دينار رومية : فلما قفل الجيش نَدم وأتى الأميرَ ، فأبى أن يقبلها منه ، وقال : قد تفرق الناس ولن أقبلها منك ، حتى تأتى الله بها يوم القيامةَ فجعل الرجل يستقرىء الصحابة ، فيقولون له مثل ذلك ، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه ، فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع ، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال أمطيعُنى أنت ؟ فقال : نعم ، فقال : اذهب إلى معاوية فقل له : اقبل منى خُمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فان الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ففعل الرجل ، فقال معاوية رضى الله عنه : « لأن أكون أفتيتُه بها أحب إلى من كل شىء أملكه ، أحسن الرجل » .

وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قال مجاهد : هذا وَعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه تبارك وتعالى ، وعلى الرسول ، وعلى المؤمنين : وهذا كائن لامحالة يوم القيامة ، كما قال : (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) ، وقال تعالى : (يوم تبلى السرائر) ، وقال : (وحُصِّل ما فى الصدور) ، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا دَرَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صمّاء ليس لها باب ولاكُوَّة ، لأخرج(٢) الله عمله للناس كائناً ما كان (٣) » .

وقد ورد : أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ ، كما قال أبو داود الطيالسى : حدثنا الصلت بن دينار ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : « اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » » .

وقال الإمام أحمد أخبرنا عبد الرزاق ، عن سفيان ، عمَّن سمع أنساً يقول : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لاتمتهم حتى تهديهم كما هديتنا(٤) » .

---

(١) الغلول : السرقة من المغنم .
(٢) لفظ المسند : « لخرج عمله ... » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٢٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

وقال البخاري قالت : عائشة رضي الله عنها : إذا أعجبك حسن عمل امرئ ، فقل : (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (١) .

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا ، قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاعليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ؟ فان العامل يعمل زماناً من عمره ـ أو : بُرهةً من دهره ـ بعمل صالح لومات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملا سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء ، لومات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملا صالحاً ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته؛ قالوا : يارسول الله وكيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه(٢) . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قال ابن عباس ومجاهدُ وعكرمة ، والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا ، أي : عن التوبة ، وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد ، كسلا وميلا إلى الدّعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لاشكا ونفاقا ، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري ، كما فعل أبولبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهي قوله : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار (الآية) وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) الآية كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك :

وقوله : (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) ، أي : هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو(عليم حكيم) ، أي : عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له : « أبو عامر الراهبُ » ، وكان قد تَنَصّر في الجاهلية وقرأ علمْ أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير . فلما قَدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش فألّبهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ماكان ، وامتحنهم الله ، وكانت العاقبة للمتقين :

(١) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب « قول الله تعالى : يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ... » : ٨/ ١٨٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/ ١٢٠ .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصيب ذلك اليوم ، فجرح فى وجهه وكسرت رَباعيته اليمنى السفلى،وشُجّ رأسه — صلوات الله وسلامه عليه : وتقدم أبوعامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته : فلما عرفوا كلامه قالوا : « لا أنعم الله بك عينا يافاسق ياعدو الله » ، ونالوا منه وسبّوه ، فرجع وهو يقول : « والله لقد أصاب قومى بعدى شرّ » : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرّد ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة :وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى(1) ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنّيهم أنه سيقدَم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدَم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أوبعض يوم ، نزل عليه الوحى بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء ، الذى أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدّمه قبل مقدمهالمدينة ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله: (والذين اتخذوامسجداً ضراراً): وهم أناس من الأنصار ، ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فانى ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتى بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه : فلما فرغوا من مسجدهم ، أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحبّ أن تصلى فيه وتدعوَ لنا بالبركة : فأنزل الله عز وجل : (لاتقم فيه أبدالمسجد أسس على التقوى من أول يوم) إلى : (والله لايهدى القوم الظالمين) :

وكذا رُوى عن سعيد بن جُبير ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، وقتادة وغير واحد من العلماء :

وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن الزهرى ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن عُمَر بن قتادة وغيرهم ، قالوا : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى من تبوك — حتى نزل بذى أوان — بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار — وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى — لنا فيه : فقال : إنى على جناح سفَر وحال شُغل — أوكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذى أوان أتاه خبرُ المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدّخشُم أخا بنى سالم بن

---

(1) لفظ المخطوطة : « ورأى أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه كلما له فى ارتفاع وظهور » والفظ غير مستقيم .

عوف ، ومعن بن عدى — أو : أخاه عامر بن عدى — أخا ، بلعجلان فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه : فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى : فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن مانزل : (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا)... إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا : خذام بن خالد ، من بنى عبيد بن زيد ، أحد بنى عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق — وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد وهو إلى بنى أمية بن زيد — ومعتب بن قشير ، من ضبيعة بن زيد — وأبو حبيبة بن الأزعر ، من بنى ضبيعة بن زيد — وعباد بن حنيف ، أخو سهل بن حنيف ، من بنى عمرو بن عوف — وجارية بن عامر ، وابناه : مجمع بن جارية ، وزيد بن جارية — ونبتل الحارث ، وهم من بنى ضبيعة — ، وبحزج وهو من بنى ضبيعة — وبجاد بن عثمان وهو من بنى ضبيعة — [ووديعة بن ثابت ،وهو إلى بنى أمية](١) رهط أبى لبابة بن عبد المنذر ؛

وقوله : (وليحلفن) ، أى : الذين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) ، أى : ما أردناه ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس ، قال الله تعالى : (والله يشهد إنهم لكاذبون) ، أى : فيا قصدوا وفيا نووا ، و إنما بنوه ضرارا لمسجد قباء ، وكفرا بالله ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وهو أبو عامر الفاسق ، الذى يقال له « الراهب» لعنه الله

وقوله : (لاتقم فيه أبدا) ، نهى من الله لرسوله — صلوات الله وسلامه عليه — ، والأمة تبع له فى ذلك ، عن أن يقوم فيه ، أى : يصلى فيه أبدا ؛

ثم حثه على الصلاة فى مسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى ، وهى طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلا وموئلا للإسلام وأهله : ولهذا قال تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) ، والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة فى مسجد قباء كعمرة(٢) » : وفى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً(٣) ، وفى الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بنى عمرو ابن عوف ، كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة ، فالله أعلم .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه عن سيرة ابن هشام : ٢ / ٥٣٠ ، وتفسير الطبرى : الأثر ١٧١٨٦ : ١٤ / ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فى الصلاة فى مسجد قباء » ، الحديث ١٤١١ : ١/٤٥٢ عن أسيد بن ظهير الأنصارى .

(٣) مسلم كتاب الحج ، باب « فضل مسجد قباء ، وفضل الصلاة فيه » ٤ / ١٢٧ ومسند الإمام أحمد عن ابن عمر .

وقال أبوداود : حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن يونس بن الحارث ، عن إبراهيم بن أبي ميمونة ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نزلت هذه الآية في أهل قباء : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) ، قال : كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت فيهم الآية(١) » :

ورواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث يونس بن الحارث ، وهو ضعيف ، وقال الترمذي : «غريب من هذا الوجه(٢)».

وقال الطبراني : حدثنا الحسن بن علي المعمري حدثنا محمد بن حميد الرازي ، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد ابن إسحاق ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عُوَيم بن ساعدة فقال : ماهذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ فقال : يارسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه — أوقال : مقعدته — فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو هذا »

وقال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا أبو أويس ، حدثنا شرحبيل ، عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري : أنه حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قُباء ، فقال : « إن الله تعالى قد أحسن [عليكم الثناء] في الطُّهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ فقالوا : والله — يارسول الله — ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا(٣) »

ورواه ابن خُزَيمة في صحيحه .

وقال هشيم ، عن عبد الحميد المدني ، عن إبراهيم بن اسماعيل(٤) الأنصاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعُوَيم بن ساعدة . ماهذا الذي أثنى الله عليكم : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)؟ قالوا : يارسول الله ، إنا نغسل الأدبار بالماء (٥) :

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عُمارة الأسدي ، حدثنا محمد بن سعد (٦) ، حدثنا إبراهيم بن محمد ، عن شرحبيل ابن سعد قال : سمعت خُزَيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) ، قال : كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط (٧) :

حديث آخر ، قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا مالك — يعني ابن مغول — سمعت سيارا (٨) أبا الحكم ، عن شهر بن حوشب ، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب « في الاستنجاء بالماء » الحديث ٤٤ : ١/١١ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٩٨ : ٨/٥٠٣ . وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب « الاستنجاء بالماء » ، الحديث ٣٥٧ : ١/١٢٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٤٢٢ .

(٤) في المخطوطة : « إبراهيم بن المعلى الأنصاري » . ولم نجده ، والمثبت من تفسير الطبري .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٢٣٦ : ١٤ / ٤٨٧ .

(٦) في تفسير الطبري : « إبراهيم بن سعيد » .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٢٣٢ : ١٤ / ٤٨٧ .

(٨) في المسند : « يسار » . وهو خطأ ، ينظر الخلاصة .

قباء ، فقال : « إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الطهور خيراً ، أفلا تخبرونى ؟ ــ يعنى قوله تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) ، فقالوا : يارسول الله ، إنا نجده مكتوباً علينا فى التوراة الاستنجاءُ بالماء (١)

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ؛ ورواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ؛ وقاله عطية العوفى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، والشعبى ، والحسن البصرى ، ونقله البغوى عن سعيد بن جبير ، وقتادة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هو فى جوف المدينة ، هو المسجد الذى أسس على التقوى ؛ وهذا صحيح ؛ ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده : حدثنا أبونُعيم ، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى ، عن عمران بن أبى أنس ، عن سهل بن سعد ، عن أبىّ بن كعب : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المسجد أسس على التقوى مسجدى هذا(٢) » ؛ تفرد به أحمد .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمى ، عن عمران بن أبى أنس ، عن سهل ابن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد الذى أُسِّس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال الآخر : هو مسجد قباء ؛ فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فسألاه ، فقال : هو مسجدى هذا(٣) ؛ تفرد به أحمد أيضاً .

حديث آخر ، قال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ليث ، عن عمران بن أبى أنس ، عن سعيد بن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو مسجدى هذا(٤) .

تفرد به أحمد .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا ليث ، حدثنى عمران بن أبى أنس ، عن ابن أبى سعيد ، عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس علىٰ التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو مسجدى(٥) .

وكذا رواه الترمذى(٦) والنسائى عن قتيبة ، عن الليث ، وصححه الترمذى ، ورواه مسلم كما سيأتى .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١١٦ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٣٣١ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٨٩ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٧ .
(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٩٧ : ٨ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا يحيى ، عن أنيس بن أبي يحيى ، حدثني أبي قال : سمعت أبا سعيد الخدرى قال : اختلف رجلان : رجل من بنى خُدْرة ، ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال الخدرى : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال العَمْرى : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك ، فقال : هو هذا المسجد — لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : فى ذاك [خير كثير] ، يعنى مسجد قباء (١) .

طريق أخرى ، قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد — حدثنا حميد الخراط المدنى ، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت : كيف سمعت أباك يقول فى المسجد الذى أسس على التقوى ؟ فقال أبى : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه فى بيت لبعض نسائه ، فقلت : يارسول الله ، أين المسجد الذى أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا ، ثم قال : [فقلتُ له : هكذا(٢)] سمعتَ أباك (٣) يذكره ؟ .

رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم ، عن يحيى بن سعيد ، به . ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره ، عن حاتم بن إسماعيل ، عن حميد الخراط ، به (٤) .

وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن المسيب . واختاره ابن جرير .

وقوله : (لمسجد أسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) ، دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابسة القاذورات .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى بهم الصبح فقرأ بهم الروم فأوهم ، فلما انصرف قال : « إنه يلبس علينا القرآن ، إن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء (٥) » .

ثم رواه من طريقين آخرين ، عن عبد الملك بن عمير ، عن شبيب أبي روح من ذى الكلاع : أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ... فذكره (٥) . فدل هذا على [أن] إكمال الطهارة يسهل القيام فى العبادة ، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٣ . وما بين القوسين عنه .
(٢) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٠٦ : ١٤ / ٤٧٧ .
(٤) مسلم ، كتاب الحج ، فضل المساجد الثلاثة : ٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ بشرح النووى .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٤٧١ ، ٤٧٢ .

وقال أبو العالية في قوله تعالى : (والله يحب المطهرين) : إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المطهرون من الذنوب .

وقال الأعمش : التوبة من الذنب ، والتطهر من الشرك .

وقد ورد في الحديث المروي من طرق ، في السنن وغيرها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء : قد أثنى الله عليكم في الطهور ، فماذا تصنعون ؟ فقالوا : نستنجي بالماء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال : وجدته في كتاب أبي ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين) . فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا نُتْبِعُ الحجارة الماء .

ثم قال : تفرد به محمد بن عبد العزيز ، عن الزهري ، ولم يرو عنه سوى ابنه .

قلت : وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين ، أو كلهم ، والله أعلم .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى : لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم (على شفا جُرُف هار) ، أي : طرف حفيرة مثاله (في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) ، أي : لا يصلح عمل المفسدين .

قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضرارا يخرج منه الدخان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال ابن جريج : ذُكر لنا أن رجالا حفَروا فوجدوا الدخان يخرج منه (٢) . وكذا قال قتادة .

وقال خلف بن ياسين الكوفي : رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن ، وفيه جحر يخرج منه الدخان ، وهو اليوم مَزْبلة . رواه ابن جرير رحمه الله (٣) .

وقوله : (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) ، أي : شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع ، أورثهم نفاقا في قلوبهم ، كما أشرب عابدو العجل حبه .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٢٤٨ : ١٤/٤٩٣ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٢٤٧ : ١٤/٤٩٣ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٢٥٠ : ١٤/٤٩٤ .

وقوله : (إلا أن تقطع قلوبهم) ، أى : بموتهم : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، والسدى ، وحبيب بن أبى ثابت ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد من علماء السلف .

(والله عليم) ، أى : بأعمال خلقه ، (حكيم) ، فى مجازاتهم عنها ، من خير وشر .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١)

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها فى سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له : ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة : بايعهم والله فأغلى ثمنهم .

وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل فى عنقه بيعة ، وفى بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية (١) .

ولهذا يقال : من حمل فى سبيل الله بايع الله ، أى : قبل هذا العقد ووفى به .

وقال محمد بن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ! فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا : وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال : الجنة : قالوا : ربح البيع ، لا نُقيل ولا نستقيل (٢) ، فنزلت : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ... الآية (٣) .

وقوله : (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ، أى : سواء قتلوا [أو قُتلوا] ، أو اجتمع لهم هذا وهذا ، فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء فى الصحيحين : « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى ، وتصديق برسلى ، بأن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة (٤) » .

وقوله : (وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن) تأكيد لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله فى كتبه الكبار ، وهى التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٦٦ : ٤٩٩/١٤ .

(٢) الإقالة : فسخ البيع ، يقال : « تقايل البيعان » إذا فسخا البيع ، وعاد المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشترى . وتكون الإقالة فى البيع والعهد ، و « استقاله » : طلب إليه أن يقيله .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٧٠ : ٤٩٩/١٤ .

(٤) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « قول النبى : أحلت لكم الغنائم » : ١٠٤/٤ ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله » : ٣٢/٦ .

وقوله : (ومن أوفى بعهده من الله) ، فإنه لا يخلف الميعاد ، وهذا كقوله تعالى : (ومن أصدق من الله حديثا) ، (ومن أصدق من الله قيلا) ، ولهذا قال : (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ، أى : فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد ، بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم :

التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسَهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة : (التائبون) من الذنوب كلها ، التاركون للفواحش ، (العابدون) ، أى : القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها ، وهى الأقوال والأفعال فمن أخصّ الأقوال الحمدُ ، فلهذا قال : (الحامدون) ، ومن أفضل الأعمال الصيامُ ، وهو ترك الملاذّ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة هاهنا ، ولهذا قال : (السائحون) ،كما وصف أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فى قوله تعالى : (سائحات)[1] ، أى : صائمات ، وكذا الركوع والسجود ، وهما عبارة عن الصلاة ، ولهذا قال : (الراكعون الساجدون) ، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركهُ ، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه ، علما وعملا ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ، ولهذا قال : (وبشر المؤمنين) ، لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به :

[بيان أن المراد بالسياحة الصيام]

قال سفيان الثورى ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله بن مسعود قال : (السائحون) الصائمون[2] : وكذا رُوى عن سعيد بن جُبير ، والعوفى عن ابن عباس :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة ، هم الصائمون[3] : وكذا قال الضحاك رحمة الله :

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يزيد ، عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضى الله عنها قالت : سياحةُ هذه الأمة الصيام (٤) :

وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، والضحاك بن مُزاحم ، وسفيان ابن عُيينة وغيرهم : أن المراد بالسائحين الصائمون :

وقال الحسن البصرى : (السائحون) الصائمون شهر رمضان :

---

(١) سورة التحريم ، آية : ٥ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٨٩ : ١٤ / ٥٠٣ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٠١ : ١٤ / ٥٠٤ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣١٣ : ١٤ / ٥٠٥ ، ٥٠٦

حوليات العالم الماضى ٤٥ قرشا
احمد عطية الله

رسالة التوحيد ١٥ قرشا
للامام محمد عبده

مناسك الحج ١٠ قروش
عبد الرحمن محمد امين
وصلاح الدين محمد عطية

حواديت ١٥ قرشا
فكرى اباظه

ادب الاحاديث القدسية ٥٠ قرشا
د . احمد الشرباصى

قطر الندى وبل الصدى ٤٠ قرشا
ابن هشام الانصارى

الاغانى ٦٠ قرشا
ابو الفرج الاصبهانى

الشارع الطويل « ليبيا » ١٠ قروش
عبد الله امام

اليهود من كتابهم المقدس ١٠ قروش
كمال احمد عون

اضواء من السنة ٢٥ قرشا
جماعة دار الحديث النبوى

كنوز الاسرار ١٠ قروش
عبد الفتاح القاضى

عمر القائد ٥٠ قرشا
محمود شيت خطاب

لمحات من حياة العقاد ٦٠ قرشا

عبد الناصر حياته وجهاده ١٠ قروش
عامر العقاد

الاعداد الفنى للكتب فى المكتبات
حسن عبد الشافى ٥٠ قرشا

تاريخ الطبقة العاملة ٢٥ قرشا
د . امين عز الدين

لبنان ١٥ قرشا

السودان ٢٠ قرشا
حسن محمد جوهر

وداعا ايها الملل ٢٠ قرشا

من اول نظرة ٦٠ قرشا
انيس منصور

الزراعة المرية ٢٠٠ قرش
سيد مرعى

ماذا بعد احراق المسجد الاقصى
عبد الحميد السائح ٥٠ قرشا

الساعة تدق العاشرة ٢٠ قرشا
امين يوسف غراب

الهند القديمة وحضاراتها ٤٥ قرشا
محمد اسماعيل الندوى

طريقك الى الجامعة ١٠ قروش
فاروق فهمى

النفاق والمنافقون ٦٠ قرشا
ابراهيم على سالم

مطبوعات الشعب

عبد الله بن مسعود ١٠ قروش
د . عبده الراجحى

حماية الاسلام للانفس والاعراض
د. على عبدالواحد وافى ١٠ قروش

رياض الصالحين ٦٠ قرشا
للامام النووى

السياسة النووية لاسرائيل ٢٠ قرشا
د. محمود بنونه

عبد الناصر ذلك الانسان ١٠ قروش
صبرى غنيم

الاسماء الحسنى ٢٠ قرشا
د. حسن عز الدين الجمل

عبد الرحيم القنائى ١٠ قروش

اقطاب التصوف الثلاثة ١٠ قروش
نفيسة العلم والمعرفة
وقطب زمانه ابو الحجاج ١٠ قروش
صلاح عزام

بين الدين والعلم ٢٠ قرشا

السماء واهل السماء ٢٠ قرشا

يوم القيامة ٢٠ قرشا

عالم الجن والملائكة ٢٠ قرشا

محمد رسولا نبيا ٢٠ قرشا

تلاوة القرآن ٧ قروش

الدعوة الى الاسلام ٧ قروش

الشهادة ٧ قروش

صوم رمضان ٧ قروش

الصلاة ٧ قروش

فريضة الزكاة ٧ قروش

فريضة الحج ٧ قروش

اسئلة حرجة ٢٠ قرشا

طريق الى الله ٢٥ قرشا
عبد الرزاق نوفل

ابطال الفتوح العربية ١٥ قروش

انتصارات عربية خالدة ١٠ قروش

حتى ننتصر ١٠ قروش

ادهى رجال الحرب ١٥ قرشا
السيد فرج

ابناء الرسول فى كربلاء ١٥ قرشا
خالد محمد خالد

احمد عرابى ١٠ قروش
عبد الرحمن الرافعى

عودة الابطال ١٠ قروش

اطباء ابطال ٢٠ قرشا
ابو الحجاج حافظ

حصاد الايام الستة ١٠ قروش
د. جمال الدين الرمادى

من السويس الى بنزرت ٢٥ قرشا
د. محمد عبد الرحمن برج

السياسة الشرعية ١٠ قروش
لابن تيميه

مكانة المراة فى الاسلام ١٠ قروش
محمد عطية الابراشى

اطلس لديانات العالم ٢٠٠ قرش
د. حسين فرج

اسلاميات العقاد فى مجلد واحد
٢٧٥ قرشا

يوميات العقاد جـ ٢ ١٥٠ قرشا

جميل بثينة ٨ قروش
عباس محمود العقاد

شخصيات اسلامية معاصرة ٢٠ قرشا
ابراهيم البعثى

ثلاثة رجال وامراة ١٥ قرشا

قبض الريح ١٥ قرشا

قصة حياة ١٥ قرشا

بشار بن برد ١٥ قرشا

حصاد الهشيم ٣٠ قرشا

ابن الطبيعة ٤٠ قرشا

ابراهيم الكاتب ٤٠ قرشا

ابراهيم الثانى ٢٠ قرشا
ابراهيم عبد القادر المازنى

المراة فى حياة العقاد ٩٥ قرشا

عباس العقاد ناقدا ١٠٠ قرش

الاقطاع الفكرى وآثاره ٢٠ قرشا
د. عبد الحى دياب

القرآن المجيد ٣٥ قرشا

المدينة المنورة ١٥ قرشا

مواقف حاسمة فى حياة محمد بن
عبد الله ١٠ قروش

الانبياء فى القرآن الكريم ٤٠ قرشا

رابعة العدوية ١٥ قرشا
محمود الشرقاوى

السيد احمد البدوى ١٠ قروش

الرسول . لمحات من حياته ونفحات
من هديه ١٠ قروش

حكم ابن عطاء الله ٩٥ قرشا

فاذكرونى اذكركم ١٠ قروش

وازن الارواح ١٠ قروش
د. عبد الحليم محمود

محمد رسول الحرية ٢٥ قرشا

الارض ٣٠ قرشا
عبد الرحمن الشرقاوى

كتاب الشعب

القرآن العظيم

تفسير ابن كثير ١٠ قروش للكتاب

المصحف المفسر

للأستاذ محمد فريد وجدى

٧ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

تفسير القرطبى

لأبى عبد الله محمد بن احمد الانصارى القرطبى

٨٠ كتابا ـ ١٠ قروش للكتاب

تفسير الجلالين

للامامين جلال الدين محمد بن احمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى

٦ كتب بـ ٦٥ قرشا

تفسير جزء عم ١٥ قرشا

للامام الشيخ محمد عبده

تفسير جزء تبارك ١٠ قروش

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى

صحيح البخارى

جمع ابو عبد الله محمد بن اسمعيل البخارى

٢٢ كتابا ـ ١٠ قروش للكتاب

الأم ٢٠ كتابا ـ ١٠ قروش للكتاب

للامام ابى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى

الفقه على المذاهب الاربعة

تقديم الشيخ عبد الوهاب خلاف

٤ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

الموطأ ٧ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

للامام مالك بن انس

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم

وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

١٠ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

محمد نبى البر ١٠ قروش

لابن هشام

نهج البلاغة

لسيدنا على كرم الله وجهه

شرح الامام الشيخ محمد عبده

٦ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

دائرة المعارف الاسلامية

اعداد وتحرير ابراهيم زكى خورشيد واحمد الشنتناوى والدكتور عبد الحميد يونس

سعر العدد ١٠ قروش

احياء علوم الدين

للامام ابى حامد الغزالى

١٦ جزءا ـ ٢٠ قرشا للجزء

اسد الغابة فى معرفة الصحابة

لعز الدين بن الأثير

سعر العدد ١٠ قروش

ثورة ١٩١٩

للأستاذ عبد الرحمن الرافعى

٤ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

فى أعقاب ثورة ١٩١٩

للأستاذ عبد الرحمن الرافعى

الجزء الأول منه [illegible]

٧ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

حديث عيسى بن هشام

للأستاذ محمد المويلحى

٣ كتب ـ ١٠ قروش للكتاب

تفسير الأحلام ١٥ قرشا

للدكتور عبد المنعم بدر والأستاذ احمد السباعى

كليلة ودمنة ١٠ قروش

للشاعر الفيلسوف بيدبا

الف ليلة وليلة

للأستاذ رشدى صالح

لوحات الفنان بيكار

٢٠ كتابا ـ ١٠ قروش للكتاب

فن تربية الطفل ٢٠ قرشا

ماريون فايجر ، وجون اندرسون

فن الطهى ٢٠ قرشا

للسيدة بسيمة زكى ابراهيم

فن التفصيل والحياكة ٢٥ قرشا

للسيدة بثينة الكفراوى

اشغال الصوف « التريكو » ١٠ قروش

للسيدة بثينة الكفراوى

قصة السموات والأرض ١٠ قروش

للدكتور محمد جمال الدين الفندى والدكتور محمد يوسف حسن

قصص الصبيان والصبايا

ثمن كل قصة ٤ قروش

صديقى الحقيقى

شجرة الريحان

عبد التواب يوسف

ابو زيد الهلالى

مغامرات ثعلب

رحلة ذئب

الهدايا المسحورة

الكلب والحمار

الأمير الحصان

التفاحات المغردة

ابراهيم شعراوى

الغلام المتمرد

الأطفال الخمسة

ثعلب وارنب

الحصان المظلوم

الفيلم المنتصر

مغامرات قنفوز

الرفاق الأربعة

الأمير والضفدع

العجوز الظالمة

عز الدين آل ياسين

سليم حكيم

مراجعة : موسى سليمان

مجلدات كتاب الشعب

تفسير القرطبى

تجليد أنيق فى ٨ مجلدات

١٠ جنيهات و ٤٠ قرشا

تفسير الجلالين

مجلد أنيق	٩٠ قرشا
مجلد فاخر	٢٦٠ قرشا

صحيح البخارى

تجليد أنيق فى ٣ مجلدات ٣٠٠ قرش

تجليد عادى فى ٤ مجلدات ٣٢٠ قرشا

الفقه على المذاهب الاربعة

تجليد أنيق	٧٠ قرشا
تجليد فاخر	٢٤٠ قرشا

الموطأ

تجليد أنيق	١٠٠ قرش
تجليد فاخر	٢٧٠ قرشا

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم

تجليد أنيق	١٢٥ قرشا
تجليد فاخر	٣٠٠ قرش

نهج البلاغة

تجليد أنيق	٩٠ قرشا
تجليد فاخر	٢٦٠ قرشا

دائرة المعارف الاسلامية

تجليد أنيق كل مجلد ٨ اعداد

١١٥ قرشا

المصحف المفسر

تجليد عادى	٨٠ قرشا
تجليد أنيق	١٠٠ قرش
تجليد فاخر	٣٠٠ قرش

احياء علوم الدين

تجليد أنيق ٤ مجلدات ٥٠٠ قرش

مليم جنيه

تجليد فاخر ٤ مجلدات ٢٠٠ ١٤

اسد الغابة فى معرفة الصحابة

المجلد الاول ٦ أعداد

تجليد أنيق	٩٠ قرشا
تجليد فاخر	٢٦٠ قرشا

الف ليلة وليلة

تجليد أنيق ٢ مجلد ٢٥٠ قرشا

تجليد فاخر ٢ مجلد ٥٠٠ قرش

لك يا سيدتى

مجلد يضم :

اشغال الصوف والتريكو

فن التفصيل والحياكة

فن الطهى

فن تربية الطفل

تجليد أنيق	١٠٠ قرش
تجليد فاخر	٢٧٥ قرشا

وقال أبو عمرو العَبْدى : (السائحون) الذين يديمون الصيام من المؤمنين .

وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا ، وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا حكيم بن حزام ، حدثنا سليمان ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السائحون هم الصائمون (١) » .

وهذا الموقوف أصح .

وقال أيضا : حدثنى يونس ، عن ابن وهب ، عن عمر بن الحارث ، عن عمرو بن دينار ، عن عُبَيد بن عُمَير قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال : « هم الصائمون(٢) » .

وهذا مرسل جيد .

فهذه أصح الأقوال وأشهرها ، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، وهو ما روى أبو داود فى سننه ، من حديث أبى أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله ، ائذن لى فى السياحة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله (٣) » .

وقال ابن المبارك، عن ابن لَهيعة : أخبرنى عُمارة بن غَزِيَّة : أن السياحة ذُكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله ، والتكبير على كل شرف » .

وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون : رواهما ابن أبى حاتم .

وليس المراد من السياحة ماقد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض ، والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى ، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتَن والزلازل فى الدين ، كما ثبت فى صحيح البخارى ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال، ومواقع القَطْر ، يفر بدينه من الفتَن (٤) » .

وقال العوفى وعلى بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (والحافظون لحدود الله) ، قال : القائمون بطاعة الله . وكذا قال الحسن البصرى ، وعنه رواية : (الحافظون لحدود الله) ، قال : لفرائض الله ، وفى رواية : القائمون على أمر الله .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٨٧ : ١٤ / ٥٠٣ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٨٦ : ١٤ / ٥٠٢ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « النهى عن السياحة » .
(٤) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « من الدين الفرار من الفتن » : ١ / ١١ . وكتاب الفتن ، باب « التعرب - أى السكنى مع الأعراب - فى الفتنة » : ٩ / ٦٦ . والشعف - بفتحتين - واحدها شعفة ، وهى : أعلى الجبل .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن ابن المسيب ، عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أيْ عمّ ، قل : « لا إله إلا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله عز وجل . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : ياأبا طالب ، أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ [قال : فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب] (١) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عنك : فنزلت : (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) ، قال : ونزلت فيه : (إنك لاتهدى من (٢) أحببت) ، أخرجاه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، أخبرنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الخليل ، عن على رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه ، وهما مشركان ، فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) إلى قوله : (فلما تبين له أنه عدوّ لله) ، قال : « لما مات » ، فلا أدرى قاله سفيان أو قاله إسرائيل ، أو هو فى الحديث لما مات (٤) .

قلت هذا ثابت عن مجاهد أنه قال : لما مات (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا زبيد بن الحارث اليامى ، عن محارب بن دثار ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذْرِفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفدّاه بالأب والأم ، وقال : يارسول الله ، مالك ؟ قال : إنى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لأمّى ، فلم يأذن لى ، فدمعت عيناى رحمة لها من النار ، وإنى كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، لتذكركم زيارتُها خيراً . ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث ، فكلوا وأمسكوا ماشئتم . ونهيتكم عن الأشربة فى الأوعية ، فاشربوا فى أىّ وعاء ولا تشربوا مسكرا . (٦) .

---

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت من مسند الإمام أحمد .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣٣ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة التوبة : ٦/٨٧ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أول الإيمان قول لا إله إلا الله » : ١/٤٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٩٩ . وقوله : « فلا أدرى قاله سفيان » ... إلخ ، يعنى أن يحيى بن آدم شك فى لفظ « لما مات » أهو من أصل الحديث من كلام على ، أم هو بيان من سفيان الثورى ، أم من إسرائيل بن يونس بن أبى إسحاق السبيعى . ويظهر من هذا أن يحيى بن آدم سمعه أيضاً من إسرائيل عن جده أبى إسحاق ، ينظر مسند الإمام أحمد ، ط دار المعارف : ٢/١١٦ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٢٤٧ : ١٤/٥١٩ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٥٥ .

وروى ابن جرير ، من حديث علقمة بن مرثد ، عن سليان بن بريدة ، عن أبيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قبر ، فجلس إليه ، فجعل يخاطب ، ثم قام مستعبراً . فقلنا : يا رسول الله ، إنا رابنا ما صنعت (١) ؛ قال : إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي : فما رؤي باكيا أكثر من يومئذ (٢)

وقال ابن أبي حاتم ، في تفسيره : حدثنا أبي ، حدثنا خالد بن خداش ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ابن جريج ، عن أيوب بن هانىء ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر ، فاتبعناه ، فجاء حتى جلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا [لبكائه] ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب ، فدعاه ثم دعانا ، فقال : ماأبكاكم ؟ فقلنا : بكينا لبكائك . قال : إن القبر الذي جلستُ عنده قبر آمنة ، وإني استأذنتُ ربي في زيارتها فأذن لي ، [ثم أورده من وجه آخر ، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبا منه ، وفيه] : وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي ، وأنزل علي : (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) ، فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة ، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة (٣) »

حديث آخر في معناه ، قال الطبراني : حدثنا محمد بن علي المروزي ، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر ، فلما هبط من ثنية عُسْفان أمر أصحابه : أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه ، فناجى ربه طويلا ، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه ، وبكى هؤلاء لبكائه ، وقالوا : مابكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أُحدث في أمته شيء لاتُطيقه : فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم ، فقال : مايبكيكم ؟ قالوا : يانبي الله ، بكينا لبكائك ، فقلنا : لعله أحدث في أمتك شيء لاتُطيقه ، قال : لا ، وقد كان بعضه ، ولكن نزلت على قبر أمي فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة ، فأبى الله أن يأذن لي ، فرحمتها وهي أمي ، فبكيت ، ثم جاءني جبريل فقال : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) ، فتبرأ أنت من أمك ، كما تبرأ إبراهيم من أبيه ، فرحمتُها وهي أمي ، ودعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً ، فرفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوتُ ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغَرَق من الأرض ، وأن لايلبسهم شيعا ، وأن لايذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج ، وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كَدَاء ، وكانت عُسْفان لهم (٤)

وهذا حديث غريب وسياق عجيب ، وأغرب منه وأشد نكارة مارواه الخطيب البغدادي في كتابه : السابق واللاحق

---

(١) في تفسير الطبري : « إنا رأينا » . وما أثبتناه عن مخطوطة الأزهر . ورابه الشيء يريبه : جعله شاكاً .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٣٣٠ : ١٤/١٢ .

(٣) الأثر في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل : ٢٨٣/٣ ، ٢٨٤ .

(٤) الأثر في الدر المنثور عن الطبراني وابن مردويه : ٢٨٣/٣ .

بسند مجهول ، عن عائشة فى حديث فيه قصة أن الله أحيا أمَّه فآمنت ثم عادت . وكذلك مارواه السهيلى فى « الروض » بسند فيه جَماعة مجهولون : أن الله أحيا له أباه وأمه ، فآمنا به (١)

وقد قال الحافظ ابن دِحْيَة : (٢) [هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع ، قال الله تعالى : (ولا الذين يموتون وهم كفار) . وقال أبو عبد الله القرطبى : إن مقتضى هذا الحديث . . . وردَّ علَى ابن دِحْيَة] (٣) فى هذا الاستدلال بما حاصله : أن هذه حياة جديدة ، كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى علىٌّ العصر ، قال الطحاوى : وهو ثابت ، يعنى حديث الشمس

قال القرطبى : فليس إحياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعا ، قال : وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب ، فآمن به

قلت : وهذا كله متوقف على صحة الحديث ، فإذا صح فلا مانع منه ، والله أعلم .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر لأمه ، فنهاه الله عن ذلك ، فقال : « فإنَّ إبرهيم خليل الله قد استغفر لأبيه ، فأنزل الله : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) » . (٤) الآية

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس، فى هذه الآية : كانوا يستغفرُون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما [نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا] ، (٥) ثم أنزل الله : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) . » . الآية

وقال قتادة فى هذه الآية : ذُكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : يانبى الله ، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ، ويفُكُّ العانى ، ويوفى بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ قال : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بلى ، والله إنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه . فأنزل الله : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا

---

(١) الروض الأنف للسهيلى : ١/١١٣ ، ولفظ السهيلى : « وروى حديث غريب لعله أن يصح ، وجدته بخط جدى أبى عمران [كذا] أحمد بن أبى الحسن القاضى رحمه الله بسند فيه مجهولون ، ذكر أنه نقله من كتاب انتسخ من كتاب معوذ ابن داود بن معوذ الزاهد ، يرفعه إلى أبى الزناد ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها أخبرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يحيى أبويه ، فأحياهما له ، وآمنا ، ثم أماتهما الله . والله قادر على كل شىء ، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شىء ، ونبيه عليه السلام أهل أن يخصه بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته صلوات الله عليه وآله وسلم » .

ثم ذكر السهيلى ما رواه الخطيب فى كتابه « السابق واللاحق » .

هذا وقد وسم السهيلى هذا الحديث بالضعف ، فيما بعد ، عند ذكر وفاة أبى طالب ، ينظر الروض : ١/٢٥٩ .

(٢) هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن محمد بن الجميل بن دحيه الكلبى الأندلسى ، المتوفى سنة ٦٣٣ ، تلمذ للسهيلى وروى عنه ، ودخل القاهرة ، وله بنى الكامل دار الحديث الكاملية ، وجعله شيخها . ينظر بغية الوعاة للسيوطى : ٢/٢١٨ .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة . وقول ابن دحية ذكره القرطبى فى كتابه « التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة » : ١٥ . وتسوق رد أبى عبد الله القرطبى بعد أن ذكر كلام ابن دحيه : « ذكره الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية ، وفيه نظر ؛ وذلك أن فضائل النبى صلى الله عليه وسلم وخصائصه لم تزل تتوالى وتتتابع إلى حين مماته ، فيكون هذا مما فضله الله تعالى وأكرمه به ، وليس إحياؤهما وإيمانهما بممتنع عقلا ولا شرعاً » . ثم ذكر إحياء قتيل بنى إسرائيل ، وإخباره عن قاتله ، وذكر أيضاً حديث الشمس .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٣١ : ١٤/٥١٢ .

(٥) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٣٢ : ١٤/٥١٣ .

للمشركين) ، حتى بلغ : (الجحيم) ، ثم عذر الله تعالى إبراهيم ، فقال : (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) قال : (وذُكر لنا أن نبي الله قال : « أوحِيَ إلىّ كلمات ، فدخلن فى أذني ووقَرْن فى قلبى : أمِرْتُ أن لا أستغفرَ لمن مات مشركا ، ومن أعطى فَضْلَ ماله فهو خيرٌ له، ومن أمسك فهو شرٌ له ، ولا يلوم الله على كَفَاف »(١) :

وقال الثورى ، عن الشيبانى ، عن سعيد بن جُبَير قال : مات رجل يهودى وله ابن مسلم ، فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغى له أن يمشى معه ويدفنه ، ويدعو له بالصلاح مادام حيا ، فاذا مات وَكَلَه إلى شأنه ، ثم قال : (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) ، لم يَدْعُ (٢)

وهذا يشهد له بالصحة ماروواه أبو داود وغيره ، عن على بن أبى طالب قال : لما مات أبو طالب قلت : يارسول الله ، إن عمك الشيخ الضال قد مات . قال : اذهب فَوَارِهْ ولا تُحْدِثَنّ شيئا حتى تأتينى : وذكر تمام الحديث(٣) :

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مرّت به جنازة عمه أبي طالب قال : وَصَلَتْكَ رَحِمٌ ياعم :

وقال عطاء بن أبى رباح : ماكنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا ، لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، يقول الله عز وجل : (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين)

وروى ابنُ جرير ، عن ابن وكيع ،عن أبيه ، عن عصمة بن زامل عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول : رحم الله رجلا استغفر لأبى هريرة ولأمه . قلت : ولأبيه ؟ قال : لا ، قال إن أبى مات مشركا (٤)

وقوله : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) ، قال ابن عباس : مازال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه : وفى رواية : لما مات تبين له أنه عدو لله (٥)

وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم رحمهم الله :

وقال عُبَيد بن عُمَير ، وسعيد بن جُبَير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه ، وعلى وجهه أبيه الغَبَرة والقَتَرة فيقول : ياإبراهيم ، إنى كنت أعصيك وإنى اليوم لاأعصيك .. فيقول : أىْ رَبى ، ألم تعدنى ان لاتخزنى يوم يبعثون؟ فأىّ خزْى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقال : انظر إلى ماوراءك ، فاذا هو بِذِيخٍ (٦) متلطخ ، أى : قد مسخ ضِبْعاناً(٧)، ثم يسحب بقوائمه ، ويلقى فى النار :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٣٣ : ١٤/١٣ .
والكفاف – بفتح الكاف – : من الرزق على قدر الحاجة ، لا يفضل منه شيء ، وإذا لم يكن المرء فضل عن حاجته ، لم يلمه الله على أن لا يعطى أحـداً .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٣٦ : ١٤/١٦ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، باب الرجل يموت له قرابة مشرك ، الحديث ٣٢١٤ : ٣/٢١٤ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٣٩ : ١٤/١٧ .

(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١٤/١٩ .

(٦) الذيخ – بكسر الذال – : ذكر الضباع . وأراد بالتلطخ : التلطخ برجيعه أو بالطين .

(٧) الضبعان ، بكسر فسكون : ذكر الضباع ، والأنثى : الضبع ، بفتح فضم ، ويقال للذكر أيضا : ضبع .

وقوله : (إن إبراهيم لأوّاه حليم) ، قال سفيان الثورى وغير واحد ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الأواه الدعّاء : وكذا روى من غير وجه ، عن ابن مسعود (١)

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى : حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا عبد الحميد بن بهرام ، حدثنا شهر بن حَوشب ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس قال رجل : يارسول الله ، ما الأوّاه ؟ قال : المتضرع ، قال : (إن إبراهيم لأواه حليم) (٢) ؛

ورواه ابن أبى حاتم من حديث ابن المبارك ، عن عبد الحميد بن بهرام ، به ، قال : المتضرع الدّعّاء ؛

وقال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن مسلم البَطِين عن أبى العُبَيْدَيْن (٣) أنه سأل ابن مسعود عن الأواه ، فقال : هو الرحيم (٤) ؛

وبه قال مجاهد ، وأبو ميسرة عمرو بن شُرَحبيل ، والحسن البصرى ، وقتادة : أنه الرحيم ، أى : بعباد الله ؛

وقال ابن المبارك ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الأوّاه : الموقن بلسان الحبشة . وكذا قال العوفى ، عن ابن عباس : أنه الموقن . وكذا قال مجاهد ، والضحاك . وقال على بن أبى طلحة ، ومجاهد ، عن ابن عباس : الأواه : المؤمن ــ زاد على بن أبى طلحة عنه : المؤمن التواب . وقال العوفى عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جريج : هو المؤمن بلسان الحبشة(٥) ؛

وقال أحمد : حدثنا موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن رباح ، عن عقبة بن عامر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له « ذو البجادين » : « إنه أواه » ، وذلك أنه رجل (٦) كثير الذكر لله فى القرآن ويرفع صوته فى الدعاء (٧)

ورواه ابن جرير(٨) .

وقال سعيد بن جبير ، والشعبى : الأواه المسبّح . وقال ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نفير ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أوّاه .

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٤/٥٢٣ ، ٥٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤١٦ : ١٤/٥٣١ ، ٥٣٢ .

(٣) فى مخطوطة الأزهر : « عن أبى المدر » دون نقط ، والمثبت من الطبرى ، وأبو العبيدين هو : معاوية بن سبرة بن حصين السوائى العامرى الأعمى ، ثقة ، كان ابن مسعود يدنيه ويقربه ، ينظر التهذيب : ١٠/١٠٦ ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٤/٣٧٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٣٧٠ : ١٤/٥٢٤ .

(٥) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٤/٥٢٧ ــ ٥٢٩

(٦) لفظ المسند : « وذلك أنه كان رجلا ... » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥٩ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤١٨ : ١٤/٥٢٣ .

وقال شُفَيّ بن ماتع ، عن أبي أيوب : الأواه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها .

وعن مجاهد : الأواه الحفيظ الوجل ، يذنب الذنب سرا ، ثم يتوب منه سرا .

ذكر ذلك كلّه ابن أبي حاتم ، رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربي ، عن حجاج ، عن الحكم ، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق : أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبّح ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه أواه (١)

وقال أيضا حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا ابن يمان (٢) ، حدثنا المنهال بن خليفة ، عن حَجّاج بن أرطاة ، عن عطاء ، عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن ميتا ، فقال : رحمك الله إن كنتَ لأواها ! — يعني تَلاَّءً للقرآن (٣).

وقال شعبة ، عن أبي يونس الباهلي قال سمعت رجلا بمكة — وكان أصله روميا ، وكان قاصا — يحدث عن أبي ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه : أوّه ! أوّه ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنه أواه — قال : فخرجت ذات ليلة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح .

هذا حديث غريب رواه ابن (٤) جرير ومشاه .

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : (٥) (إن إبراهيم لأواه) ، قال : كان إذا ذكر النار قال : أوّه من النار .

وقال ابن جريج عن ابن عباس (إن إبراهيم لأواه) ، قال : فقيه (٦) .

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال : إنه الدَّعّاء وهو ، المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها أياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله : (أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا) ، فحلم عنه مع أذاه له ، ودعا له واستغفر ، ولهذا قال تعالى : (إن إبراهيم لأواه حليم) (٧) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤٠٧ : ١٤/٥٢٩ .

(٢) في المخطوطة : « ابن هانىء » . والمثبت من تفسير الطبري ، وهو يحيى بن يمان العجلي ، يروى عن المنهال بن خليفة ، وعنه أبو كريب . التهذيب : ١١/٣٠٦ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤٠٩ : ١٤/٥٣٠ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤١١ : ١٤/٥٣٠ .

(٥) في المخطوطة : « وروى عن كعب الأحبار أنه قال : سمعت (إن إبراهيم) فحذفنا كلمة « سمعت » ليستقيم السياق ، ولفظ الطبري ، الأثر ١٧٤١٤/١٤/٥٣١ : « سمعت عبد الله بن رباح الأنصاري يقول : سمعت كعبا يقول : إن إبراهيم لأواه ، قال . . . » .

(٦) الأثر في تفسير الطبري برقم ١٧٤١٥ : ١٤/٥٣١ ، ويرويه ابن جريج عن مجاهد .

(٧) تفسير الطبري : ١٤/٥٣٢ .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل : إنه لايضل قوما بعد بلاغ الرسالة إليهم ، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) الآية .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون) ، قال : بيان الله عز وجل [للمؤمنين] فى الاستغفار للمشركين خاصة ، وفى بيانه طاعته ومعصيته عامة ، فافعلوا أو ذَروا (١) .

وقال ابن جرير : يقول الله تعالى : وماكان الله ليقضى عليكم فى استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله ، حتى يتقدم إليكم بالنهى عنه فتتركوا (٢) ، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهى عنه ، ثم تتعدوا نهيه إلى مانهاكم عنه ، فإنه لايحكم عليكم بالضلال ، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى ، وأما من لم يُؤمَر ولم يُنْهَ فغير كائن مطيعا أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه (٣) .

وقوله : (إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) ، قال ابن جرير : هذا تحريض (٤) من الله لعباده المؤمنين فى قتال المشركين وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لا ولى لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن أبى دلامة البغدادى ، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن صفوان بن محرز ، عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه إذ قال لهم : هل تسمعون ما أسمع ؟ قالوا مانسمع من شىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأسمع (٥) أطيط السماء وما تلام أن تئط ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه مالك ساجد أو قائم .

وقال كعب الأحبار : مامن موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها ، يرفع علم ذلك إلى الله ، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب ، وإن حملة العرش مابين كعب أحدهم إلى مُخّه مسيرة مائة عام .

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر فى سنة مُجدبة ، وحرّ شديد ، وعسر من الزاد والماء :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤١٩ : ١٤/٥٣٧ .
(٢) لفظ الطبرى : « فتتركوا الانتهاء عنه » .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤/٥٣٦ .
(٤) لفظ الطبرى : « وهذا حض من الله جل ثناؤه المؤمنين على قتال كل من كفر به من المماليك ، وإغراء منه لهم بحربهم .. » .
(٥) الأطيط : صوت الرحل ، وأنين الإبل رحمة ، والمقصود : صوت السماء .

قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم ، يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد ابن أبى هلال ، عن عتبة بن أبى عتبة ، عن نافع بن جُبَير بن مطعم ، عن عبد الله بن عباس : أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا ، فأصابنا فيه عَطَش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، [حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع(١)] ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثَه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عز وجل قد عوّدك فى الدعاء خيرا ، فادع لنا . قال : تحب ذلك ؟ : قال : نعم ! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلَّت(٢) ثم سكبت ، فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(٣) .

وقال ابن جرير فى قوله : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) ، أى : من النفقة والظَّهْر والزاد والماء ، (من بعد ما كاد تزيغ(٤) قلوب فريق منهم) ، أى : عن الحق ويَشك فى دين رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥) ويرتاب ، بالذى نالهم(٦) من المشقة والشدة فى سفره وغزوه ، (ثم تاب عليهم) ، يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ، (إنه بهم رءوف رحيم) :

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهرى ، أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن عبد الله بن كعب بن مالك — وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِى — قال : سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة غيرها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير

---

(١) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، أثبتناه من تفسير الطبرى .

(٢) فى المخطوطة : « فأهطلت » . والصواب عن تفسير الطبرى . ومعنى « فأظلت » ، أى : جاء السحاب بالظل .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٢٩ : ١٤/٥٤١ ، ٥٤٢ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر « تزيغ » بالتاء المثناة من فوق . ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٥/١٠٩ : « وقرأ حمزة وحفص « يزيغ » بالياء ... وقرأ باقى السبعة بالتاء » .

(٥) لفظ الطبرى ١٤/٥٣٩ : « ويشك فى دينه » .

(٦) أى : بسبب الذى نالهم .

أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عِير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذْكَرَ فى الناس منها وأشهر : وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى (١) بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حَرٍّ شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازاً (٢) ، واستقبل عدوا كثيرا ، فَجَلّى للمسلمين أمرهم (٣) ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وَجْهَه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب : فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل ، وأنا إليها أصعر (٤) : فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا ، فأقول لنفسى : « أنا قادر على ذلك إذا أردت » ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمّر بالناس (٥) الجِدّ ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، وقلت : الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه : فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازى : ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل [ذلك] يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط (٦) للغزو ، فهممت أن ارتحل فأدركهم ـ وليت أنى فعلتُ ـ ثم لم يُقدَّر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجتُ فى الناس بعد [خروج] رسول الله صلى الله عليه وسلم [فَطُفْتُ فيهم] يحزننى أن لا أرى إلا رجلا مغموصا (٧) عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذره الله عز وجل ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ قال رجل من بنى سَلِمة : حبسه يا رسول الله بُرْداه ، والنظر فى عطفيه (٨) : فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجّه قافلا من تبوك حضرنى بَثّى (٩) ، فطفقت أتذكر (١٠) الكَذِب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ أستعين على ذلك كلّ ذى رأى من

(١) أى سترها وكنى عنها ، وأوهم أنه يريد غيرها .

(٢) أى : برية طويلة قليلة الماء ، يخاف فيها الهلاك .

(٣) لفظ المسند : « فجلا للمسلمين أمره » .

(٤) أى : أميل .

(٥) فى المخطوطة : « حتى استمر بالناس الجد » . والمثبت عن المسند ، ولفظ البخارى .

(٦) أى : فات .

(٧) « المغموص عليه » ، من قولهم : « غمص عليه قولا قاله » ، أى : عابه ، وطعن به عليه . ويعنى : مطعوناً فى دينه ، متهما بالنفاق .

(٨) هذا كناية عن الإعجاب بنفسه ، واختياله بحسن لباسه . والعطفان : الجانبان ، فهو يتلفت من شدة خيلائه .

(٩) البث : أشد الحزن .

(١٠) لفظ المسند : « أتفكر الكذاب » .

أهلي : فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادما ، زاح عني الباطل ، وعرفت أني لم أنج منه (١)
بشيء أبدا . فأجمعتُ صدقه ، وصبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع [فيه]
ركعتين ، ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له — وكانوا بضعة وثمانين
رجلا — فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت ،
فلما سلّمت عليه تبسّم تبسم المغضَب ، ثم قال لي : تعال ، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه ، فقال لي : « ماخلّفك
ألم تك قد اشتريت (٢) ظهرك ؟ قال فقلت : يا رسول الله ، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن
أخرج من سَخَطه بعذر ، لقد أعطيتُ جدَلا ، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى به
عني ، ليوشكن الله يُسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجدُ عليّ فيه ، إني لأرجو أقرب عقبى (٣) ذلك
[عفواً] من الله عز وجل ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك — قال :
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك : فقمت وبادرني (٤) رجال من
بني سلِمة واتبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجَزت أن لا تكون اعتذرت إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك [من ذنبك] استغفار رسول الله صلى الله عليه
وسلم لك : قال : فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردت أن أرجع فأكذّبَ نفسي — قال : ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي
أحد ؟ قالوا : نعم ، [لقيه معك] رجلان قالا ماقلتَ ، وقيل لهما مثل ماقيل لك : قلت : فمن هما ؟ قالوا : مُرارة
ابن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة — قال : فمضيت
حين ذكروهما لي — قال : ونهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا — أيها الثلاثة — من بين من تخلف
عنه ، فاجتنبَنا الناس وتغيّروا لنا ، حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا
على ذلك خمسين ليلةً : فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ (٥) القوم وأجلدَهم ،
فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول في نفسي : حرّك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه ، وأسارقه النظر ،
فاذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ فاذا التفتّ نحوه أعرَض ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشَيت حتى
تسوّرت (٦) حائط أبي قتادة — وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ — فسلمت عليه ، فوالله مارد علي السلام ، فقلت
له : يا أبا قتادة ، أنشُدُك الله : هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت : قال : فعدتُ فنشدته [فسكت ، فعدت
فنشدته] ، فقال : الله ورسوله أعلم : قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة

---

(١) لفظ المسند : « أني لن أنجو منه » .

(٢) لفظ المسند : « قد استمر ظهرك » . ولفظ البخاري ومسلم : « قد ابتعت ظهرك » .

(٣) كذا لفظ مخطوطة الأزهر ، ولفظ المسند : « إني لأرجو قرة عيني عفواً من الله تبارك وتعالى » . ولفظ البخاري ومسلم : « إني لأرجو فيه عفو الله » .

(٤) لفظ المسند : « وبادرت رجال » . ولفظ البخاري ومسلم : « فقمت وثار رجال ... » .

(٥) في المخطوطة : « أشد القوم » . والمثبت عن المسند ، والبخاري ، ومسلم .

(٦) تسورته : علوته .

إذا نَبَطِيّ (١) من أنباط الشام ، ممن قدّم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفقَ الناس يشيرون له إليّ ، حتى جاء فدفع إليّ كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا ، فاذا فيه : « أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَة ، فالحق بنا نُواسكَ . قال : فقلت حين قرأتُها : (٢) وهذا أيضاً من البلاء . قال : فتيممت به التنورَ فَسَجَرته(٣) ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها ـ قال : وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك ـ قال فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ـ قال : فجاءت امرأة هلال بنُ أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسولَ الله ، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربَنَّك قالت : وإنه والله مابه حركة إلى شيء ، والله ما يزال يبكي من لدُن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا ـ قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أدرى مايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته وأنا رجل شاب ؟ قال : فلبثنا [بعد ذلك] عشر ليال ، فكَمُل لنا خمسون ليلة من حين نُهى عن كلامنا ـ قال : ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا أجالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا : قد ضاقت على نفسي ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل(٤) سلْع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ، أبشر . قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج ، فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبَل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رَجُل فرساً ، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذى سمعت صوته يبشرني ، فنزعت ثوبي ، فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم (٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ، يقولون : « ليهنِئك توبة (٦) الله عليك » . حتى دخلت المسجد ، فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد حوله الناس ، فقام إليّ طلحة ابن عبيد الله يُهرول ، حتى صافحني وهنَّأني ، والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره ـ قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرُقُ وجهُه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك . قال قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين

---

(١) النبط والأنباط والنبيط : هم فلاحو العجم .

(٢) أى : الصحيفة .

(٣) أى : أوقدته بالصحيفة .

(٤) أى : أشرف عليه .

(٥) أى : أقصد .

(٦) فى صحيح مسلم : « لتهنئك » . ويقال : هنأه بالأمر والولاية ، هنأ ـ بسكون النون ـ وهنأه تهنئة وتهنيئا ، إذا قلت له « ليهنئك » . هذا وقد جعل ابن منظور « ليهنك » دون همز من قول العامة ، وأن الصواب بالهمز ، أو بتسهيلها فيقال : « ليهنيك »

يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله ، إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت . قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه (١) الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كَذِبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى — قال : وأنزل الله تعالى : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال كعب : فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظمَ فى نفسى من صدقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أن لا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه [حين كَذَبُوه] ، فان الله تعالى قال للذين كَذَبوه (٢) حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال الله تعالى : (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) — قال : وكنا خُلِّفنا — أيها الثلاثة — عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا ، حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) ، وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذى ذَكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه (٣) .

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبا الصحيح البخارى ومسلم من حديث الزهرى ، بنحوه (٤) .

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها : وكذا رُوى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها ، كما رواه الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) ، قال : هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار (٥) .

وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى وغير واحد — وكلهم قال : مُرارة بن ربيعة .

وفى رواية عن سعيد بن جبير : ربيع بن مرارة .

وقال الحسن البصرى : ربيع بن مرارة ، أو : مرارة بن ربيع (٦) .

وفى رواية عن الضحاك : مُرارة بن الربيع ، كما وقع فى الصحيحين ، وهو الصواب (٧) .

---

(١) أى : أنعم عليه .

(٢) لفظ المسند : « وقال للذين كذبوه ، حين كذبوه شر ... » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٥٦ — ٤٥٩ .

(٤) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة تبوك : ٦/٣—٩ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه : ٨/١٠٥ — ١١٢ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٣٣ ، ١٧٤٣٤ : ١٤/٥٤٤ .

(٦) فى المخطوطة : « ربيع بن مرار ، أو مرار بن الربيع » دون هاء .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٤١ : ١٤/٥٤٥ .

وقوله : « فسمّوا رجلين شهدا بدرا » ، قيل : إنه خطأ من الزهرى ، فإنه لا يُعْرَف شُهُودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا ، والله أعلم .

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب ، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت ، أى : مع سعتها ، فسدّدت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله ، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ، أى : اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ، ومخرجا ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله،هو ابن مسعود، رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابا » (١) .

أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

وقال شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرءوا إن شئتم : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مِنَ الصادقين) — هكذا قرأها (٣) — ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة (٤) .

وعن عبد الله بن عمر : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (٥) .

وقال الضحاك : مع أبى بكر وعمر وأصحابهما (٦) .

وقال الحسن البصرى : إن أردت أن تكون مع الصادقين ، فعليك بالزهد فى الدنيا ، والكف عن أهل الملة .

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يعاتب تعالى المتخلّفينَ عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوك ، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة ، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر ، لأنهم (لا يصيبهم

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨٤ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ، وما ينهى من الكذب : ٨/٣٠ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « قبح الكذب وحسن الصدق وفضله » : ٨/٢٩ .

(٣) أى : (من الصادقين) .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٥٨ : ١٤/٥٦٠ .

(٥) الأثر فى الدر المنثور عن ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه : ٣/٢٨٩ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٥٣ : ١٤/٥٥٩ .

ظمأ) — وهو : العطش — (ولا نَصَبٌ) — وهو : التعب — (ولا مخمصة) — وهي : المجاعة — (ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار) — أي : ينزلون منزلا يُرهِبُ عدوهم — (ولا ينالون) منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قُدَرِهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم ، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا ، (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) — كما قال تعالى : (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (١)) .

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) — أي : قليلا ولا كثيرا — (ولا يقطعون وادياً) — أي : في السير إلى الأعداء — (إلا كُتِبَ لهم) — ولم يقل هاهنا « به » لأن هذه أفعال صادرة عنهم ، ولهذا قال : (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) :

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ، ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة ، والأموال الجزيلة ، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد :

حدثنا أبو موسى العَنَزِي ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثني سَكَن بن المغيرة ، حدثني الوليد بن أبي هشام ، عن فرقد أبي طلحة ، عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها (٢) . قال : ثم حث ، فقال عثمان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال : ثم نزل مِرقاة من المنبر ثم حث ، فقال عثمان بن عفان : عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بيده هكذا — يحركها . وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا (٣) .

وقال عبد الله أيضا : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ضمرة ، حدثنا عبد الله بن شَوْذَب ، عن عبد الله ابن القاسم ، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سَمُرة ، عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة — قال : فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها بيده ويقول : ما ضر ابنَ عفان ما عمل بعد اليوم ، يرددها مرارا (٤) .

وقال قتادة في قوله تعالى : (ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم) ... الآية : ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قربا .

---

(١) سورة الكهف ، آية ٣٠ .

(٢) أي : بأكسيتها ، والأحلاس : جمع حلس ، بكسر فسكون ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، والقتب بفتحتين — للبعير بمثابة البرذعة للحمار .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٧٥/٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦٣/٥ .

• ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول فى غزوة تبوك ، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال تعالى : (انفروا خفافا وثقالا (١)) ، وقال : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) (٢) ، قالوا : فنسخ ذلك بهذه الآية .

وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها ، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحى عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران فى هذا : النفير المعين وبعده ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تكون الطائفة النافرة من الحىّ إما للتفقه وإما للجهاد ، فإنه فرض كفاية على الأحياء .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) ، يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبى صلى الله عليه وسلم وحده ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) ، يعنى : عصبة ، يعنى السرايا ، ولا يتسرّوا (٣) إلا باذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبى صلى الله عليه وسلم ، قالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا ، وقد تعلمناه . فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ، ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله : (ليتفقهوا فى الدين) ، يقول : ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون (٤)) .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، خرجوا فى البوادى ، فأصابوا من الناس معروفا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا مَن وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا . فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجا ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال الله عز وجل : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير ، (ليتفقهوا) وليستمعوا ما فى الناس ، وما أنزل الله بعدهم ، (ولينذروا قومهم) ، الناس كلهم ، (إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (٥)) ؛

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٤١ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ١٢١ .
(٣) فى المخطوطة : « ولا يسيروا » . والمثبت عن تفسير الطبرى
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٧١ : ١٤/٥٦٧ ، ٥٦٨ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٦٦ : ١٤ / ٥٦٦ .

وقال قتادة في هذه الآية : هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش ، أمرهم الله أن لا يُعْرُّوا (١) نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وتقيمُ طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها ، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم (٢) .

وقال الضحاك : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يحلّ لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه ، إلا أهل العذر . وكان إذا أقام فاسترت (٣) السرايا لم يحل لهم (٤) أن ينطلقوا إلا باذنه ، فكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن ، تلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه ، فاذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا » ، فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين ، وهو قوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) ، يقول : إذا أقام رسول الله — (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) ، يعني بذلك : أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعا ونبي الله صلى الله عليه وسلم قاعد ، ولكن إذا قعد نبي الله تَسَرَّت (٥) السرايا ، وقعد معه عُظْم الناس (٦) .

وقال ابن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس : قوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) ، فانها ليست في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مُضَر بالسنين أجدبت بلادهم ، وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها حتى يحلّوا بالمدينة من الجهد ، ويعتلّوا بالاسلام وهم كاذبون : فضيقوا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم ، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله إلى عشائرهم ، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله : (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (٧) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة ، فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم ، ويقولون لنبي الله : ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا [ما نقول] لعشائرنا إذا قدمنا انطلقنا إليهم قال : فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة . وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو منا ، وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق (٨) أباه وأمه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم (٩) ، فاذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة (١٠) .

---

(١) في المخطوطة : « أن يغزوا بنبيه » ، والمثبت من تفسير الطبري .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤٧٢ : ١٤/٥٦٨ .

(٣) هذا لفظ مخطوطة الأزهر ، ولفظ الطبري : « فأسرت » . وفي اللسان : واسترى كأسرى ، قال الملك :

وحفروا فأما الجامل الجون فاسترى ✽ بليل ، وأما الحي بعد فأصبحوا

(٤) نص المخطوطة : « ولم يحل لأحد منهم أن ينطلقوا » ، وأثبتنا لفظ الطبري .

(٥) في المخطوطة : « فسرت » ، والمثبت من الطبري .

(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤٧٣ : ١٤/٥٦٨ .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤٧٤ : ١٤/٥٦٩ .

(٨) لفظ الطبري : « ليعرف أباه » .

(٩) لفظ الطبري : « وينذرون قومهم » .

(١٠) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٤٧٥ : ١٤/٥٦٩ .

وقال عكرمة : لما نزلت هذه الآية : (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما) ، (وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا) ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه .. وقد كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة)... الآية ، ونزلت : (والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له) الآية (١) .

وقال الحسن البصرى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) ، قال ليتفقه الذين خرجوا ، بما يردهم (٢) الله من الظهور على المشركين ، والنصرة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم (٣) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين فى جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة ، والطائف ، واليمن واليمامة ، وهجر ، وخيبر ، وحضرموت ، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين الله أفواجا ، شرع فى قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال ، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام .

ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجته حجة الوداع : ثم عاجلته المنية — صلوات الله وسلامه عليه — بعد الحجة بأحد وثمانين يوما ، فاختاره الله لما عنده .

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر رضى الله عنه ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل (٤) ، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد ، وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم . ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام (٥) ، وبين الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمله . ثم شرع فى تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك رسول الإله .

وكان تمام الأمر على يدى وصيه من بعده ، وولى عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبى حفص عمر بن الخطاب ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً . وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ففرقها على الوجه الشرعى ، والسبيل المرضى .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٧٧ : ١٤ / ٥٧٠ .
(٢) هذا لفظ مخطوطة الأزهر ، وفى تفسير الطبرى : « بما يريهم » .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٨٠ : ١٤ / ٥٧١ .
(٤) أى : يذهب .
(٥) الطغام : أوغاد الناس .

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار . فكسا الإسلام رياسة حلة سابغة ، وأمدت فى سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة ، وظهر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه ، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها ، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار ، امتثالا لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار (١) ، وقوله تعالى : (وليجدوا فيكم غلظة) ، [أى : وليجد الكفار منكم غلظة] عليهم فى قتالكم لهم ، فان المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر ، كما قال تعالى : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين (٢) ، وقال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)(٣) وقال تعالى : (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم)(٤) ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا الضحوك القتال » ، يعنى : أنه ضحوك فى وجه وليه ، قتال لهامة عدوه .

وقوله : (واعلموا أن الله مع المتقين) ، أى : قاتلوا الكفار ، وتوكلوا على الله ، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه .

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة ، فى غاية الاستقامة ، والقيام بطاعة الله تعالى ، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء فى سفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء فى أطراف البلاد ، وتقدموا إليها ، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام ، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام ، وأطاع أوامر الله ، وتوكل على الله ، فتح الله عليه من البلاد ، واسترجع من الأعداء بحسبه ، وبقدر ما فيه من ولاية الله ، والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصى أعدائه الكافرين ، وأن يعلى كلمتهم فى سائر الأقاليم ، إنه جواد كريم .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة) فمن المنافقين (من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا) ؟ أى : يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا ؟ قال الله تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) .

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد ، وقد بسط الكلام على هذه المسألة فى أول « شرح البخارى » رحمه الله .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٣ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .
(٣) سورة الفتح ، آية : ٢٩ .
(٤) سورة التوبة ، آية : ٧٣ ، والتحريم ، آية : ٩ .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) ، اى : زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم ، كما قال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (١) وقال تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد) (٢) . وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيىء المزاج لو غذى بما غذى به لا يزيده إلا خبالا ونقصا .

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى أولا يرى هؤلاء المنافقون (أنهم يفتنون) ، أى : يختبرون، (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) ، أى : لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم .

قال مجاهد : يختبرون بالسَّنة والجوع (٣) .

وقال قتادة : بالغزو فى السنة مرة أو مرتين .

وقال شريك ، عن جابر ـ هو الجعفى ـ عن أبى الضحى ، عن حذيفة : (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) ، قال : كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين ، فيضل بها فئام (٤) من الناس كثير : رواه ابن جرير (٥).

وفى الحديث عن أنس : لا يزداد الأمر إلا شدة ، ولا يزداد الناس إلا شحا ، وما من عام إلا والذى بعده شر منه ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم (٦) .

وقوله : (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) ، هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (نظر بعضهم إلى بعض) ، أى تلفتوا ، (هل يراكم من أحد ، ثم انصرفوا) ، أى : تولوا عن الحق وانصرفوا عنه ، وهذا حالهم فى الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كما قال تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .
(٣) السنة : الجدب والقحط . والأثر فى تفسير الطبرى : ١٤ / ٥٨٦ . وأثر قتادة بعده .
(٤) الفئام : الجماعات .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٤٩٦ : ١٤ / ٥٨١ .
(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب شدة الزمان ، الحديث ٤٠٣٩ : ٢ / ١٣٤٠ ، ١٣٤١ .

مستنفرة : فرت من قسورة)(١)، وقال تعالى : (فما للذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين)(٢) ، أى : ما لهؤلاء القوم يتفللون (٣) عنك يمينا وشمالا ، هروبا من الحق ، وذهابا إلى الباطل .

وقوله : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) ، كقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٤) ، (بأنهم قوم لا يفقهون) أى : لا يفهمون عن الله خطابه ، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم فى شُدْه (٥) عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم ، أى : من جنسهم وعلى لغتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) (٦) ، وقال تعالى : (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) (٧) ، وقال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ، أى : منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته ... وذكر الحديث :

وقال سفيان بن عُيينة ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه فى قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ، قال : لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح (٨) » .

وقد وصل هذا من وجه آخر ، كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمُزى فى كتابه « الفاصل بين الراوى والواعى (٩) » : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبى لحدثنى ، عن أبيه ، عن جده ، عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يمسنى من سفاح الجاهلية شىء (١٠) » .

---

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٩ – ٥١ .

(٢) سورة المعارج ، آية : ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) يريد : يبتعدون . وأصل معنى تفلل : انهزم ، قال ابن منظور : « وفل القوم يفلهم فلا : هزمهم ، فانفلوا وتفللوا » ومن شأن المنهزم أن يفر ويبتعد .

(٤) سورة الصف ، آية : ٥ .

(٥) أى : شغل ، يقال شده – بالبناء للمجهول – : دهش وشغل .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٢٩ .

(٧) سورة آل عمران ، آية : ١٦٤ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٠٠ : ١٤/٥٨٥ .

(٩) هو كتاب « المحدث الفاصل بين الراوى والواعى » ، قال عنه ابن حجر العسقلانى فى مقدمة نخبة الفكر : « إنه من أول ما ألف فى كتب اصطلاح أهل الحديث » . منه نسخة قديمة نفيسة بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٨٣ مصطلح .

(١٠) الدر المنثور للسيوطى عن مسند ابن أبى عمر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل وابن عساكر ، عن على ، ٢/٢٩٤ .

وقوله : (عزيز عليه ما عنتم) ، أي : يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها : ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة (١) » ، وفي الصحيح : «إن هذا الدين يسر» (٢) ، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة ، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه .

(حريص عليكم) أي : على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم .

قال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن فطر عن أبي الطفيل ، عن أبي ذر قال : تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما — قال : وقال صلى الله عليه وسلم : « ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا [أبو](٣) قطن ، حدثنا المسعودي ، عن الحسن بن سعد ، عن عبدة النهدي(٤) ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار ، كتهافت الفراش ، أو الذباب»(٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان، فيما يرى النائم ، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته : فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة(٦) فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة(٧) فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعوني؟ فقالوا : نعم : قال : فانطلق بهم ، فأوردهم رياضا معشبة ، وحياضا رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم ألفكم على تلك الحال ، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا : بلى . قال : فإن بين أيديكم رياضا هي أعشب

---

(١) مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة : ٥/٢٦٦ . وعن عائشة : ٦/٢٣٣ .

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب « الدين يسر » عن أبي هريرة : ١/١٦ ، ومسند الإمام أحمد عن عروة الفقيمي : ٥/٦٩

(٣) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد . وأبو قطن هو : عمرو بن الهيثم بن قطن — بفتح الكاف — الزبيدي ، يروى عنه الإمام أحمد ، ثقة . ينظر الخلاصة .

(٤) في المخطوطة : « الهذلي » . والمثبت من مسند الإمام أحمد ، وفي التهذيب ٦/٤٥٧ : « عبدة بن حزن النصري ، ويقال : النهدي ، أبو الوليد الكوفي ، ويقال : عبيدة ، ويقال : نصر بن حزن ، أحد بني نصر بن معاوية ، مختلف في صحبته ... روى عن ابن مسعود ... وعنه الحسن بن سعد ... » . وينظر ترجمته في الجرح لابن أبي حاتم : ٣/١/٨٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٠ .

(٦) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .

(٧) الحبرة — بزنة عنبة — : ضرب من برود اليمن .

من هذه ، وحياضا هي أروى من هذه ، فاتبعوني : فقالت طائفة : صدق ، والله لنتبعنه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه »(١) .

وقال البزار : حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا : حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي ، عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستعينه في شيء — قال عكرمة : أراه قال : « في دم » — فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت . فغضب بعض المسلمين ، وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله إليهم : أن كفوا : فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ إلى منزله ، دعا الأعرابي إلى البيت ، فقال له : إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت : فزاده رسول الله شيئا ، وقال : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل عشيرة خيراً : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت ، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدَيّ ، حتى يذهب عن صدورهم : قال : نعم . فلما جاء الأعرابي قال : إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي ، [كذلك يا أعرابي ؟] قال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل عشيرة خيراً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا . فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها ، وأعلم بها : فتوجه إليها وأخذ لها من قتام (٢) الأرض ، ودعاها حتى جاءت واستجابت ، وشدّ عليها رحلها وإنه لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار » ، ثم قال البزار لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه .

قلت : وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان ، والله أعلم .

وقوله : (بالمؤمنين رءوف رحيم) ، كما قال تعالى : (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم)(٣) .

وهكذا أمره تعالى .

وهذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : (فإن تولوا) ، أي : تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ، (فقل حسبي الله) أي : الله كافيّ ، لا إله إلا هو عليه توكلت — كما قال تعالى : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) .

(وهو رب العرش العظيم) ، أي : هو مالك كل شيء وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم ، الذي هو سقف المخلوقات

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٢٦٢ .
(٢) كذا في مخطوطة الأزهر . والقتام : الغبار .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ٢١٥ - ٢١٧ .

وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت عرشه مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل .

قال الإمام أحمد : حدثني محمد بن أبي بكر ، حدثنا بشر بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة (١) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا روح بن عبد المؤمن ، حدثنا عمر بن شقيق ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ابن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه : أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب ، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) ، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن ، فقال لهم أبيّ بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأني بعدها آيتين : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) إلى : (وهو رب العرش العظيم) قال : هذا آخر ما أنزل من القرآن قال : فختم بما فُتح به ، بالله الذي لا إله إلا هو ، وهو قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحَى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٢) : غريب أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن بحر ، حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عباد ، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنه قال: أتى الحارث بن خَزَمَةَ بهاتين الآيتين من آخر براءة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى عمر بن الخطاب ، فقال : من معك على هذا ؟ قال : لا أدري ، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها . فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن ، فضعوها فيها : فوضعوها (٣) في آخر براءة .

وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بجمع القرآن ، فأمر زيد بن ثابت فجمعه : وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك . وفي الصحيح أن زيداً قال : فوجدت آخر سورة « براءة » مع خزيمة ابن ثابت — أو : أبي خزيمة (٤) : وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها ، والله أعلم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١١٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣٤ .

(٣) لفظ المسند : « فوضعتها » . والحديث رواه الإمام أحمد في المسند : ١/١٩٩ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة براءة : ٦/٨٩ ، ٩٠ .

وقد روى أبو داود ، عن يزيد بن محمد ، عن عبد الرزاق بن عمر – وقال : كان من ثقات المسلمين من المتعبدين ، عن مدرك بن سعد – قال يزيد : شيخ ثقة – عن يونس بن ميسرة ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، إلا كفاه الله ما أهمه (١) .

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة « عبد الرزاق بن عمر » هذا ، من رواية أبي زرعة الدمشقي ، عنه ، عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد (٢) الفزاري ، عن يونس بن ميسرة بن حليس ، عن أم الدرداء ، سمعت أبا الدرداء يقول : مامن عبد يقول : حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، صادقا كان بها أو كاذبا ، إلا كفاه الله ما همّه .

وهذه زيادة غريبة . ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد ، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق ، عن جده عبد الرزاق بن عمر ، بسنده فرفعه ، فذكر مثله بالزيادة . وهذا منكر ، والله أعلم .

آخر سورة براءة ، والحمد لله وحده .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح ، ، الحديث ٥٠٨١ ، ٤/٣٢١ .
(٢) يقال « مدرك بن سعد » وابن أبي سعد . ينظر التهذيب ، ١٠/٨٩ .

تفسير سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أما الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تقدم الكلام عليها فى أوائل سورة البقرة .

وقال أبو الضحى ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (الر) ، أى : أنا الله أرى (١) . وكذا قال الضحاك وغيره .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) ، أى : هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد : (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) [قال : التوراة والإنجيل] (٢) .

وقال قتادة : (تلك آيات الكتاب) ، قال : الكتب التى كانت قبل القرآن .

وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه .

وقوله : (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا) ... الآية ، يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر ، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم : (أبشر يهدوننا)(٣) ، وقال هود وصالح لقومهما : (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) (٤) وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحدا ، إن هذا لشىء عجاب) (٥) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . قال : فأنزل الله عز وجل : (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم) (٦) .

وقوله : (أن لهم قدم صدق عند ربهم) ، اختلفوا فيه ، فقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق) يقول : سبقت لهم السعادة فى الذكر الأول (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥١٩ ، ١٥/ ٩ .
(٢) ما بين القوسين من تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٢٥ ، ١٥/ ١١ ، ومكانه بياض فى المخطوطة . وأثر قتادة بعده .
(٣) سورة التغابن ، آية : ٦ .
(٤) سورة الأعراف ، آية ، ٦٣ ، ٦٩ .
(٥) سورة ، ص ، آية ، ٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٢٧ ، ١٥/ ١٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٢٩ ، ١٥/ ١٥ .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (أن لهم قدم صدق عند ربهم) ، يقول : أجرا حسنا ، بما قدموا (١) ؛ وكذا قال الضحاك ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ وهذا كقوله تعالى : (لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا) (٢) .

وقال مجاهد : (أن لهم قدم صدق عند ربهم) ، قال : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم ، وصدقتهم وتسبيحهم(٣) قال : ومحمد صلى الله عليه وسلم شفيع لهم . وكذا قال زيد بن أسلم ، ومقاتل بن حيان .

وقال قتادة : سَلَفُ صدق عند ربهم .

واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها — قال : كما يقال : « له قدم في الإسلام » ، ومنه قول [حسان] رضي الله عنه :

لنا القَدَمُ العُليا إليك وَخَلْفُنا • لأوَّلِنا في طاعةِ اللهِ تابِعُ

وقول ذي الرُّمة :

لكُم قَدَمٌ لا يُنْكِرُ الناسُ أنها • مَعَ الحَسَبِ العادِيِّ طَمَّتْ على البَحْرِ

وقوله تعالى : (قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين) ، أي : مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم ، رجلا من جنسهم ، بشيراً ونذيراً ، (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) ، أي : ظاهر ، وهم الكاذبون في ذلك .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام — قيل : كهذه الأيام ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون . كما سيأتي بيانه ، ثم استوى على العرش ، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا حجاج بن حمزة ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال : سمعت سعدا الطائي يقول : العرش يا قوتة حمراء .

وقال وهب بن منبه : خلقه الله من نوره .

وهذا غريب .

(يدبر الأمر) ، أي : يدبر أمر الخلائق ، (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) (٤) ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلّطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٥٣١ : ١٥/١٤ .
(٢) سورة الكهف ، آية : ٢ ، ٣ .
(٣) تفسير الطبري ، : ١٥ ، ١٤ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٣ .

والبحار والعمران والقفار ، (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين) (١) : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)(٢) :

وقال الدراوردى ، عن سعد بن إسحاق بن كعب أنه قال حين نزلت هذه الآية : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) لقيهم ركب عظيم من العرب ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا . من الجن ، خرجنا من المدينة ؛ أخرجتنا هذه الآية . رواه ابن أبى حاتم .

(ما من شفيع إلا من بعد إذنه) ، كقوله تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) (٣) ، وكقوله تعالى : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) (٤) وقوله : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن آذن له)(٥) .

وقوله : (ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) ، أى : أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، (أفلا تذكرون) ، أى : أيها المشركون فى أمركم ، تعبدون مع الله غيره ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق ، كقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله) (٦) ، وقوله : (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل : أفلا تتقون) (٧) ، وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها :

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة ، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه : ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ، (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (٨) :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) ، أى : بالعدل والجزاء الأوفى ، (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ، أى : بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب ، من (سموم وحميم ، وظل من يحموم)(٩) ، (هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج) (١٠) ، (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون : يطوفون بينها وبين حميم آن)(١١) :

(١) سورة هود ، آية : ٦ .
(٢) سورة الأنعام آيه : ٥٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .
(٤) سورة النجم ، آية : ٢٦ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٨٧ .
(٧) سورة « المؤمنون » ، آية : ٨٦ ، ٨٧ .
(٨) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٩) سورة الواقعة آية : ٤٢ : ٤٣ .
(١٠) سورة ص آية : ٥٧ ، ٥٨ .
(١١) سورة الرحمن آية : ٤٣ ، ٤٤ .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نُوره وجرمه ، حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر ، كما قال تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون)(١) ، وقال : (والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) (٢)

وقال في هذه الآية الكريمة : (وقدره) ، أي : القمر (منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام :

(ما خلق الله ذلك إلا بالحق) ، أي : لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك ، وحجة بالغة ، كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)(٣) وقال تعالى :(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون : فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)(٤) .

وقوله : (نفصل الآيات) ، أي : نبين الحجج والأدلة (لقوم يعلمون) :

وقوله : (إن في اختلاف الليل والنهار) ، أي : تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئا ، كما قال تعالى : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا(٥)) ، وقال : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر(٦) ولا الليل سابق النهار) ، وقال تعالى : (فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا(٧) : والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم(٨)) :

---

(١) سورة « يس » ، آية : ٤٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .
(٣) سورة « ص » ، آية : ٢٧ .
(٤) سورة « المؤمنون » ، آية : ١١٥ ، ١١٦ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ٥ .
(٦) سورة « يس » ، آية : ٤٠ .
(٧) هذا لفظ مخطوطة الأزهر ، ويقول أبو حيان في البحر المحيط ٤/١٨٦ : « وقرأ الكوفيون (وجعل الليل) ، فعلا ماضياً ... وقرأ باقي السبعة : « وجاعل » ، باسم الفاعل ، مضافاً إلى الليل » .
(٨) سورة الأنعام ، آية ٩٦ .

وقوله : (وما خلق الله فى السموات والأرض) ، أى : من الآيات الدالة على عظمته تعالى ، كما قال : (وكأين من آية فى السموات والأرض(١)) ... الآية

[وقوله : (قل انظروا ما فى السموات والأرض] وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(٢)) ، وقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض(٣)) ، وقال : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب (٤)) ، أى : العقول ، وقال هاهنا : (لآيات لقوم يتقون) ، أى : عقاب الله ، وسخطه ، وعذابه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقاء الله شيئا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم .

قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها ، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار ، جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وامتثلوا ما أمروا ، فعملوا الصالحات ، بأنه سيهديهم بإيمانهم .

يحتمل أن تكون « الباء » ها هنا سببية ، فتقديره : بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط ، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة . ويحتمل أن تكون للاستعانة ، كما قال مجاهد فى قوله : (يهديهم ربهم بإيمانهم) ، قال : [يكون لهم نورا يمشون(٥) به] .

وقال ابن جريج فى الآية : يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره ، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك . فيجعل له نورا . من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله

---

(١) سورة يوسف ، آية ١٠٥ .
(٢) سورة يونس ، آية ١٠١ .
(٣) سورة سبأ ، آية ٩٥ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٩٠ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٥٩ : ١٥/٢٨ .

تعالى : (يهديهم ربهم بإيمانهم) . والكافر يَتَمَثَّلُ له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلازُّه حتى يقذفه فى النار(٢) .

وروى نحوه عن قتادة مرسلا ، فالله أعلم .

وقوله : (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، أى : هذا حال أهل الجنة .

قال ابن جريج : أخبرتُ أن قوله : (دعواهم فيها سبحانك اللهم) ، [قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه ، قالوا : سبحانك اللهم(٣)] ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه ، فيسلم عليهم ، فيردون عليه ، فذلك قوله : (وتحيتهم فيها سلام) ، قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم ، فذلك قوله : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين(٤) .

وقال مقاتل بن حيان : إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم : (سبحانك اللهم) ، قال : فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم صحفة من ذهب ، فيها طعام ليس فى الأخرى ، قال : فيأكل منهن كلهن .

وقال سفيان الثورى : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشىء قال : (سبحانك اللهم) .

وهذه الآية فيها شبه من قوله : (تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريما)(٥) ، وقوله : (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) (٦) ، وقوله : (سلام قولا من رب رحيم)(٧) ، وقوله : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٨) .

وقوله : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفى ابتداء كتابه ، وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) (٩) ، (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) (١٠) إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها ، وأنه المحمود فى الأول، والآخر، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فى جميع الأحوال ، ولهذا جاء فى الحديث : «إن أهل الجنة يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد كما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ(١١)». وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم ، فتكرّر وتعاد وتزاد ، فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

---

(١) أى : يلزمه ويلصق به .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٦٢ : ٢٨/١٥ .

(٣) ما بين القوسين وضع فى غير موضعه فى مخطوطة الأزهر ، والمثبت من تفسير الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٦٣ : ٢٨/١٥ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية : ٤٤ .

(٦) سورة الواقعة ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٧) سورة « يس » ، آية : ٥٨ .

(٨) سورة الرعد ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .

(٩) سورة الكهف ، آية : ١ .

(١٠) سورة الأنعام ، آية : ١ .

(١١) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « فى صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشية » ، عن جابر بن عبد الله : ١٤٧/٨ . ومسند الإمام أحمد عن جابر أيضاً : ٣٤٩/٣ ، ٣٥٤ ، ٣٨٤ .

• ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده : أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم ، فى حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم – والحالة هذه – لطفا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء ، ولهذا قال : (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) ، أى : لو استجاب لهم كلما دعوه به فى ذلك ، لأهلكهم ، ولكن لا ينبغى الإكثار من ذلك ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا حاتم بن إسماعيل ، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حزرة ، عن عبادة بن الوليد ، حدثنا جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم : لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم» .

ورواه أبو داود ، من حديث حاتم بن إسماعيل ، به (١) .

وقال البزار : تفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصارى ، لم يشاركه أحد فيه ، وهذا كقوله تعالى : (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا (٢)) .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) : وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه : «اللهم لا تبارك فيه والعنه» : فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك ، كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم (٣) .

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر ، [كقوله : (وإذا مسه الشر] فذو دعاء عريض (٤)) ، أى : كثير ، وهما فى معنى واحد ، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها ، وأكثر الدعاء عند ذلك ، فدعا الله

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب «النهى عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله» ، الحديث ١٥٣٢ : ٢/٨٨ .
ورواه مسلم ، فى كتاب الزهد ، باب «حديث جابر الطويل» : ٨/٢٣٣ .
(٢) سورة الإسراء آية : ١١ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٧٣ : ١٥/٣٤ ، ٣٥ .
(٤) سورة فصلت ، آية ٥١ .

في كشفها وزوالها عنه في [حال] اضطجاعه وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فاذا فرّج الله شدته وكشف كربته ، أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ، (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) .

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد ، فإنه مستثنى من ذلك ، كما قال تعالى : (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات (١)) ، وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً لأمر المؤمن ؛ لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له (٢) » : وليس ذلك لأحد إلا المؤمن .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية ، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم ، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا حلوة خَضِرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء (٣) » .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا زيد بن عوف ، أبو ربيعة ، فهد (٤) ، حدثنا ، حماد ، عن ثابت البُنَاني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى : أن عوف بن مالك قال لأبي بكر : رأيت فيما يرى النائم كأن سَبَبَاً (٥) دُلّي من السماء ، فانتُشِط (٦) رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أعيد ، فانتُشِط أبوبكر ، ثم ذُرِعَ (٧) الناس حول المنبر ، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر . فقال عمر : دعنا من رؤياك ، لا أرَبَ لنا فيها ! فلما استخلف عمر قال : ياعوف ، رؤياك ! فقال : وهل لك في رؤياي من حاجة ؟ أو لم تنتهرني؟ فقال : ويحك ! إني كرهت أن تنعَى لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ! فقصّ عليه الرؤيا ، حتى إذا بلغ : « ذُرِع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع » ، قال : أما إحداهن فإنه كائن خليفة . وأما الثانية فإنه لايخاف في الله لومة لائم . وأما الثالثة فانه شهيد . قال فقال : يقول الله تعالى: (ثم جعلنا كم

(١) سورة هود ، آية ١١ .

(٢) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « المؤمن أمره كله خير » ٢٢٧/٨ ، ومسند الإمام أحمد عن صهيب بن سنان رضي الله عنه ، ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، ١٥/٦ .

(٣) مسلم ، كتاب الرقاق ، باب « أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء » ، عن أبي سعيد الخدري : ٨٩/٨ .

(٤) في المخطوطة مكان « فهد » : « سهد » . والمثبت من تفسير الطبري ، وزيد بن عوف يكنى أبا ربيعة ، وأما « فهد » فلقبه ، ينظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٥٧٠/٢/١ .

(٥) السبب : الحبل .

(٦) أي : انتزع وجذب إلى السماء .

(٧) أي : قدر ما بينهم وبين المنبر بالذراع ، يقال ، وشرح الشرح ، لفظ قضية بالذراع .

خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ، فقد استُخلفتَ يا ابن أمّ عمر ، فانظر كيف تعمل ؟ وأما قوله : « فإنى لا أخاف فى الله لومة لائم » ، فما شاء الله ! . وأما قوله (شهيد) ، فأنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به (١) ؟

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن تعنّت الكفار من مشركى قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كتابَ الله وحُجَجه الواضحة قالوا له : « ائت بقرآن غير هذا » ؛ أى : رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ، أو بدّله إلى وضع آخر ــ قال الله لنبيه صلوات الله عليه وسلامه عليه (قل : مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى)، أى : ليس هذا إلىّ ، إنما أنا عبد مأمور ، ورسول مبلغ عن الله ، (إن أتبع إلا مايوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) :

ثم قال محتجا عليهم فى صحة ما جاءهم به : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) ، أى : هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أنى لست أتقوله من عندى ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل ، لا تنتقدون على شيئا تغمصونى (٢) به ، ولهذا قال : (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) ، أى : أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه ، فيما سأله من صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا ــ وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق :

ـ والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ ـ

فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله : !

وقال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة : وعن سعيد بن المسيب : ثلاثا وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما (ممن افترى على الله كذبا) ، وتقوّل على الله ، وزعم أن الله أرسله ، ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء،

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٥٨٠ : ١٠/ ٢٩ .

(٢) غمصه : احتقره وعابه وتهاون بحقه .

فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ! فإن مَن قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا ، فلابد أن الله ينصب عليه من الأدلة على برّه أو فُجُوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل فى حِنْدس الظلماء ، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدلّ من له بصيرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكَذب مسيلمة الكذاب ، وسَجَاح ، والأسود العَنْسِيّ .

قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل (١) الناسُ ، فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، [وصلوا الأرحام] ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام (٢) » .

ولما قدم ضِمام بن ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومه بنى سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له : مَنْ رفع هذه السماء ؟ قال : الله . قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : الله . قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : الله . قال : فبالذى رفع هذه السماء ، ونصب هذه الجبال ، وسطّح هذه الأرض ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : اللهم نعم . ثم سأله عن الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام ، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : صدقت ، والذى بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص (٣) .

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه – صلوات الله وسلامه عليه – بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه ، كما قال حسان بن ثابت (٤) :

لو لم تكُنْ فيه آياتٌ مُبَيّنة • كانت بَدِيهَتُه تأتيكَ بالخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوِى البصائر ، علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التى ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذى يخلد به فى النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكم من فرق بين قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم) – وبين عُلاك(٥) مسيلمة قبحه الله ولعنه : « يا ضفدع بنت الضفدعين ، نقى كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » : وقوله – قُبِّح ولعن(٦) – : لقد أنعم الله على الحبلى ، إذ أخرج منها نَسَمة تسعى ،

---

(١) أى : هرب الناس .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٥١ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢/٥٧٣ ، ٥٧٥ ، وتاريخ الطبرى : ٣/١٢٤ ، ١٢٥ ، وأسد الغابة ، الترجمة ٢٥٦٨ : ٣/٥٧ ، ٥٨ بتحقيقنا .

(٤) لم نجده فى ديوان حسان .

(٥) العلاك – بضم العين وفتحها – ما يعلك ويمضغ .

(٦) فى المخطوطة : « قبح وأمن » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

من بين صِفَاق وحَشَّى (١) » ؛ وقوله ـ خَدَّره (٢) الله فى نار جهنم ، وقد فعل ـ : « الفيل وما [أدراك ما] الفيل؟ له زُلْقُوم (٣) طويل : وقوله ـ أبعده الله من رحمته : « والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، إن قريشا قوم يعتدون » : إلى غير ذلك من الهذيانات والخرافات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها ، إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم « حديقة الموت (٤) » حتفه . ومزّق شمله . ولعنه صحبُه وأهله . وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا فى دين الله راغبين ، فسألهم الصديق خليفة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ، ورضى عنه ـ أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله ، فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم [إلا] أن يقرأوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس ، فيعرفوا فضل ماهم عليه من الهدى والعلم . فقرأوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضى الله عنه : ويحكم ! أين كان يَذْهَب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إلّ (٥) .

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة ، وكان صديقا له فى الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعدُ ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ! ماذا أنزل على صاحبكم ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وماهى ؟ فقال : (والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . ، ففكر مسيلمة ساعة ، ثم قال : وقد أنزل علىّ مثله : فقال : وما هو ؟ فقال : « ياوَبْرُ (٦) ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حَقْرٌ نَقْر ، كيف ترى يا عمرو ؟ » فقال له عمرو : « والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك لتكذب » ، فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه ، لم يشتبه عليه [حال] محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه ، وحال مسيلمة ـ لعنه الله ـ وكذبه ، فكيف بأولى البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ! ولهذا قال الله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال: أوحى إلى ،

---

(١) الصفاق ـ بكسر الصاد ـ : الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر ، أو هو ما بين الجلد والمصران . ، والحشى ـ بفتح الحاء والشين ـ : ما دون الحجاب مما فى البطن كله ، من الكبد والطحال والكرش .

(٢) أى : ألزمه النار ، من قولهم « جارية مخدرة » ، إذا ألزمت الخدر .

(٣) فى المخطوطة « زلوم » . ولم نجده ، وزلقوم الفيل ـ كما فى مستدرك تاج العروس : حلقومه .

(٤) الحديقة : اسم لبستان كان بأرض اليمامة ، فيها قتل مسيلمة الكذاب ، وأصحابه يسمونها « حديقة الموت » . ينظر مراصد الاطلاع : ١/ ٣٨٧ ..

(٥) أى : من ربوبية ، والإل ـ بكسر الهمزة ـ : هو الله تعالى ، وقيل : « الإل » هو الأصل الجيد ، أ : لم يجىء من الأصل الذى جاء منه القرآن . وقيل : « الإل » النسب والقرابة ، فيكون المعنى : إن هذا كلام غير صادر عن مناسبة الحق ، والإدلاء بسبب بينه وبين الصدق .

(٦) الوبر ـ بتسكين العين ـ : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء ، من دواب الصحراء ، حسنة العينين ، شديدة الحياء ، تكون بالغور ، والأنثى : وبرة .

وفى اللسان : « والعرب تقول : قالت الأرنب للوبر : وبر وبر ، عجز وصدر ، وسائرك حقر نقر . فقال لها الوبر : أران أران ، عجز وكتفان ، وسائرك أكلتان » .

والحقر ـ بتسكين العين ـ والحقير : الصغير الذليل . ويقال : « حقير نقير ، وحقر ونقر » ، وهذا من أساليب الإتباع ، ويقال أيضاً : « حقرت ونقرت » .

ولم يوح إليه شيء ، ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله) (١) ، وقال فى هذه الآية الكريمة : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون) (٢) ، وكذلك من كذّب بالحق الذى جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما جاء فى الحديث : « أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبيا ، أو قتله نبي (٣) » .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله ، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبدا ، ولهذا قال تعالى : (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) .

وقال ابن جرير : « معناه : أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض (٤) ؟ » .

ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم ، فقال : (سبحانه وتعالى عما يشركون) .

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس ، كائن بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد ، وهو الإسلام ؛ قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس ، وعُبِدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث الله الرسلَ بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة وبراهينه الدامغة ، (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة (٥)) .

وقوله : (ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون) ، أى : لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا ، فأسعد المؤمنين ، وأعنَتَ الكافرين .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أى : ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : « لو لا أنزل على محمد آية من ربه » ، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة ، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا ، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا ، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم فى أفعاله وأقواله ، كما قال تعالى : (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٩٣ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٢١ .

(٣) رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ٤٠٧/١ ، ولفظه : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبى ، أو قتل نبياً ، وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين » .

(٤) تفسير الطبرى : ٤٦/١٥ .

(٥) سورة الأنفال ، آية : ٤٢ .

تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا . بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا(١)) وقال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا (٢)) يقول تعالى : إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا ، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة : ولهذا لما خُيّر رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أن يُعطى ما سألوا ، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا ، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم ، اختار إنظارهم ، كما حلم عنهم غير مرة ــ صلوات الله عليه ــ : ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا : (فقل إنما الغيب لله) ، أي : الأمر كله لله ، وهو يعلم العواقب في الأمور ، (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) ، أي : إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم ، فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم : هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته عليه السلام أعظم مما سألوا ، حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره ، فانشق باثنتين : فرقة من وراء الجبل ، وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبتا لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا ، فتركهم فيما رابهم ، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون : ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (٣) : وقال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (٤)) ولما فيهم من المكابرة ، كما قال تعالى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (٥)) ، وقال تعالى: (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم(٦)، وقال تعالى : (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧)) ، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا ، لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء ، لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم ، لكثرة فجورهم وفسادهم ، ولهذا قال : (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) ،

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٥٩ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .

(٥) سورة الحجر ، آية : ١٤ ، ١٥ .

(٦) سورة الطور ، آية : ٤٤ .

(٧) سورة الأنعام ، آية : ٧ .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ، (إذا لهم مكر فى آياتنا) .

قال مجاهد : « استهزاء وتكذيب » : كما قال : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مَسَّه (١)) ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر سماء — مطر — أصابهم من الليل ثم قال : « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب (٢) » .

وقوله : (قل الله أسرع مكرا) ، أى : أشد استدراجا وإمهالا ، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب ، وإنما هو فى مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه ، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ، ويحصونه عليه ، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة ، فيجازيه على الحقير والجليل ، والنقير والقطمير .

ثم أخبر تعالى أنه (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) ، أى : يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ، (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) ، أى : بسرعة سيرهم رافقين (٣) ، فبينما هم كذلك إذ (جاءتها) ، أى : تلك السفن (ريح عاصف) ، أى : شديدة (وجاءهم الموج من كل مكان) ، أى : اغتلم (٤) البحر عليهم ، (وظنوا أنهم أحيط بهم) ، أى : هلكوا (دعوا الله مخلصين له الدين) ، أى : لا يدعون معه صنما ولا وثنا ، بل يفردونه بالدعاء والابتهال كما قال تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا) (٥) ، وقال هاهنا : (دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه) ، أى : هذه الحال

---

(١) سورة يونس ، آية ١٢ .

(٢) البخارى ، كتاب الإستسقاء ، باب قول الله تعالى : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ، ٢/٤١ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان كفر من قال : مطرنا بنوء » ، ١/٥٩ .

(٣) أى : فى رفق .

(٤) أى : اشتد وهاج واضطرب .

(٥) سورة الإسراء ، آية ٦٧ .

(لنكونن من الشاكرين) ، أى : لا نشرك بك أحداً ، ولنفردنّك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا ؛ قال الله تعالى : (فلما أنجاهم) ، أى : من تلك الورطة (إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) ، أى : كأن لم يكن من ذاك شىء ، (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ؛

ثم قال تعالى : (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) ، أى : إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم ، كما جاء فى الحديث : « ما من ذنب أجدرُ أن يعجّل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدّخر الله لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم (١) » ؛

وقوله : (متاع الحياة الدنيا) ، أى : إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ، (ثم إلينا مرجعكم) ، أى : مصيركم ومآلكم ، (فننبئكم) ، أى : فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ؛

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضرب تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء ، مما يأكل الناس من زرع وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقَضْبٍ وغير ذلك ، (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) ، أى : زينتها الفانية ، (وازّينت) ، أى : حَسُنت بما خرج من رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان ، (وظن أهلها) ، الذين زرعوها وغرسوها ، (أنهم قادرون عليها) ، أى : على جَذاذها وحصادها فبيناهم كذلك إذ جاءتها صاعقة ، أو ريح باردة ، فأيبست أوراقها ، وأتلفت ثمارها ؛ ولهذا قال تعالى : (أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً)، أى : يبَساً بعد الخضرة والنضارة ، (كأن لم تغن بالأمس) ، أى : كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك ؛

وقال قتادة : (كأن لم تغن) : كأن لم تنعم(٢) ؛

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب « فى النهى عن البغى » ، الحديث ٤٩٠٢ : ٣/٢٧٦ . وابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب « البغى » ، الحديث ٤٢١١ : ٢/١٤٠٨ .

(٢) الأثر فى تفسير الطبرى ، برقم ١٧٦٠٢ : ١٥/٥٨ ، ولفظه : (كأن لم تغن بالأمس) ، يقول : كأن لم تعش ، كأن لم تنعم ، فيبدو أنه قد وقع سقط فى لفظ ابن كثير .

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « يؤتى بأنعَم أهل الدنيا ، فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ [هل مر بك نعيم قط ؟] فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً فى الدنيا ، فيغمس فى النعيم غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساقط ؟ فيقول : لا(١) » .

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين : (فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها(٢)) .

ثم قال تعالى : (كذلك نفصل الآيات) ، أى : نبين الحُجَج والأدلة ، (لقوم يتفكرون) ، فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وتمكنهم بمواعيدها وتفَلّتها منهم ، فان من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض ، فى غير ما آية من كتابه العزيز ، فقال فى سورة الكهف : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ،وكان الله على كل شىء مقتدراً) (٣) ، وكذا فى سورة الزمر(٤) ، والحديد(٥) يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كما .

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الرحمن ابن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : سمعت مروان — يعنى ابن الحكم — يقرأ على المنبر : (وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها) ، قال : قد قرأتها وليست فى المصحف ، فقال عباس بن عبد الله بن عباس : هكذا يقرؤها ابن عباس . فأرسلوا إلى ابن عباس فقال : هكذا أقرأنى أبىّ بن كعب(٦) .

وهذه قراءة غريبة ، وكأنها زيادة للتفسير .

وقوله : (والله يدعو إلى دار السلام) ... الآية ، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغّب فى الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام) أى : من الآفات ، والنقائص والنكبات ، فقال : (والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

قال أيوب عن أبى قلابة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قيل لى : لتَنَم عينُك ، وليعقِلْ قلبك ، ولتسمع أذنك » ، فنامت عينى ، وعقل قلبى ، وسمعت أذنى ثم قيل : « سيدٌ بَنَى داراً ، ثم صنع مأدبة،وأرسل داعياً ،

---

(١) رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك ، ينظر كتاب الزهد ، باب « صفة النار » ، الحديث ٤٣٢١ : ١٤٤٥/٢ .
(٢) سورة هود ، آية : ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) آية : ٤٥ .
(٤) آية : ٢١ .
(٥) آية : ٢٠ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٦٠١ : ٥٧/١٥ .
هذا وعبد العزيز الذى يروى عنه الحارث بن أبى أسامة ، هو عبد العزيز بن أبان الأموى ، قال عنه يحيى : « كذاب خبيث ، حدث بأحاديث موضوعة » ، وقال البخارى : « تركوه » . ينظر ميزان الاعتدال : ١٢٢/٢ .

فمن أجاب الداعى دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ورضى عنه السيد ؛ ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة ، ولم يرض عنه السيد » ، فالله السيد ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنة ، والداعى محمد صلى الله عليه وسلم (١)

وهذا حديث مرسل ، وقد جاء متصلا من حديث الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال : خرج علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : : « إنى رأيت فى المنام كأنّ جبريل عند رأسى ، وميكائيل عند رجلى ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ؛ فقال : اسمع سَمِعَتْ أذنك ، واعقِل عَقَلَ قلبك ، إنما مَثَلُكَ ومثل أمَّتك كمثل ملك اتخذ دارا ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يامحمد الرسُول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » ؛ رواه ابن جرير(٢) ؛

وقال قتادة : حدثنى خُلَيد العَصَرى ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجَنَبَتَيْها ملكان [ينادیان] يسمعهما(٣) خلق الله كلهم إلا الثقلين : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى » ؛ قال : وأنزل ذلك فى القرآن ، فى قوله : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) ؛ رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير(٤) ؛

• لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله : الحسنى فى الدار الآخرة ، كما قال تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٥)) .

وقوله : (وزيادة) ، هى : تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك ، ويشمل ما يعطيهم الله فى الجِنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل [من] ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لايستحقونها بعملهم ، بل بفضله وبرحمته . وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم ،عن أبى بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وعبد الرحمن بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم من السلف والخلف

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر [illegible] : ١٥/٦٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٦٥٩ : ١٥/٦١ ، ٦٢ .
(٣) فى تفسير الطبرى : « ينادیان ، يسمعه خلق » .
والجنبة — بفتح الجيم والنون ، وبفتحها وإسكان النون — : الناحية .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٦٥٨ : ١٥/٦٢ ، ٦٣ .
(٥) سورة الرحمن : ٦٠ .

وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البُنانى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صهيب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ، وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُمُوه : فيقولون : وما هو ؟ ألم يُثقّل موازيننا ؟ ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا(١) من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم »(٢) .

وهكذا رواه مسلم (٣) ، وجماعة من الأئمة ، من حديث حماد بن سلمة ، به .

وقال ابن جرير : أخبرنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا شبيب ، عن أبان ، عن أبى تَمِيمة الهُجَيمى : أنه سمع أبا موسى الأشعرى يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى : يا أهل الجنة — بصَوْت يُسْمِعُ أوَّلهم وآخرهم — : « إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، (الحسنى) : الجنة ، و (زيادة) : النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » (٤) .

ورواه أيضاً ابنُ أبى حاتم ، من حديث أبى بكر الهُذَلى ، عن أبى تميمة الهجيمى ، به .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا ابن حميد ، حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن كعب ابن عُجرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ، قال : النظر إلى وجه الرحمن عز وجل (٥) .

وقال أيضاً : حدثنا ابن عبد الرحيم ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، سمعت زهيراً عمن سَمِع أبا العالية، حدثنا أُبَىّ بن كعب : أنه سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ، قال : « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل »(٦) .

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً من حديث زهير ، به .

---

(١) فى المسند : « ويجرنا » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٣٣/٤ .
(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى » ١١٢/١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة يونس ، الحديث ٥١٠٣ : ٢٢/٨ ، ٢٣ . وقال الترمذى : « حديث حماد بن سلمه . هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعاً . وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قوله ، ولم يذكر فيه عن صهيب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم » . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٨٧ : ٦٧/١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٦١٨ : ٦٥/١٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٧٦٣١ : ٦٨/١٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٦٣٢ : ٦٩/١٥ .

وقوله تعالى : (ولا يرهق وجوههم قتر) ، أى : قتام وسواد فى عرصات المحشر ، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ، (ولاذلة) ، أى : هوان وصغار ، أى : لا يحصل لهم إهانة فى الباطن ، ولا فى الظاهر ، بل هم كما قال تعالى فى حقهم : (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا) ، أى : نضرة فى وجوههم ، وسروراً فى قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته ، آمين .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء ، فذكر عدله تعالى فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك ، (وترهقهم) ، أى : تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها ، كما قال تعالى : (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) (١) ، وقال تعالى : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب (٢)) ، وقوله : (ما لهم من الله من عاصم) ، أى : من مانع ولا واق يقيهم العذاب ، كما قال تعالى : (يقول الإنسان يومئذ أين المفر ، كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر (٣)) .

وقوله : (كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما) ، إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة ، كما قال تعالى : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون)(٤) ، وكما قال تعالى : (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة (٥)) ... الآية .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى : (ويوم نحشرهم) ، أى : أهل الأرض كلهم ، من إنس وجن ، وبر وفاجر ، كما قال : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) (٦) .

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٤٥ .
(٢) سورة إبراهيم ، الآيات : ٤٢ — ٤٤ .
(٣) سورة القيامة ، الآيات : ١٠ — ١٢ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٥) سورة عبس ، الآيات : ٣٨ — ٤٢ .
(٦) سورة الكهف ، آية : ٤٧ .

(ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم) ، أى : الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً ، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، كما قال تعالى : (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) (١) ، وقال : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) (٢) ، وفى الآية الأخرى : (يومئذ يصدعون)(٣) ، أى : يصيرون صِدَعين(٤) ، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك (٥) .... يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفى الحديث الآخر : « نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس »(٦) .

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة : (مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) ، أنكروا عبادتهم ، وتبرءوا منهم ، كما قال تعالى : (سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا)(٧) الآية ، وقال (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) ، وقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٨)) .

وقال فى هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم : (فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) ، أى : ما كنا نشعر بها ولا نعلم ، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لاندرى بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك .

وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراده ، بل تبرأ منهم [فى] وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحى القيوم ، السميع البصير ، القادر على كل شىء ، العليم بكل شىء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه ، آمرا بعبادته ، وحده لا شريك له ، ناهياً عن عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)(٩) . وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحَى

---

(١) سورة يس ، آية : ٥٩ .
(٢) سورة الروم ، آية : ١٤ .
(٣) سورة الروم ، آية : ٤٣ .
(٤) الصدع – بكسر فسكون – : الفرقة ، أى يصيرون فرقتين .
(٥) بعده بياض فى المخطوطة . وحديث الاستشفاع ، أخرجه البخارى فى تفسير سورة البقرة : ٦/٢١ ، وابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب « ذكر الشفاعة » ، الحديث ٤٣١٢ ٢/١٤٤٢ . والإمام أحمد فى مسنده ٣/١١٦ ، ٢٤٤ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله ٣/٣٤٥ .
وكوم – بفتح الكاف وسكون الواو – واحدها كومة ، هى : المواضع المشرفة العالية .
(٧) سورة مريم ، آية ٨٢ .
(٨) سورة الأحقاف ، آية ٥ ، ٦ .
(٩) سورة النحل ، آية ٣٦ .

إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (١)) ، وقال : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٢) ؟) .

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون ، قد ذكرهم الله في كتابه ، وبيّن أحوالهم وأقوالهم ، وردّ عليهم فيما هم فيه أتم ردّ .

وقوله : (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) ، أي : في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من خير وشر ، كما قال تعالى : (يوم تبلى السرائر (٣)) ، وقال تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر (٤)) ، وقال تعالى : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (٥)) .

وقد قرأ بعضهم : (هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت (٦)) ، وفسّرها بعضهم بالقراءة ، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر ، وفسّرها بعضهم بحديث : « تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت(٧) ... » الحديث .

وقوله : (وردوا إلى الله مولاهم الحق) ، أي : ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ، ففصلها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

(وضل عنهم) ، أي : ذهب عن المشركين (ما كانوا يفترون) ، أي : ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله ، فقال : (قل من يرزقكم من السماء والأرض) ، أي : من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر ، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها (حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا) (٨) ، أإله مع الله ؟ فسيقولون : الله ، (أمن هذا

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ . و « يوحى » هكذا في مخطوطة الأزهر ، وهي قراءة ثابتة ، ينظر البحر المحيط لأبي حيان ٣٠٧/٦ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٤٥ .
(٣) سورة الطارق ، آية : ٩ .
(٤) سورة القيامة ، آية : ١٣ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٦) نسبها الطبري : ٨١/١٥ ، إلى جماعة من أهل الكوفة ، وبعض أهل الحجاز ، وينظر البحر المحيط لأبي حيان : ١٥٣/٥ .
(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « معرفة طريق الرؤية » : ١١٢/١ . والبخاري ، تفسير سورة النساء : ٥٦/٦ .
(٨) سورة عبس ، الآيات : ٢٧ — ٣١ .

الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) ؟ (١) وكذلك قوله : (أمن يملك السمع والأبصار) (٢) ، أى : الذى وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها ، كما قال تعالى : (قل : هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٣)) وقال : (قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به (٤)) .

وقوله : (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) ، أى : بقدرته العظيمة ، ومنته العميمة ، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك ، وأن الآية عامة فى ذلك كله .

وقوله : (ومن يدبر الأمر) ، أى :من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن(٥)) ، فالملك كله العلوى والسفلى ، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان ، فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه ، (فسيقولون الله) ، أى : هم يعلمون ذلك ويعترفون به ، (فقل أفلا تتقون) ، أى : أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم ؟

وقوله : (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) ، أى : فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة ، (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ، أى : فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو ، واحد لا شريك له .

(فأنى تصرفون) ، أى : فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء ، والمتصرف فى كل شىء ؟ .

وقوله : (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) ، أى : كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف فى الملك وحده ، الذى بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار ، كقوله : (قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) (٦) .

---

(١) سورة الملك ، آية : ٢١ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٣١ .
(٣) سورة الملك ، آية : ٢٣ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٤٦ .
(٥) سورة الرحمن ، آية : ٢٩ .
(٦) سورة الزمر ، آية : ٧١ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيا أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ، (قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟) ، أى : من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما [بفناء ما فيهما] ، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ؟ (قل : الله) ، هو الذى يفعل هذا ويستقل به ، وحده لا شريك له ، (فأنى تؤفكون) ، أى : فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ؟!

(قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل: الله يهدى للحق) ، أى : أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدى الحيارى والضلال ، ويقلب القلوب من الغى إلى الرشد ، الله الذى لا إله إلا هو .

(أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى) ، أى : أفيتّبع [العبد الذى يهدى إلى الحق ويُبَصِّر بعد العمى ، أم الذى لا يهدى إلى شيء إلا] أن يهدى ، لعماه وبكمه ؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال : (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً)(١) ،وقال لقومه : (أتعبدون ما تنحتون ؛ والله خلقكم وما تعملون(٢)) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : (فما لكم كيف تحكمون) ، أى : فما بالكم يُذهَبُ بعقولكم ، كيف سويتم بين الله وبين خلقه ، وعدلتم هذا بهذا ، وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جلا جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده ، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ؟!

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلا ولا برهاناً ، وإنما هو ظن منهم ، أى : توهم وتخيل ، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً ، (إن الله عليم بما يفعلون) : تهديد لهم ، ووعيد شديد ، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٤٢ .

(٢) سورة الصافات ، آية : ٩٥ ، ٩٦ .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لايستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ، ولا بسورة من مثله ، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته ، واشتماله على المعانى العزيزة ، النافعة فى الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله الذى لايشبهه شىء فى ذاته ولا صفاته ، ولا فى أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال تعالى : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) ، أى : مثل هذا القرآن لايكون إلا من عند الله ، ولا يشبه هذا كلام البشر . (ولكن تصديق الذى بين يديه) ، أى : من الكتب المتقدمة ، ومهيمناً عليها ، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل .

وقوله : (وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) ، أى : وبيان الأحكام والحلال والحرام ، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين ، كما تقدم فى حديث الحارث الأعور ، عن على بن أبى طالب : « فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم » ، أى : خبّر عما سلف وعما سيأتى ، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه .

وقوله : (أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ، أى : إن ادعيتم وافتريتم وشككتم فى أن هذا من عند الله ، وقلتم كذباً ومَيْناً : « إن هذا من عند محمد » ، فمحمد بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن ، فأتوا أنتم بسورة مثله ، أى : من جنس القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان .

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى ، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم ، إن كانوا صادقين فى دعواهم ، أنه من عند محمد ، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم . وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ، ولا سبيل لهم إليه ، فقال تعالى : (قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [1] ، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه ، فقال فى أول سورة هود : (أم يقولون : افتراه ! قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [2] ، ثم تنازل إلى سورة ، فقال فى هذه السورة : (أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ، وكذا فى سورة

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٨٨ .
(٢) سورة هود ، آية : ١٣ .

البقرة ـ وهى مدنية ـ تحداهم بسورة منه ، وأخبر أنهم لايستطيعون ذلك أبداً ، فقال : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) (١) ... الآية .

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله مالا قِبَلَ لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة [هذا الكلام وحلاوته ، وجزالته وطلاوته ، وإفادته وبراعته] ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة ، لعلمهم بفنون السحر ، أن هذا الذى فعله موسى عليه السلام لا يصدر [إلا] عن مُؤيَّد مُسَدَّد مرسل من الله ، وأن هذا لايستطاع لبشر إلا بإذن الله . وكذلك عيسى عليه السلام بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى ، فكان يبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله ؛ ولهذا جاء فى الصحيح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً »(٢) .

وقوله : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)، يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ، ولم يفهموه ولا عرفوه ، (ولما يأتهم تأويله) ، أى : ولم يُحصِّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهاً : (كذلك كذب الذين من قبلهم) ، أى : من الأمم السالفة ، (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ، أى : فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلوا ، وكفرا وعناداً وجهلا ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

وقوله :(ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين) ، أى : ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ، (ومنهم من لا يؤمن به) ، بل يموت على ذلك ويبعث عليه ، (وربك أعلم بالمفسدين) ، أى : وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله . وهو العادل الذى لا يجور ، بل يعطى كلا ما يستحقه ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : وإن كذبك هؤلاء المشركون ، فتبرأ منهم ومن عَمَلهم ، (فقل : لى عملى ولكم عملكم) ، كقوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما

(١) البقرة آية : ٢٤ .
(٢) البخارى ، كتاب فضائل القرآن : ٦/٢٢٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ الملل بملته ، ١/٩٢ ، ٩٣ .

عبدتم : ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين)(١) . وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين : (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده (٢)) :

وقوله : (ومنهم من يستمعون إليك) ، أى : يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة فى القلوب والأبدان والأديان ، وفى هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء ، إلا أن يشاء الله .

(ومنهم من ينظر إليك) ، أى : ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة ، والسمت الحسن ، والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولى البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شىء مما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، والكافرون ينظرون بعين الاحتقار ، (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٣) .

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً ، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوباً غلفا ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء ، الذى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى : (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ؛ وفى الحديث عن أبى ذر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه عز وجل : « ياعبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا - إلى أن قال فى آخره : يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » : رواه مسلم بطوله (٤) .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مُذكّرا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة : كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من النهار ، كما قال تعالى : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٥))، وقال تعالى : (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا : يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما (٦)) ، وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ؛ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون(٧)).

(١) سورة الكافرون ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الممتحنة آية : ٤ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٤١ ، ٤٢ .
(٤) مسلم « كتاب البر » باب « تحريم الظلم » ، ٨/١٦ ، ١٧ .
(٥) سورة النازعات ، آية : ٤٦ .
(٦) سورة طه ، الآيات : ١٠٢ - ١٠٤ .
(٧) سورة الروم ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا فى الدار الآخرة كما قال : (قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون (١)) .

وقوله : (يتعارفون بينهم) ، أى : يعرف الأبناء الآباء ، والقرابات بعضهم بعضا ، كما كانوا فى الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ، (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (٢)) ، وقال تعالى : (ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤيه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ، كلا (٣)) .

وقوله : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) ، كقوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين (٤)) ، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، فهذه هى الخسارة العظيمة ، [ولا خسارة أعظم من خسارة] من فُرِّق بينه وبين أحبته ، يوم الحسرة والندامة .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)

يقول تعالى مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وإما نرينك بعض الذى نعدهم) ، أى : ننتقم [منهم] فى حياتك ، لتقرَّ عينُك منهم ، (أو نتوفينك فإلينا مرجعهم) ، أى : مصيرهم ومنقلَبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك .

وقد قال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا أبو بكر الحنفى ، حدثنا داود بن الجارود ، عن أبى السليل ، عن حذيفة بن أسيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عُرِضَتْ علىَّ أمتى البارحة لدى هذه الحجرة ، أولها وآخرها » ، فقال رجل : يا رسول الله ، عرض عليك من خُلِق ، فكيف من لم يخلق ؟ فقال : صُوِّروا لى فى الطين ، حتى إنى لأعرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه .

ورواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، عن عقبة بن مكرم ، عن يونس بن بكير ، عن زياد بن المنذر ، عن أبى الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد ، به نحوه .

وقوله : (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم) ، قال مجاهد : يعنى يوم القيامة (٥) .

---

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ١١٢ — ١١٤ .
(٢) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٠١ .
(٣) سورة المعارج ، الآيات : ١١ — ١٥ .
(٤) سورة المرسلات ، آية : ١٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٦٦٩ : ١٥/٩٩ .

(قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) ، كما قال تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون(١)) ، فكل أمة تُعرَض على الله بحضرة رسولها ، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة . وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ، ويقضى لهم ، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق (٢) » ، فأمته إنما حازت قَصَب السبق لشرف رسولها ، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كُفْر هؤلاء المشركين فى استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين ، مما لا فائدة فيه لهم ، كما قال تعالى : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق (٣)) ، أى : كائنة لا محالة وواقعة ، وإن لم يعلموا وقتها عينا ، ولهذا أرشَدَ رسوله صلى الله عليه وسلم إلى جوابهم فقال : (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله) ، أى : لا أقول إلا ما علّمنى ، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعنى عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ، ولم يطلعنى على وقتها ، (لكل أمة أجل) ، أى : لكل قرن مدّة من العمر مقدَّرة ، فإذا انقضى أجلهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ، كما قال تعالى : (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) (٤) ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة ، فقال : (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً) ، أى : ليلا أو نهاراً ، (ماذا يستعجل منه المجرمون . أثم إذا ما وقع آمنتم به) ، يعنى : أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) (٥) ، وقال تعالى : (فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) (٦) .

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٩ .
(٢) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « هداية هذه الأمة ليوم الجمعة » ، ٢ / ٥٨٦ .
(٣) سورة الشورى ، آية : ١٨ .
(٤) سورة « المنافقون » ، آية : ١١ .
(٥) سورة السجدة ، آية : ١٢ .
(٦) سورة غافر ، آية : ٨٤ ، ٨٥ .

ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد) ، أى : يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتا وتقريعاً ، كقوله : (يوم يُدعّون إلى نار جهنم دعاً . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) (١) .

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ويستخبرونك (أحق هو) ؟ أى : المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا : (قل : إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين)،أى:ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون) (٢) .

وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد ، [فى : سورة سبأ : (وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة ، قل : بلى وربى لتأتينكم) (٣) ، وفى التغابن : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير) (٤) .

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ، (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط) ، أى : بالحق ، (وهم لا يظلمون) .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق فى سائر أقطار الأرض والبحار والقفار :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) أى : زاجر عن الفواحش ، (وشفاء لما فى الصدور) ، أى : من الشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ، (وهدى ورحمة) ، أى : محصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين

(١) سورة الطور ، الآيات : ١٣ – ١٦ .
(٢) سورة : يس ، آية : ٨٢ .
(٣) سورة سبأ ، آية : ٣ .
(٤) سورة التغابن ، آية : ٧ .

مما فيه ، كما قال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (١) وقال تعالى : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) (٢)

وقوله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ، أى : بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق ، فليفرحوا ، فإنه أولى ما يفرحون به ، (هو خير مما يجمعون) ، أى : من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة ، كما قال ابن أبي حاتم ، في تفسير هذه الآية : « وذُكر عن بقية - يعني ابن الوليد - عن صفوان بن عمرو ، سمعت أيفع بن عبد الكلاعي يقول : لما قُدم خراجُ العراق إلى عمر رضي الله عنه ، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل ، فاذا هي أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى ، ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت ، ليس هذا ، هو الذى يقول الله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ، وهذا مما يجمعون » .

وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني ، فرواه عن أبي زرعة الدمشقي ، عن حَيوة بن شُرَيح ، عن بقية ، فذكره .

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل ، كقوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) (٣) الآيات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت أبا الأحوص - وهو عوف ابن [مالك بن] نضلة ، يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قَشِف (٤) الهيئة ، فقال : هل لك مال ؟ قال قلت : نعم . قال : من أيّ المال ؟ قال قلت : من كل المال ، من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : إذا أتاك الله مالا فَلْيُرَ عليك . وقال : هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانُها ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها ، فتقول : هذه بُحر وتشقها ، أو تشق جلودها وتقول : هذه صُرُم (٥) ، وتحرمها عليك وعلى أهلك ؟ قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل ، وساعد الله أشد من ساعدك ، وموسى الله أحدّ من موساك ، وذكر تمام الحديث (٦) .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٣٦ .
(٤) أى : تارك للتنظيف والغسل .
(٥) « صرم » - بضمتين - : جمع صريم ، وهى التى صرمت أذنها ، أى : قطعت .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٧٣/٣ .

ثم رواه عن سفيان بن عيينة ، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو ، عن عمه أبي الأحوص(١) : وعن بهز بن أسد ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي الأحوص به (٢) . وهذا حديث جيد قوى الإسناد .

وقد أنكر تعالى على من حرّم ما أحل الله ، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء ، التى لا مستند لها ولا دليل عليها : ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة ، فقال : (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) ، أى : ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة .

وقوله : (إن الله لذو فضل على الناس) ــ قال ابن جرير : فى تركه معاجلتهم بالعقوبة فى الدنيا (٣).

قلت : ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم .

(ولكن أكثرهم لا يشكرون) ، بل يحرمون ما أنعم الله عليهم ، ويضيقون على أنفسهم ، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما : وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم .

وقال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا رباح ، حدثنا عبد الله ابن سليمان ، حدثنا موسى بن الصباح(٤) فى قول الله عز وجل : (إن الله لذو فضل على الناس) ، قال : إذا كان يوم القيامة ، يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل ، فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف ــ قال : فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول : عبدى ، لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب : خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها ، وحورها ونعيمها ، وما أعددت لأهل طاعتك فيها ، فأسهرتُ ليلى وأظمأتُ نهارى شوقا إليها : قال : فيقول الله تعالى : عبدى ، إنما عملت للجنة ، هذه الجنة فادخلها ، ومن فضلى عليك أن أعتقك من النار ، [ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى] ، قال : فيدخل هو ومن معه الجنة ــ قال : ثم يؤتى برجل من الصنف الثانى ، قال : فيقول : عبدى ، لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب ، خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسَمومها ويَحمُومها ، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها ، فأسهرت ليلى واظمأت نهارى خوفا منها : فيقول : عبدى ، إنما عملت ذلك خوفا من نارى ، فإنى قد أعتقتك من النار ، ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى : فيدخل هو ومن معه الجنة : ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث ، فيقول : عبدى ، لماذا عملت ؟ فيقول : ربِّ ، حباً لك ، وشوقا إليك ، وعزتك لقد أسهرت ليلى واظمأت نهارى شوقا إليك وحبا لك : فيقول تبارك وتعالى : عبدى ، إنما عملت حبا لى وشوقا إلى ، فيتجلى له الرب جل جلاله ، ويقول : ها أنا ذا ، انظر إلى : ثم يقول : من فضلى عليك أن أعتقك من النار ، وأبيحك جنتى ، وأزيرك ملائكتى ، وأسلم عليك بنفسى : فيدخل هو ومن معه الجنة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٣٦/٤ ، ١٣٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٧٣/٣ ، ٤٧٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ١١٣/١٥ .

(٤) فى المخطوطة : « موسى بن أبى الصباح » ، والمثبت من ترجمته فى الجرح لابن أبى حاتم ١٤٧/١/٤ . وهو : موسى ابن أبى كثير الأنصارى ، يقال له : موسى الكبير ، واسم أبى كثير : الصباح .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى نبيه صلوات الله عليه وسلامه — أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته ، وجميع الخلائق فى كل ساعة وآن ولحظة ، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، كقوله : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) (١) ، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة ، فى قوله : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون (٢)) وقال تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) (٣) :

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالى : (وتوكل على العزيز الرحيم : الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) (٤) ، ولهذا قال تعالى : (وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) ، أى : إذ تأخذون فى ذلك الشىء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ، ولهذا قال عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٥) :

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، كما فسرهم ربهم ، فكل من كان تقيا كان لله وليا : أنه (لا خوف عليهم) فيا يستقبلون من أهوال القيامة ، (ولا هم يحزنون) ، على ما وراءهم فى الدنيا .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وغير واحد من السلف : أولياء الله الذين إذا رُءوا ذُكِر الله(٦) .

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع كما قال البزار :

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .

(٣) سورة هود ، آية : ٦ .

(٤) سورة الشعراء ، آية : ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٥) أخرجاه فى كتاب الإيمان ، ينظر البخارى ، باب : سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ... ١ / ٢٠ ، ومسلم ، باب : الإيمان ما هو ؟ : ١ / ٣٠ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٥ / ١١٩ .

حدثنا علي بن حرب الرازي ، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق ، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري ــ وهو القمي ــ عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول الله ، مَنْ أولياء الله ؟ قال : الذين إذا رُءوا ذُكر الله » : ثم قال البزار : وقد روى عن سعيد مرسلا :

وقال ابن جرير : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا أبو فضيل ، حدثنا أبي ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة بن عَمرو بن جرير البَجَلي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء : قيل : من هم يا رسول الله ؟ لعلنا نحبهم : قال : هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » : ثم قرأ : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (١) :

ثم رواه وأيضا أبو داود ، من حديث جرير ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بمثله (٢) .

وهذا أيضا إسناد جيد ، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، والله أعلم .

وفي حديث الإمام أحمد ، عن أبي النضر ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي من أفناء (٣) الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصافوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون ، وهم أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » : والحديث مطول (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن الأعمش ، عن ذكوانَ أبي صالح ، عن رجل ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ، قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو تُرى له (٥) » .

وقال ابن جرير : حدثني أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن عطاء بن يسار ، عن رجل من أهل مصر ، عن أبي الدرداء في قوله : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ، قال : سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية ، فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعتُ [أحداً] سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسولَ الله ، فقال : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم ، أو تُرَى له ، بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة [الجنة] (٦) » .

ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان ، عن ابن المنكدر ، عن عطاء بن يسار ، عن رجل من أهل مصر : أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية ، فذكر نحو ما تقدم (٧) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧١٣ : ١٠/١٢٠ . ١٢١ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧١٤ : ١٠/١٢١ .
(٣) يقال : « رجل من أفناء الناس » ، أي : لم يعلم من هو ؟ الواحد : « فنو » ، بكسر فسكون .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٤٣ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٤٥ .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٢ : ١٠/١٢٨ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٣ : ١٠/١٢٨ ، ١٢٩ .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا الحجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبي صالح قال : سمعت أبا الدرداء ، وسئل عن : (الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى) ، فذكر نحوه سواء (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبان ، حدثنا يحيى ، عن أبي سلمة ، عن عبادة بن الصامت : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت قول الله تعالى : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ؟ فقال : « لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي — أو : أحد قبلك — قال : تلك الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح أو تُرَى له (٢)» .

وكذا رواه أبو داود الطيالسي ، عن عمران القطان ، عن يحيى بن أبي كثير ، به . ورواه الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، فذكره . ورواه علي بن المبارك ، عن يحيى ، عن أبي سلمة قال : نُبِّئنا عن عبادة بن الصامت ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فذكره .

وقال ابن جرير : حدثني أبو حميد الحمصي ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحْمُوسي ، عن حميد بن عبد الله المزني قال : أتى رجل عبادة بن الصامت فقال : آية في كتاب الله أسألك عنها ، قول الله تعالى : (لهم البشرى في الحياة الدنيا) ؟ فقال عبادة : ما سألني عنها أحد قبلك ، سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك : « ما سألني عنها أحد قبلك ، الرؤيا الصالحة ، يراها العبد المؤمن في المنام أو تُرَى له (٣) » .

ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد بن صفوان ، عن عبادة بن الصامت : أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة ، فما بشرى الدنيا ؟ قال : « الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له ، وهي جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة (٤) » .

وقال أحمد أيضا : حدثنا بَهْز ، حدثنا حماد ، حدثنا أبو عمران ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تلك عاجل بشرى المؤمن (٥) » . رواه مسلم .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن — يعني الأشيب — حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن عبد الرحمن بن جُبير ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) — قال : الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن ، هي جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة ، فمن رأى [ذلك] فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليَحْزُنه ، فلينفث عن يساره ثلاثا ، وليكبر ، ولا يخبر بها أحدا »(٦) لم يخرجوه .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٤١ : ١٥/١٣٦ ، ١٣٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٣١٥ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٥ : ١٥/١٢٩ ، ١٣٠ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٣٠ : ١٥/١٣٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/١٥٦ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « إذا أثني على العبد الصالح فهي بشرى ولا تضره » : ٨/٤٤ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٢١٩ ، ٢٢٠ .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، حدثني عمرو بن الحارث ، أن دراجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : (لهم البشرى في الحياة الدنيا) ، الرؤيا الصالحة يبشَّرها المؤمن ، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (١) » .

وقال أيضا ابن جرير : حدثني محمد بن حاتم المؤدِّب ، حدثنا عمار بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) — قال : هي في الدنيا الرؤيا الصالحة ، يراها العبد أو تُرَى له ، وهي في الآخرة الجنة(٢) » .

ثم رواه عن أبي كريب ، عن أبي بكر بن عياش ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أنه قال : الرؤيا الحسنة بشرى من الله ، وهي من المبشّرات (٣) .

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا .

وقال أيضا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الحسنة هي البشرى ، يراها المسلم أو تُرَى له (٤) » :

وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن حماد الدولابي ، حدثنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، عن أبيه ، عن سباع ابن ثابت ، عن أم كرز الكعبية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ذهبت النبوة وبقيت المبشّرات (٥) » .

وهكذا رُوِي عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، ويحيى بن أبي كثير ، وإبراهيم النخعي ، وعطاء بن أبي رباح : أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة .

وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما في قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نُزُلا من غفور رحيم (٦) » .

وفي حديث البراء : أن المؤمن إذا حضره الموت ، جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان . فتخرج من فمه ، كما تسيل القطرة من فم السقاء (٧) :

وأما بشراهم في الآخرة ، فكما قال تعالى : « لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة : هذا يومكم الذي

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٤ : ١٥/١٢٩ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٨ : ١٥/١٣١ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٢ : ١٥/١٣٠ ، ١٣١ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٢٦ : ١٥/١٣٠ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٣٢ : ١٥/١٣٣ .
(٦) سورة فصلت ، الآيات ، ٣٠ — ٣٢ .
(٧) مسند الإمام أحمد ، ٤/٢٨٧ .

كنتم توعدون)(١)، وقال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم)(٢) .

وقوله : (لا تبديل لكلمات الله) ، أى : هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير ، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة : (ذلك هو الفوز العظيم) .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (ولا يحزنك) قولُ هؤلاء المشركين ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ؛ فإن العزة لله جميعا ، أى : جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ، (هو السميع العليم) ، أى : السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم .

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهى لا تملك شيئا لا ضراً ولا نفعا ، ولا دليل لهم على عبادتها ؛ بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم .

ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أى : يستريحون فيه من نَصَبهم وكَلالهم وحَرَكاتهم ، (والنهار مبصراً) ، أى : مضيئاً لمعاشهم وسعيهم ، وأسفارهم ومصالحهم ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) ، أى : يسمعون هذه الحجج والأدلة ، فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ، ومقدِّرها ومسيِّرها .

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً : (سبحانه هو الغنى) ، أى : تقدس عن ذلك ، هو الغنى عن كل ما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، (له ما فى السموات وما فى الأرض) ، أى : فكيف [يكون] له ولد مما خلق ، وكل شىء مملوك له ، عبد له ؟! (إن عندكم من سلطان بهذا) ، أى : ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ! (أتقولون على الله مالا تعلمون) : إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد ، كما قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٣ .
(٢) سورة الحديد ، آية : ١٢ .

لقد جئتم شيئاً إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) (١) :

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ، ممن زعم أن له ولدا ، بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فأما فى الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا ، ثم [يضطرهم] إلى عذاب غليظ ، كما قال ها هنا : (متاع فى الدنيا) ، أى : مدة قريبة ، (ثم إلينا مرجعهم) ، أى : يوم القيامة ، (ثم نذيقهم العذاب الشديد) ، أى : الموجع المؤلم (بما كانوا يكفرون) ، أى : بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله ، فيما ادعوه من الإفك والزور .

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : (واتل عليهم) ، أى : أخبرهم واقصُص عليهم ، أى : على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك (نبأ نوح) ، أى : خبَرَه مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ودمَّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذَرَ هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك : (إذ قال لقومه : يا قوم ، إن كان كبر عليكم) ، أى : عَظُم عليكم ، (مقامى) ، أى : فيكم بين أظهركم ، (وتذكيرى) إياكم (بآيات الله) ، أى : بحججه وبراهينه ، (فعلى الله توكلت) ، أى : فإنى لا أبالى ولا أكفّ عنكم ، سواء عظم عليكم أو لا ! (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) ، أى : فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله ، من صَنَم ووثن ، (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) ، أى : ولا تجعلوا أمركم [عليكم] ملتبسا ، بل افصلوا حالكم معى ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون ، فاقضوا إلى ولا تنظرون ، أى : ولا تؤخرونى ساعة واحدة ، أى : مهما قدرتم فافعلوا ، فإنى لا أباليكم ولا أخاف منكم ، لأنكم لستم على شئ ، كما قال هود لقومه : (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم (٢)) .

(فإن توليتم) ، أى : كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ، (فما سألتكم من أجر) ، أى : لم أطلب منكم على نصحى إياكم شيئا ، (إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) ، أى : وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة مريم ، الآيات : ٨٨ – ٩٥ .

(٢) سورة هود ، الآيات : ٥٤ – ٥٦ .

(لكل جعلنا منكم شرعة (١) ومنهاجا) ــ قال ابن عباس : « سبيلا وسنة » ، فهذا نوح يقول : (وأمرت أن أكون من المسلمين (٢)) ، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : (إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون (٣))، وقال يوسف : (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقني بالصالحين (٤)) ، وقال موسى : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (٥)) ، وقالت السحرة : (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين (٦)) ، وقالت بلقيس : (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٧)) ، وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا (٨)) ، وقال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون (٩)) وقال خاتم الرسل وسيد البشر : (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١٠)) ، أي : من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد (١١) » ، أي : وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله : « أولاد علات » ، وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد .

وقوله تعالى : (فكذبوه فنجيناه ومن معه) ، أي : على دينه (في الفلك) ، وهي : السفينة ، (وجعلناهم خلائف) ، أي : في الأرض ، (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) ، أي : يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى : ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم ، فجاءوهم بالبينات ، أي : بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به ، (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) ، أي : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ،

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٤٨ .
(٢) سورة النمل ، آية : ٩١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣١ ، ١٣٢ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠١ .
(٥) سورة يونس ، آية : ٨٤ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٢٦ .
(٧) سورة النمل ، آية : ٤٤ .
(٨) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .
(٩) سورة المائدة ، آية : ١١١ .
(١٠) سورة الأنعام ، آية : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(١١) ينظر : ٢/٤٠٨ .

بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ، كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)(١) .

وقوله : (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) ، أى : كما طبع الله على قلوب هؤلاء ، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

والمراد : أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجى من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح عليه السلام ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام [على الإسلام] ، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام ، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

وقال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

وقال الله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا (٢)) ، وفى هذا إنذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى : (ثم بعثنا) من بعد تلك الرسل (موسى وهارون إلى فرعون وملئه) ، أى : قومه ، (بآياتنا) ، أى : حُجَجنا وبراهيننا ، (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) ، أى : استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له ، (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين) ، كأنهم ــ قبَّحهم الله ــ أقسموا على ذلك ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (٣)) .

(قال) لهم (موسى) منكرا عليهم : (أتقولون للحق لما جاءكم : أسحر هذا ولا يفلح الساحرون : قالوا : أجئتنا لتلفتنا) ، أى : تثنينا (عما وجدنا عليه آباءنا) ، أى : الدّين [الذى] كانوا عليه ، (وتكون لكما) ، أى : لك ولهارون (الكبرياء) ، أى : العظمة والرياسة (فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) .

وكثيرا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون فى كتابه العزيز ، لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذّر من موسى كل الحذر ، فسخره القدر أن ربّى هذا الذى يُحذّر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع

(١) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٧ .
(٣) سورة النمل ، آية : ١٤ .

وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله ، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية ، وقوى رأسه وتولى بركنه ، وادعى ما ليس له ، وتجهرم على الله ، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل ، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون ، ويحوطهما بعنايته ، ويحرسهما بعينه التى لا تنام ، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدى موسى شيئا بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، مما يبهر العقول ويدهش الألباب ، مما لا يقوم له شيء ، ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله ، (وما تأتيهم من آية إلا هى أكبر من أختها) ، وصمم فرعون ومَلَؤه — قبحهم الله — على التكذيب بذلك كله ، والجحد والعناد والمكابرة ، حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يُرَدّ ، وأغرقهم فى صبيحة واحدة أجمعين ، (فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين (١)) .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام فى سورة الأعراف ، وقد تقدم الكلام عليها هناك : وفى هذه السورة ، وفى سورة طه ، وفى الشعراء ؛ وذلك أن فرعون — لعنه الله — أراد أن يتَبَهرج(٢) على الناس ، ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين ، بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلهية فى ذلك المحفل العام ، و (ألقى السحرة ساجدين : قالوا آمنا برب العالمين : رب موسى وهارون(٣)) فظن فرعون أن يستنصر بالسحار ، على رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة ، واستوجب النار :

(وقال فرعون : ائتونى بكل ساحر عليم : فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) ؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا — وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل — (قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا(٤)) ، فأراد موسى أن تكون البَدَاءةُ منهم ، ليرى الناس ما صنعوا ، ثم يأتى بالحق بعده فيدمغ باطلهم . ولهذا لما (ألقوا سَحَرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (٥)) ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف ، إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إن ما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى (٦)) : فعند ذلك قال موسى لما ألقوا : (ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله : إن الله لا يصلح عمل المفسدين : ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) :

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٤٥ .
(٢) كذا فى المخطوطة . وفى تاج العروس : هرج فى الحديث : إذا خلط فيه .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ٤٦ — ٤٨ .
(٤) سورة طه ، آية : ٦٥ ، ٦٦ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ١١٦ .
(٦) سورة « طه » ، الآيات : ٦٧ — ٦٩ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا عبد الرحمن – يعني الدشتكي – أخبرنا أبو جعفر الرازي ، عن ليث – وهو ابن أبي سليم – قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى ، تقرأ في إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من سورة يونس : (فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ، والآية الأخرى : (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) ... إلى آخر أربع آيات ، وقوله : (إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)(١) .

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات ، قليل من قوم فرعون ، من الذرية – وهم الشباب – على وجل وخوف منه ومن ملئه ، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة ، تخاف رعيته منه خوفا شديدا :

قال العوفي ، عن ابن عباس : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) ، قال : فإن الذرية التي آمنت لموسى ، من أناس غير بني إسرائيل ، من قوم فرعون يسير ، منهم : امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه (٢) .

وروى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) ، يقول : بني إسرائيل (٣) .

وعن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة : « الذرية » القليل(٤) .

وقال مجاهد في قوله : (إلا ذرية من قومه) ، قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى ، من طول الزمان ، ومات آباؤهم (٥) :

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية : [أنها] من بني إسرائيل لا من قوم فرعون ، لعود الضمير على أقرب المذكورين (٦) :

وفي هذا نظر ؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب ، وأنهم من بني إسرائيل ، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام ، واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأن الله تعالى

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٨١ : ١٥ / ١٦٤ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٨٢ : ١٥/ ١٦٥ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر : ١٥ / ١٦٣ .
(٤) تفسير الطبري : ١٥/ ١٦٣ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٧٧٩ : ١٥/ ١٦٤ .
(٦) تفسير الطبري ، ١٥/ ١٦٥ .

سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذّر كل الحذر فلم يُجْدِ عنه شيئا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى ، و (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) ــ وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ؟ .

(على خوف من فرعون وملئهم) ، أى : وأشراف قومهم أن يفتنهم ، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يفتنن عن الإيمان سوى قارون ، فإنه كان من قوم موسى ، فبغى عليهم ؛ لكنه كان طاويا إلى فرعون ، متصلا به ، متعلقا بحباله ، ومن قال : : إن الضمير فى قوله : (وملئهم) ، عائد إلى فرعون ، وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف « آل » فرعون ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، فقد أبعد ، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة ، ومما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل : (يا قوم ، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) ، أى : فإن الله كاف من توكل عليه ، (أليس الله بكاف عبده) (١) ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٢) .

وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل ، كما فى قوله تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) (٣) ، (قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) (٤) ، (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) (٥) ، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم مرات متعددة : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك ، فقالوا : (على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) ، أى : لا تظفرهم بنا ، وتسلطهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل ، فيفتنوا بذلك ؛ هكذا روى عن أبى مجلز ، وأبى الضحى (٦) .

وقال ابن أبى نجيح وغير واحد، عن مجاهد : لا تعذبنا بأيدى قوم فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق ما عذبوا ، ولا سُلّطنا عليهم ، فيفتنوا (٧) بنا .

(١) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .
(٢) سورة الطلاق ، آية : ٣ .
(٣) سورة هود ، آية : ١٢٣ .
(٤) سورة الملك ، آية : ٢٩ .
(٥) سورة المزمل ، آية : ٩ .
(٦) تفسير الطبرى ، الآثار ١٧٧٨٣ ــ ١٧٧٨٥ : ١٠/١٦٩ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٧٨٩ : ١٠/١٦٩ ، ١٧٠ .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد :(ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) ، لا تسلطهم علينا ، فيفتنونا (١) :

(ونجنا برحمتك) ، أى : خلصنا برحمة منك وإحسان ، (من القوم الكافرين) ، أى : الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام (أن يتبوآ) ، أى : يتخذا لقومهما بمصر بيوتا .

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : (واجعلوا بيوتكم قبلة) ، فقال الثورى وغيره ، عن خُصَيف ،عن عكرمة ، عن ابن عباس : (واجعلوا بيوتكم قبلة) ، قال : أمرُوا أن يتخذوها مساجد (٢) .

وقال الثورى أيضا ، عن منصور ، عن إبراهيم : (واجعلوا بيوتكم قبلة) ، قال : كانوا خائفين ، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم (٣) .

وكذا قال مجاهد ، وأبو مالك ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبوه زيد بن أسلم : وكأن هذا — والله أعلم — لما اشتد بهم البلاء من قِبَل فرعون وقومه ، وضيقوا عليهم ، أمروا بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة (٤)) : وفى الحديث : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمر صلى » — أخرجه أبو داود — ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) ، أى : بالثواب والنصر القريب .

وقال العوفى ، عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة : فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَل القبلة (٥) : وقال مجاهد : (واجعلوا بيوتكم قبلة)، قال : لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا فى الكنائس الجامعة ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة ، يصلون فيها سراً (٦) . وكذا قال قتادة ، والضحاك .

وقال سعيد بن جبير : (واجعلوا بيوتكم قبلة) ، أى : يقابل بعضها بعضاً (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٧٨٨ : ١٠/١٦٩ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٧٩٤ : ١٠/١٧٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٧٩٧ : ١٠/١٧٢ .
(٤) سورة البقرة ، آية ١٥٣ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٠٨ : ١٠/١٧٤ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨١١ : ١٠/١٧٤ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨١٨ : ١٠/١٧٥ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وَمَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ، ظلما وعلوا وتكبراً وعتوا ، قال : (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة)، أى : من أثاث الدنيا ومتاعها ، (وأموالا) ، أى : جزيلة كثيرة ، (فى) هذه (الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك) — بفتح الياء ، أى : أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتنى به إليهم استدراجا منك لهم ، كما قال تعالى : (لنفتنهم فيه) .

وقرأ آخرون : (ليُضلّوا) بضم الياء — أى : ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم .

(ربنا اطمس على أموالهم) — قال ابن عباس ، ومجاهد : أى أهلكها . وقال الضحاك ، وأبوالعالية ، والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت (١) .

وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة .

وقال محمد بن كعب القرظى : اجعل سُكَّرهم [حجارة] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث ، حدثنا يحيى بن أبى بكير ، عن أبى معشر ، حدثنى محمد بن قيس : أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز : (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه) إلخ إلى قوله (اطمس على أموالهم) إلى آخرها [فقال له: عمر يا أبا حمزة ، أى شىء الطمس؟ قال : عادت أموالهم كلها حجارة] (٢) فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : ائتنى بكيس . [فجاءه بكيس] ، فاذا فيه حمص وبيض، قد قطع قد حول حجارة .

وقوله : (واشدد على قلوبهم) ، قال ابن عباس : أى اطبع عليها ، (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) .

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه ، الذين تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا يجىء منهم شىء كما دعا نوح عليه السلام فقال: « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً(٣) ، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة ، التى أمّنَ عليها أخوه هارون ، فقال تعالى : (قد أجيبت دعوتكما) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٢٩ : ١٥/١٨٠ .

(٢) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، أثبتناه من المطبوعة .

(٣) سورة نوح ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .

قال أبو العالية ، وأبو صالح ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس : دعا موسى وأمّن هارون ، أي : قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون .

وقد يحتج بهذه الآية من يقول : « إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزّل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمن » .

وقال تعالى : (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) ... ، الآية ، أي : كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري .

قال ابن جريج ، عن ابن عباس : (فاستقيما) ، فامضيا لأمري ، وهي الاستقامة ــ قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة (١) .

وقال محمد بن علي بن الحسين أربعين يوما .

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حُليا كثيرا ، فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين(٢) يجمعون له جنوده من أقاليمه ، فركب وراءهم في أبهة عظيمة ، وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ، (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون (٣) ، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر ، وأدركهم فرعون ، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى ــ عليه السلام ــ عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك ها هنا، (كلا إن معي ربي سيهدين) (٤) ، فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر ، (فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم) (٥) ، أي : كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقاً ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشّفت أرضه ، (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٨٥٦ : ١٥/١٨٢ .
(٢) ينظر فيما مضى تفسير الآية ١١١ من سورة الأعراف : ٣/٤٥٢ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ٦١ .
(٤) سورة الشعراء ، آية : ٦٢ .
(٥) سورة الشعراء ، آية : ٦٣ .

دركا ولا تخشى) (١) ، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ، ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا : وجازت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى،وهو فى مائة ألف أدهم(٢) سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر، واستجيبت الدعوة ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس – وَدِيق حائل (٣)،فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله ، فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا ، فتجلد لأمرائه ، وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل فى ساقتهم ، لا يترك أحدا منهم ، إلا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا (٤) فيه وتكاملوا،وهم أولهم بالخروج منه،أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم،فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون ، وغشيته سكرات الموت ، فقال وهو كذلك : (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) : فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ، (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) (٥) :

وهكذا قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال: (الآن وقد عصيت قبل) ، أى : أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ؟ (وكنت من المفسدين) ، أى : فى الأرض الذين أضلوا الناس ، « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون» (٦) :

وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك من أسرار الغيب التى أعلم الله بها رسوله ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قال فرعون : (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) ، قال : قال لى جبريل : [يا محمد] لو رأيتنى وقد أخذت [حالا] (٧) من حال البحر ، فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة » (٨)

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث حماد بن سلمة ، به . وقال الترمذى : حديث حسن (٩) .

---

(١) سورة طه ، آية : ٧٧ .
(٢) الأدهم : الفرس .
(٣) فرس وديق : مريدة للفحل تشتهيه .
(٤) أى : اجتمعوا .
(٥) سورة غافر ، آية : ٨٤ ، ٨٥ .
(٦) سورة القصص ، آية : ٤١ .
(٧) ما بين القوسين عن المسند ، والحال هو الطين الأسود .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٣٠٩/١ .
(٩) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة يونس ، الحديث ٥١٠٧ : ٥٢٥/٨ . وتفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٦١ : ١٩٢/١٥ .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال لى جبريل : لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر ، فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » وقد رواه أبو عيسى الترمذى أيضا ، وابن جرير أيضا ، من غير وجه ، عن شعبه ، به وقال الترمذى : حسن غريب صحيح (١) .

ووقع فى رواية عند ابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن غندر ، عن شعبة ، عن عطاء وعدى ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، رفعه أحدهما ــ وكأن الآخر لم يرفعه ، فالله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون ، أشار بأصبعه ورفع صوته : (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) ، قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه .

وكذا رواه ابن جرير ، عن سفيان بن وكيع ، عن أبى خالد ، به موقوفا (٢) .

وقد روى من حديث أبى هريرة أيضا ، فقال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، عن عنبسة ــ هو ابن سعيد ــ عن كثير بن زاذان ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال لى جبريل : يا محمد ، لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من الحال فى فيه ، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له ــ يعنى فرعون (٣) .

كثير بن زاذان هذا قال ابن معين : لا أعرفه ، وقال أبو زرعة وأبو حاتم : مجهول ، وباقى رجاله ثقات .

وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف : قتادة ، وإبراهيم التيمى ، وميمون بن مهران . ونقل عن الضحاك بن قيس : أنه خطب بهذا للناس ، فالله أعلم .

وقوله : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) ، قال ابن عباس وغيره من السلف : إن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح ، وعليه درعه المعروفة ، على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ، ليتحققوا موته وهلاكه ، ولهذا قال تعالى : (فاليوم ننجيك) ، أى : نرفعك على نشز من الأرض ، (ببدنك) ــ قال مجاهد : بجسدك . وقال الحسن : بجسم لا روح فيه . وقال عبد الله بن شداد : سويا صحيحا ، أى : لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه . وقال أبو صخر : بدرعك .

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها ، كما تقدم ، والله أعلم .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة يونس ، الحديث ٥١٠٨ : ٨/٥٢٥ ، ٥٢٦ . وتفسير الطبرى : ١٥/١٩٠-١٩٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٦٧ : ١٥/١٩٣ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٦٠ : ١٥/١٩١ .

وقوله : (لتكون لمن خلفك آية) ، أى : لتكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شىء ، ولهذا قرأ بعض السلف : (لتكون لمن خلقك(١) آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) ، أى : لا يتعظون بها ، ولا يعتبرون . وقد كان يوم عاشوراء ، كما قال البخارى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غُنْدَر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبىّ صلى الله عليه وسلم المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون : فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم ، فصوموه » (٢) .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ(مُبَوَّأ صدق)، قيل : هو بلاد مصر والشام ، مما يلى بيت المقدس ونواحيه ؛ فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال الله تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (٣)) . وقال فى الآية الأخرى : (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل (٤)) ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس ، [وهى بلاد الخليل عليه السلام ، فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس] ، وكان فيه قوم من العمالقة ، [فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم]، فشردهم الله تعالى فى التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ، ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام فى تلك المدة، فاستعانت اليهود — قبحهم الله — على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان ، وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه الله إليه ، وشُبِّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره ، فأخذوه فصلبوه ، واعتقدوا أنه هو، (وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما (٥)) ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة ، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان — فى دين النصرانية ، وكان فيلسوفا قبل ذلك . فدخل فى دين النصارى قيل : تقية ، وقيل: حيلة

---

(١) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٥/١٨٩ ، ١٩٠ : « وقرأت فرقة : (لمن خلقك) ، من الخلق ، وهو الله تعالى ، أى : ليجعلك الله آية له فى عباده » .

(٢) البخارى ، تفسير سورة يونس : ٦/٩١ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٣٧ .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ٥٨ — ٦٠

(٥) سورة النساء ، آية : ١٥٧ ، ١٥٨ .

ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيَع الكبار والصغار ، والصوامع والهياكل ، والمعابد ، والقلايات . وانتشر دين النصرانية فى ذلك الزمان ، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ، ووضع وكذب ، ومخالفة لدين المسيح . ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان ، فاتخذوا لهم الصوامع فى البرارى والمهامه والقفار ، واستحوذت يدُ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ، وبنى هذا [الملك] المذكور مدينة قسطنطينية ، والقُمامة ، وبيت لحم ، وكنائس بيت المقدس ، ومدن حَوران كبُصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حينئذ ، وصلوا إلى الشرق ، وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير ، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع فى دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة الحقيرة ، التى يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين ، وبسط هذا يطول .

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضى الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : (ورزقناهم من الطيبات) ، أى : الحلال ، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا .

وقوله : (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) ، أى : ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أى : أى : ولم يكن لهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس . وقد ورد فى الحديث : أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة فى الجنة ، وثنتان وسبعون فى النار . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى» .

رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ(١) ، وهو فى السنن والمسانيد . ولهذا قال الله تعالى : (إن ربك يقضى بينهم) أى : يفصل بينهم (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قال قتادة بن دِعامة : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا أشك ولا أسأل (٢) .

وكذا قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وهذا فيه تثبيت للأمة ، وإعلام لهم أن صفة نبيهم صلى الله عليه وسلم موجودة فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب ، كما قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى

---

(١) المستدرك ، كتاب الإيمان : ١ /١٢٨ ، ١٢٩ . ومسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك : ٣/ ١٤٥ . وتحفة الأحوذى ، كتاب الإيمان ، باب « افتراق هذه الأمة » ، حديث ٢٧٧٩ : ٧/ ٣٩٩ ، ٤٠٠ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب مفسر ، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه » . وسنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « شرح السنة » ، الحديث ٤٥٩٦ : ٤/ ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٩٤ : ١٠/ ٢٠٢ .

الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) (١) ... الآية : ثم مع هذا العلم الذى يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون : ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ، أى : لا يؤمنون إيمانا ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (٢)) ، كما قال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون) (٣) ، ثم قال تعالى :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ؟ بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه ، أو أكثرهم كما قال تعالى : (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون(٤) (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) (٥) ، (كذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (٦) : وفى الحديث الصحيح : « عُرِض على الأنبياء ، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبى معه الرجل والنبى معه الرجلان ، والنبى ليس معه أحد ، ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته — صلوات الله وسلامه عليه — كثرة سدت الخافقين الشرقى والغربى » .

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى ، إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم ، بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به ، وتضرعوا لديه ، واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم . فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : (إلا قوم يونس ، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) (٧) .

واختلف المفسرون : هل كُشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط ؟ على قولين ، أحدهما : إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، كما هو مقيد فى هذه الآية ، والقول الثانى فيهما لقوله تعالى : (وأرسلناه

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .
(٤) سورة يس ، آية : ٣٠ .
(٥) سورة الذاريات ، آية : ٥٢ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٢٣ .
(٧) سورة يونس ، آية : ٩٨ .

إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين (، فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم .

قال قتادة فى تفسير هذه الآية : لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب ، فتركت ، إلا قوم يونس ، لما فقدوا نبيهم وظنوا [أن] العذاب قد دنا منهم ، قذف الله فى قلوبهم التوبة ، ولبسوا المسوح ، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجّوا(١) إلى الله أربعين ليلة . فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم — قال قتادة : وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل(٢) .

وكذا روى عن ابن مسعود ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف ، وكان ابن مسعود يقرؤها : (فهلا كانت قرية آمنت (٣)) .

وقال أبو عمران ، عن أبى الجلد(٤) قال : لما نزل بهم العذاب ، جعل يدور على رءوسهم كقطع الليل المظلم ، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا : علمنا دعاء ندعوا به ، لعل الله يكشف عنا العذاب . فقال : قولوا : يا حىّ حين لا حىّ ، يا محيى الموتى ، لا إله إلا أنت . قال : فكُشف عنهم العذاب(٥) .

وتمام القصة سيأتى مفصلا فى سورة الصافات إن شاء الله .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى : (ولو شاء ربك) — يا محمد — لأذن لأهل الأرض كلّهم فى الإيمان بما جئتهم به ، فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (٦) ، وقال تعالى : (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا (٧)) . ولهذا قال تعالى : (أفأنت تكره الناس) ، أى : تلزمهم وتلجئهم (حتى يكونوا مؤمنين) ، أى : ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل الله (يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (٨) (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء(٩)) ، (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا

---

(١) مضى شرح « العج » فى : ٢/٦٨ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٨٩٨ : ١٥/٢٠٧ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٩٠٨ : ١٥/٢١٠ .
(٤) هو جيلان بن أبى فروة الأسدى . ينظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٥٤٧ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٩٠٧ : ١٥/٢١٠ .
(٦) سورة هود ، آية : ١١٨ ، ١١٩ .
(٧) سورة الرعد ، آية : ٣١ .
(٨) سورة فاطر ، آية : ٨ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

مؤمنين (١) » ، « إنك لا تهدى من أحببت (٢) » ، « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٣) » ، « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر (٤) » ... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ، لعلمه وحكمته وعدله . ولهذا قال : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس » ، وهو : الخبال والضلال ، « على الذين لا يعقلون » ، أى : حججَ الله وأدلته ، وهو العادل فى كل ذلك ، فى هداية من هدى ، وإضلال من ضل .

قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر فى آلائه وما خلق فى السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب ، مما فى السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، واختلافهما ، وإيلاج أحدهما فى الآخر ، حتى يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماء واتساعها ، وحسنها وزينتها ، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير ، وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما فى البحر من العجائب والأمواج ، وهو مع هذا مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ، ويجرى بها برفق [بتسخير] القدير له ، ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وقوله : « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ، أى : وأى شىء تُجدى الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها ، عن قوم لا يؤمنون ، كما قال : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

وقوله : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » ، أى : فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله فى الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم ، « قل : فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا » ، أى : ونهلك المكذبين بالرسل ، « كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » حقا

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ٣ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٥٦ .
(٣) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .
(٤) سورة الغاشية ، آية : ٢١ ، ٢٢ .

أوجبه تعالى على نفسه الكريمة ، كقوله : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ، وكما جاء في الصحيحين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي (١) » .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قل : يا أيها الناس ، إن كنتم فى شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف ، الذى أوحاه الله إلى ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا ، فأنا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرنى ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وقوله : (وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين) ، أى : أخلص العبادة لله وحده حنيفا ، أى : منحرفا عن الشرك . ولهذا قال : (ولا تكونن من المشركين) ، وهو معطوف على قوله : (وامرت ان أكون من المؤمنين) .

وقوله : (وإن يمسسك الله بضر) إلى آخرها ، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد ، فهو الذى يستحق العبادة وحده ، لا شريك له .

روى الحافظ ابن عساكر ، فى ترجمة صفوان بن سليم ، من طريق عبد الله بن وهب : أخبرنى يحيى بن أيوب ، عن عيسى بن موسى ، عن صفوان بن سليم ، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم » .

---

(١) البخارى ، كتاب بدء الخلق : ١٢٩/٤ . وكتاب التوحيد : ١٥٣/٩ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب « فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه » : ٩٥/٨ ، ٩٦ .

ثم رواه من طريق الليث ، عن عيسى بن موسى ، عن صفوان ، عن رجل من أشجع ، عن أبي هريرة مرفوعا ، بمثله سواء .

وقوله : (وهو الغفور الرحيم) ، أي : لمن تاب إليه وتوكل عليه ، ولو من أيّ ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى آمرا لرسوله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لا مرْية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، [ومن ضل عنه فانما يرجع وبال ذلك عليه] . (وما أنا عليكم بوكيل) ، أى: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

وقوله : (واتبع ما يوحى إليك واصبر) ، أى : تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ، (حتى يحكم الله) ، أى : يفتح بينك وبينهم، (وهو خير الحاكمين) ، أى : خير الفاتحين بعدله وحكمته .

تفسير سورة هود

[وهى مكية]

قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا خلف بن هشام البزار ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن عكرمة قال : قال أبو بكر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما شيّبك ؟ قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن شيبان ، عن أبي إسحاق ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شِبْتَ ؟ قال : شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت (١) — وفى رواية : هود وأخواتها » .

وقال الطبرانى : حدثنا عبدان بن أحمد ، حدثنا حجاج بن الحسن ، حدثنا سعيد بن سلام ، حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة ، والحاقة ، وإذا الشمس كورت — وفى رواية : هود وأخواتها » .

وقد روى من حديث ابن مسعود ، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا محمد ابن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا أحمد بن طارق الراشى ، حدثنا عمرو بن ثابت ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، ما شيبك ؟ قال : هود ، والواقعة .

عمرو بن ثابت متروك ، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وبالله التوفيق .

وأما قوله : (أحكمت آياته ثم فصلت) ، أى : هى محكمة فى لفظها، مفصلة فى معناها ، فهو كامل صورةً ومعنى . هذا معنى ماروى عن مجاهد ، وقتادة ، واختاره ابن جرير .

وقوله : (من لدن حكيم خبير) ، أى : من عند الله الحكيم فى أقواله ، وأحكامه ، الخبير بعواقب الأمور .

---

(١) حديث الترمذى ساقط من مخطوطة الأزهر . وقد أثبتناه عن الطبعات السابقة ، ويحتمل أن يكون سقط لنظر ، وأما : « وفى رواية هود وأخواتها » فليست فى سنن الترمذى ، . والحديث أخرجه الترمذى فى تفسير سورة الواقعة.ينظر تحفة الأحوذى، الحديث ٣٣٥١ : ٩/١٨٤ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه » .

(ألا تعبدوا إلا الله) أي : نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنا لا إله أنا فاعبدون) (١) ، قال :(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (٢) .

وقوله : (إننى لكم منه نذير وبشير) ، أى : إنى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء فى الحديث الصحيح: « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا ، فقال : يامعشر قريش ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ، ألستم مصدقى ؟ فقالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » (٣) .

وقوله : (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله) أى : وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيا تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ، (يمتعكم متاعا حسنا) ، أى : فى الدنيا (إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) ، أى : فى الدار الآخرة ، قاله قتادة(٤) ، كقوله : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون (٥)) ؛ وقد جاء فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله، إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك (٦) » .

وقال ابن جرير [حدثت] عن المسيب بن شريك، عن أبى بكر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن مسعود فى قوله : (ويؤت كل ذى فضل فضله) ، قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات . فان عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات . ثم يقول : هلك من غلب آحاده أعشاره » . (٧)

وقوله : (وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) ، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فان العذاب يناله يوم معاده لا محالة ، (إلى الله مرجعكم) ، أى : معادكم ومرجعكم يوم القيامة ، (وهو على كل

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة المسد : ٦/٢٢١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب فى قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/١٣٤ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٩٣٦ : ١٥/٢٣١ .

(٥) سورة النحل ، آية : ٩٧ .

(٦) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة » : ١/٢٣ . ومسلم ، كتاب الوصية ، باب « الوصية بالثلث » : ٥/٧١ .

(٧) فى المخطوطة : « وقال ابن جرير عن ابن المسيب » . والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٩٣٧ : ١٥/٢٣١ . وترجمة المسيب فى الجرح : ٤/١/٢٩٤ .

شيء قدير) ، أي : وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه ، وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب ، كما أن الأول مقام ترغيب .

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم ، وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية . رواه البخاري من حديث ابن جريج ، عن محمد بن عباد بن جعفر : أن ابن عباس قرأ : (ألا إنهم تثنونى صدورهم) ، فقلت : يا أبا عباس ، ما تثنونى صدورهم ؟ قال : الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي — أو : يتخلى فيستحيي ، فنزلت : (ألا إنهم تثنونى صدورهم) (١) .

وفى لفظ آخر له قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا ، فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم (١) .

ثم قال : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : قرأ ابن عباس : (ألا انهم يثنونى صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم) .

قال البخارى: وقال غيره ، عن ابن عباس : (يستغشون) : يغطون رءوسهم (١) .

وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية : يعنى به الشك فى الله ، وعمل السيئات ، وكذا روى عن مجاهد ، والحسن ، وغيرهم : أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل ، (يعلم ما يسرون) من القول : (ومايعلنون إنه عليم بذات الصدور) ، أى : يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر . وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى فى معلقته المشهورة (٢) :

فلا تكتمُنَّ الله مافى نفوسكم ليخفى ، فمهما يُكتم الله يَعلَمِ
يُؤخَّرْ فيوضَعْ فى كتاب فيُدخَرْ ليوم حساب ، أو يُعَجَّلْ فيُنقَمِ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات ، وبالمعاد وبالجزاء ، وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة .

وقال عبد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره ، وغطّى رأسه ، فأنزل الله ذلك (٣) .

وعود الضمير على الله أولى ؛ لقوله : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦/٩١ ، ٩٢ .
(٢) ديوانه : ١٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٥/٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وقرأ ابن عباس (ألا إنهم تثنونى صدورهم) ، برفع الصدور على الفاعلية ، وهو قريب المعنى .

* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات ، من سائر دواب الأرض ، صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه (يعلم مستقرها ومستودعها) ، أى : يعلم أين مُنتهى سيرها فى الأرض ، وأين تأوى إليه من وكرها ، وهو مستودعها .

وقال على بن أبى طلحة وغيره ، عن ابن عباس : (ويعلم مستقرها) أى : حيث تأوى ، (ومستودعها) ، حيث تموت (١) .

وعن مجاهد : (مستقرها) فى الرحم ، (ومستودعها) فى الصلب ، كالتى فى الأنعام (٢) . وكذا روى عن ابن عباس والضحاك، وجماعة . وذكر ابن أبى حاتم أقوال المفسرين هاهنا، كما ذكره عند تلك الآية(٣)، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك ، كما قال تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون)(٤) . وقوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)(٥) .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شىء ، وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن جامع بن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حُصَين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبلوا البشرى يابنى تميم . قالوا : قد بشّرتنا فأعطنا . قال : اقبلوا البشرى يا أهل

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٩٦٣ : ١٥/٢٤١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٩٦٤ : ١٥/٢٤٢ .
(٣) ينظر تفسير الآية ٩٨ من سورة الأنعام : ٣/٢٩٩ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

اليمن . قالوا : قد قبلنا ، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شيء . قال : فأتانى آت فقال : يا عمران ، انحلت ناقتك من عقالها . قال : فخرجت فى إثرها ، فلا أدرى ماكان بعدى (١) .

وهذا الحديث مخرج فى صحيحى البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة ؛ فمنها : « قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر . فقال : كان الله ولم يكن شيء قبله ــ وفى رواية : غيره ــ وفى رواية : معه ــ وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كلَّ شيء ، ثم خلق السموات والأرض (٢) » .

وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء (٣) » .

وقال البخارى فى تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : أنفق أنفقْ عليك . وقال : يد الله ملأى لا يغيضها (٤) نفقة ، سحَّاءَ الليلَ والنهار . وقال : أفرأيتم ما أنفقَ منذ خلق السماء والأرض ، فإنه لم يَغِض مافى يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع » (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن عُدُس(٦) ، عن عمه أبى رَزين ــ واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق العقَيلى ــ قال قلت : يا رسول الله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء (٧) ، ما تحته هواء وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك (٨) .

وقد رواه الترمذى فى التفسير ، وابن ماجه فى السنة من حديث يزيد بن هارون به ــ وقال الترمذى : هذا حديث حسن (٩) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٣١ ، ٤٣٢ .

(٢) البخارى ، كتاب بدء الخلق : ٤/١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) مسلم ، كتاب القدر : ٨/٥١ .

(٤) مضى تفسير هذه الكلمة فى : ٣/١٣٨ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦/٩٢ . وينظر فيما تقدم : ٣/١٣٨ .

(٦) يقال فيه « حدس » أيضاً . ينظر الخلاصة .

(٧) العماء : السحاب ، ومعنى « فى عماء » : أى فوق سحاب عاليا عليه ، وقوله « ما فوقه هواء » ، يعنى : الذى فوق السحاب هواء . وكذلك قوله : « ما تحته هواء » ، يعنى السحاب .

هذا وقد قيل إن ذلك « العمى » مقصور وليس ممدودا . والعمى إذا كان مقصورا فمعناه : لا شيء ثابت ، لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شيء ، فكأنه قال فى جوابه : « كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره . ثم قال : « ما فوقه هواء وما تحته هواء » ، أى : ليس فوق العمى ، الذى هو لا شيء ، هواء ولا تحته هواء ، لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٤/١١ .

(٩) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة هود ، الحديث ٥١٠٩ : ٨/٥٢٨ ــ ٥٣١ . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٨٢ : ١/٦٤ ، ٦٥ .

وقال مجاهد : (وكان عرشه على الماء) ، قبل أن يخلق شيئا . وكذا قال وهب بن منبه ، وضمرة بن [حبيب] وقاله (١) ، قتادة ، وابن جرير ، وغير واحد .

وقال قتادة فى قوله : (وكان عرشه على الماء) ، ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .

وقال الربيع بن أنس : (وكان عرشه على الماء) ، فلما خلق السموات والأرض ، قسم ذلك الماء قسمين ، فجعل نصفاً تحت العرش ، وهو البحر المسجور .

وقال ابن عباس : إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه .

وقال إسماعيل بن أبى خالد ، سمعت سعداً الطائى يقول : العرش ياقوته حمراء .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) ، فكان كما وصف نفسه تعالى ، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش ، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام ، والعزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والحلم والعلم ، والرحمة والنعمة ، الفعال لما يريد .

وقال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قول الله (وكان عرشه على الماء) ، على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح (٢) .

وقوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ، أى : خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له ، ولم يخلق ذلك عبثا ، كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٣)) ، وقال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم (٤)) ، وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥)) .

وقوله : (ليبلوكم) ، أى : ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ، ولم يقل ، أكثر عملا ، بل أحسن عملا ، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل ، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمتى فقد العملُ واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط .

وقوله : (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ، يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض ، [كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله (٦)) ، (ولئن سألتهم من خلق السموات

---

(١) فى المخطوطة : « وضمرة بن وقال » . وما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٢) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/٢٤٥ ، ٢٥٠ .
(٣) سورة ص ، آية : ٢٧ .
(٤) سورة المؤمنون ، آية : ١١٥ ، ١١٦ .
(٥) سورة الذاريات ، آية : ٥٦ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٨٧ .

والأرض] وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)(١)، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة ، كما قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه (٢)) ، وقال تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة (٣)) ، وقولهم : (إن هذا إلا سحر مبين) ، أى : يقولون كفرا وعنادا : ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته ، فهو يتبعك على ما تقول .

وقوله : (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه) . يقول تعالى : ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة ، ليقولن تكذيبا واستعجالا : (مايحبسه)، أى : يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد .

« والأمة » تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة ، فيراد بها الأمد ، كقوله فى هذه الآية : (إلى أمة معدودة) ، وقوله فى يوسف : (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة (٤)) ، وتستعمل فى الإمام المقتدى به ، كقوله : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين (٥)) ، وتستعمل فى الملة والدين كقوله إخبارا عن المشركين أنهم قالوا : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (٦)) ، وتستعمل فى الجماعة كقوله : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون (٧)) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٨)) ، وقال تعالى : (ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (٩)) .

والمراد من الأمة هاهنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم ، كما فى صحيح مسلم : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار (١٠) » .

وأما أمة الأتباع ، فهم المصدقون للرسل ، كما قال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وفى الصحيح : « فأقول : أمتى أمتى » .

وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة ، كقوله تعالى : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١١)) ، وقال تعالى : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١٢)) .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٦١ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٣) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ٤٥ .
(٥) سورة النحل ، آية : ١٢٠ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٢٣ .
(٧) سورة القصص ، آية : ٢٣ .
(٨) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٩) سورة يونس ، آية : ٤٧ .
(١٠) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : ٩٣/١ .
(١١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٩ .
(١٢) سورة آل عمران ، آية : ١١٣ .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الانسان ومافيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، فانه إذا أصابته شدة بعد نعمة ، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضى الحال ، كأنه لم ير خيرا ، ولم يرْجُ بعد تلك فرجا . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة (ليقولن ذهب السيئات عنى) ، أى : يقول : ما بقى ينالنى بعد هذا ضيم ولاسوء ، (إنه لفرح فخور) ، أى : فرح بمافى يده ، بطر فخور على غيره . قال الله تعالى : (إلا الذين صبروا) ، أى : فى الشدائد والمكاره ، (وعملوا الصالحات) ، أى : فى الرخاء والعافية ، (أولئك لهم مغفرة) ، أى : بما يصيبهم من الضراء ، (وأجر كبير) ، بما أسلفوه فى زمن الرخاء ، كما جاء فى الحديث : « والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولاغم ، ولا نصب ولا وصب ، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه (١) » ، وفى الصحيحين : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن (٢) » ، وهكذا قال الله تعالى : (والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين) ... الآية (٣) .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم ، عما كان يتعنت به المشركون ، فيما كانوا يقولونه عن الرسول ، — كما أخبر تعالى عنهم — : (وقالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) (٤) — فأمر الله تعالى رسوله — صلوات الله تعالى وسلامه عليه — وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدْرُه ، ولا يهيدنّه (٥)

---

(١) رواه الإمام أحمد بنحوه عن أبى سعيد الخدرى : ٣/٤ .
(٢) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « المؤمن أمره كله خير » : ٨/٢٢٧ .
(٣) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ — ٢٢ .
(٤) سورة الفرقان ، آية : ٧ ، ٨ .
(٥) ينظر : ٢/١٥٤ .

ذلك ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (١)) ، وقال هاهنا : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا) ، أى : لقولهم ذلك ، فانما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فانهم كُذِّبُوا وأوذُوا ، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ، لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات . وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

ثم قال تعالى : (فإن لم يستجيبوا لكم) ، أى : فان لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه، (وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قال العوفى ، عن ابن عباس ، فى هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا ، يقول : من عمل صالحا التماس الدنيا ، صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل ، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله التماس الدنيا، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

وهكذا روى عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد .

وقال أنس بن مالك ، والحسن : نزلت فى اليهود والنصارى . وقال مجاهد وغيره : نزلت فى أهل الرياء .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وسَدَمه (٢) وطَلِبته ونيته ، جازاه الله بحسناته فى الدنيا ، ثم يفضى إلى الآخرة ، وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة (٣) .

وقد ورد فى الحديث المرفوع نحو من هذا .

وقال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا • ومن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا • كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك

---

(١) سورة الحجر آية ٩٨ ، ٩٩

(٢) السدم – بفتحتين – : الولوع بالشىء واللهج به ، والغم بطلبه ، والندم على فوته .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٠١٩ : ١٥/٢٦٤ . وهذا الأثر رواه الدارمى عن الحسن ، المقدمة ، الحديث ٣٣٨ : ١/٨١ . وفيه : « همه وبثه » بالباء والثاء .

وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (١)) ، وقال تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب (٢)) .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التى فطر عليها عباده ، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم (٣)) وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمْعاء ، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء ؟» ؛ وفى صحيح مسلم عن عياض ابن حمار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت (٤) لهم » ؛ وفى المسند والسنن : «كل مولود يولد على هذه الملة ، حتى يُعرب عنه لسانه (٥) .. » الحديث ، فالمؤمن باق على هذه الفطرة .

[وقوله : (ويتلوه شاهد منه) ، أى] : وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكمَّلة المعظّمة المختتمة بشريعة محمد — صلوات الله وسلامه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية ، والضحاك ، وإبراهيم النخعى ، والسدى ، وغير واحد فى قوله تعالى : (ويتلوه شاهد منه) : إنه جبريل عليه السلام (٦) .

وعن على ، والحسن ، وقتادة : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وكلاهما قريب فى المعنى ، لأن كلا من جبريل ومحمد — صلوات الله عليهما — بلّغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمد ، ومحمد إلى الأمة .

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٨ — ٢١ .
(٢) سورة الشورى ، آية : ٢٠ .
(٣) سورة الروم ، آية : ٣٠ .
(٤) مضى حديث أبى هريرة ، وعياض بن حمار عند تفسير الآية ١١٩ من سورة النساء ، وخرجناها وشرحنا غريبهما هنالك . ينظر : ٢/٣٦٨ .
(٥) مسند الإمام أحمد من جابر بن عبد الله : ٣/٣٥٣ ، وعن الأسود بن سريع : ٣/٤٣٥ ، ٤/٢٤ .
(٦) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٢٧٣ .

وقيل : « هو عليّ » : وهو ضعيف لا يثبت له قائل ، والأول والثانى هو الحق ؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن بها ، ولهذا قال تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ، وهو القرآن ، بلّغه جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغه النبى محمد إلى أمته .

ثم قال تعالى : (ومن قبله كتاب موسى) ، أى : ومن قبل القرآن كتاب موسى ، وهو التوراة ، (إماما ورحمة) ، أى : أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم ، وقدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم . فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى : (أولئك يؤمنون به) .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه : (ومن يكفر به من الأحزاب ، فالنار موعده) ، أى : ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم : أهل الكتاب وغيرهم ، من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ، ممن بلغه القرآن ، كما قال تعالى : (لأنذركم به ومن بلغ (١)) ، وقال تعالى : (قل يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً (٢)) . وقال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده (٣)) . وفى صحيح مسلم ، من حديث (٤) شعبة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ، ثم لا يؤمن بى ، إلا دخل النار » .

وقال أيوب السختيانى ، عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه — أو قال : تصديقه — فى القرآن ، فبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، [ولا] يهودى ولا نصرانى ، فلا يؤمن بى إلا دخل النار » . فجعلت أقول : أين مصداقه فى كتاب الله ؟ قال : وقلما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت له تصديقا فى القرآن ، حتى وجدت هذه الآية : (ومن يكفر به من الأحزاب [فالنار موعده) ، قال]: من الملل كلها (٥) .

قوله : (فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) ، أى : القرآن حق من الله ، لا مرية فيه ولا شك ، كما قال تعالى : (الم . تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين (٦)) ، وقال تعالى : (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه (٧)) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٣) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٤) كذا ، والحديث فى صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس » . عن أبى هريرة : ١/٩٣ .
هذا ، وقد رواه ابن جرير فى تفسيره من طريق شعبة بهذا الإسناد الذى ذكره ابن كثير ، الأثر ١٨٠٧٩ : ١٥/٢٨١ .
فلعله قد وقع سقط فى تفسير ابن كثير ، والله أعلم .
(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٢٧٩ ، ٢٨٠ .
(٦) سورة السجدة ، آية : ١ ، ٢ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١ ، ٢ .

وقوله : (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ، كما قال تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١)) ، وقال تعالى : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله (٢)) ، وقال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين (٣)) .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رءوس الخلائق، من الملائكة ، والرسل، [والأنبياء] ، وسائر البشر والجان ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا بهز وعفان قالا : أخبرنا همام ، حدثنا قتادة ، عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه(٤)، ويستره من الناس، ويقرّره بذنوبه، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وإنى أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول (الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) (٥) » .

أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، من حديث قتادة (٦) به .

وقوله : (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) ، أى : يردّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبوهم الجنة ، (ويبغونها عوجا) ، أى : ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة ، (وهم بالآخرة هم كافرون) ، أى : جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها .

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١٦ .
(٣) سورة سبأ ، آية : ٢٠ .
(٤) أى : ستره وعفوه وصفحه .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٧٤ . ورواه الإمام أحمد من وجه آخر : ٢ / ١٠٥ .
(٦) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦ / ٩٣ ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب « قبول توبة القاتل ، وإن كثر قتله » ٨ / ١٠٥ .

(أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء) ، أى : بل كانوا تحت قهره وغلبته ، وفى قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة ، (ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ، وفى الصحيحين : « إنّ الله ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلته » (١) . ولهذا قال تعالى : (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) ، أى يضاعف عليهم العذاب ، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم [سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، بل كانوا صُمّاً عن سماع الحق ، عُميا عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار : (وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) (٢) ، وقال تعالى: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) (٣) ، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه ، وعلى كل نهى ارتكبوه . ولهذا كان أصحّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وقوله : (أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ، أى : خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا نارا حامية ، فهم معذبون فيها لا يُفتَّر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى : (كلما خبَتْ زدناهم سعيراً) (٤) .

و(ضل عنهم) ، أى : ذهب عنهم (ما كانوا يفترون) من دون الله من الأنداد والأصنام ، فلم تُجْدِ عنهم شيئاً ، بل ضرتهم كل الضرر ، كما قال تعالى : (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٥) ، وقال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٦) ، وقال الخليل لقومه : (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مَوَدّةَ بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين) (٧) ، وقال تعالى : (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) (٨) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم ، ولهذا قال : (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بسموم وحميم ، وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦ / ٩٣ ، ٩٤ . ومسلم كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ٨ / ١٩ .
(٢) سورة الملك ، آية : ١٠ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٨٨ .
(٤) سورة الإسراء ، آية ٩٧ .
(٥) سورة الأحقاف ، آية : ٦ .
(٦) سورة مريم ، آية : ٨١ ، ٨٢ .
(٧) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٦٦ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فآمنت قلوبهم وعَملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا ، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات ، وبهذا ورثوا الجنات ، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان الخيِّرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم فى ذلك خالدون ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، وينامون ولا يتغطّون ، ولا يبصقون ولا يتمخطون ، إن هو إلا رَشْحُ مِسك يعرقون .

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين ، فقال : (مثل الفريقين) ، أى : الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع . فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا ، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجَج ، فلا يسمع ما ينتفع به ، (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) (١) ، وأما المؤمن ففَطِن ذكى لبيب ، بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبعُ الخير ويترك الشر ، سميع للحجة ، يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يَرُوج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ .

(أفلا تذكرون) أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، كما قال فى الآية الأخرى : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون (٢)) وقال : (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٣) .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدَةِ الأصنام أنه قال لقومه : (إنى لكم نذير مبين) ، أى : ظاهر النِّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله . ولهذا قال : (أن لا تعبدوا إلا الله) ، وقوله : (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) ، أى : إن استمررتم على ما أنتم عليه عذَّبكم الله عذابا أليما مُوجعاً شاقا فى الدار الآخرة .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٢٣ .
(٢) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .
(٣) سورة فاطر ، الآيات : ١٩ — ٢٤ .

فقال الملأ الذين كفروا من قومه) ، والملأ هم : السادة والكبراء من الكافرين منهم : (ما نراك إلا بشرا مثلنا) ، أى : لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا ؟ ثم مانراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة(١) وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قال : (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) ، أى : فى أول بادىء الرأى ، (وما نرى لكم علينا من فضل) ، يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة فى خَلْق ولا خُلُق ، ولا رزق ولا حال ، لَمَّا دخلتم فى دينكم هذا ، (بل نظنكم كاذبين) ، أى : فيما تَدَّعونه لكم من البر والصلاح والعبادة ، والسعادة فى الدار الآخرة إذا صرتم إليها .

هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ؛ فانه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح ، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ، ولو كانوا أغنياء . ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته ، كما قال تعالى : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون (٢)) ، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وقولهم « بادى الرأى » ليست بمذمة ولا عيب ، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للترَوى ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء ولا يفكر ويروى هاهنا إلا عَيِىّ أو غبى . والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلى واضح . وقد جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة ، غير أبى بكر ، فإنه لم يتلعثم » ، أى : ما تردد ولا تروَّى ، لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا ، فبادر إليه وسارع .

وقولهم : (وما نرى لكم علينا من فضل) ، هم لا يرون ذلك ، لأنهم عُمْىٌ عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم فى ريبهم يترددون ، فى ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون ، الأقلون الأرذلون ، وفى الآخرة هم الأخسرون .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما ردَّ على قومه فى ذلك : (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) ، أى : على يقين وأمر جلى ، ونبوة صادقة ، وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم ، (فعميّت عليكم) ، أى : خفيت عليكم ، فلم تهتدوا إليها ، ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ، (أنلزمكموها) ، أى : نَغْصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

(١) حاك الثوب : خاطه ، وهو حائك ، والجمع : حاكة ، وحوكة ، بفتح الحاء والواو .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٢٣ .

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)

يقول لقومه : لا أسألكم على نصحى مالا : أجرة آخذها منكم ، إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل ، (وما أنا بطارد الذين آمنوا) ، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه ، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم ، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم أن يطرُد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا ، فأنزل الله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) (١) [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى(٢)] يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم) . وقال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين) الآيات .

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)

يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له فى ذلك ، ولا يسألهم على ذلك أجرا، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع ، فمن استجاب له فقد نجا . ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف فى خزائن الله ، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك من الملائكة ، بل بشر مرسل ، مؤيد بالمعجزات : ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم : إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما فى أنفسهم ، فان كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم ، فلهم جزاء الحسنى ، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا ، لكان ظالما قائلا مالا علم له به .

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق : (قالوا : يا نوح ، قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ، أى : حاججتنا فأكثرت من ذلك ، ونحن لا نتبعك ، (فأتنا بما تعدنا) ، أى : من النقمة والعذاب ، ادع علينا بما شئت ، فليأتنا ما تدعو به . (إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٢ .

(٢) ما بين القوسين لا بد من إثباته ، لما بعده ، وهو قوله تعالى : (يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم) ، ليس من تمام آية الأنعام المتقدمة ، ولكنه من تمام آية الكهف : ٢٨ ، ونحسب أنه سقط نظر .

بمعجزين) ، أى : إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شىء ، (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم) ، أىْ : أىّ شىء يجدى عليكم إبلاغى لكم وإنذارى إياكم ونصحى ، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم ، (هو ربكم وإليه ترجعون) ، أى : هو مالك أزمة الأمور ، والمتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور ، له الخلق وله الأمر ، وهو المبدىء المعيد ، مالك الدنيا والآخرة .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة ، مؤكد لها ومقرر بشأنها . يقول تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون : افترى هذا وافتعله من عنده . (قل : إن افتريته فعلى إجرامى) ، أى : فإثم ذلك على ، (وأنا برىء مما تجرمون) ، أى : ليس ذلك مفتعلا ، ولا مفترى ، لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوحُ دعوته التى قال الله تعالىٰ مخبراً عنه أنه قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) (١) ، (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) (٢) ، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه : (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) ، فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنَّكَ أمرهم .

(واصنع الفلك) ، يعنى السفينة (بأعيننا) ، أى : بمرأىً منا ، (ووحينا) ، أى : وتعليمنا لك ماذا تصنعه ، (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) .

فقال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرِزَ الخشب ويقطّعه وييبسه ، فكان ذلك فى مائة سنة ، ونَجّرها فى مائة سنة أخرى ، وقيل : فى أربعين سنة ، فالله أعلم .

وذكر محمد بن إسحاق ، عن التوراة : أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج ، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا .

وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤا (٣) أزْوَر يشق الماء(٤) وقال قتادة : كان طولها ثلاثمائة ذراع ، فى عرض خمسين(٥) .

---

(١) سورة نوح ، آية : ٢٦ .

(٢) سورة القمر : آية : ١٠ .

(٣) الجؤجؤ : الصدر ، وأزور : من الزور - بفتحتين - وهو : الميل . كهيئة صدر السفينة .

(٤) ينظر تفسير الطبرى : ١٥ / ٣١٤ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨١٣٤ : ١٥ / ٣١١ .

وعن الحسن : طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع ؛

وعنه مع ابن عباس : طولها ألف ومائتا ذراع ، فى عرض ستمائة (١) ؛

وقيل : طولها ألفا ذراع ، وعرضها مائة ذراع ، فالله أعلم .

قالوا كلهم : وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا ، ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ؛ والوسطى للإنس ؛ والعليا للطيور . وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا ، من حديث على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكثيب بعصاه ، قال : قم بإذن الله . فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه ، قد شاب . قال له عيسى عليه السلام : هكذا هلكت ؟ قال : لا . ولكنى مت وأنا شاب ولكننى ظننت أنها الساعة ، فمن ثَمَّ شبت . قال : حدثنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب ، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذَنَب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزيز وخنزيرة ، فأقبلا على الروث ، فلما وقع الفأر بخَرَز (٢) السفينة يقرضه وحبالها ، أوحى الله إلى نوح ؛ أن اضرب بين عينى الأسد ، فخرج من منخره سنَّور وسنورة ، فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى عليه السلام : كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت قال : ثم بعث الحمامة ، فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطين برجليها ، فعلم أن البلاد قد غَرِقت . قال : فطوَّقها الخضرة التى فى عنقها ، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان ، ، فمن ثم تألف البيوت . قال : فقلنا : يا رسول الله ، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا) ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله ، فعاد (٣) ترابا .

وقوله : (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) ، أى يَطْنِزُون (٤) به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ، (قال : إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون) ، وعيد شديد ، وتهديد أكيد ، (من يأتيه عذاب يخزيه) ، أى : يهنه فى الدنيا ، (ويحل عليه عذاب مقيم) ، أى : دائم مستمر أبدا ؛

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨١٣٥ : ١٥ / ٣١١ .

(٢) فى المخطوطة : « بحرز » بالحاء . وفى تفسير الطبرى رجح السيد المحقق : « بجزز » ، وقال : « الجزر » صدر الإنسان أو وسطه » ، يعنى صدر السفينة . ولا يتناسب هذا مع قوله بعد : « وحبالها » ، وإن كانت هذه الكلمة ، وهى « وحبالها » ساقطة من تفسير الطبرى . ولعل الصواب ما أثبتناه ، وقد نبع هذا من قول ابن سيده فى المخصص ١٠ / ١٢٥ : « قلفت السفينة : خرزت ألواحها بالليف ، وجعلت فى خللها القار » ، فرجح عندنا أن تكون هذه الكلمة « خرز » بالخاء ، والراء المفتوحتين والزاى . وفى اللسان : « وخرز الظهر : فقاره ، وكل فقرة بين الظهر والعنق : خرزة » ، ومعنى ذلك أن الفأر أخذ يقرض فقار السفينة ، أى ألواحها ، وليفها ، والله أعلم .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨١٣٦ : ١٥ / ٣١١ ، ٣١٢ .

(٤) طنز يطنز طنزا – من باب ضرب – : كلمه باستهزاء ، فهو طناز . قال الجوهرى : أظنه مولدا أو معربا . والطنز : السخرية . « لسان العرب » .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتابعة ، والهتّان(١) الذى لا يَقْلع ولا يَفتُر ، بل هو كما قال تعالى : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر • وفجرنا الأرض عيُونا فالتقى الماء على أمر قد قدر • وحملناه على ذات ألواح ودسر • تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) (٢) .

وأما قوله : (وفار التنور) ، فعن ابن عباس : « التنور : وجه الأرض(٣) » .

أى : صارت الأرض عيونا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : « التنور : فَلَق الصبح ، وتنوير الفجر(٤) » ، وهو ضياؤه واشراقه .

والأول أظهر .

وقال مجاهد والشعبى : كان هذا التنور بالكوفة . وعن ابن عباس : عين بالهند . وعن قتادة : عين بالجزيرة ، يقال لها « عين الوردة » .

وهذه أقوال غريبة .

فحينئذ أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين — من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات — اثنين . ذكرا وأنثى ، فقيل : كان أول من أدخل من الطيور الدره ، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار ، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه ، فدخل بيده ، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح : مالك ؟ ويحك . ادخل . فينهض ولا يقدر ، فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا فى السفينة.

وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد ، حتى ألقيت عليه الحمى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث ، حدثنى الليث ، حدثنى هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم . [عن أبيه] (٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين ، قال أصحابه : وكيف يطمئن أو : تطمئن — المواشى ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى ، فكانت أول حمى

---

(١) هتنت السماء تهتن — من باب ضرب — هتنا وهتونا : صبت ، ويقال : سحابة هتون ، وسحاب هاتن وهتون . ولم نجد فى المعاجم التى بين أيدينا « هتان » على زنة فعال .

(٢) سورة القمر الآيات : ١١ — ١٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨١٤٣ : ١٥/٣١٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الآثار ١٨١٤٧ — ١٨١٥١ : ١٥ / ٣١٩ .

(٥) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة ، والأثر فى الدر المنثور للسيوطى من ابن أبى حاتم من طريق زيد بن أسلم عن أبيه : ٣ / ٣٣١ .

نزلت الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفُوَيسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا . فأوحى الله إلى الأسد ، فعطس ، فخرجت الهرّة منه ، فتخبأت الفأرة منها .

وقوله : (وأهلك إلا من سبق عليه القول) ، أى : واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه « يام » الذى انعزل وحده ، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله .

وقوله : (ومن آمن) ، أى : من قومك ، (وما آمن معه إلا قليل) ، أى نَزْرٌ يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل : كانوا عشرة . وقيل : إنما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ، وكنائنه (١) الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . وقيل : بل امرأةُ نوحٍ كانت معهم فى السفينة ، وهذا فيه نَظَرٌ ، بل الظاهرُ أنّها هلكت، لأنها كانت على دين قومها ، فأصابها ما أصابهم ، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومَها ، والله أعلم وأحكم .

* وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة : (اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) ، أى : باسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء ، وباسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رُسُوّها .

وقرأ أبو رجاء العَطاردى : (بسم الله مُجريها ومُرْسيها (٢)) .

وقال الله تعالى : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل : رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (٣)) ، ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب على السفينة وعلى الدابة ، كما قال تعالى : (والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون (٤)) ، وجاءت السنة بالحثّ على ذلك ، والندب إليه ، كما سيأتى فى سورة « الزخرف » ، إن شاء الله وبه الثقة .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى ، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى — وحدثنا زكريا ابن يحيى الساجى ، حدثنا محمد بن موسى الحرَشى — قالا : حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى ، عن نَهشل بن سعيد ،

---

(١) الكنائن : جمع كنة ، بفتح الكاف وتشديد النون ، وهى : امرأة الابن أو الأخ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥ / ٣٢٨ .
(٣) سورة « المؤمنون » ، آية : ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) سورة الزخرف الآيات : ١٢ – ١٤ .

عن الضحاك عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك ، (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) (بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم) .

وقوله : (إن ربى لغفور رحيم) ، مناسبٌ عند ذكر الانتقام من الكافرين باغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم ، كما قال : (إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم (١)) ، وقال : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب(٢)) ، إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين انتقامه ورحمته .

وقوله : (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) ، أى : السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذى قد طَبَّق جميع الأرض ، حتى طفت على رءوس الجبال ، وارتفع عليها بخمسة عشرة ذراعا ، وقيل : بثمانين ميلا ، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة باذن الله وتحت كَنَفه وعنايته ، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى : (إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة و تَعِيها أذن واعية (٣)) ، وقال تعالى :(وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر)(٤) .

وقوله : (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) ، هذا هو الابن الرابع ، واسمه « يام » ، وكان كافرا ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ، (قال : سآوى إلى جَبَل يعصمنى من الماء) ، وقيل : إنه اتخذ اه مركبا من زُجاج ، وهذا من الاسرائيليات ، والله أعلم بصحته . والذى نص عليه القرآن أنه قال : (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء)، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال ، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام : (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) ، أى : ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله . وقيل : إن عاصما بمعنى معصوم، كما يقال : « طاعم وكاس » ، بمعنى مطعوم ومكسوّ ، (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) .

وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر ، (وغيض الماء) ، أى : شرَع فى النقص ، (وقضى الأمر) ، أى : فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة ، ممن كفر بالله ، لم يبق منهم ديّار ، (واستوت) السفينة بمن فيها (على الجُوديّ) ــ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل ، فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام (٥) .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٦٧ .
(٢) سورة الرعد ، آية : ٦ .
(٣) سورة الحاقة ، آية : ١١ ، ١٢ .
(٤) سورة القمر ، الآيات : ١٣ – ١٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨١٩٨ : ١٥ / ٣٣٧ .

وقال قتادة : استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها ، قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودىّ من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت ، وصارت رماداً (١) .

وقال الضحاك : « الجُودىّ » : جبل بالموصل (٢) . وقال بعضهم : هو الطور .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن رافع ، حدثنا محمد بن عبيد ، عن توبة بن سالم قال : رأيت زِرّ ابن حُبَيش يصلى فى الزاوية حين يَدخل من أبواب كِندة على يمينك ، فسألته إنك لكثير الصلاة هاهنا يوم الجمعة ! قال : بلغنى آن سفينة نوح أرْسَتْ من ها هنا .

وقال علباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا ، معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوما ، وإن الله وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ، ثم وجهها الله إلى الجُودىّ فاستقرت عليه ، فبعث نوح الغرابَ ليأتيه بخبر الأرض ، فذهب فوقع على الجِيَف ، فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ، ولطخت رجليها بالطين ، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجُودىّ ، فابتنى قرية وسماها ثمانين (٣) ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة ، إحداها اللسان العربى . فكان بعضهم كلام بعض ، وكان نوح عليه السلام يَعبّر عنهم .

وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودى .

وقال قتادة وغيره : ركبوا فى عاشر شهر رجب ، فساروا مائة وخمسين يوما ، واستقرت بهم على الجُودىّ شهراً ، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم . وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير (٤) ، وأنهم صاموا يومهم ذاك ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى ، عن أبيه حَبيب بن عبد الله ، عن شُبَيل ، عن أبى هريرة قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا من الصوم ؟ قالوا : هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجَودىّ ، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم . فصام ، وقال لأصحابه : من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غَدَاء أهله ، فليتم بقية يومه (٥).

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٢٠٢ : ١٥ / ٣٣٨ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٢٠٣ : ١٥ / ٣٣٨ .

(٣) ينظر مراصد الاطلاع : ١ / ٣٠٠ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨١٨٧ : ١٥ / ٣٣٥ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه ، ولبعضه شاهدٌ فى الصحيح (١).

وقوله : (وقيل : بُعداً للقوم الظالمين) : أى : هلاكاً وخسارا لهم ، وبعدا من رحمة الله ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم ، فلم يبق لهم بقية :

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما ، من حديث موسى بن يعقوب الزمعى ، عن فائد مولى عبيد الله بن أبى رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره : أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان نوح عليه السلام مكث فى قومه ألف سنة [إلا خمسين عاما](٢)، يعنى (٣) وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون [منه] ويقولون : تعمل سفينة فى البرّ ، فكيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبَع الماء ، وصار فى السكك خشيت أمّ الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديداً ، فخرجت إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء [ارتفعت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء] خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى (٤) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روى عن كعب الأحبار ، ومجاهد بن جبر قصةُ هذا الصبى وأمّه بنحو من هذا .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام (٥) ، عن حال ولده الذى غرق ، (قال : رب إن ابنى من أهلى) ، أى ، وقد وعدتنى بنجاة أهلى ، ووعدك الحق الذى لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ؟ (قال :

---

(١) ينظر صحيح البخارى ، تفسير سورة يونس : ٦ / ٩١ ، ومسلم ، كتاب الصيام ، باب « صوم يوم عاشوراء » ٤ : ٣ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) ما بين الأقواس عن الدر المنثور .

(٣) كذا ، ولفظ الدر المنثور : « ... الا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، حتى كان آخر زمانه غرس مائة سنة الشجر » . ونحوه فى المستدرك للذهبى .

(٤) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ ، والحاكم وصححه ، وضعفه الذهبى ، وابن مردويه : ٣ / ٣٢٧ . وينظر المستدرك ، كتاب التفسير : ٢ / ٣٤٢ .

(٥) من هنا وقع سقط فى مخطوطة الأزهر ، يبتدىء أول الورقة ٣١٩ من الجزء الثالث ، ومثله وقع فى مخطوطة دار الكتب « ١ » تفسير ، وسوف ننبه على نهاية السقط . واعتمادنا فى التحقيق على ما طبع من هذا التفسير ، ونسأل الله التوفيق .

يا نوح ، إنه ليس من أهلك) ، اى : الذين وعدت إنجاءهم ، لأنى إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ؛ ولهذا قال : (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) ، فكان هذا الولد ممن سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا عليه السلام .

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زِنْية ، ويحكى القول بأنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد ، والحسن ، وعُبَيد بن عُمَير ، وأبى جعفر الباقر ، وابن جُرَيج ، واحتج بعضهم بقوله : (إنه عمل غير صالح) ، وبقوله : (فخانتاهما) ، فممن قاله الحسن البصرى ، احتج بهاتين الآيتين (١) . وبعضهم يقول : كان ابن امرأته . وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن ، أو أراد أنه نسب إليه مجازا ، لكونه كان ربيباً عنده ، فالله أعلم .

وقال ابن عباس ، وغير واحد من السلف : مازنت امرأة نبى قط — قال : وقوله : (إنه ليس من أهلك) ، أى : الذين وعدتك نجاتهم .

وقولُ ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه ، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبى من الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوجَ النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ، ولهذا قال تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفك عُصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) إلى قوله : (إذ تَلَقَّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم (٢)) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة وغيره ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه فى العمل والنية — قال عكرمة : فى بعض الحروف : (إنه عَمِل عملاً غير صالح) ، والخيانة تكون على غير باب (٣) .

وقد ورد فى الحديث أن رسول الله قرأ بذلك ، فقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن شَهر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد قالت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : (إنه عمل غير صالح) ، وسمعته يقول : (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ؛ إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ، ولا يبالى ، (إنه هو الغفور الرحيم (٤)) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا وكيع ، حدثنا هارون النحوى ، عن ثابت البُنَانى ، عن شهر بن حَوْشَب ، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها : (إنه عمل غير صالح (٥)) .

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ، الآثار ١٨٢١٢ — ١٨٢١٤ : ١٥ / ٣٤١ .
(٢) سورة النور ، الآيات : ١١ — ١٥ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٢٢٥ : ١٥ / ٣٤٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٤٥٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٢٩٤ .

أعاده أحمد أيضاً فى مسنده (١) .

أم سلمة هى أم المؤمنين ، والظاهر ــ والله أعلم ــ أنها أسماء بنت يزيد ، فإنها تكنى بذلك أيضاً (٢) .

وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا الثورى وابن عيينة ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سليمان بن قتة قال : سمعت ابن عباس سُئِل وهو إلى جَنْب الكعبة ، عن قول الله : (فخانتاهما) ، قال : أما وإنه لم يكن بالزنا ، ولكن [كانت] هذه تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف . ثم قرأ : (إنه عمل غير صالح) ــ قال ابن عيينة : وأخبرنى عمار الدُهْنِى أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال : كان ابن نوح ، إن الله لا يكذب ! قال تعالى : (ونادى نوح ابنه) ، قال : وقال بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبى قط (٣) .

وكذا رُوى عن مجاهد أيضاً ، وعكرمة ، والضحاك ، وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج ، وهو اختيار أبى جعفر ابن جرير (٤) ، وهو الصواب لا شك فيه .

قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودىّ ، من السلام عليه ، وعلى من معه من المؤمنين ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ، كما قال محمد بن كعب : دخل فى هذا السلام كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة (٥) .

وقال محمد بن إسحاق : ولما أراد الله أن يكفّ الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض ، فسكن الماء ، وانسدت (٦) ينابيع الأرض الغمر (٧) الأكبر وأبواب السماء ، يقول الله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) ... الآية ، فجعل الماء ينقُص ويَغيض ويُدْبِرُ ، وكان استواء الفلك على الجودى ، فيما يزعم أهل التوراة ، فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفى أول يوم من الشهر العاشر ، رُئى رءوس الجبال . فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً ، فتح نوح كُوَّة الفُلْك التى ركب فيها ، ثم أرسل الغرابَ لينظر له ما صنع الماء ، فلم يرجع إليه . فأرسل الحمامة فرجعت إليه ، لم تجد لرجليها موضعا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها . ثم مضى سبعة أيام ، ثم أرسلها لتنظر له ، فرجعت حين أمست ، وفى فيها وَرَق زيتون ، فعلم نوح أن الماء قد قَلّ عن وجه الأرض . ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها ، فلم ترجع ، فعلم

---

(١) المسند : ٦ / ٣٢٢ .

(٢) ينظر تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤٨ ــ ٣٥٠ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٢٢٧ : ١٥ / ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥ / ٣٤٦ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٢٥٠ : ١٥/ ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٦) فى تفسير الطبرى : « واستدت » ، وما هنا موافق لما فى النهاية لابن الأثير مادة : غوط .

(٧) كذا ومثله فى الطبرى ، ويعلق السيد محقق تفسير الطبرى بقوله : وانا أرجح أنه خطأ محض ، وأن الصواب « الغوط الأكبر » ، وفسر الغوط بأنه : المتسع من الأرض مع طمأنينة ، وهو هنا : عمق الأرض :الأبعد » .
وهذا اللفظ وهو « الغوط » ثابت فى النهاية ، مادة : غوط .

نوحٌ أن الأرض قد بَرَزَتْ . فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين ، برز وجهُ الأرض وظهر اليَبَس ، وكشف نوح غطاء الفلك [ورأى وجه الأرض] ، وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين ، فى سبع وعشرين ليلة منه (قيل : يا نوح ، اهبط بسلام منا (١)) ... الآية .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : هذه القصة وأشباهها (من أنباء الغيب) ، يعنى من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها ، كأنك شاهدها ، (نوحيها إليك) ، أى : نعلمك بها وحيا منا إليك ، (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) ، أى : لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ، (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا (٢)) ... الآية ، وقال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون (٣)) ... الآية ، وقال تعالى : (فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤)) .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾

يقول تعالى : (و) لقد أرسلنا (إلى عاد أخاهم هودا) ، آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ناهيا لهم عن الأوثان التى افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره (٥) (أفلا تعقلون) من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجرة .

ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره ، وحفظ شأنه ، ولهذا قال (يرسل السماء عليكم مدرارا (٦)) ، وفى الحديث : « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل همٍّ فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٢٠٥ : ١٥ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٢) سورة غافر ، آية : ٥١ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤) سورة هود ، آية : ٤٩ .

(٥) أى : خلقه .

(٦) سورة هود ، آية : ٥٢ ، ونوح ، آية : ١١ .

(٧) أخرجه أبو داود فى كتاب الوتر ، باب « فى الاستغفار » الحديث ، ١٥١٨ : ٢ / ٨٥ ، وابن ماجه فى كتاب الأدب باب « الاستغفار » ، الحديث ٣٨١٩ : ٢ / ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ .

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم : (ما جئتنا ببينة) ، أى : بحجّة وبرهان على ما تدعيه ، (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أى : بمجرد قولك « اتركوهم » نتركهم ، (وما نحن لك بمؤمنين) ، بمصدقين ، (إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ، يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ، (قال : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) ، يقول : إنى برىء من جميع الأنداد والأصنام ، (فكيدونى جميعا) ، أى : أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ، (ثم لا تنظرون) ، أى : طرفة عين .

وقوله : (إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) ، أى : تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه ، فإنه على صراط مستقيم .

قال الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه قال فى قوله تعالى : (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها (١) إن ربى على صراط مستقيم) ، قال : فيأخذ بنواصى عباده فيلقى(٢) المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده ، ويقال للكافر : (ما غرك بربك الكريم) .

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، بل هى جمَاد لاتسمع ولا تبصر ، ولا توالى ولا تعادى ، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له ، الذى بيده الملك ، و له التصرف ، وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝﴾

يقول لهم هود : فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها ، (ويستخلف ربى قوما غيركم) يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالى بكم : فإنكم لا تضرونه

---

(١) الناصية : مقدم الرأس ، يقال : أخذ بناصيته ، أى : ملكه وتصرف فيه وفق مشيئته .

(٢) فى ط الحلبى : « فيلقن المؤمن » . وفى ط المنار : « فيكرم المؤمن » ، ولا معنى لواحد منهما ، ولعل الصواب ماأثبتناه وربما كان صواب ما فى طبعة المنار : « فيكرم » .

بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ، (إن ربى على كل شيء حفيظ) ، أى : شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ، ويجزيهم عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(ولما جاء أمرنا) ، وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه .

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم) ، كفروا بها ، وعَصَوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبى فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود ، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ، (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) ، تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . فلهذا اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ، (ألا إن عادا كفروا ربهم) ... الآية ؛

قال السُّدّى : ما بُعث نبى بعد عاد إلا لعنوا على لسانه (١) .

* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : (و) لقد أرسلنا (إلى ثمود) وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجْر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم (أخاهم صالحا) ، فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال : (هو أنشأكم من الأرض) ، أى : ابتدأ خلقكم منها ، خلق منها أباكم آدم ، (واستعمركم فيها) أى : جعلكم عُمَّارا تعمرونها وتستغلونها ، (فاستغفروه) لسالف ذنوبكم ، (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه ؛ (إن ربى قريب مجيب) ، كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان (٢)) ... الآية .

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه ، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد فى قولهم : (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) ، أى : كنا نرجوك فى عقلك قبل أن تقول ما قلت ! (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) ، وما كان عليه أسلافنا ، (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) ، أى : شك كثير .

(قال : يا قوم ، أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) ، فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان ، (وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته) ، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتمونى ولما زدتمونى (غير تخسير) ، أى : خسارة .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٣٣٧/٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٨٦ .

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

وتقدم الكلام على هذه القصة مستوفى فى سورة « الأعراف » (١) بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وبالله التوفيق .

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى : (ولما جاءت رسلنا) ، وهم الملائكة ، إبراهيم بالبشرى ، قيل : تبشره بإسحاق ، وقيل : بهلاك قوم لوط . ويشهد للأول قوله تعالى : (ولما ذهب عن إبراهيم الروع ، وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط (٢)) ، (قالوا : سلاما ، قال : سلام) ، أى : عليكم .

قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيّوه به ، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام .

فما (لبث أن جاء بعجل حنيذ) ، أى : ذهب سريعا ، فأتاهم بالضيافة ، وهو عجل : فتى البقر ، حنيذ : مشوى على الرّضْف ، وهى الحجارة المحمّاة .

هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، وقتادة ، وغير واحد ، كما قال فى الآية الأخرى : (فراغ إلى اهله فجاء بعجل سمين . فقرّبه إليهم قال : ألا تأكلون (٣)) ؟ .

وقد تضمّنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة .

وقوله : (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) تنكّرهم ، (وأوجس منهم خيفة) . وذلك أن الملائكة لا همّة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به ، فارغين عنه بالكلية ، فعند ذلك نكرهم ، (وأوجس منهم خيفة) .

---

(١) ينظر فيما تقدم : ٣ / ٤٣٦ — ٤٤٠ .

(٢) سورة هود ، آية : ٧٤ .

(٣) سورة الذاريات ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .

قال السُدى : لما بعث الله الملائكة لقوم لوط ، أقبلت تمشى فى صُوَر رجال شبان ، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلَّهم ، (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) ، فذبحه ثم شواه فى الرضْف ، وأتاهم به فقعد معهم ، وقامت سارّة تخدمهم ، فذلك حين يقول : (وامرأته قائمة وهو جالس) فى قراءة ابن مسعود — (فلما قرّبه إليهم قال : ألا تأكلون ؟) ، قالوا : يا إبراهيم ، إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن . قال : فإن لهذا ثمنا : قالوا : وما ثمنه) قال : تذكرون اسم الله على أوله ، وتحمدونه على آخره . فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حقّ لهذا أن يتخذه ربه خليلا : (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم).يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم،وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت[إليه] سارة(١) أنه قد أكرمهم وقامت هى تخدمهم ، ضحكت وقالت : عجبا لأضيافنا هؤلاء ، نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم ، وهم لا يأكلون طعامنا (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ،حدثنا نصر بن على ، نوح بن قيس،عن عثمان بن محصن فى ضيف إبراهيم قال : كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ورفائيل — قال نوح بن قيس : فزعم نوح بن أبى شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم ، فقرب إليهم العجل، مسحه جبريل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه ، وأم العجل فى الدار(٣)

وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة : (قالوا : لا تخف) ، أى قالوا : لا تخف منا ، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم . فضحكت سارة استبشارا بهلاكهم ، لكثرة فسادهم ، وغلِّظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس .

وقال قتادة : ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم فى غفلة (٤) ؛

وقوله : (ومن وراء إسحاق يعقوب) ، قال العوفى ، عن ابن عباس . (فضحكت) أى : حاضت ؛

وقول محمد بن قيس : إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول الكلبى(٥) إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم — ضعيفان جدا ، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما ، فلا يلتفت إلى ذلك ، والله أعلم .

وقال وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق (٦) .وهذا مخالف لهذا السياق ، فإن البشارة صريحة مُرتبة على ضحكها .

(فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) ، أى : بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ؛ فإن يعقوب ولد إسحاق ، كما قال فى آية البقرة : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إن قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا :

---

(١) من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣١٤ : ١٥ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
(٣) ليس فى الآية ما يشير إلى قيام العجل بعد ذبحه ، ورجوعه إلى أمه ، ويبدو أن هذا من نسج خيال أهل الكتاب .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣١٥ : ١٥ / ٣٩٠ .
(٥) أثر محمد بن قيس فى الطبرى برقم ١٨٣١٧ : ١٥/ ٣٩٠ ، ٣٩١ ، وأثر الكلبى بعده .
(٦) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣١٩ : ١٥ / ٣٩١ .

نعبد إلهك وإله آبائك : إبراهيم ، وإسحاق ، إلها واحدا ، ونحن له مسلمون)(١) ؛

ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية ، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده . ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل . وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ، ولله الحمد .

(قالت : يا ويلتى ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ؟) الآية ،حكى قولها فى هذه الآية ، كما حكى فعلها فى الآية الأخرى ، فإنها : (قالت : يا ويلتى . أألد وأنا عجوز) ، وفى الذاريات : (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت : عجوز عقيم) (٢) ، كما جرت به عادة النساء فى أقوالهن وأفعالهن عند التعجب . (قالوا أتعجبين من أمر الله) ؟ أى : قالت الملائكة لها ، لا تعجبي من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له « كن » فيكون ، فلا تعجبي من هذا ، وإن كنت عَجُوزا عقيما ، وبعلك شيخا كبيرا ، فإن الله على ما يشاء قدير .

(رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد) ، أى : هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود ، ممجد فى صفاته وذاته ، ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا : « قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم صلِّ على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٣).

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام : أنه لما ذهب عنه الروع ، وهو ما أوْجَس من الملائكة خيفة ، حين لم يأكلوا ، وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير فى الآية ، قال : لما جاءه جبريل ومن معه ، قالوا له : (إنا مهلكو أهل هذه القرية) ، قال لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ــ قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا : لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا ؟ قالوا : لا . قال : ثلاثون ؟ قالوا: لا حتى بلغ خمسة قالوا : لا قال : أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : (إن فيها لوطا، قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجيه وأهله إلا امرأته) ... الآية ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه(٤).

وقال قتادة وغيره قريبا من هذا ــ زاد ابن إسحاق : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب ، قالوا : (نحن أعلم بمن فيها) ... الآية .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٣ .

(٢) سورة الذاريات ، آية ٢٩ .

(٣) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » : ٤ / ١٧٨ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد التشهد » : ٢ / ١٦ ، ١٧ .

(٤) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣٤١ : ١٥ / ٤٠٣ .

وقوله : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ، مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها (١) .

وقوله تعالى : (يا إبراهيم، أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك) ... الآية ، أى : إنه قد نفذ فيهم القضاء ، وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول البأس الذى لا يُرد عن القوم المجرمين .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة . فانطلقوا من عنده ، فأتوا لوطا عليه السلام وهو — على ما قيل — فى أرض له ، وقيل : فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم ، وخشى إن لم يُضِفهم أن يُضيفهم أحد من قومه ، فينالهم بسوء ، (وقال : هذا يوم عصيب) .

قال ابن عباس ، وغير واحد : « شديد (٢) بلاؤه . وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ، ويشق عليه ذلك .

وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له ، فتضيّفوه فاستحيا منهم ، فانطلق أمامهم وقال لهم فى أثناء الطريق ، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه : إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلا ، ثم أعاد ذلك عليهم ، حتى كرره أربع مرات — قال قتادة : وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك (٣) .

وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فبلغوا نهر سَدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقى ، فقالوا : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم وفَرِقت(٤) عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت : يا أبتاه ، أدرك فتيانا على باب المدينة (٥) ، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك [فيفضحوهم] (٦) ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فقالوا : خل عنا فلْنُضِيف الرجال . فجاء بهم ، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجاءوا يهرعون إليه (٧) .

---

(١) ينظر تفسير الآية ١١٤ من سورة التوبة .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥ / ٤١١ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى ، الآثار ١٨٣٥١ — ١٨٣٥٣ : ١٥ / ٤٠٨ .
(٤) أى : خافت عليهم .
(٥) لفظ الطبرى : « أدرك فتيان على باب المدينة » .
(٦) من تفسير الطبرى .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣٥٤ : ١٥ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

وقوله : (يهرعون إليه) ، أى يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك .

وقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ، أى : لم يزل هذا من سَجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال :

وقوله : (قال : يا قوم ، هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) ، يرشد هم إلى نسائهم ، فان النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال لهم فى الآية الأخرى : (أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون) (١) ، وقوله فى الآية الأخرى: (قالوا : أو لم ننهك عن العالمين) أى : ألم ننهك عن ضيافة الرجال ــ (قال : هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) (٢) ، وقال فى هذه الآية الكريمة : (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم)ــقال مجاهد: لم يكن بناته ، ولكن كن من أمَّتِهِ ، وكل نبى أبو أمَّتِه(٣) .

وكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال ابن جُريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء ، لم يعرض عليهم سفاحا (٤)

وقال سعيد بن جبير : يعنى نساءهم ، هن بَنَاته ، وهو أب لهم ، ويقال فى بعض القراءات : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم (٥) .

وكذا روى عن الربيع بن أنس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم .

وقوله : (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) ، أى : اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ، أليس منكم رجل رشيد) ، أى : فيه خير ، يقبل ما آمره به ، ويترك ما أنهاه عنه ؟ .

قالوا: (لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) ، أى: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ، (وإنك لتعلم ما نريد) ، أى: ليس لنا غرض إلا فى الذكور ، وأنت تعلم ذلك ، فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟

قال السدى : (وإنك لتعلم ما نريد) : إنما نريد الرجال (٦) .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام : إن لوطا توعدهم بقوله : (لو أن لى بكم قوة) ... الآية ، أى : لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى ، ولهذا ورد فى الحديث ، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبى

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) سورة الحجر ، آية : ٧١ ، ٧٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣٧٥ : ١٥ / ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٤) هذا الأثر فى تفسير الطبرى من مجاهد أيضا ، ويلى الأثر المتقدم .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣٨٠ : ١٥ / ٤١٤ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٣٨٦ : ١٥ / ٤١٧ ، ٤١٨ .

سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد يعنى الله عز وجل — فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة (١) من قومه (٢) » .

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رُسُل الله إليه ، وأنهم لا وصول لهم إليه ، (قالوا : يالوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك) ، وأمروه أن يُسرىَ بأهله من آخر الليل ، وأن يتَّبع أدبارهم ، أى : يكون ساقة لأهله ، (ولا يلتفت منكم أحد) ، أى : إذا سمعتَ ما نزل بهم ، ولا تهولنَّكم تلك الأصوات المزعجة ، ولكن استمروا ذاهبين .

(إلا امرأتك) — قال الأكثرون : هو استثناء من المثبت ، وهو قوله : (فأسر بأهلك) ، تقديره : (إلا امرأتك) ، وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك ، لأنه من مثبت ، فوجب نصبه عندهم .

وقال آخرون من القراء والنحاة : هو استثناء من قوله : (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) ، فجوَّزوا الرفع والنصب (٣) ، وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم ، وأنها لما سمعت الوَجْبَة (٤) التفتت وقالت : واقوماه . فجاءها حَجَرَ من السماء فقتلها .

ثم قرّبوا له هلاك قومه تبشيراً له ، لأنه قال لهم : « أهلكوهم الساعة » ، فقالوا : (إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب) ، هذا وقومُ لُوطٍ وُقوفٌ على الباب وعُكُوفٌ قد جاءوا يُهرَعون إليه من كل جانب ، ولوط واقف على الباب يُدَافعهم ويَرْدَعهم وينهاهم عما هم فيه ، وهم لا يقبلون منه ، بل يتوعدونه ويتهدَّدُونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام ، فضرب وجوههم بجناحه ، فطمس أعينهم ، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى : (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر) ... الآية .

وقال معمر ، عن قتادة ، عن حذيفة بن اليمان قال : كان إبراهيم عليه السلام يأتى قوم لوط ، فيقول : أنهاكم الله أن تعرّضوا لعقوبته ؟ فلم يطيعوه ، حتى إذا بلغ الكتاب أجله (٥) ، انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل فى أرض له ، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا : إنا ضيوفك الليلة (٦) ، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يُعذّبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شَهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ، ذكر ما يعمل قومه من الشرّ ، فمشى معهم ساعة ، ثم التفت إليهم فقال : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم . أين أذهب بكم ؟ إلى قومى وهم آشرّ خلق الله . فالتفت

---

(١) فى ثروة ، أى : فى عدد كثير من قومه .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة يوسف ، الحديث ٥١٢٠ : ٨ / ٥٤١ ، ٥٤٢ ، من رواية عبدة وعبد الرحيم عن محمد ابن عمرو ، وقد رواه الترمذى من طريق الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو ، قبل هذا الحديث ، وفى رواية الفضل : « فى ذروة من قومه » ، أى : أعلى نسب فى قومه . ويقول الترمذى : « قال محمد بن عمرو : الثروة : الكثرة والمنعة . وهذا أصح من رواية الفضل بن موسى . وهذا حديث حسن » .

وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده : ٢ / ٣٣٢ ، ٣٨٤ . والطبرى ، الأثر ١٨٤٠٢ : ١٥ / ٤٢١ .

(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٥ / ٤٢٢ .

(٤) أى : الرجفة .

(٥) بعده فى الطبرى : « لمحل عذابهم وسطوات الرب بهم ، قال : انتهت ..... » .

(٦) لفظ الطبرى : « إنا مضيفوك الليلة » .

جبريل إلى الملائكة فقال : احفظوها ، هذه واحدة . ثم مشى معهم ساعة ، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم ، قال : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم ، إن قومى أشر خلق الله . فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال : احفظوا ؛ هاتان اثنتان ، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال : إن قومى أشر من خلق الله ؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شراً منهم . فقال جبريل للملائكة : احفظوا : هذه ثلاث ، قد حقّ العذاب . فلما دخلوا ذهبت عجوز السوء فصعدت فلوّحت بثوبها ، فأتاها الفساق يُهرَعُون سراعا ، قالوا : ما عندك ؟ قالت : ضَيَّف لوطاً قومٌ ، ما رأيت قط أحسن وجوها منهم ، ولا أطيب ريحا منهم ، فهُرعوا يسارعون إلى الباب ، فعالجهم لوط على الباب ، فدافعوه طويلا ، هو داخل وهم خارج ، يناشدهم الله ويقول : (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فقام الملك فلَزّ بالباب — يقول فسده — واستأذن جبريل فى عقوبتهم ، فأذن الله له ، فقام فى الصورة التى يكون فيها فى السماء ، فنشر جناحه — ولجبريل جناحان ، وعليه وشاح من درّ منظوم ، وهو براق الثنايا ، أجلى الجبين ، ورأسه حبُكٌ حُبُكٌ مثل المرجان(١) وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج ، ورجلاه إلى الخضرة — فقال يا لوط : (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) ، امض يا لوط عن الباب ودعنى وإياهم ، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم ، فنشر جناحه ، فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم ، فصاروا عُمْيًا لا يعرفون الطريق ، [ولا يهتدون إلى بيوتهم] (٢) ثم أمر لوط فاحتمل بأهله فى ليلته ، قال : (فأسر بأهلك بقطع من الليل) (٣) .

وروى عن محمد بن كعب ، وقتادة ، والسدى نحو هذا .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول تعالى : (فلما جاء امرنا) وكان ذلك عند طلوع الشمس ، (جعلنا عاليها) ، وهى سَدُوم (سافلها) ، كقوله : (فَغشَّاها ماغشى) (٤) ، أى : أمطرنا عليها حجارة من « سجيل » ، وهى بالفارسية : حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره :

وقال بعضهم : أى من « سنك » وهو الحجر ، و « كل(٥) » ، وهو الطين ، وقد قال فى الآية الأخرى : (حجارة من طين) (٦) ، أى : مستحجرة قوية شديدة . وقال بعضهم : مشوية ، وقال البخارى . « سِجِّيل » : الشديد الكبير ، سجيل وسجين اللام والنون أختان ، وقال تميم بن مُقبِل :

---

(١) أى : شعره جعد متكسر .
(٢) من تفسير الطبرى .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٤١٦ : ١٥ / ٤٢٩ — ٤٣١ .
(٤) سورة النجم ، آية : ٥٤ .
(٥) ينظر الآثار الواردة فى ذلك فى تفسير الطبرى : ١٥/٤٣٣ ، ٤٣٤ .
(٦) سورة الذاريات ، آية : ٣٣ .

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُون البَيْضَ(١) ضاحِيةً ° ضرباً تواصَت به الأبطال سِجِّينا (٢)

وقوله : (مَنْضُود) ، قال بعضهم : منضودة فى السماء(٣) ، أى : معدة لذلك .

وقال آخرون : (منضود) ، أى : يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم .

وقوله : (مسومة) ، أى مُعْلَمة مختومة ، عليها أسماء أصحابها ، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه ؛

وقال قتادة وعكرمة : (مسومة) : مُطَوَّقة ، بها نَضْحٌ من حُمْرةٍ (٤) .

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد ، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها ، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث ، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس ، فدمَّره ، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد ، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد .

وقال مجاهد : أخذ جبريلُ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم ثم أكفأهم — وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن — قال : ولما قلبها كان أول ماسقط منها شُذّانها(٥) ،

وقال قتادة : بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ، ثم ألوَى(٦) بها إلى جو السماء ، حتى سمع أهل السماء ضواغى(٧) كلابهم ، ثم دمر بعضها على بعض ، ثم اتبع شُذّاذ القوم صخْراً — قال : وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى ، فى كل قرية مائة ألف — وفى رواية : ثلاث قرى ، الكبرى منها سدوم — قال : وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سَدُوم ، ويقول : سدوم ، يومٌ ، مالكٌ(٨) ؟

وفى رواية عن قتادة وغيره : بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه ، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها ، وجميع ما فيها ، فضمها فى جناحه ، فحواها وطواها فى جوف جناحه ، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا ، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب ، وكانوا أربعة آلاف ألف ، ثم قلبها ، فأرسلها إلى الأرض منكوسة ، وَدَمْدَم بعضها على بعض ، فجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها حجارة من سجيل(٩) .

---

(١) « البيض » واحد بيضة ، وهى الخوذة ، وعنى بها الرأس ، وفى اللسان ، مادة سجن : « يضربون البيض عن عرض » . ومعنى « ضاحية » : بارزة .

(٢) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦/٩٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٤٣٩ : ١٥/٤٣٧ عن أبى بكر الهذلى .

(٤) نضح من حمرة ، أى : أثر وبقية .

(٥) فى الطبعات السابقة : « كان أول ماسقط منها شرفاتها » . ولم نجده فى المعاجم . وفى تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٤٦١/١٥/٤٤١ : « شرافا » ، ولم نجده أيضاً . وقد أثبتنا ما فى الأثر ١٨٤٦٣ وهو المروى عن قتادة . والشذان : جمع شاذ ، وهو الذى خرج عن الجماعة ، فشذ منهم .

(٦) أى : أخذها وطار بها .

(٧) الضواغى : جمع ضاغية ، وهو صوتها .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٤٦٣ : ١٥/٤٤٢ . وفى الطبعات السابقة : « يوم هالك » .

(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٤٦٥ : ١٥/٤٤٢ .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : كانت قرى قوم لوط خمس قريات : « سدوم » ، وهى العظمى ، و« صعبة » و« صعوة » و« عثرة » ، و« دوما » ، احتملها جبريل بجناحه ، ثم صعد بها ، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها ، وأصوات دجاجها ، ثم كفأها على وجهها ، ثم أتبعها الله بالحجارة ، يقول الله تعالى : (جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) ، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات .

وقال السدى : لما أصبح قوم لوط ، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين ، فحملها حتى بلغ بها السماء ، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم ، وأصوات ديوكهم ، ثم قلبها فقتلهم ، فذلك قوله : (والمؤتفكة أهوى) ، ومن لم يمت حين سقط للأرض ، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى ، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ، فذلك قوله عز وجل : (وأمطرنا عليهم) ، أى : فى القرى حجارة من سجيل ، هكذا قال السدى(١) .

وقوله : (وماهى من الظالمين ببعيد) ، أى : وما هذه النقمة ممن تَشَبَّه بهم فى ظلمهم ، ببعيد عنه .

وقد ورد فى الحديث المروى فى السنن ، عن ابن عباس مرفوعاً : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول(٢) به » .

وذهب الإمام الشافعى فى قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل ، سواء كان محصناً أو غير محصن ، عملا بهذا الحديث .

وذهب الإمام أبوحنيفة أنه يلقى من شاهق ، ويُتبع بالحجارة ، كما فعل الله بقوم لوط ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين ــ وهم قبيلة من العرب ، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام ، قريباً من بلاد معان ، فى بلد يعرف بهم ، يقال لها « مدين » ، فأرسل الله إليهم شعيبا ، وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال : (أخاهم شعيبا) يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده ، وينهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان (إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى فى معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ، (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) ، أى : فى الدار الآخرة .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٤٦٤ : ١٥/٤٤٢ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء فى حد اللوطى » ، الحديث ١٤٨١ : ٥/٢١ ، وسنن ابن ماجه كتاب الحدود ، باب « من عمل عمل قوم لوط » ، الحديث ٢٥٦١ : ٢/٨٥٦ .

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ، ونهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق .

وقوله : (بقية الله خير لكم) ، قال ابن عباس : رزق الله خيْرٌ لكم .

وقال الحسن : رزق الله خير من بخسكم الناس .

وقال الربيع بن أنس : وصية الله خير لكم .

وقال مجاهد : طاعة الله .

وقال قتادة : حظكم من الله خير لكم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « الهلاك » فى العذاب ، « والبقية» فى الرحمة .

وقال أبوجعفر بن جرير : (بقية الله خير لكم) ، أى : ما يفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان (خير لكم أى : من أخذ أموال الناس قال : وقد روى هذا عن ابن عباس(١) .

قلت : ويشبه قوله تعالى : (قل : لايستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث) (٢) .

وقوله : (وما أنا عليكم بحفيظ) ، أى : برقيب ولا حفيظ ، أى : افعلوا ذلك لله عزوجل ، لاتفعلوه ليراكم الناس ، بل لله عز وجل .

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

يقولون له على سبيل التهكم ، قبّحهم الله : (أصلاتك) ، قال الأعمش : أى قرآنك ، (تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) ، أى : الأوثان والأصنام ، (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) ، فنترك التطفيف على قولك ، هى أموالنا نفعل فيها ما نريد .

[قال الحسن] فى قوله : (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) : إىْ والله ، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم .

وقال الثورى فى قوله : (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) ، يعنون الزكاة

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٤٤٧ ، وأغلب الآثار المتقدمة بعد ذلك .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٠٠ . هذا : وينتهى عند قوله تعالى : (ولو أعجبك كثرة الخبيث) السقط الذى نبهنا عليه فى ص: ٢٥٨

وقولهم(إنك لأنت الحليم الرشيد)، قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جريج ، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك ــ أعداء الله ــ على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

يقول لهم أرأيتم ياقوم (إن كنتُ على بينة من ربى) ، أى : على بصيرة فيما أدعو إليه ، (ورزقنى منه رزقاً حسناً) ، قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين .

وقال الثورى : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) ، أى : لا أنهاكم عن شئ وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية عنكم ، كما قال قتادة فى قوله : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) ، يقول : لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبَه ، (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) ، أى ، فيما آمركم وأنهاكم ، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى ، (وما توفيقى) ، أى : فى إصابة الحق فيما أريده (إلا بالله ، عليه توكلت) فى جميع أمورى ، (وإليه أنيب) ، أى : أرجع ، قاله مجاهد وغيره .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا أبو قَزَعَة سُوَيد بن حُجَير الباهلى ، عن حكيم ابن معاوية ، عن أبيه : أن أخاه مالكاً قال : يامعاوية ، إن محمدا أخذ جيرانى ، فانطلق إليه ، فانه قد كلمك وعرفك . فانطلقت معه فقال : دع لى جيرانى ، فقد كانوا أسلموا.فأعرض عنه. [فقام مُتَمَعِّطاً(١)] ، فقال : أما والله لئن فعلتَ إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . وجعلت أجرّه وهو يتكلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقول ؟ فقال : إنك والله لئن فعلت [ذلك] ، إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . قال فقال : أوَقد قالوها ــ أوقائلهم(٢) ولئن فعلت ذلك ماذاك إلا علىّ ، وماعليهم من ذلك من شيء ، أرسلوا له جيرانه »(٣) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : أخذ النبى صلى الله عليه وسلم ناساً من قومى فى تُهَمَة فحبسهم ، فجاء رجل من قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب، فقال : يا محمد ، علام تحبس جيرتى؟ فصمتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم [عنه] فقال : إن ناساً ليقولون : إنك تنهى عن الشيء وتستخلى(٤) به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما يقول ؟ قال : فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافةَ أن يسمعها فيدعو على قومى دَعوة لايفلحون بعدها أبداً ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم [به] حتى فهمها ، فقال : أو قد قالوها ــ أو : قائلها منهم ، والله لوفعلتُ لكان علىّ وماكان عليهم ، خلوا له عن جيرانه (٥) .

---

(١) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد ، ومتمعطاً : متسخطاً متغضباً .
(٢) أى : أو قالها قائلهم .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٤٧/٤ .
(٤) أى : تنفرد به .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٥ .

ومن هذا القبيل الحديثُ الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا أبوعامر ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، عن عبد الملك [بن سعيد] بن سويد الأنصارى قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تُنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم [وأبشاركم] ، وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم(١) منه .

هذا إسناد صحيح ، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم ، افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل اللهم ، إنى أسألك من فضلك(٢) » .

ومعناه — والله أعلم — مهما بلغكم عنى من خير فأنا أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم) .

وقال قتادة ، عن عَزْرَة ، عن الحسن العُرَنى ، عن يحيى بن الجزار ، عن مسروق أنّ امرأة جاءت ابن مسعود قالت : أتنهى عن الواصلة(٣) ؟ قال : نعم . فقالت فلعله فى بعض نسائك ؟ فقال : ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) .

وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا جرير ، عن أبى سليمان العتبى قال : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهى ، فيكتب فى آخرها ، وماكانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح : (وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) .

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

يقول لهم : (ويا قوم ، لايجرمنكم شقاقى) ، أى : لاتحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط من النقمة والعذاب .

قال قتادة (وياقوم لايجرمنكم شقاقى) ، يقول : لايحملنكم فراقى .

وقال السدى : عداوتى ، على أن تتمادوا فى الضلال والكفر ، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ، حدثنا ابن أبى غَنِيَّة حدثنى عبد الملك بن أبى سليمان ، عن أبى ليلى الكندى قال : كنت مع مولاى أمسك دابته ، وقد أحاط الناس بعثمان

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٩٧ ، ٥/٤٢٥ .

(٢) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « ما يقول إذا دخل المسجد : » ٢/١٥٥ .

(٣) الواصلة : التى تصل شعرها بشعر آخر زور . والمقصود النهى عن فعلها .

ابن عفان ، إذ أشرف علينا من داره فقال : (ياقوم ، لايَجْرِمَنَّكم شقاقى أن يصيبكم مثلُ ما أصابَ قوم نوح أوقوم هود أوقوم صالح) ، ياقوم ، لاتقتلونى ، إنكم إن تقتلونى كنتم هكذا ، وشَبَّكَ بين أصابعه .

وقوله : (وما قوم لوط منكم ببعيد) ، [قيل : المراد فى الزمان ، قال قتادة] : إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : فى المكان ، ويحتمل الأمران ، (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) ، اى استغفروه من سالف الذنوب ، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ، (إن ربى رحيم ودود) ، أى : لمن تاب وأناب .

قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

يقولون (ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول) ، أى : ما نفهم ولانعقل كثيراً من قولك ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب . (وإنا لنراك فينا ضعيفا) .

قال سعيد بن جبير ، والثورى : كان ضرير البصر ــ قال الثورى : وكان يقال له : خطيب الأنبياء .

[قال السدى وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال أنت واحد] .

[وقال أبو روق : يعنون ذليلا ، لأن عشيرتك ليسوا على دينك] (١) .

(ولولا رهطك) أى : قومك وعشيرتك ؛ لولا معزة قومك علينالرجمناك ، قيل : بالحجارة ، وقيل : لسَبَبْناك ، (وما أنت علينا بعزيز) ، أى : ليس لك عندنا معزة .

(قال : ياقوم ، أرهطى أعز عليكم من الله) ، يقول : أتتركونى لأجل قومى ، ولاتتركونى إعظاما لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة . وقد اتخذتم جانب الله (وراءكم ظهرياً) ، أى : نبذتموه خلفكم ، لاتطيعونه ولاتعظمونه ، (إن ربى بما تعملون محيط) ، أى : هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها .

وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

لما يئس نبىّ الله شعيب من استجابة قومه له ، قال : ياقوم ، (اعملوا على مكانتكم) ، أى : على طريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد شديد ، (إنى عامل) ، على طريقتى ومنهجى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) ، أى : فى الدار الآخرة ، (ومن هو كاذب) ، أى : منى ومنكم ، (وارتقبوا) ، أى : انتظروا (إنى معكم رقيب) .

قال الله تعالى : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا) ، وهم قومه ، (الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ، وقوله : « جاثمين» أى : هامدين لاحراك بهم . وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة ،

---

(١) أثر السدى وأبى روق ليسا فى المخطوطة . وقد أثبتناهما من الطبعات السابقة .

وفى الأعراف رجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة ، اجتمع عليهم يومَ عذابهم هذه النقمَ كلها ، وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه ، ففى الأعراف لما قالوا : (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) (١) ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وهاهنا لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التى أسكتتهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا : (فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين(٢)) ، قال : فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم)(٣)، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً .

وقوله : (كأن لم يغنوا فيها) ، أى : يعيشوا فى دارهم قبل ذلك ، (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) ، وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار ، وشبيهاً بهم فى الكفر وقَطْع الطريق ، وكانوا عرَبا شبههم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن إرساله موسى عليه السلام بآياته وبيناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله ، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط ، (فاتبعوا أمر فرعون) ، أى : مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى والضلال ، (وما أمر فرعون برشيد) ، أى : ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال ، وكفر وعناد ، وكما أنهم أتبعوه فى الدنيا ، وكان مُقَدّمهم ورئيسهم ، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها ، وشربوا من حياض رَدَاها، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: (فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا(٤)) ، وقال تعالى : (فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى (٥)) ، وقال تعالى : (يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود) ، وكذلك شأن المتبوعين يكونون مُوَفرين فى العذاب يوم المعاد ، كما قال تعالى : (لكل ضعف ولكن لا تعلمون (٦)) ، وقال تعالى إخباراً عن الكَفَرة أنهم يقولون فى النار : (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا (٧)) .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٨٨ .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ١٨٧ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٨٩ .
(٤) سورة المزمل ، آية : ١٦ .
(٥) سورة النازعات ، الآيات : ٢١ — ٢٦ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .
(٧) سورة الأحزاب ، آية : ٦٧ .

وقام الإمام أحمد : حدثنا هُشيم ، حدثنا أبو الجهم(١) ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امرؤ القيس حاملُ لواء شعراء الجاهلية إلى النار (٢) » .

وقوله : وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود ، أى : أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة فى هذه الحياة الدنيا ، (ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود) .

قال مجاهد : زيدُوا لعنة يوم القيامة ، فتلك لعنتان .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (بئس الرفد المرفود) ، قال : لعنة الدنيا والآخرة (٣) ، وكذا قال الضحاك ، وقتادة ، وهكذا قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين)(٤) ، وقال تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)(٥) .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء ، وما جرى لهم مع أممهم ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال : (ذلك من أنباء القرى) ، أى : من أخبارها (نقصه عليك منها قائم) ، أى : عامر ، (وحصيد) ، أى : هالك داثر ، (وما ظلمناهم) ، أى : إذ أهلكناهم ، (ولكن ظلموا أنفسهم) ، أى : بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ، (فما أغنت عنهم آلهتهم) أى : أصنامهم وأوثانهم التى كانوا يعبدونها ويدعونها ، (من دون الله من شئ) ،أى : ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ، (وما زادوهم غير تتبيب) .

قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما : أى غير تخسير (٦) وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها ، فبهذا أصابهم ما أصابهم ، وخسروا بهم ، فى الدنيا والآخرة .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى : وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم ، (إن أخذه أليم شديد ، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله

---

(١) فى المسند : « أبو الجهيم » ، والمثبت عن المخطوطة ، وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٤/٢/٣٥٤ : « أبو الجهم الإيادى ، روى عن الزهرى ، روى عنه هشيم » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢٨ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٤٦٨ ، ٤٦٩ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٤٢ .
(٥) سورة غافر ، آية : ٤٦ .
(٦) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٤٧٣ .

ليُملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلته ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذَ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد(١)) .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى: إن فى إهلاكنا الكافرين ، ونصرَة الأنبياء،وإنجائنا المؤمنين ، (لآية) ، أى : عِظَةً واعتبارا على صدق موعودنا فى الدار الآخرة ، (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد(٢)) ، وقال تعالى : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ؛ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد (٣)) .

وقال تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس) ، أى : أولهم وآخرهم ، فلا يبقى منهم أحد ، كما قال : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٤)) .

(وذلك يوم مشهود) ، أى : يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم ، ويجتمع فيه الرسل جميعهم ، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم ، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيهم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها .

وقوله : (وما نؤخره إلا لأجل معدود) ، أى : ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره ، فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مده معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة ، ولهذا قال : (وما نؤخره إلا لأجل معدود) ، أى : لمدة موقتة لا يزاد عليها ولا ينقص منها ؛ (يوم يأت لا تكلم نفس إلا باذنه) ، يقول : يوم يأتى هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا باذن الله تعالى ، كما قال تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً (٥)) ، وقال تعالى: (وخشعت(٦) الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) ، وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة الطويل : « ولا يتكلم (٧) يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهُم سَلِّم سَلِّم » .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة هود : ٩٣/٦ ، ٩٤ ، ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ١٩/٨ .

(٢) سورة غافر ، آية : ٥١ .

(٣) سورة ابراهيم ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ٤٧ .

(٥) سورة النبأ ، آية : ٣٨ .

(٦) سورة طه ، آية : ١٠٨ .

(٧) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « فضل السجود » : ٢٠٤/١ ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب « معرفة طريق الرؤية » : ١١٦/١ .

وقوله : (فمنهم شقى وسعيد) ، اى : فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد ، كما قال : (فريق فى الجنة وفريق فى السعير(١)) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا موسى(٢) بن حيّان ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا سليمان بن سفيان ، حدثنا عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، عن عمر رضى الله عنه قال : لما نزلت (فمنهم شقى وسعيد) ، سألت النبى صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا رسول الله ، علام نعمل ؟ على شئ قد فُرغ منه ، أم على شئ لم يفرغ منه ؟ فقال : « على شئ قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام ، ولكن كلّ ميسر لما خلق له » .

ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء ، فقال :

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى : (لهم فيها زفير وشهيق) ، قال ابن عباس : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الصدر(٣) . أى : تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياذاً بالله من ذلك .

(خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) ، قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشئ بالدوام أبداً قالت : «هذا دائم دوامَ السموات والأرض » ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليلُ والنهار ، وما سمر ابنا سَمير ، وما لألأت العُفْر بأذنابها . يعنون بذلك كلمة : « أبدا » ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم ، فقال : (خالدين فيها ما دامت السمو ات والأرض(٤)) .

قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس ، لأنه لا بدّ فى عالم الآخرة من سموات وأرض ، كما قال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات(٥)) ، ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله : (ما دامت السموات والأرض) ، قال : تبدل سماء غير هذه السماء ، وأرض غير هذه الأرض ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض :

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٧ .

(٢) هو موسى بن محمد بن حيان . ينظر المشتبه للذهبى : ١٣١ .

(٣) هذا الأثر رواه الطبرى عن أبى العالية ، وهو برقم ١٨٥٦٨ : ١٥/٤٨٠ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٤٨١ .

هذا ومعنى : « وما سمر ابنا سمير » ، السمير : الدهر ، وابناه الليل والنهار ، يقول : لا أفعله ما بقى الدهر .

وأما « وما لألات العفر بأذنها » ، هكذا فى تفسير الطبرى ، ومخطوطة الأزهر ، والعفر ــ بضم فسكون ــ : الظباء ، جمع أعفر ، ولألات العفر بأذنابها ، أى : بصبصت وحركت .

وقد ورد هذا المثل فى إصلاح المنطق لابن السكيت ٤٣٦ ، واللسان مادة لألأ ، وفور : « وما لألأت الفور » . والفور ــ بضم الفاء ــ الظباء .

(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٤٨ .

وقال ابن أبي حاتم : ذُكر عن سفيان بن حسين ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قوله : (ما دامت السموات والأرض) ، قال : لكل جنة سماء وأرض .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : : ما دمت الأرض أرضاً ، والسماء سماءً .

وقوله : (إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) ، كقوله تعالى : (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم (١)) .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء ، على أقوال كثيرة ، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه « زاد المسير (٢) » ، وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى كتابه(٣) ، واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان ، والضحاك ، وقتاده ، وأبى سنان ، ورواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً : أن الإستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله : كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمضمون ذلك من حديث أنس ، وجابر ، وأبى سعيد ، وأبى هريرة ، وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها . وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة .

وقد روى فى تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وأبى سعيد ، من الصحابة . وعن أبى مجاز ، والشعبى ، وغيرهما من التابعين : وعن عبدالرحمن بن زيد ابن أسلم ، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة — أقوال غريبة . وورد حديث غريب فى معجم الطبرانى الكبير ، عن أبى أمامة صُدَىّ بن عجلان الباهلى ، ولكن سنده ضعيف ، والله أعلم .

وقال قتادة : الله أعلم بثُنْيَاه(٤) .

وقال السدى : هى منسوخه بقوله : (خالدين فيها أبداً) .

* وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى : (وأما الذين سعدوا) ، وهم أتباع الرسل ، (ففى الجنة) ، أى : فمأواهم الجنة ، (خالدين فيها) ، أى : ماكثين مقيمين فيها أبدا ، (ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) ، معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيا

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٨ .
(٢) زاد المسير فى علم التفسير : ٤/١٦٠ — ١٦١ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٨١ — ٤٨٥ .
(٤) الثنيا — بضم فسكون — : الاستثناء . والأثر فى تفسير الطبرى برقم ١٨٥٧٣ : ١٥/٤٨٢ .

هم فيه من النعيم ، ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفَس .

وقال الضحاك ، والحسن البصرى : هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ، ثم أخرجوا منها . وعقب ذلك بقوله : (عطاء غير مجذوذ) ، أى : غير مقطوع — قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو العالية وغير واحد ، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أنّ ثم إنقطاعاً ، أو لبساً ، أو شيئاً ، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع . كما بين هنا أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته ، وأنه بعَدْله وحكمته عذبهم ، ولهذا قال : (إن ربك فعال لما يريد) ، كما قال : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون(١)) ، وهنا طيب القلوب وثبَّت المقصود بقوله : (عطاء غير مجذوذ) .

وقد جاء فى الصحيحين : « يوتى بالموت فى صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت(٢) » .

وفى الصحيحين أيضاً « فيقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تَشبّوا فلا تهرَموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسُوا أبدا(٣) » .

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

يقول تعالى : (فلاتك فى مرْية(٤) مما يعبد هؤلاء) المشركون أنه باطل وجَهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى : ليس لهم مُستَنَدُ فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات ، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحدا من العالمين ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة .

قال سفيان الثورى ، عن جابر الجُعْفي ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) ، قال : ما وعدوا فيه من خير(٥) أو شر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب [نصيبهم] غير منقوص .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٣ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة مريم : ٦/١١٧ ، ١١٨ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » : ٨/١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فى دوام نعيم أهل الجنة » : ٨/١٤٨ .

(٤) المرية : الشك والريبة .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٥٩٥ : ١٥/٤٩٢ .

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ، فاختلف الناس فيه ، فمن مومن به ، ومِنْ كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ، ولا يَهيد َنَّك ذلك[1] .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) ، قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم[2] .

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعدم قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[3]) ؛ فإنه قد قال فى الآية الأخرى : (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى • فاصبر على ما يقولون[4]) .

ثم أخبر أن الكافرين فى شك مما جاءهم به الرسول قوىّ ، فقال : (وإنهم لفى شك منه مريب) ؛

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ، ويجزيهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فقال : (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) ، أى : عليم بأعمالهم جميعها ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ؛

وفى هذه الآية قراءات كثيرة[5] ، ويرجع معناها إلى هذا الذى ذكرناه ، كما فى قوله تعالى : (وإن كل لما جميع لدينا محضرون[6]) .

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المومنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد . ونهى عن الطغيان ، وهو البغى ، فإنه مَصرَعَة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شئ ، ولا يخفى عليه شئ .

وقوله : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : لا تدهنوا[7] ؛

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك .

---

(١) مضى تفسير هذه الكلمة فى : ٣/٣١١ .

(٢) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٤٩٣ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .

(٤) سورة طه ، آية : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٤٩٤ — ٤٩٨ .

(٦) سورة « يس » ، آية : ٣٢ .

(٧) هذا الأثر فى تفسير الطبرى مروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، برقم ١٨٦٠٨ /١٥/ ٥٠١ ، قال : « الركون : الإدهان ، وقرأ : (ودوا لو تدهن فيدهنون) ، قال : تركن إليهم ، ولا تنكر عليهم الذى قالوا ، وقد قالوا العظيم من كفرهم بالله وكتابه ورسوله ... » . وأما أثر على بن أبى طلحة عن ابن عباس فهو فى تفسير الطبرى برقم ١٨٦٠٢/١٥/٥٠٠ ، وهو : « الركون إلى الشرك » .

وقال أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم .

وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا .

وهذا القول حسن ، أي : لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ، (فتمسكم النار ، ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) ، أي : ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وأقم الصلاة طرفي النهار) ، قال : يعني الصبح والمغرب (١) . وكذا قال الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال الحسن – في رواية – وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : هي الصبح والعصر .

وقال مجاهد : هي الصبح في أول النهار ، والظهر والعصر من آخره . وكذا قال محمد بن كعب القرظي ، والضحاك في رواية عنه .

وقوله (وزلفاً من الليل) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغيرهم : يعني صلاة العشاء .

وقال الحسن – في رواية ابن المبارك ، عن مبارك بن فضالة ، عنه : (وزلفاً من الليل) ، يعني المغرب والعشاء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هما زُلْفَتَا الليل : المغرب والعشاء (٢) » . وكذا قال مجاهد ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، والضحاك : إنها صلاة المغرب والعشاء .

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها . وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ في حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه أيضا ، في قول ، والله أعلم .

وقوله : (إن الحسنات يذهبن السيئات) ، يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : قال : كنت إذا سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد استحلفتهُ ، فاذا حلف لي صدّقته ، وحدثني أبو بكر – وصدق أبو بكر – أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم يذنب ذنبا ، فيتوضأ ويصلي ركعتين ، إلا غفر له (٣) » .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٨٦١٥ : ١٥/٥٠٣ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٨٦٤٠ : ١٥/٥٠٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٢ .

وفى الصحيحين ، عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : أنه توضأ لهم كوُضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ ، وقال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غُفِر له ما تقدم من ذنبه (١) » .

وروى الإمام أحمد ، وأبو جعفر بن جرير ، من حديث أبى عَقيل زُهْرَة بن معبد : أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوما وجلسنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا عثمان بماء فى إناء أظنه سيكون فيه قدر مُدّ (٢) فتوضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال : « من توضأ وضوئى هذا ، ثم قام فصلى صلاة الظهر ، غُفر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات (٣) » .

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا غَمْرا (٤) يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يُبقِى من درنه شيئا ؟ قالوا : لا ، يارسول الله . قال: وكذلك الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا (٥) » .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قالا : حدثنا ابن وهب ، عن أبى صخر : أن عمر ابن إسحاق مولى زائدة حدّثه ، عن أبيه ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر (٦) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضمضم بن زرعة ، عن شُرَيح بن عبيد : أن أبا رُهْم السمعى كان يحدّث : أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن كل صلاة تحطّ ما بين يديها من خطيئة (٧) » .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا أبى ، عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن ؛ فإن الله قال : (إن الحسنات يذهبن السيئات (٨)) » .

---

(١) البخارى ، كتاب الوضوء ، باب « الوضوء ثلاثا ثلاثا » : ١/ ٥١ . ومسلم ، كتاب الطهارة ، باب « صفة الوضوء وكماله » : ١/ ١٤١ .

(٢) المد : نوع من المكاييل ، قيل : إنه مقدر بأن يمد الرجل يديه ، فيملأ كفيه طعاماً .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/ ٧١ ، وتفسير الطبرى ، الأثر ١٨٦٦٢ : ١٥/ ٥١١ ، ٥١٢ .

(٤) الغمر : الكثير .

(٥) البخارى ، كتاب المواقيت ، باب « الصلوات الخمس كفارة » : ١/ ١٤٠ ، ١٤١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « المشى إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات » : ٢/ ١٣٥ .

(٦) مسلم ، كتاب الطهارة ، باب « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ... » : ١/ ١٤٤ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٤١٣ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٦٦٥ : ١٥/ ٥١٣ .

وقال البخارى : حدثنا قتيبة بن سعيد ،حدثنا يزيد بن زرَيع ، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى ، عن ابن مسعود : أن رجلا أصاب من امرأة قُبلة ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأنزل الله : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات) ، فقال الرجل : ألى هذا يا رسول الله ؟ قال : « لجميع أمتى كلهم » .

هكذا رواه فى كتاب الصلاة ، وأخرجه فى التفسير عن مُسَدّد ، عن يزيد بن زُرَيع ، بنحوه . ورواه مسلم ، وأحمد ، وأهل السنن إلا أبا داود ، من طرق عن أبى عثمان النهدى ، واسمه عبد الرحمن بن مُلّ ، به (١) .

وروى الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن جرير ــ وهذا لفظه ــ من طُرُق ، عن سماك بن حرب : أنه سمع إبراهيم بن يزيد يُحدّث عن علقمة والأسود ، عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله،إنى وجدت امرأة فى بستان ، ففعلت بها كل شىء ، غير أنى لم أجامعها ، قبّلتها ولزمتها (٢) ، ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بى ماشئت . فلم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه ، لو ستر على نفسه . فأتبعه رسول الله بصرَه ثم قال : ردوه على فردّوه عليه ، فقرأ عليه : (أقم الصلاة طرفى النهار ، وزُلَفًا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين) . فقال معاذ ــ وفى رواية عمر ــ : يا رسول الله ، أله وحده ، أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة (٣) .

وقال الإمام أحمد:حدثنامحمد بن عبيد ، حدثنا أبان بن إسحاق ، عن الصباح بن محمد ، عن مُرّة الهَمْدانى ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين (٤) إلا من أحب . فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . قال : قلنا : وما بوائقه يانبى الله ؟ قال : غشه وظلمه ، ولا يكسبُ عبد مالا حراما فينفقَ منه فيباركَ له فيه ، ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار ، إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكنه يمحو السيىء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث (٥) » .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦/٩٤ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب « قوله تعالى : إن الحسنات يذهبن السيئات » : ٨/١٠١ ، ١٠٢ . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٨٥ ، ٣٨٦ ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة هود ، الحديث ٥١١٦ : ٨/٥٣٥ ، ٥٣٦ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أى : عانقتها فأطلت العناق .

(٣) تفسير الطبرى ، الآثار ١٨٦٦٨ – ١٨٦٧١ : ١٥/٥١٥ – ٥١٧ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب قوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » : ٨/١٠٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب « فى الرجل يصيب من المرأة دون الجماع » ، الحديث ٤٤٦٨ : ٤/١٦٠ ، وتحفة الأحوذى تفسير سورة هود ، الحديث ٥١١٣ : ١٥/٥٣٣ – ٥٣٥ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . ومسند الإمام أحمد : ١/٤٤٥ ، ٤٤٩ .

(٤) لفظ المخطوطة : « ولا يعطى الآخرة إلا من أحب » ، والمثبت من المسند.

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨٧ .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم قال : كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ، دخلت على امرأة فنِلْتُ منها ما ينال الرجل من أهله ، إلا أنى لم أجامعها (١) فلم يدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجيبه ، حتى نزلت هذه الآية : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين) . فدعاه رسول الله ، فقرأها (٢) عليه .

وعن ابن عباس : أنه عمرو بن غَزِيَّة الأنصارى التّمار (٣) . وقال مقاتل : هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصارى(٤)، وذكر الخطيب البغدادى أنه أبو اليَسَر : كعب بن عمرو .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس وعفان قالا : حدثنا حماد — يعنى ابن سلمة — عن على بن زيد — قال عفان : أنبأنا على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس : أن رجلا أتى عمر قال : امرأة جاءت تبايعه ، فأدخلتها الدولج (٥) ، فأصبت منها مادون الجماع ، فقال : ويحك . لعلها مُغيبة (٦) فى سبيل الله ؟ قال : أجل : قال : فائت أبا بكر فاسأله . قال : فأتاه فسأله فقال : لعلها مُغيبة فى سبيل الله ؟ فقال مثل قول عمر ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ذلك ، قال : فلعلها مُغيبة فى سبيل الله . ونزل القرآن : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات) ... إلى آخر الآية ، فقال : يا رسول الله ، إلىّ خاصة أم للناس عامة ؟ فضرب — يعنى عمر — صدره بيده وقال : لا ، ولا نُعمةَ عين ، بل للناس عامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق عمر (٧) .

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع ، عن عثمان بن موهب ، عن موسى بن طلحة ، عن أبى اليَسَر كعب بن عمرو الأنصارى قال : أتتنى امرأة تبتاع منى بدرهم تمرا ، فقلت : إن فى البيت تمرا أطيب وأجود من هذا ، فدخلت ، فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت عمر فسألته ، فقال : اتق الله ، واستر على نفسك ، ولاتخبرنّ أحدا . فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته ، فقال : اتق الله ، واستر على نفسك ، ولا تخبرنّ أحدا : قال : فلم أصبر حتى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : أخلَفْتَ رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا ؟ حتى ظننت أنى من أهل النار ، حتى تمنيت أنى أسلمت ساعتئذ (٨) . فأطرق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ساعة ،

---

(١) لفظ الطبرى : « لم أواقعها » .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٦٧٥ : ١٥/٥١٩ .
(٣) ينظر ترجمة عمرو بن غزية فى أسد الغابة : ٤/٢٦٠ بتحقيقنا .
(٤) كذا ، ولم نجده فى الصحابة .
(٥) الدولج : المخدع ، وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير .
(٦) المغيبة : التى غاب عنها زوجها .
(٧) مسند الإمام أحمد : ١/٢٤٥ . وينظر أيضاً : ١/٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(٨) وإنما تمنى ذلك ، لأن الإسلام يزيل ما قبله من الخطايا والآثام .

فنزل جبريل ، فقال :[أين] أبو اليسر ؟ فجئت ، فقرأ على : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) إلى (ذكرى للذاكرين) ، فقال إنسان : يا رسول الله ، أله خاصة أم للناس عامة ؟ قال : للناس عامة (١) .

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطنى : حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملى ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جرير ، عن عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن معاذ بن جبل : أنه كان قاعدا عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول ، ما تقول فى رجل أصاب من امرأة لا تحل له ، فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها ، غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : توضأ وضوءا حسنا ، ثم قم فصل ، قال : فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، يعنى قوله : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) ، فقال معاذ : أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة (٢) .

ورواه ابن جرير من طرق ، عن عبد الملك بن عمير ، (٣) به :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا محمد بن مسلم ، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جعدة : أن رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنه لحاجة ، فأذن له ، فذهب يطلبها فلم يجدها ، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبى صلى الله عليه وسلم بالمطر ، فوجد المرأة جالسة على غدير ، فدفع فى صدرها وجلس بين رجليها ، فصار ذكره مثل الهُدْبة ، فقام نادما حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنع ، فقال له : استغفر ربك ، وصلّ أربع ركعات . قال : وتلا عليه (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل(٤) الآية :

وقال ابن جرير : حدثنى عبدُ الله بن أحمد بن شبّويه ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى عمرو بن الحارث حدثنى عبد الله بن سالم ، عن الزبيدى ، عن سليم بن عامر : أنه سمع أبا أمامة يقول : إن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أقم فىّ حد الله ــ مرة أو ثِنْتَين ــ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال : أين هذا الرجل القائل : أقم فىّ حد الله ؟ قال : أنا ذا : قل : أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، ولا تعد . وأنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين (٥)) .

وقال لإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا على بن زيد ، عن أبى عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابسا فهزّه حتى تحاتَّ (٦) ورقة ، ثم قال : يا أبا عثمان ، ألا تسألنى

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٦٨٤ ، ١٨٦٨٥ : ٥٢٣/١٥ ، ٥٢٤ .
(٢) سنن الدارقطنى ، كتاب الطهارة ، باب « صفة ما ينقض الوضوء ، وما روى فى الملامسة والقبلة » ، الحديث ٤ : ١٣٤/١ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ٥٢٠/١٥ ــ ٥٢٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٦٨٣ : ٥٢٣/١٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٦٨١ : ٥٢١/١٥ ، ٥٢٢ .
(٦) أى : تساقط .

لم أفعل هذا ؟ فقلت : لم تفعله ؟ قال : هكذا فعل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابساً فهزه حتى تحاتّ ورقة ، فقال : يا سلمان ، ألا تسألني : لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ فقال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى الصلوات الخمس ، تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق ؛ وقال : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين (١)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن معاذ رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : يا معاذ ، أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن (٢) » .

وقال الإمام أحمد رضى الله عنه : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن حبيب ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن أبي ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن (٣) .

وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن أشياخه ، عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أوصني . قال : إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها . قال قلت : يا رسول الله ، أمن الحسنات : لا إله إلا الله؟ قال : هي أفضل الحسنات (٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا هذيل بن إبراهيم الجُمّاني ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهرى ، من ولد سعد بن أبي وقاص ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما قال عبد « لا إله إلا الله » فى ساعة من ليل أو نهار ، إلا طَلَّست(٥) ما فى الصحيفة من السيئات ، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » .

عثمان بن عبد الرحمن ، يقال له « الوقاصى » : فيه ضعف .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا : حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا مستور ابن عباد ، عن ثابت ، عن أنس : أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما تركت من حاجة ولا داجة (٦) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال : بلى . قال : « فان هذا يأتي على ذلك » .

تفرد به من هذا الوجه مستور .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٢٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/١٥٣ ، ٥/١٥٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/١٦٩ .
(٥) أى : محت .
(٦) الداجة : أخف شأناً من الحاجة .

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من اهل الخير ، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض .

وقوله : (إلا قليلا) ، أى : قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل ، لم يكونوا كثيرا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غِيَرِه (١) ، وفجأة نقمه . . ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، كما قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون(٢)) . وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه ، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب (٣) » . ولهذا قال تعالى : (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم) .

وقوله : (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) ، أى : استمروا على ماهم فيه من المعاصى والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك ، حتى فَجَأهم العذابُ ، (وكانوا مجرمين) .

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة ، ولم يأت قرية مصلحةً بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم (٤)) ، وقال : (وما ربك بظلام للعبيد (٥)) .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلّهم أمة واحدة ، من إيمان أو كفران ، كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا (٦)) .

وقوله : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) ، أى : ولا يزال الخُلْف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .

---

(١) الغير – بكسر ففتح – : تغير الحال من الصلاح إلى الفساد . ولفظ المخطوطة : « عند حلول غير وفجأه نقمة » . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٠٤ .

(٣) مضى هذا الحديث عند تفسير الآية ١٠٥ من سورة المائدة ، وخرجناه هناك . ينظر : ٢١٧/٣ .

(٤) سورة هود ، آية : ١٠١ .

(٥) سورة فصلت ، آية : ٤٦ .

(٦) سورة يونس ، آية : ٩٩ .

قال عكرمة : (مختلفين) فى الهدى . وقال الحسن البصرى : (مختلفين) فى الرزق يُسخّر بعضهم بعضا . والمشهورُ الصحيح الأول .

وقوله : ﴿إلا من رحم ربك﴾ ، أى : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين : أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم الأمى خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ، ونصروه ووازروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضا : « إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم ، يارسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة(١) .

وقال عطاء : (ولا يزالون مختلفين) ، يعنى اليهود والنصارى والمجوس (إلا من رحم ربك) ، يعنى الحنيفيّة .

وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة ، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وقوله : (ولذلك خلقهم) ، قال الحسن البصرى — فى رواية عنه — : وللاختلاف خلقهم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : خلقهم فريقين ، كقوله : ﴿فمنهم شقى وسعيد﴾ .

وقيل : للرحمة خلقهم — قال ابن وهب : أخبرنى مسلم بن خالد ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن طاوس : أن رجلين اختصما إليه فأكثرا ، فقال طاوس : اختلفتما فأكثرتما ! فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا : فقال طاوس : كذبت : فقال : أليس الله يقول : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ، قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة — كما قال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ، ولم يخلقهم للعذاب (٢) . وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ، ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(٣) .

وقيل : بل المراد : وللرحمة والاختلاف خلقهم ، كما قال الحسن البصرى — فى رواية عنه فى قوله : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) ، قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، (إلا من رحم ربك) ، فمن رحم ربك غير مختلف . قيل له : فلذلك خلقهم ؟ خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه(٤) .

---

(١) سبق تخريج الحديث عند الآية ٩٣ من سورة يونس : ٤/٢٣٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٧٣٨ : ١٥/٥٣٧ .
(٣) سورة الذاريات ، آية : ٥٦ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٧٠٦ : ١٥/٥٣٢ .

وكذا قال عطاء بن أبى رباح ، والأعمش .

وقال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) ، قال : فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وقد اختار هذا القول ابن جرير ، وأبو عبيدة ، والفراء .

وعن مالك فيما رويناه عنه فى التفسير : (ولذلك خلقهم) ، قال : للرحمة ، وقال قوم : للاختلاف .

وقوله : (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ، يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره ، لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملاجهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضَعَفَة الناس وسَقَطُهم (١) ؟ وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء . وقال للنار : أنت عذابى ، أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع عليها ربّ العزة قدمه ، فتقول : قَطْ قَطْ (٢) ، وعزتك (٣) » .

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك ، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ــ كل هذا مما نثبت به فؤادك ــ يا محمد ــ أى : قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : (وجاءك فى هذه الحق) ، أى : هذه السورة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وجماعة من السلف . وعن الحسن ــ فى رواية عنه ــ وقتادة : فى هذه الدنيا (٤) .

---

(١) السقط ــ بفتح السين والقاف ــ : جمع ساقط ، وهو نازل المكانة الذى لا يؤبه به .

(٢) أى : حسبى .

(٣) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب « ما جاء فى قوله تعالى : إن رحمة الله قريب من المحسنين » : ٩/١٦٤ . وكتاب التفسير ، تفسير سورة «ق» : ٦/١٧٣ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » ٨/١٥١ ــ ١٥٢ .

(٤) ينظر تفسير الطبرى : ١٥/٥٤٠ ــ ٥٤٣ .

والصحيح : فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قَصَصُ حق ، ، ونبأ صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتوقَّر بها المؤمنون (١) :

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد : (اعملوا على مكانتكم) ، أى : على طريقتكم ومنهجكم ، (إنا عاملون) ، أى : على طريقتنا ومنهجنا ، (وانتظروا إنا منتظرون) ، أى : فستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ، ونصره وأيده ، وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وَسَيُوفِى كلّ عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه :

وقوله : (وما ربك بغافل عما تعملون) ، أى : ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا زيد بن الحباب ، عن جعفر بن سليمان ، عن أبى عمران الجونى ، عن عبد الله بن رباح ، عن كعب قال : خاتمة « التوراة » خاتمة « هود » (٢) :

[تم تفسير سورة هود]

---

(١) أى : يتثبتون بهـا .

(٢) الأثر فى تفسير الطبرى رقم ١٨٧٦٧ : ١٥/٥٤٥ . وكعب ، هو : كعب الأحبار المشهور بأخباره عن بنى إسرائيل . هذا وقد وقع فى المخطوطة فى نهاية المجلد الثالث بعد هذا الأثر : « آخر تفسير سورة هود ، ولله الحمد ، ويتلوه فى الرابع تفسير سورة يوسف ، والحمد لله وحده ، وصلواته على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه ، وسلم كثيراً » .

تفسير سورة يوسف

[وهى مكية]

روى الثعلبى وغيره ، من طريق سلاّم بن سلم — ويقال : سليم — المدائنى ، وهو متروك ، عن هارون بن كثير — وقد نص على جهالته أبو حاتم — عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن أبى أمامة ، عن أبى كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموا أرقاءكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها ، أو علّمها أهله ، أوما ملكت يمينه ، هوّن الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلما » .

وهذا من هذا الوجه لا يصح ، لضعف إسناده بالكلية . وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا ، من طريق القاسم بن الحكم ، عن هارون بن كثير ، به — ومن طريق شبَابة ، عن محمد بن عبد الواحد النضرى ، عن على بن زيد بن جدعان — وعن عطاء بن أبى ميمونة ، عن زر بن حُبَيش ، عن أبى بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم — فذكر نحوه . وهو منكر من سائر طرقه .

وروى البيهقى فى « الدلائل » أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم . وهو من رواية الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة » .

وقوله : (تلك آيات الكتاب) ، أى : هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن ، (المبين) ، أى : الواضح الجلى ، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها .

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان

ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) ، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن .

وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير :

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا حكام الرازي ، عن أيوب ، عن عمرو – هو ابن قيس الملائي – عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ؟ فنزلت : (نحن نقص عليك أحسن القصص(١)) .

ورواه من وجه آخر ، عن عمرو بن قيس مرسلا .

وقال أيضا : حدثنا محمد بن سعيد العطار(٢) ، حدثنا عمرو بن محمد ، أنبأنا خلاَّد الصفار ، عن عمرو بن قيس ، عن عمرو بن مرة ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد قال : أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ، قال : فتلا عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصتَ علينا . فأنزل الله عز وجل : (الر تلك آيات الكتاب المبين) ، إلى قوله : (لعلكم تعقلون) ، ثم تلا عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله ، لو حدثتنا ، فأنزل الله عز وجل : (الله نَزَّل أحسن الحديث) ... الآية ، وذكر الحديث(٣) .

ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن راهَويه ، عن عمرو بن محمد القُرَشِي العَنْقَزِي ، به(٤) .

وروى ابن جرير بسنده ، عن المسعودي ، عن عون بن عبد الله قال : مَلّ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَلّةً ، فقالوا : يا رسول الله ، حدّثنا . [فأنزل الله : (الله نزل أحسن الحديث) ، ثم ملّوا ملّة أخرى فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا] فوق الحديث ودون القرآن – يعنون القصص – فأنزل الله : (الر تلك آيات الكتاب المبين • إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون • نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) ، فأرادوا الحديث، فدلّهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص(٥) .

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة ، المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد :

حدثنا سُرَيج بن النعمان ، أخبرنا هشيم ، أنبأنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٨٧٧٣ : ١٥/٥٥٢ . والأثر المرسل بعده .

(٢) في المخطوطة : « القطان » ، ومثله في الخلاصة . والمثبت من تفسير الطبري ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣/٢/ ٢٦٦ ، والتهذيب : ٩/١٨٩ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٨٧٧٦ : ١٥/٥٥٣ .

(٤) المستدرك ، تفسير سورة يوسف : ٢/٣٤٥ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٨٧٧٥ : ١٥/٥٥٢ .

« أمتهوّكون فيها يا ابن (١) الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذّبونه (٢) ، أو بباطل فتصدقونه . والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ، لما وسعه إلا أن يتبعنى (٣) » .

وقال الأمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبى ، عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى مررت بأخ لى من قريظة ، فكتب لى جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا . قال : فسُرِّى عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال : والذى نفس محمد بيده ، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين (٤) » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا على بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن خليفة بن قيس ، عن خالد بن عرْفطة قال : كنت جالسا عند عمر ، إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس (٥) ، فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ، قال : نعم . فضربه بقناة معه ، قال : فقال الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس . فجلس ، فقرأ عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، آلر تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك) إلى قوله : (لمن الغافلين) ، فقرأها ثلاثا ، وضربه ثلاثا ، فقال له الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : انت الذى نسخت كتاب دانيال ! قال : مرنى بأمرك أتبعه ، قال : انطلق فامحه بالحميم (٦) والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تُقرئه أحدا من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنّك (٧) عقوبة ، ثم قال له : اجلس ، فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ، ثم جئت به فى أديم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا فى يدك يا عمر؟ قال قلت : يارسول الله ، كتاب انسخته لنزداد به علما إلى علمنا : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرّت وجنتاه ، ثم نودى بالصلاة جامعة ، فقالت الأنصار : أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم ؟ السلاح السلاح . فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا أيها الناس ، إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختُصر لى اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوّكوا ولا يغرنكم المتهوّكون . قال عمر : فقمت فقلت : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبك رسولا ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) .

---

(١) التهوك : الوقوع فى الأمر بغير روية ، وقيل : هو التحير .

(٢) لفظ المسند : « فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٧٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٥) السوس : بلدة بخورستان ، وجد فيها جد دانيال ، فدفن فى نهرها تحت الماء ، وغمر قبره ، وموضعه ظاهر يزار .

(٦) الحميم : الماء الحار .

(٧) نهكه : بالغ فى عقوبته .

(٨) لم يكن نهى النبى صلى الله عليه وسلم وعمر رضى الله عنه عن نسخ شىء من التوراة محاربة للعلم ، وإنما كان لأحد أمرين ، أحدهما : المحافظة على القرآن الكريم حتى لا يدخل عليه ما ليس منه ، والثانى : التحرج من الخوض فى نصوص التوراة ، بتكذيب ما قد يكون حقاً ، أو تصديق ما قد يكون كذباً ، وفى القرآن الكريم الغنى كل الغنى .

وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصرا ، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، به : وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيْبَةَ الواسطي ، وقد ضعفوه وشيخه . قال البخاري: [لا يصح] حديثه .

قلت : وقد روى له شاهد من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي(١) : أخبرني الحسن بن سفيان ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي ، حدثني عمرو بن الحارث ، حدثنا عبد الله ابن سالم الأشعري ، عن الزبيدي(٢) ، حدثنا سليم بن عامر : أن جُبَيْر بن نُفَيْر حَدَّثهم : أن رجلين كانا بحمص في في خلافة عمر رضي الله عنه ، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص ، وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصفة(٣) فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة. وإن نهانا عنها رفضناها ، فلما قدما عليه قالا : إنا بأرض أهل الكتابين ، وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا ، أفنأخذ منه أو نترك ؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئا . قالا : لا . قال : سأحدثكما ، انطلقت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيت خيبر ، فوجدت يهوديا يقول قولا أعجبني ، فقلت : هل أنت مكتبي ما تقول ؟ قال : نعم . فأتيت بأديم ، فأخذ يملي علي ، حتى كتبت في الأكْرُع (٤) . فلما رجعت قلت : يا نبي الله ، وأخبرته ، قال : ائتني به . فانطلقت أرغب عن المشي رجاء أن أكون أتيت رسول الله ببعض ما يحب ، فلما أتيت به قال : اجلس اقرأ علي. فقرأت ساعة ، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلوّن ، فتحيرت من الفَرَق ، فما استطعت أجيز منه حرفا ، فلما رأى الذي بي دَفَعه ، ثم جعل يتبعه رسما رسما فيمحوه بريقه ، وهو يقول : « لا تتبعوا هؤلاء ، فإنهم قد هَوَكوا وتَهَوَّكوا ، حتى محا آخره حرفاً حرفا . قال عمر رضي الله عنه : فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة . قالا : والله ما نكتب منه شيئاً أبدا . فخرجا بصلا صفتها (٥) ، فحفرا لها فلم يألُوا أن(٦) يعمِّقا ، ودفناها فكان آخر العهد منها .

وكذا روى الثوري ، عن جابر بن يزيد الجعفي ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت الأنصاري ، عن عمر بن الخطاب ، بنحوه . وروى أبو داود في المراسيل ، من حديث أبي قلابة ، عن عمر نحوه ، والله أعلم .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قَصَصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه هو : يعقوب عليه السلام ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم(٧) » .

---

(١) ترجم له الذهبي في العبر : ٢/٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٢) الزبيدي هو : محمد بن الوليد . ينظر الجرح لابن أبي حاتم : ٢/٢/٧٦ ، ٤/١/١١١ .
(٣) كذا في الطبعات السابقة ، وفي المخطوطة : « ملاصق » ، دون نقط ، والمقصود أنهم اكتتبوا من اليهود صحفاً .
(٤) الأكرع : جمع كراع ، بضم الكاف ، وهو مستدق الساق العاري من اللحم .
(٥) كذا ، وفي المخطوطة : « بصفتيهما » . وقد نبهنا على المقصود من قبل .
(٦) لم يألوا : لم يقصرا .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٩٦ .

انفرد باخراجه البخارى ، فرواه عن عبد الله بن محمد ، عن عبد الصمد(١) به . وقال البخارى أيضا :

حدثنا محمد ، أخبرنا عبدة ، عن عُبَيد الله ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقِهوا . ثم قال : تابعه أبو أسامة ، عن عبيد الله .

وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحى .

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه . رُوى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، وسفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل : ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه (وخروا له سجدا ، وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا) .

وقد جاء فى حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا ـ فقال الامام أبو جعفر بن جرير .

حدثنى على بن سعيد الكندى ، حدثنا الحكم بن ظهير ، عن السدى ، عن عبد الرحمن بن سابط ، [عن جابر] قال : أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم رجل من يهود يقال له : « بستانة اليهودى » ، فقال له : يا محمد ، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدةٌ له ، ما أسماؤها ؟ قال : فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ساعة فلم يجبه بشئ ، ونزل [عليه] جبريل عليه السلام ، فأخبره بأسمائها . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ فقال : نعم : قال : خرتان(٢) ، والطارق ، والذيال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرغ ، والضياء ، والنور » ، فقال اليهودى : إىْ والله ، إنها لأسماؤها(٣) .

ورواه البيهقى فى « الدلائل » ، من حديث سعيد بن منصور ، عن الحكم بن ظهير . وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلى وأبو بكر البزار فى مسنديهما ، وابن أبى حاتم فى تفسيره ، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير ، به وزاد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما رآها يوسف قصّها على أبيه يعقوب ، فقال له أبوه : هذا أمر متشتتٌ يجمعه الله من بعد ؛ قال : والشمس أبوه ، والقمر أمه » .

تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى ، وقد ضعّفه الأئمة ، وتركه الأكثرون ، وقال الجوزجانى : ساقط ، وهو صاحب حديث حُسْن يوسف .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة يوسف : ٩٥/٦ .

(٢) فى مخطوطة الأزهر : « حرثان » ، وفى تفسير الطبرى : « جربان » ، وقد صرح السيد المحقق بأنه لم يهتد إلى ضبط هذه الأسماء . وقد ذكر الذهبى الحديث فى ميزان الاعتدال فى ترجمة الحكم بن ظهير « ٥٧٢/١ ، وفيه : « خرتان » . وفى تاج العروس : « الخراتان ـ بالفتح ـ نجمان من كواكب الأسد بينهما قدر سوط ، وهما كتفا الأسد » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٧٨٠ : ٥٥٥/١٥ .

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)﴾

يقول تعالى مخبرا عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قصّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا ، التى تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائداً ، بحيث يخرون له ساجدين إجلالا وإكراما واحتراما ، فخشى يعقوب عليه السلام أن يحدّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك ، فيبغوا له الغوائل ، حسداً منهم له ، ولهذا قال له : (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) ، أى : يحتالوا لك حيلة يُرْدُونك فيها . ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحوّل إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فانها لن تضره (١) . وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن ، من رواية معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّر ، فاذا عُبِرَتْ وقعت (٢) » : ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد فى حديث : « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ، فإن كل ذى نعمة محسود (٣) » .

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، (كذلك يجتبيك ربك) ، أى : يختارك ويصطفيك لنبوته ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) — قال مجاهد وغير واحد : يعنى تعبير الرؤيا (٤) .

(ويتم نعمته عليك) ، أى : بإرسالك والإيحاء إليك ، (ولهذا) قال : (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم) ، وهو الخليل ، (وإسحاق) ولده ، وهو الذبيح فى قول ، وليس بالرجيح ، (إن ربك عليم حكيم) ، أى : أعلم حيث يجعل رسالاته ، كما قال فى الآية الأخرى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب « ما جاء فى الرؤيا » ، الحديث ٥٠٢١ : ٤/٣٠٥ . وابن ماجه فى كتاب الرؤيا ، « باب من رأى رؤيا يكرهها » ، الأحاديث ٣٩٠٨ — ٣٩١٠ : ٢/١٢٨٦ ، والإمام أحمد من أبى قتادة ، ٥/٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب « ما جاء فى الرؤيا » ، الحديث ٥٠٢٠ : ٤/٣٠٥ ، وابن ماجه فى كتاب الرؤيا ، باب « الرؤيا إذا عبرت وقعت ، فلا يقصها إلا على واد » ، الحديث ٣٩١٤ : ٢/١٢٨٨ . ومسند الإمام أحمد من أبى رزين : ٤/١٠ .

هذا ويقال : عبر الرؤيا — بتخفيف الباء وتشديدها : إذا فسرها .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى : ١/١٢٨ عن العقيلى فى الضعفاء ، وابن عدى فى الكامل ، والطبرانى فى الكبير ، وأبى نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وغيرهم .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٧٩١ : ١٥/٥٦٠ .

* ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ۝ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝﴾

يقول تعالى : لقد كان فى قصة يوسفَ وخبره مع إخوته آيا تٌ ، أى : عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب ، يستحق أن يستخبر عنه ، (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا) ، أى : حلفوا فيما يظنون : والله ليوسف وأخوه ــ يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه ــ (أحب إلى أبينا منا ، ونحن عصبة) ، أى : جماعة ، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثرَ من الجماعة ؛ (إن أبانا لفى ضلال مبين) ، يعنون فى تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر . ويحتاج مُدّعِى ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوَى قوله تعلى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والأسباط) ، وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم : الأسباط ، كما يقال للعرب : قبائل ، وللعجم : شعوب ؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم ، والله أعلم .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) ، يقولون : هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ، ليخلوَ لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه ، أو تلقوه فى أرض من الأراضى ــ تستريحوا منه ، وتختلوا أنتم بأبيكم ، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين : فأضمروا التوبة قبل الذنب ؛ (قال قائل منهم) ــ قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق : كان أكبرهم واسمه روبيل .

وقال السدى : الذى قال ذلك يهوذا ،

وقال مجاهد : هو شمعون(١) .

(لا تقتلوا يوسف) ، أى : لا تصِلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيلٌ إلى قتله ، لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بدّ من إمضائه وإتمامه ، من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب ، وهو أسفله .

قال قتادة : وهى بئر بيت المقدس .

(يلتقطه بعض السيارة) ، أى : المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ،

---

(١) هذه الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ١٥/٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(إن كنتم فاعلين) ، أى : إن كنتم عازمين على ما تقولون .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم ، من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع (١) الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه ، على كبر سنه ، ورقّة عظمه ، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلا صغيرا ، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمرا عظيما .

رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل ، عنه .

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطأوا على أخذه وطَرْحه فى البئر ، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبيل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام ، فقالوا : يا أبانا ، مالك (لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) ، وهذه توطئة وسلف ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ، (أرسله معنا) ، أى : ابعثه معنا ، (غدا نرتع ونلعب) — وقرأ بعضهم بالياء : (يرتع ويلعب) .

قال ابن عباس : يسعى وينشط (٢) . وكذا قال قتادة ، والضحاك والسدى ، وغيرهم .

(وإنا له لحافظون) ، يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك .

قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء : (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) ، أى : يشق علىّ مفارقتُه مُدّة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفَرْط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة والكمال فى الخَلْق والخُلُق ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) ، يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورَعْيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين عنها فى الساعة الراهنة : (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) ، يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذاً لهالكون عاجزون .

---

(١) ضرع — بفتح فضم — : ضعف ، فهو ضرع — بفتحتين — أى : ضعيف .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٨١٤ : ١٥/٥٧٠ .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى : فلما ذهبت بهإخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك، (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب)، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك [الجب] ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراماً له، وبسطا وشرحاً لصدره ، وإدخالا للسرور عليه ، فيقال : إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه، وقَبَّله ودعا له،

قال [السدى] وغيره : إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له ، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول ، من شتم ونحوه ، والفعل من ضَرْب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وَشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة ، [فسقط فى الماء] فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه ، يقال لها « الراغوفة » ، فقام فوقها .

قال الله تعالى: (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) ، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر فى حال العسر : إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق ، تطييباً لقلبه ، وتثبيتاً له : إنك لاتحزن مما أنت فيه ، فان لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ، ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع .

وقوله : (وهم لايشعرون) ــ قال قتادة : (وهم لايشعرون) بايحاء الله إليه .

وقال ابن عباس : ستنبئهم بصنيعهم هذا فى حقك ، وهم لايعرفونك ، ولا يستشعرون بك ، كما قال ابن جرير :

حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا صدقة بن عُبادة الأسدى ، عن أبيه ، سمعت ابن عباس يقول : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون ، قال : جىء بالصّواع (١) ، فوضعه على يده ، ثم نقره فطنّ ، فقال : إنه ليخبرنى هذا الجام(٢) : أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له « يوسف » ، يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابه الجب ــ قال : ثم نقره فطنّ ــ فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كَذب ــ قال : فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره بخبركم . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم ، لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون(٣) .

---

(١) الصواع : الذى يكال به .

(٢) الجام : إناء من فضة .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٨٤٠ : ١٥/٥٧٦ ، ٥٧٧ .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب : أنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغمَّمون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيا زعموا : (إنا ذهبنا نستبق) ، أى : نترامى ، (وتركنا يوسف عند متاعنا) ، أى : ثيابنا وأمتعتنا ، (فأكله الذئب) ، وهو الذى كان جزِع منه ، وحذر عليه .

وقولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) ، تلطّفٌ عظيم فى تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لاتصدقنا — والحالة هذه — لوكنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب ، فأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتّفق لنا فى أمرنا هذا .

(وجاءوا على قميصه بدم كذب) ، أى : مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلة (١) — فيا ذكره مجاهد ، والسدى ، وغير واحد — فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه : (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) ، أى : فسأصبر صبراً جميلا على هذا الأمر الذى قد اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ، (والله المستعان على ما تصفون) ، أى : على ما تذكرون من الكذب والمحال .

وقال الثورى ، عن سماك ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (وجاءوا على قميصه بدم كذب) ، قال : لو أكله السبع لخرق القميص(٢) . وكذا قال الشعبى ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد .

وقال مجاهد : الصبر الجميل : الذى لاجزع فيه(٣) .

وروى هشيم ، عن عبد الرحمن بن يحيى ، عن حبّان بن أبى جَبَلَة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (فصبر جميل) ، فقال : صبر لاشكوى فيه . وهذا مرسل(٤) .

وقال عبد الرزاق : قال الثورى عن بعض أصحابه أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لاتحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولاتزكى نفسك(٥) .

---

(١) السخلة : ولد الشاة من المعز والضأن ، ذكراً كان أو أنثى .
(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ١٨٨٥١ — ١٨٨٥٣ : ١٥/٥٨٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٨٦٧ : ١٥/٥٨٤ .
(٤) حبان بن أبى جبلة يروى عن عمرو بن العاص ، وابنه عبد الله بن عمرو . ينظر الخلاصة .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٨٧٨ : ١٥/٥٨٥ .

وذكر البخارى ها هنا حديث عائشة رضى الله عنها فى الإفك حتى ذكر قولها : والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف ، (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون(١)) .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام ، حين ألقاه إخوته ، وتركوه فى ذلك الجب فريداً وحيداً ، فمكث فى البئر ثلاثة أيام ـ فيما قاله أبوبكر بن عياش .

وقال محمد بن إسحاق : لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك ، ينظرون ما يصنع وما يُصنع به ، فساق الله له سيَّارة ، فنزلوا قريباً من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم ـ وهو الذى يتطلب لهم الماء ـ فلما جاء تلك البئر ، وأدلى دلوه فيها ، تشبَّث يوسف عليه السلام فيها ، فأخرجه واستبشر به ، وقال : (يا بشرى هذا غلام) .

وقرأ بعض القراء : (يا بُشْرَى) ، فزعم السدى أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذى أدلى دلوه ، معلماً له أنه أصاب غلاماً . وهذا القول من السدى غريب ، لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا فى رواية عن ابن عباس ، والله أعلم . وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى ، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه ، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها ، كما تقول العرب : «يانفسُ اصبرى» ، «ويا غلام أقبل» ، بحذف حرف الإضافة ، ويجوز الكسر حينئذ والرفع ، وهذا منه ، وتفسرها القراءة الأخرى (يا بُشْرَىَّ(٢)) ، والله أعلم .

وقوله : (وأسروه بضاعة) ، أى : وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا : اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره . قاله مجاهد ، والسدى ، وابن جرير . هذا قول .

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله : (وأسروه بضاعة) ، يعنى إخوة يوسف ، أسروا شأنه ، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع . فذكره إخوته لوارد القوم ، فنادى أصحابه : (يابشرى . هذا غلام) يباع ، فباعه إخوته (٣) .

وقوله : (والله عليم بما يعملون) ، أى : يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمة وقَدَر سابق ، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين

وفى هذا تعريض لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وإعلام له بأنى عالم بأذى قومك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكنى سأملى لهم ، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة يوسف : ٦/ ٩٦ .
(٢) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/ ١٨ ، ١٩ ، والمحتسب لابن جنى : ١/ ٣٣٦ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٥/ ٢٩٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٥٩٨ : ١٦/ ١٩ .

وقوله : (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) ، يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل ، قاله مجاهد وعكرمة .

والبخس : هو النقص ، كما قال تعالى : (فلا يخاف بخساً ولا رهقا(١)) ، أى : اعتاض عنه إخوته بثمن دُون قليل ، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين ، أى : ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شىء لأجابوا.

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إن الضمير فى قوله : (وشروه) عائد على إخوة يوسف .

وقال قتادة : بل هو عائد على السيارة .

والأول أقوى ، لأن قوله : (وكانوا فيه من الزاهدين) ، إنما أراد إخوته ، لا أولئك السيارة ؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه ، فرجح من هذا أن الضمير فى (وشروه) إنما هو لإخوته .

وقيل : المراد بقوله : (بخس) الحرام . وقيل : الظلم . وهذا وإن كان كذلك ، لكن ليس هو المراد هنا ، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال ، وعلى كل أحد ، لأنه نبى ابن نبى ، ابن نبى ، ابن خليل الرحمن ، فهو الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم . وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما ، أى : إنهم إخوته ، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان ، ولهذا قال : (دراهم معدودة) ، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهماً(٢) وكذا قال ابن عباس ، ونوف البكالى ، والسدى ، وقتادة ، وعطية العوفى وزاد : اقتسموها درهمين درهمين .

وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً .

وقال محمد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهماً .

وقال الضحاك فى قوله : (وكانوا فيه من الزاهدين) ، وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل .

وقال مجاهد : لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر ، فقال : من يبتاعنى وليبشر(٣) ؟ فاشتراه الملك ، وكان مسلماً .

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذى اشتراه من مصر ، حتى اعتنى به وأكرمه ، وأوصى أهله به ، وتوسم فيه الخير والفلاح ، فقال لامرأته : (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) ، وكان الذى اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير بها . [قال](٤) العوفى ، عن ابن عباس : وكان اسمه قطفير .

---

(١) سورة الجن ، آية : ١٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٩٢٠ ، ١٨٩٢١ : ١٦/ ٢١ .

(٣) بشر بكذا يبشر : مثل فرح يفرح وزنا ومعنى ، وهو الاستبشار أيضاً .

(٤) ما بين القوسين بياض فى المخطوطة .

وقال محمد بن إسحاق : اسمه إطفير بن روحيب ، وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ ، الريّان بن الوليد ، رجل من العماليق ــ قال : واسم امرأته راعيل بنت رعائيل(١).

وقال غيره : اسمها زليخا .

وقال محمد بن إسحاق أيضاً ، عن محمد بن السائب ، عن أبى صالح، عن ابن عباس :كان الذى باعه بمصر مالك ابن دعر بن بُويب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم ، فالله أعلم .

وقال أبو إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ابن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : (أكرمى مثواه) ، والمرأة التى قالت لأبيها : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما(٢) .

يقول تعالى : وكما أنقذنا يوسف من إخوته ، (كذلك مكنا ليوسف فى الأرض) ، يعنى بلاد مصر ، (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) ــ قال مجاهد والسدى : هو تعبير الرؤيا ، (والله غالب على أمره) ، أى : إذا أراد شيئاً فلا يردّ ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه .

قال سعيد بن جبير فى قوله : (والله غالب على أمره) ، أى : فعال لما يشاء .

وقوله : (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ، يقول : لايدرون حكمته فى خلقه ، وتلطفه لما يريد .

وقوله : (ولما بلغ) ، أى : يوسف عليه السلام (أشده) ، أى : استكمل عقله ، وتم خلقه ، (آتيناه حكماً وعلماً) يعنى النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام ، (وكذلك نجزى المحسنين) ،أى، إنه كان محسناً فى عمله، عاملا بطاعة ربه تعالى.

وقد اختُلِف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون . وعن ابن عباس : بضع وثلاثون ؛ وقال الضحاك : عشرون . وقال الحسن : أربعون سنة ؛ وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة ؛ وقال السدى : ثلاثون سنة ؛ وقال سعيد بن جبير : ثمانى عشرة سنة ؛ وقال الإمام مالك ، وربيعة ، وزيد بن أسلم ، والشعبى : الأشد الحلم ، وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر ،وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه : [وراودته(٣) التى هو فى بيتها]عن نفسه) ، أى : حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له ، وغلّقت عليه الأبواب ، ودعته إلى نفسها ، (وقالت : هيت لك) ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، و(قال : معاذ الله ، إنه ربى) وكانوا يطلقون « الرب» على السيد والكبير ، أى : إن بعلك ربى أحسن مثواى ، أى : منزلى وأحسن إلىّ ، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ، (إنه لايفلح الظالمون) ، قال ذلك مجاهد ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم .

(١) ينظر تفسير الطبرى ، الأثران ١٨٩٤٢ ، ١٨٩٤٤ ؛ ١٦ /١٧ ، ١٨ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٩٥١ : ١٦ /٢١ .

(٣) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

وقد اختلف القراء فى قراءة : (هَيت لك) ، فقرأه كثيرون بفتح الهاء ، وإسكان الياء ، وفتح التاء . وقال ابن عباس . ومجاهد ، وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها . وقال على بن أبى طلحة ، والعوفى ، عن ابن عباس : (هَيت) لك ، تقول : هلم لك . وكذا قال زرّ بن حبيش ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة .

قال عمرو بن عُبَيد ، عن الحسن : وهى كلمة بالسريانية ، أى : عليك .

وقال السدى : (هيت لك) ، أى : هلم لك ، وهى بالقبطية .

وقال مجاهد : هى لغة عَربية تدعوه بها .

وقال البخارى : وقال عكرمة : (هيت لك) هَلُمَّ لك بالحَوْرَانية(١) .

هكذا ذكره معلقاً ، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنى أحمد بن سُهَيل الواسطى ، حدثنا قرة بن عيسى ، حدثنا النضر بن عربى الجزَرى ، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله : (هيت لك) ، قال : هلم لك – قال : هى بالحَورانية(٢) .

وقال أبوعبيد القاسم بن سلام : وكان الكسائى يحكى هذه القراءة – يعنى هَيتَ لك – ويقول : هى لغة لأهل حوران ، وقعت إلى أهل الحجاز ، معناها تعال . وقال أبوعبيد : سألت شيخاً عالماً من أهل حَوران ، فذكر أنها لغتهم يعرفها .

واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَبْلَغْ أَمِيرَ المؤمِنينَ أَخا العِرَاقِ إِذَا أَتَينَا
إنَّ العِراقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إليكَ فَهَيتَ هَيْتًا

يقول : فتعال واقترب(٣)

وقرأ ذلك آخرون : (هِئْتُ لك) ، بكسر الهاء والهمزة ، وضم التاء ، بمعنى تهيَّأت لك ، من قول القائل : هئت للأمر آهى هيئة . وممن رَوى عنه هذه القراءة ابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وأبو وائل ، وعكرمة ، وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك .

قال ابن جرير : وكان أبو عمرو والكسائى ينكران هذه القراءة . وقرأ عبد الله بن إسحاق : (هَيتِ) ، بفتح الهاء وكسر التاء . وهى غريبة .

وقرأ آخرون ، منهم عامة أهل المدينة (هَيتُ) ، بفتح الهاء ، وضم التاء ، وأنشد قول الشاعر :

لَيسَ قَومِي بالأَبْعَدِينَ إذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ العَشِيرَةِ : هَيتُ(٤)

---

(١) البخارى ، تفسير سورة يوسف : ٩٦/٦ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٩٧٢ : ٢٦/١٦ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/١٦ ، والمحتسب لابن جنى : ٣٣٧/١ ، وعنق إليك : مائلون إليك .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٠/١٦ ، ونسب البيت فيه لطرفة بن العبد .

قال عبد الرزاق : أنبأنا الثورى ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : قال ابن مسعود : قد سمعت القَرَأَةَ فسمعتهم متقاربين ، فاقرءوا كما عُلّمتم ، وإياكم والتنطع والاختلاف ، فإنما هو كقول أحدكم : « هلم » و« تعال » . ثم قرأ عبد الله (هَيْتَ لك) ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناسا يقرءونها : (هيتُ) ؟ فقال عبد الله : إنى أقرأها كما عُلّمت ، أحبّ إلىّ(١) .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن وكيع ، حدثنا ابن عيينة ، عن منصور ، عن أبى وائل قال : قال عبد الله : (هَيْتَ لك) ، فقال له مسروق : إن ناساً يقرءونها (هيتُ لك) ؟ فقال : دعونى ، فانى أقرأ كما أُقْرِئتُ ، أحب(٢) إلىّ .

وقال أيضاً : حدثنى المثنى ، حدثنا آدم بن أبى إياس ، حدثنا شعبة ، عن شقيق ، عن ابن مسعود قال : (هيتَ لك) ينصب الهاء والتاء ولا تهمز .

وقال آخرون : (هيتُ لك) ، بكسر الهاء ، وإسكان الياء ، وضم التاء

قال أبوعُبَيدة معمر بن المثنى : « هيت » لا تثنى ولا تجمع ولاتؤنث ، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال : هيتَ لكَ ، وهيتَ لكِ ، وهيتَ لكما ، وهيتَ لكم ، وهيتَ لهن .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام ، وقد روى عن ابن عباس، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وطائفة من السلف فى ذلك ما ذكره ابن جرير(٣) وغيره ، والله أعلم .

وقال بعضهم : المراد بهمه بها همّ خطَرات ، حديث النفس . حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق ، ثم أورد البغوى هاهنا حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : إذا همّ عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جرّائى ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين(٤) ، وله ألفاظ كثيرة هذا منها .

وقيل : هم بضربها . وقيل : تمناها زوجة . وقيل : (هم بها لولا أن رأى برهان ربه) ، أى : فلم يهم بها . وفى هذا القول نظر من حيث العربية ، ذكره ابن جرير(٥) وغيره .

وأما البرهان الذى رآه ففيه أقوال أيضاً فعن ابن عباس، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والحسن، وقتادة ، وأبى صالح ، والضحاك ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم : رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه بفمه .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٨٩٩٨ : ١٦/٣٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٠٠٠ : ١٦/٣١ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/٣٥ – ٣٩ .
(٤) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٧٧ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إذا هم العبد بحسنة كتبت ... » : ١/٨٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٣٨ ، ٣٩ .

وقيل عنه(١) فى رواية : فضرب فى صدر يوسف .

وقال العوفى ، عن ابن عباس: رأى خيال الملك ، يعنى سيده ، وكذا قال محمد بن إسحاق ، فيما حكاه عن بعضهم : إنما هو خيال إطفير سيده حين دنا من الباب .

وقال ابن جرير : حدثنا أبوكريب ، حدثنا وكيع ، عن أبى مودود ، سمعت من محمد بن كعب القرظى قال : رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت ، فإذا كتاب فى حائط البيت : (لاتقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا)(٢) وكذا رواه أبومعشر المدنى ، عن محمد بن كعب .

وقال عبد الله بن وهب ، أخبرنى نافع بن يزيد ، عن أبى صخر قال : سمعت القرظى يقول فى « البرهان » الذى رأى يوسف : ثلاث آيات من كتاب الله ، (إن عليكم لحافظين) ... الآية ، وقوله (وما تكون فى شأن) ... الآية وقوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) — قال نافع : سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظى ، وزاد آية رابعة (ولاتقربوا الزنا)(٣) .

وقال الأوزاعى : رأى آية من كتاب الله فى الجدار تنهاه عن ذلك .

قال ابن جرير : والصواب أن يقال : إنه رأى من آيات الله مازجره عما كان همّ به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب ، وجائز أن يكون [صورة] الملك ، جائز أن يكون مارآه مكتوبا من الزجر عن ذلك ; ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى

قال : وقوله : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) ، أى : كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره(٤) .

(إنه من عبادنا المخلصين) ، أى : المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته فى أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه [من ورائه] فقدّته قدّاً فظيعا ، يقال : إنه سقط عنه ، واستمر يوسف هاربا ذاهبا ، وهى

---

(١) لعله يعنى سعيد بن جبير ، ينظر الطبرى : ١٦/٤٦ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٠٨٤ : ١٦/٤٧ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٠٨٧ : ١٦/٤٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٤٩ .

فى إثره ، فألفيا سيدها ــ وهو زوجها ــ عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها : (ماجزاء من أراد بأهلك سوءا) ، أى : فاحشة ، (إلا أن يسجن) ، أى : يحبس ، (أو عذاب أليم) ، أى : يضرب ضربا شديداً موجعا . فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، وقال بارا صادقا : (هى راودتنى عن نفسى) ، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدّت قميصه ، (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل) ، أى : من قدامه ، (فصدقت) ، أى : فى قولها إنه أرادها على نفسها ، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره ، فقدت قميصه ، فيصح ماقالت ، (وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين) ، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها ، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها ، فقدت قميصه من ورائه .

وقد اختلفوا فى هذا الشاهد : هل هو صغير أو كبير ، على قولين لعلماء السلف ، فقال عبد الرزاق :

أخبرنا اسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (وشهد شاهد من أهلها) ، قال : ذو لحية (١)

وقال الثورى ، عن جابر ، عن ابن أبى مليكة ، عن ابن عباس : كان من خاصة الملك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق : إنه كان رجلا .

وقال زيد بن أسلم ، والسدى : كان ابن عمها .

وقال ابن عباس : كان من خاصة الملك .

وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (وشهد شاهد من أهلها) ، قال : كان صبيا فى المهد . وكذا رُوى عن أبى هريرة ، وهلال بن يساف ، والحسن ، وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم : أنه كان صبيا فى الدار . واختاره ابن جرير (٢)

وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد ــ هو ابن سلمة ــ أخبرى عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تكلم أربعة وهم صغار » ، فذكر فيهم شاهد يوسف (٣)

ورواه غيره عن حماد بن سلمة ، عن عطاء ، عن سعيد ، عن ابن عباس انه قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم (٤) »

وقال ليث بن أبى سلم ، عن مجاهد : كان من أمر الله ، ولم يكن إنسيا . (٥) وهذا قول غريب (٦)

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩١١١ : ٥٦/١٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٩/١٦ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٩١٠٨ : ٥٥/١٦ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٩٠٩٩ : ٥٤/١٦ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩١٣٣ : ٥٩/١٦ .

(٦) ومن وجوه الغرابة فيه أنه مخالف لصريح الآية فى قوله تعالى : (وشهد شاهد من أهلها) ؛ إذ كيف يكون جنيا ويكون من أهلها !

وقوله : (فلما رأى قميصه قد من دبر) ، أى : فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ، (قال : إنه من كيدكن) أى : إن هذا البهت واللطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ، (إن كيدكن عظيم) ؛

ثم قال آمرا ليوسف عليه السلام بكتمان ماوقع : يا(يوسف ، أعرض عن هذا) ، أى : اضرب عن هذا صفحا ، فلا تذكره لأحد ، (واستغفرى لذنبك) ، يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا ، أو أنه عذرها ، لأنها رأت مالا صبر لها عنه ، فقال لها : (استغفرى لذنبك) ، أى : الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو هو برىء منه استغفرى من هذا الذى وقع منك ، (إنك كنت من الخاطئين)

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة ، وهى مصر ، حتى تحدث الناس به ، (وقال نسوة فى المدينة) مثل نساء الأمراء الكبراء ينكرن على امرأة العزيز ، وهو الوزير ، ويعبن ذلك عليها : (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) ، أى : تحاول غلامها عن نفسه ، وتدعوه إلى نفسها ، (قد شغفها حبا) ، أى : قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه .

قال الضحاك عن ابن عباس : الشَّغَف : الحب القاتل ، والشَّغَف دون ذلك ، والشغاف حجاب القلب

(إنا لنراها فى ضلال مبين) ، أى : فى صنيعها هذا من حبها فتاها ، ومراودتها إياه عن نفسه

(فلما سمعت بمكرهن) ، قال بعضهم : بقولهن . وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يرينه ، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك (أرسلت إليهن) ، أى : دعتهن إلى منزلها لتضيفهن (وأعتدت لهن متكأ) ؛

قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والحسن ، والسدى ، وغيرهم : هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام ، فيه مايقطع بالسكاكين من أترج ونحوه . ولهذا قال تعالى : (وآتت كل واحدة منهن سكينا) ، وكان هذا مكيدة منها ، ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته ، (وقالت : اخرج عليهن) ، وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر ، (فلما) خرج و (رأينه أكبرنه) ، أى : أعظمن شأنه ، وأجللن قدره ، وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشا برؤيته ، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد : أنهن حززن أيديهن بها ، قاله غير واحد .

وعن مجاهد ، وقتادة : قطعن أيديهن حتى ألقينها ، فالله أعلم .

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ، ثم وضعت بين أيديهن أترجا ، وآتت كل واحد منهن سكينا : هل لكن فى النظر إلى يوسف ؟ قلن : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلا ومدبرا ، وهن يحززن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا ، فكيف ألام أنا ؟ (فقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) ، ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد الذى رأينا ، لأنهن لم يرين فى البشر شبهه ولا قريبا منه ، فإنه — صلوات الله عليه وسلم كان قد أعطى شطر الحسن ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيوسف عليه السلام فى السماء الثالثة ، قال : « فإذا هو قد أعطى شطر الحسن (١) » .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن (٢) وقال سفيان الثورى ، [عن أبى إسحاق] ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن (٣) .

وقال أبو إسحاق أيضا ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطّى وجهه مخافة أن تفتتن به .

ورواه الحسن البصرى مرسلا ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطى الناس الثلثين — أو قال : أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث (٤) » .

وقال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد عن ربيعة الجُرَشى قال : قسم الحسن نصفين ، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن . والنصف الآخر بين سائر الخلق .

وقال الإمام أبو القاسم السهيلى : معناه أن يوسف كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ، ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله ، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه .

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته : (حاش لله) — قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله ، (ماهذا بشرا) — وقرأ بعضهم : (ماهذا بِشِرًى) أى : بمشترى (٥)

(إن هذا إلا ملك كريم » قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) ، تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله .

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات » : ١/١٠٠ ،
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٢٨ : ١٦/٨٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٢٧ : ١٦/٨٠ . وما بين القوسين عنه .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٢٩ : ١٦/٨٠ ، ٨١ .
(٥) تفسير الطبرى عن أبى الحويرث الحنفى : ١٦/٨٤ . و(شرى) : بكسر الشين وفتح الراء منونة .

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، أى : فامتنع : قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر ، أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن ، وهى العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعد : (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) ، فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن ، و (قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) ، أى : من الفاحشة ، (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن) أى : إن وكلتنى إلى نفسى ، فليس لى من نفسى قدرة ، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك أنت المستعان وعليك التكلان فلا تكلنى إلى نفسى .

(أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه السميع العليم) ، وذلك أن يوسف عليه السلام عَصَمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال : أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ، ويختار السجن على ذلك ، خوفا من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه : ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب ، فقال : إنى أخاف الله » (١)

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أى : إلى مدة ، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات — وهى الأدلة — على صدقه فى عفته ونزاهته . فكأنهم — والله أعلم — إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك (٢) . ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِىّ العرض ، صلوات الله عليه وسلامه .

وذكر السدى : أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها فى حقه ، ويبرأ عرضه فيفضحها .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

قال قتادة : كان أحدهما ساقى الملك ، والآخر خبازه .

قال محمد بن إسحاق : كان اسم الذى على الشراب « نبوا » ، والآخر « مجلث » . (٣)

---

(١) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد » : ١/١٦٨ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فضل إخفاء الصدقة » : ٩٣/٣ .

(٢) سبق أن ذكر المفسر — رحمه الله — أن امرأة العزيز حدثت ضيوفها من النساء بعفته ، وأنهن أكبرنه لذلك ، فكيف يقال : إنهم حبسوه لمراودته امرأة العزيز عن نفسها.. ويبدو لنا أن سجنه إنما كان من أجل إبعاده عن امرأة العزيز التى أقسمت أن تحبسه ، أو ينال منها ما تريد .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٦٦ : ١٦/٩٥ .

قال السدى : وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر فى السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث ، وحسن السمت وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم . ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن ، تآلفا به وأحباه حبا شديدا ، وقالا له : والله لقد أحببناك حبا زائدا . قال : بارك الله فيكما، إنه ماأحبنى أحد إلا دخل علىّ من محبته ضرر ، أحبتنى عمتى فدخل علىّ الضرر بسببها ، وأحبنى أبى فأوذيت بسببه ، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله مانستطيع إلا ذلك ، ثم إنهما رأيا مناما ، فرأى الساقى أنه يعصر خمرا ـ يعنى عنبا ـ وكذلك هى فى قراءة عبد الله بن مسعود (إنى أرانى أعصر عنبا (١)) . ورواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن سنان ، عن يزيد بن هارون ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن ابن مسعود : أنه قرأها :(أعصر عنبا) .

وقال الضحاك فى قوله : (إنى أرانى أعصر خمرا) ، يعنى عنبا ـ قال : وأهل عمان يسمون العنب خمرا

وقال عكرمة : رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبَلَة من عنب ، فنبتت ، فخرج فيه عناقيد ، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك . قال : تمكث فى السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمراً (٢)

وقال الآخر ، وهو الخباز : (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين)

والمشهور عند الأكثرين ماذكرناه ، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالا : حدثنا جرير ، عن عمارة بن القعقاع ، عن إبراهيم ، عن عبد الله قال : مارأى صاحبا يوسف شيئا ، إنما كانا تحالما ليجرّبا عليه (٣)

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى نومهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتاويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : (لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)

قال مجاهد : يقول : (لايأتيكما طعام ترزقانه) [فى نومكما] ، (إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) ، وكذا قال السدى

وقال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا محمد بن يزيد ـ شيخ له ، عن الحسن بن ثوبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ماأدرى لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف (٤) وهو كذلك ،

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٧٣ : ٩٦/١٦ ، ٩٧ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٧٧ : ٩٧/١٦ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٧٠ : ٩٦/١٦ .
(٤) أى : يتنبأ بواسطة علامات يعرف بها ذلك .

لأنى أجد فى كتاب الله حين قال للرجلين : (لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) — قال : إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك . — ثم قال ابن عباس : إنما علم فعلم : وهذا أثر غريب .

ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياى ، لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد ، (واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب) ، يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع المرسلين ، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدى قلبه ويعلمه مالم يكن يعلمه ، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد .

(ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) ،هذا التوحيد — وهو الإقرار بأنه لاإله إلا هو وحده لاشريك له ، (من فضل الله علينا) ، أى : أوحاه إلينا ، وأمرنا به (وعلى الناس) ، إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك (ولكن أكثر الناس لايشكرون) ، أى : لايعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم ، بل (بدلوا نعمةالله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار)

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا حجاج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : أنه كان يجعل الجد أبا ، ويقول : والله فمن شاء لا عنّاه عند الحجْر ، ماذكر الله جدا ولا جدة،قال الله تعالى — يعنى إخبارا عن يوسف : (واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب [1])

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَتخلّع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما ، فقال : (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ، الذى وَلِىَ كُلَّ شىء بعزّ جلاله ، وعظمة سلطانه .

ثم بين لهما أنّ التى يعبدونها ويسمّونها آلهة ، إنما هو جَهْلٌ منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خَلَفهم عن سَلَفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال : (ما أنزل الله بها من سلطان) ، أى : حجة ولا برهان .

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلّه لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ، ثم قال : (ذلك الدين القيم) ، أى : هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم ، الذى أمر الله به ،

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن المنذر وابن أبى حاتم : ١٩/٤ .

وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أى : فلهذا كان أكثرهم مشركين ، (وما أكثر الناس ولو حرصتَ بمؤمنين) .

وقد قال ابن جرير : إنما عَدَلَ بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا ، لأنه عرَف أنها ضارّة لأحدهما ، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك ، لئلا يعاودوه فيها ، فعاودوه ، فأعاد عليهم الموعظة(١) .

وفى هذا الذى قاله نظر ؛ لأنه قد وَعَدَهما أولا بتعبيرها ، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلَةً وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام ، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه ، والإنصات إليه ، ولهذا لما فرغ من دعوتهما ، شرع فى تعبير رؤياهما ، من غير تكرار سؤال فقال :

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

يقول لهما : (يا صاحبى السجن ، أما أحدكما فيسقى ربَّه خمرا) ، وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا ، ولكنه لم يعيّنه لئلا يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه فى قوله : (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) ، وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً .

ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَر ، فإذا عُبِّرَت وقعت

وقال الثورى ، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم ، عن عبد الله قال : لما قالا ما قالا ، وأخبرهما ، قالا : ما رأينا شيئا . فقال : (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) (٢)

ورواه محمد بن فضيل ، عن عمارة ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود به ، وكذا فسره مجاهد ، وعبدالرحمن ابن زيد بن أسلم ، وغيرهم . وحاصله . أن من تحلّم بباطل وفسّره ، فإنه يلزَم بتأويله ، والله أعلم ، وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، عن معاوية بن حيدة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَر فإذا عُبِرَت وقعت » .

وفى مسند أبى يعلى ، من طريق يزيد الرّقاشى ، عن أنس مرفوعا : « الرؤيا لاول عابر » .

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

لما ظن يوسف عليه السلام نجاة أحدهما ، وهو الساقى قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم ، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له : (اذكرنى عند ربك) ، يقول : اذكر قصتى عند ربك وهو الملك ، فنسى ذلك الموصى أن يذكّر مولاه بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان ، لئلا يطلع نبى الله من السجن .

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/١٠٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٢٩٦ : ١٦/١٠٨ .

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائدعلى الناجى ، كما قاله مجاهد ، ومحمد بن إسحاق وغير واحد . ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام ، رواه ابن جرير ، عن ابن عباس ، ومجاهد أيضا ، وعكرمة ، وغيرهم . وأسند ابن جرير ها هنا حديثا فقال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا عَمْرو بن محمد ، عن إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لو لم يقل – يعني يوسف – الكلمة التى قال : ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله [1] » .

وهذا الحديث ضعيف جدا ؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو الخُوزى أضعف منه أيضا . وقد رُوى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما ، وهذه المرسَلات ها هنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الموطن ، والله أعلم .

«وأما البضع » ، فقال مجاهدوقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ؛ وقال وهب بن مَنبِّه : مكث أيوب فى البلاء سبعا ويوسف فى السجن سبعا ، وعذاب بختنصر سبعا[2] .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : (فلبث فى السجن بضع سنين) ، قال : ثنتا عشرة سنة ، وقال الضحاك : أربع عشرة سنة :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قدّر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسفَ عليه السلام من السجن مُعزّزاً مكرما ، وذلك أن المَلك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجّب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة والحزّاة[3] وكبراء دولته وأمراءه وقصّ عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأن هذه (أضغاث أحلام) ، أى : أخلاط اقتضت رؤياك هذه ، (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) ، أى : ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط ،

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٣١٥ : ١٦/١١٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٣٢٥ : ١٦/١١٤ .

(٣) الحزاة : جمع حاز ، وهو المتكهن ، يحزر الأشياء ويقدرها بظنه .

لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها . فعند ذلك تذكر ذلك الذى نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا فى السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف ، من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر (بعد أمّة) ، أى : مدة ــ وقرأ بعضهم : (بعد أمَهٍ)(١) ، أى : بعد نسيان ، فقال للملك والذين جمعهم لذلك : (أنا أنبئكم بتأويله) ، أى : بتأويل هذا المنام ، (فأرسلون) ، أى : فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن . ومعنى الكلام : فبعثوا . فجاءه فقال : (يوسف أيها الصديق أفتنا) ، وذكر المنام الذى رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى فى نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال : (تزرعون سبع سنين دأبا) ، أى : يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التى تُستَغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين فقال : (فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) ، أى : مهما استغللتم فى هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله ، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه ، لتنتفعوا فى السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل التى تعقب هذه السبع متواليات وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السمان ، لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمَعوه فى سنى الخصب ، وهن السنبلات اليابسات .

وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئا ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء ، ولهذا قال : (يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) .

ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم . بعد ذلك (عام فيه يُغاث الناسُ) ، أى : يأتيهم الغيث ، وهو المطرُ ، وتُغل البلاد ، ويَعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضا .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (وفيه يعصرون) : يحلبون(٢) :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه ، التى كان رآها ، بما أعجبه وأينقه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه ، [وحسن اطلاعه على رؤياه] ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه ، فقال (ائتونى به) ، أى :

(١) تفسير الطبرى : ١٦/١٢١ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦/١٣٠ .

أخرجوه من السجن وأحضروه . فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلما وعدوانا ، قال : (ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم)

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه ، وعُلُوّ قدره وصبره ، صلوات الله وسلامه عليه ، ففي المسند والصحيحين من حديث الزهرى ، عن سعيد وأبى سلمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : (رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى) ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثتُ فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى (١) »

وقال الإمام أحمد أيضا . حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيدهن إن ربى بكيدهن عليم) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر (٢) »

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له ، حين سُئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى . ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم البابَ ، ولكنه أراد أن يكون له العذر » . هذا حديث مرسل (٣) .

وقوله تعالى : (قال : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) ، إخبار عن الملك حين جمع النّسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطبا لهن كلهن ، وهو يريد امرأة وزيره ، وهو العزيز : (ما خطبكن) ، أى : شأنكن وخبركن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) ، يعنى يوم الضيافة ؟ (قلن : حاش الله ما علمنا عليه من سوء) ، أى : قالت النسوة جوابا للملك : حاش لله أن يكون يوسف متهما ، والله ما علمنا عليه من سوء . فعند ذلك (قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق)

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : تقول الآن : تبين الحق وظهر وبرز .

(أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) ، أى فى قوله : (هى راودتنى عن نفسى) ، (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) ، تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ذلك ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما

---

(١) البخارى ، تفسير سورة يوسف : ٦/٩٧ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة » : ١/ ٩٢ .

وما قاله الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — من باب التواضع وهضم النفس، وإلا فإنه عليه السلام أقوى الرسل عزماً ، وأرفعهم مقاماً ، وأحقهم بكل ثناء ومحمدة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٤٧ ، ٣٨٩ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٤٠٣ : ١٦/١٣٦ .

راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفْتُ ليعلم أنى بريئة ، (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى) ، تقول المرأة : ولست أبرىء نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء ، (إلا ما رحم ربى) ، أى : إلا من عصمه الله تعالى ، (إن ربى غفور رحيم)

وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام . وقد حكاه الماوردى فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيميَّة رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة .

وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام ، من قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه) فى زوجته (بالغيب) . . . الآيتين ، أى : إنما رَدَدْتُ الرسول ليعلم الملك براءتى وليعلم العزيز (أنى لم أخنه) فى زوجته (بالغيب) ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء) ، وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما جمع الملك النسوة فسألهن : هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ (قلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حَصْحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) قال يوسف . (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) ، قال فقال له جبريل عليه السلام : ولا يوم هممت بما هممت به . فقال : (وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء) (١)

وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وابن أبى الهُذَيل ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ؛ والقول الأول أقوى وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءةَ يوسف عليه السلام ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه ، قال : (ائتونى به أستخلصه لنفسى) ، أى : أجعله من خاصّتى وأهل مشورتى . (فلما كلمه) ، أى: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال قال له الملك . (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ، أى : إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام : (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) ، مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره ، للحاجة . وذكر أنه (حفيظ) ، أى : خازن أمين ، (عليم) ، ذو علم وبصَر بما يتولاه .

قال شيبة بن نعامة : حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى الجدب . رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٤٢٨ : ١٩٣٢٦ : ١٦/١٤٣ .

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يُجْعَل على خزائن الأرض ، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد . فأجيب إلى ذلك رغبةً فيه ، وتكرمةً له ، ولهذا قال تعالى :

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) ، أي : أرض مصر ، (يتبوأ منها حيث يشاء) .

قال السدّي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يتصرف فيها كيف يشاء .

وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلا حيث يشاء ، بعد الضيق والحبس والإسار (١) : (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) ، أي : وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد ، (ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) ، يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل ، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام : (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (٢)

والغرض أن يوسف عليه السلام ولاّه ملك مصر الريانُ بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام . قاله مجاهد (٣).

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك : (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) ، قال الملك : قد فعلت . فولاه فيما ذكروا عمل إطفير ، وعزل إطفير عما كان عليه ، يقول الله عز وجل : (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) ، قال : فذكر لي والله أعلم . أن إطفير هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير: راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق ، لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة(٤) ، ناعمة في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف ، وميشا بن يوسف (٥) . وولد لأفرائيم نون ، والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق ، حتى مرّ يوسف ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته ، والملوك عبيدا بمعصيته .

---

(١) تفسير الطبري : ١٦/١٥١ .

(٢) سورة : ص الآية ٣٩ ، ٤٠

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٩٤٦٢ : ١٦/١٥٢ .

(٤) في تفسير الطبري : « كما ترى حسناً وجمالا » .

(٥) إلى هنا ينتهي أثر محمد بن إسحاق في تفسير الطبري : ١٦/١٥١ .

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ذكر السُّدّى ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهما من المفسرين : أن السبب الذى أقدمَ إخوة يوسف بلاد مصر ، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ، ومضت السبع السنين المخصبة ، ثم تلتها سنينُ الجدب ، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها ، ووصل إلى بلاد كنعان ، وهى [التى] فيها يعقوب عليه السلام وأولاده . وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس فى غلاتهم ، وجمعها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم ، وأهراءَ متعددة هائلة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة . وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة فى وسط النهار ، حتى يتكفى الناس بما فى أيديهم مدة السبع سنين . وكان رحمةً من الله على أهل مصر .

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم فى السنة الأولى بالأموال ، وفى الثانية بالمتاع ، وفى الثالثة بكذا ، وفى الرابعة بكذا ، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملّك عليهم جميع ما يملكون ، ثم أعتقهم وردَّ عليهم أموالهم كلها ، الله أعلم بصحة ذلك ، وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب

والغرض أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوةُ يوسف ، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك ، فإنه بلغهم أن عزيزَ مصر يعطى الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده بنيامين شقيق يوسف عليهما السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف . فلما دخلوا على يوسف ، وهو جالس فى أبهته ورياسته وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم ، (وهم له منكرون) ، أى : لا يعرفونه ، لأنهم فارقوه وهو صغير حَدَث فباعوه للسيارة ، ولم يدروا أين يذهبون به ، ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه . فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم .

فذكر السدى وغيره : أنه شرع يخاطبهم ، فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ قالوا : أيها العزيز ، إنا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله . قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب نبى الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم ، كنا اثنى عشر ، فذهب أصغرنا ، هلك فى البرّيّة ، وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه . فأمر بإنزالهم وإكرامهم .

(ولما جهزهم بجهازهم) ، أى : وَفّاهم كيلهم ، وحمل لهم أحمالهم قال : ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم ، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ، (ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟) ، يرغّبهم فى الرجوع إليه ، ثم رَهّبَهم فقال :

(فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) ، اى : إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية ، فليس لكم عندى ميرة ، (ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) ، أى : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه .

وذكر السدى : أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم . وفى هذا نظر ؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرا ، وهذا لحرصه على رجوعهم .

(وقال لفتْيَته (١)) ، أى : غلمانه ، (اجعلوا بضاعتهم) ، وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها (فى رحالهم) أى : فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون ، (لعلهم يرجعون) بها .

قيل : خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ؛ وقيل : تذمّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام . وقيل : أراد أن يردّهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم (٢) ، والله أعلم .

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم (قالوا : يا أبانا ، منع منا الكيل) ، يعنون بعد هذه المرة ، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين ، فأرسله معنا نكتل .

وقرأ بعضهم : [يكتل (٣)] ، بالياء ، أى يكتل هو ، (وإنا له لحافظون) ، أى : لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك . وهذا كما قالوا له فى يوسف : (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) ، ولهذا قال لهم : (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) ، أى : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عنى ، وتحولون بينى وبينه ؟ (فالله خير حفظاً) وقرأ بعضهم: (حافظاً) ، (وهو أرحم الراحمين) ، أى : هو أرحم الراحمين بى ، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى ، وأرجو من الله أن يردّه علىّ ، ويجمع شملى به ، إنه أرحم الراحمين .

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم ، فلما وجدوها فى متاعهم (قالوا : يا أبانا ، ما نبغى) ؟ أى : ماذا نريد ؟ (هذه بضاعتنا ردت

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٥/٣٢٢ : « وقرأ الأخوان وحفص : (لفتيانه) ، وباقى السبعة : (لفتيته) » .

(٢) أى : هو يعلم أن إخوته يتحرجون ويتورعون أن يمسكوا ثمن طعام قد قبضوه حتى يؤدوه إلى صاحبه ، فلذلك أمر بجعل بضاعتهم فى رحالهم ، حتى يدعوهم ذلك إلى الرجوع إليه . وينظر تفسير الطبرى فى ذلك : ١٦/١٥٧ ، ١٥٨ .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين عن تفسير الطبرى : ١٦/١٥٩ .

إلينا) ــ كما قال قتادة : ما نبغى وراء هذا ؟ إنّ بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل [١] .

(ونمير أهلنا) ، أى : إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا ، (ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير) . وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كلّ رجل حمل بعير . وقال مجاهد : حمل حمار . وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرا ، كذا قال [٢] .

(ذلك كيل يسير) ، هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا .

(قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) ، أى : تحلفون بالعهود والمواثيق ، (لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) ، إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه .

(فلما آتوه موثقهم) ، أكده عليهم فقال : (الله على ما نقول وكيل) .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة ، التى لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم .

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ، إخبارا عن يعقوب عليه السلام : إنه أمر بنيه لـمّا جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ، أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، فإنه كما قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدّى : إنه خشى عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم ؛ فإن العين حقّ [٣] ، تستنزل الفارس عن فرسه .

وروى ابن أبى حاتم ، عن إبراهيم النّخَعى فى قوله : (وادخلوا من أبواب متفرقة) ، قال : علم أنه سيلقى إخوته فى بعض الأبواب .

وقوله : (وما أغنى عنكم من الله من شىء) ، أى : هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ، (إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) ، قالوا : هى دفع إصابة العين لهم ، (وإنه لذو علم لما علمناه) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٤٧٦ : ١٦١/١٦ ، ١٦٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٤٧٧ : ١٦٢/١٦ .

(٣) روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة : « العين حق » ، ينظر البخارى ، كتاب الطب ، باب « العين حق » : ١٧١/٧ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « الطب والمرض والرقى » : ١٣/٧ . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً ٢٧٤/١ ، ٢٩٤ : « العين حق تستنزل الحالق » ، يعنى الذى فى مكان مرتفع .

قال قتادة والثورى : لذو عمل بعلمه . وقال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياه (١) ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له ، وعرّفه أنه أخوه ، وقال له : « لا تبتئس » ، أى : لا تأسف على ما صنعوا بى ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده ، مُعزّزا مكرما معظما .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

لما جهّزهم وحمّل لهم أبعرتهم طعاما ، أمر بعض فتيانه أن يضع « السقاية » ، وهى : إناء من فضة فى قول الأكثرين. — وقيل : من ذهب — قاله ابن (٢) زيد — كان يشرب فيه ، ويكيل للناس به من عزّة الطعام إذ ذاك ، قاله ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد .

وقال شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: صواع الملك قال : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك (٣) ، وكان للعباس مثله فى الجاهلية ، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى مناد بينهم : (أيتها العير ، إنكم لسارقون) ، فالتفتوا إلى المنادى وقالوا : (ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك) ، أى : صاعه الذى يكيل به ، (ولمن جاء به حمل بعير)، وهذا من باب الجُعَالة(٤) ، (وأنا به زعيم) ، وهذا من باب الضمان والكفالة .

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف : (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) ، أى : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، أنّا ما جئنا للفساد فى الأرض ، وما كنا سارقين،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/١٦٨ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٥١٩ : ١٦/١٧٣ .

(٣) المكوك : الصاع .

(٤) الجعالة : الأجرة على الشىء .

أى : ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة . فقال لهم الفتيان : (فما جزاؤه) ، أى : السارق ، إن كان فيكم (إن كنتم كاذبين) ، أى : أىّ شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ (قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين) :

وهكذا كانت شريعة إبراهيم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه : وهذا هو الذى أراد يوسف عليه السلام ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، أى : فتشها قبله تورية ، (ثم استخرجها من وعاء أخيه) ، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال تعالى : (كذلك كدنا ليوسف) ، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

وقوله : (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) ، أى : لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر ، قاله الضحاك وغيره .
وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه تعالى فقال : (نرفع درجات من نشاء) ، كما قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [1]) .

(وفوق كل ذى علم عليم) — قال الحسن البصرى : ليس عالم إلا فوقه عالم ، حتى ينتهى إلى الله عز وجل . وكذا رَوَى عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ، عن عبد الأعلى الثعلبى ، عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب ، فتعجب رجل فقال : الحمد لله (فوق كل ذى علم عليم) [فقال ابن عباس : بئس ما قلت ، الله العليم ، وهو فوق كل عالم [2]] ، وكذا روى سماك [3] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (وفوق كل ذى علم عليم) ، قال : يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كل عالم [4] : وهكذا قال عكرمة .

وقال قتادة : (وفوق كل ذى علم عليم) ، حتى ينتهى العلم إلى الله ، منه بُدىء وتعلمت العلماء ، وإليه يعود ، وفى قراءة عبد الله : (وفوق كل عالم عليم [5]) .

* قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصّواع قد أخرج من متاع بنيامين : (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ، يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام .

قال سعيد بن جبير ، عن قتادة : كان يوسف قد سرق صنما لجده ، أبى أمه ، فكسره .

---

(١) سورة المجادلة ، آية : ١١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٥٨٤ : ١٦/١٩٢ .
(٣) فى تفسير الطبرى : « إسرائيل عن سالم ، عن عكرمة » . والصواب ، ما فى مخطوطة الأزهر ، فسماك بن حرب يروى عن عكرمة ، ويروى عنه إسرائيل . ينظر التهذيب : ٤/٢٣٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٥٨٥ : ١٦/١٩٢ .
(٥) المرجع السابق ، الأثر ١٩٥٩٥ : ١٦/١٩٣ .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ، فيما بلغني ، أن عمّته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت إليها منطقة (١) إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، فكان من اختبأها (٢) ممن وليها ، كان له سلَما لا ينازَع فيه ، يصنع فيه ما يشاء : وكان يعقوب حين وُلد له يوسف قد حضنته عمته ، فكان منها وإليها فلم يَحب أحدٌ شيئا من الأشياء حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت (٣) نفس يعقوب عليه فأتاها ، فقال : يا أخيَّة ، سلّمي إليّ يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة : قالت : فوالله ما أنا بتاركته . ثم قالت : فدعه عندى أياما أنظر إليه وأسكن عنه ، لعل ذلك يسلّيني عنه — أو كما قالت : فلما خرج من عندها يعقوب ، عمدت إلى منطقة إسحاق ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست . ثم قالت : اكشفوا أهل البيت : فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف . فقالت : والله إنه لى لسَلَمٌ ، أصنع فيه ما شئت : فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر : فقال لها : أنت وذاك ، إن كان فعل ذلك فهو سلَم لك ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت : قال : فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه : (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل (٤)) :

وقوله : (فأسرّها يوسف فى نفسه) ، يعنى الكلمة التى بعدها ، وهى قوله : (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) ، أى : تذكرون — قال هذا فى نفسه ، ولم يبده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير ، كقول الشاعر (٥) :

جزَى بَنُوه أبا الغيلان عَن كِبَرٍ ... وحُسْن فعْل كما يُجزَى سِنمَّار

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة ، فى منثورها وأخبارها وأشعارها .

قال العوفى ، عن ابن عباس : (فأسرها يوسف فى نفسه) ، قال : أسر فى نفسه : (أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون) .

قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم ، شرعوا يرّققون له ويعطفونه عليهم ، ف(قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أبا شيخا كبيرا) ، يعنون : وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده ، (فخذ أحدنا

(١) المنطقة : كل ما شد به الوسط .

(٢) فى تفسير الطبرى : « من اختانها » .

(٣) أى : اشتاق إليه اشتياقاً شديداً . ينظر تفسير الطبرى ، تعليق السيد المحقق .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٦٠٥ : ١٦/١٩٦ ، ١٩٧ .

(٥) هو سليط بن سعد ، كما فى شرح الشواهد الكبرى للعينى ، على هامش خزانة الأدب : ٢/٤٩٥ .
وسنمار : رجل من الروم بنى الخورنق الذى بظاهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس الأكبر ، ملك الحيرة ، ليكون فيه ولده ونساؤه ، وهو قصر عظيم ، لم ير العرب مثله ، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه ، فخر ميتاً لئلا يبنى لغيره مثله ، فضربت به العرب المثل فى سوء المكافأة ، فقيل : جزانى جزاء سنمار .
والشاهد فى هذا البيت أنه قد اتصل بالفاعل المتقدم ضمير يعود إلى المفعول المتأخر للضرورة ، والأصل أن يقال : « جزى أبا الغيلان بنوه ... » .

مكانه) ، أى : بدله يكون عندك عوضاً عنه ، (إنا نراك من المحسنين) ، اى : من العادلين المنصفين القابلين للخير .
(قال : معاذ الله : أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ، أى : كما قلتم واعترفتم ، (إنا إذا لظالمون) ، إن أخذنا بريئا بسقيم .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف : أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين ، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع عليهم ذلك ، (خلصوا) ، أى : انفردوا عن الناس (نجيا) يتناجون فيما بينهم .

(قال كبيرهم) ، وهو رُوبيل ، وقيل : يهوذا ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما همّوا بقتله ، قال لهم : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) لتَرُدنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذّر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ، (فلن أبرح الأرض) ، أى : لن أفارق هذه البلدة ، (حتى يأذن لى أبى) فى الرجوع إليه راضياً عنى ، (أويحكم الله لى) ، قيل : بالسيف .(١) وقيل : بأن يمكنّنى من أخذ أخى ، (وهوخير الحاكمين) .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع ، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه ، ويبرءوا مما وقع بقوهم .

وقوله : (وما كنا للغيب حافظين) قال عكرمة وقتادة : ما نعلم أن ابنك سرق .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا فى الغيب أنه يسرق له شيئا ، إنما سألنا ما جزاءالسارق(٢) ؟

(واسأل القرية التى كنا فيها) ، قيل : المراد مصر . قال قتادة ، وقيل : غيرها ، (والعير التى أقبلنا فيها) ، أى : التى رافقناها ، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ، (وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل)

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٦٣١ : ١٦/٢٠٩ .

(٢) أثر عبد الرحمن بن زيد ، كما فى الدر المنثور ٤/٢٩ : « قال يعقوب عليه السلام لبنيه : ما يدرى هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم : قالوا : ما شهدنا إلا بما علمنا ، لم نشهدأن السارق يؤخذ بسرقته إلا وذاك الذى علمنا » .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم ، وظن أنها كفعلتهم بيوسف (قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل)(١) .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سُحِب حكم الأول عليه ، وصح قوله : (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) .

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وأخاه بنيامين ، وروبيل الذى أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال : (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم) ، أى : العليم بحالى ، (الحكيم) فى أفعاله وقضائه وقدره .

(وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف) ، أى : أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم الأول : (يا أسفا على يوسف) ، جَدَّدَ له حزنُ الابنين الحزنَ الدفين .

قال عبد الرزاق ، أخبرنا الثورى ، عن سفيان العُصْفُرِىّ ، عن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غيرَ هذه الأمة الاسترجاع (٢) ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام : (يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) ، (٣) أى : ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . قاله قتادة وغيره .

وقال الضحاك : (فهو كظيم) كَمِيد حزين .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حماد (٤) بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام قال : يا رب ، إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم رابعاً . فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود ، إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه فى سببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك . وإن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى ابيضت عيناه من الحزن ، فصبر ، وتلك بلية لم تنلك .

وهذا مرسل(٥) ، وفيه نكارة ؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح ، ولكن على بن زيد بن جُدعان له مناكير وغرائب كثيرة (٦) ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٦٤٥ : ٢١٤/١٦ .

(٢) الاسترجاع هو قولنا إذا نزلت مصيبة : (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٦٥٨ : ٢١٧/١٦ .

(٤) كذا ، ولم يذكر ابن أبى حاتم أن أباه لقى حماد بن سلمة ، ولكنه ذكر أنه روى عن يحيى بن حماد بن أبى زياد الشيبانى ، وهو يروى عن حماد . ينظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٠٤/٢/٣ . والتهذيب : ١٩٩/١١ .

(٥) الأحنف بن قيس راوى الحديث ، دعا له النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يره . يروى عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود ، وعنه الحسن وغيره . ينظر ترجمته فى أسد الغابة ٦٨/١ بتحقيقنا ، والخلاصة .

(٦) ذكر الذهبى فى ميزان الاعتدال ١٢٨/٣ عن على بن زيد : « وقال البخارى وأبو حاتم : « لا يحتج به » وقال النسوى : اختلط فى كبره . وقال ابن خزيمة : لا أحتج به لسوء حفظه » .

وأقرب مافى هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بنى إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم ، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كَتَبَ إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له فى رده ، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء ، فإبراهيم ابتلى بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفراق يوسف ، فى حديث طويل لا يصح ، والله أعلم ، فعند ذلك رق له بنوه ، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه : (تالله تفتؤ تذكر يوسف) ، أى : لا تفارق تَذَكُّرَ يوسف ، (حتى تكون حرضاً) أى ضعيف الجسم ، ضعيف القوة ، (أو تكون من الهالكين) ، يقولون : وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف .

(قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) ، أى : أجابهم عما قالوا بقوله : (إنما أشكو بثى وحزنى) ، أى : همى وما أنا فيه (إلى الله) وحده ، (وأعلم من الله ما لا تعلمون) ، أى : أرجو منه كل خير .

وعن ابن عباس : (وأعلم من الله مالا تعلمون) ، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سوف أسجد له (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبى غَنِيَّة ، عن حفص بن عمر بن أبى الزبير (٢) ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كان ليعقوب النبى عليه السلام أخ مُؤاخ له ، فقال له ذات يوم : ما الذى أذهب بصرك وقوّس ظهرك ؟ قال : الذى أذهب بصرى البكاء على يوسف ، وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا يعقوب ، إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى ؟ فقال يعقوب : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله . فقال جبريل عليه السلام : الله أعلم بما تشكو» .

وهذا حديث غريب ، فيه نكارة .

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض ، يستعلمون اخبار يوسف واخيه بنيامين .

والتحسس يكون فى الخير ، والتجسس يستعمل فى الشر .

ونَهَّضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله ، أى : لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يَرُومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ، ويقطع الإياس(٣) من الله إلا القوم الكافرون .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٧١٥ : ١٦/٢٢٧ .
(٢) كذا ، ولم نجد « حفص بن عمر بن أبى الزبير » ، ولعله : « حفص بن عمر ، عن أبى الزبير » .
(٣) كذا والنص غير مستقيم .

وقوله (فلما دخلوا عليه) ، تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا بلد مصر ، ودخلوا على يوسف ، (قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر) ، يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام ، (وجئنا ببضاعة مُزجاة) ، أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره ، وهو ثمن قليل . قاله مجاهد ، والحسن ، وغير واحد .

وقال ابن عباس: الردىء لا يَنفُق، مثل خَلَق(١) الغرارة ، والحبل ، والشئ : وفى رواية عنه : الدراهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان : وكذا قال قتادة ، والسدى .

وقال سعيد بن جبير : هى الدراهم الفسول (٢) .

وقال أبو صالح : هو الصنوبر وحبة الخضراء .

وقال الضحاك : كاسدة لا تنفق .

وقال أبو صالح : جاءوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصنوبر (٣) .

وأصل الإزجاء : الدفع لضعف الشىء ، كما قال حاتم الطائى :

لِيَبْكِ عَلَى مِلْحَانَ ضَيفٌ مُدَفَّعٌ • وَأَرمَلَةٌ تُزْجِى مَعَ الليلِ أَرْمَلَا(٤)

وقال أعشى بنى ثعلبة :

الوَاهِبُ المائةَ الهِجَانَ وعَبدَها • عُوذاً تُزَجِّى خَلْفَها أَطْفَالَها (٥)

وقوله إخبارا عنهم : (فأوف لنا الكيل) ، أى : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك .

وقرأ ابن مسعود :

(فأوقِرْ ركابنا وتصدق علينا) .

وقال ابن جريج :

(وتصدق علينا) بِرَدِّ أخينا إلينا .

وقال سعيد بن جبير والسدى : (وتصدق علينا) ، يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتَجوَّز فيها(٦) .

وسُئل سفيان بن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ألم تسمع قوله : (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين) . رواه ابن جرير عن الحارث ، عن القاسم ، عنه (٧) .

---

(١) الخلق – بفتحتين – : البالى ، ولا ينفق : لا يروج .

(٢) الفسول : جمع فسل – بفتح فسكون – وهو الردىء من كل شىء .

(٣) البطم – بضم فسكون – : شجر الحبة الخضراء .

(٤) البيت فى تفسير الطبرى : ١٦/٢٣٥ ، واللسان مادة : رمل .
والمدفع والمتدافع : المحقور الذى لا يضيف . والأرملة : التى لا زوج لها . يقول الطبرى : يعنى أنها تسوقه بين يديها على ضعف منه عن المشى وعجز .

(٥) البيت فى تفسير الطبرى : ١٦/٢٣٥ ، وكتاب سيبويه : ١/٩٤ . والمقتضب للمبرد : ٤/١٦٣ .
والهجان : الإبل البيض . وعوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة الحديثة النتاج .

(٦) تفسير الطبرى ، الآثار : ١٩٧٥٤ – ١٩٧٥٦ : ١٦/٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٧٨٦ : ١٦/٢٤٢ .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا القاسم ، حدثنا مروان بن معاوية ، عن عثمان بن الأسود : سمعت مجاهدا وسئل : هل يكره أن يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق علىّ ؟ فقال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب (١) .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوسف عليه السلام : أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبَدَرَه (٢) البكاء ، فتعرف إليهم ،يقال : إنه رفع التاج عن جبهته ، وكان فيها شامة ، وقال : (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) ؟ يعني : كيف فرقوا بينه وبينه (إذ أنتم جاهلون) ، أي : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ : (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) ... إلى قوله : (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) .

والظاهر — والله أعلم — أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه ، بإذن الله له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك ، والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرّج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : (فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً)(٣) ، فعند ذلك قالوا : (أئنك لأنت يوسف) : ؟

وقرأ أبي بن كعب : (أو أنت يوسف)(٤) ، وقرأ ابن محيصن : (إنك لأنت (٤) يوسف) . والقراءة المشهورة هي الأولى ؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام ، أي : إنهم تعجّبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : (أئنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخي) (قد من الله علينا) ، أي : بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ، (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة أيضا — على قول من لم يجعلهم أنبياء— وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه .

(قال : لا تثريب عليكم اليوم) ، يقول : لا تأنيب عليكم ولا عتْب عليكم اليوم ، ولا أعيد ذنبكم في حقي بعد اليوم .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٩٧٨٨ : ٢٤٣/١٦ .
(٢) أي : عجل إليه البكاء . يقال : بدره ، وبدر إليه .
(٣) سورة الشرح ، آية : ٥ ، ٦ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٤٥/١٦ ، والبحر المحيط لأبي حيان : ٣٤٢/٦ .

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

قال السدى : اعتذروا إلى يوسف ، فقال : (لاتثريب عليكم اليوم) ، يقول : لا أذكر لكم ذنبكم .

وقال ابن إسحاق والثورى : (لا تثريب عليكم) ، أى : لا تأنيب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم (يغفر الله لكم) ، أى : يستر الله عليكم فيما فعلتم ، (وهو أرحم الراحمين) .

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ، (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) ، وكان قد عَمِىَ من كثرة البكاء ، (وأتونى بأهلكم أجمعين) ، أى : بجميع بنى يعقوب .

(ولما فصلت العير) ، أى : خرجت من مصر ، (قال أبوهم) — يعنى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه : (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنّدون) ، تنسبونى إلى الفَنَد والكِبَر .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبى سنان ، عن عبد الله بن أبى الهذيل قال : سمعت ابن عباس يقول : (ولما فصلت العير) ، قال : لما خرجت العير ، هاجت ريح فجاءت يعقوبَ بريح قميص يوسف فقال : (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) ، قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية (١) أيام .

وكذا رواه سفيان الثورى ، وشعبة ، وغيرهما عن أبى سنان ، به .

وقال الحسن وابن جُريج : كان بينهما ثمانون فرسخا ، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة (٢) .

وقوله : (لولا أن تفندون) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبير : تُسَفّهون .

وقال مجاهد أيضا ، والحسن : تُهرّمون .

وقولهم : (إنك لفى ضلالك القديم) ، قال ابن عباس : لفى خطئك القديم .

وقال قتادة : أى مِنْ حُبِّ يوسف لاتنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمةً غليظة ، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبى الله صلى الله عليه وسلم (٣) . وكذا قال السّدى ، وغيره .

قال ابن عباس والضحاك : (البشير) البريدُ .

وقال مجاهد ، والسدى : كان يهوذا بن يعقوب .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٨١٢ : ١٦ / ٢٥١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٨١٣ ، ١٩٨١٤ : ١٦/ ٢٥١
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٨٥٠ : ١٦/ ٢٥٧ .

قال السدى : إنما جاء به لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأراد أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه ، فرجع بصيرا .

وقال لبنيه عند ذلك : (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) ، أى : أعلم أن الله سيرده إلى ، وقلت لكم : (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) ؟ . فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له : (يا أبانا ، استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال : سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) ، أى : من تاب إليه تاب عليه .

قال ابن مسعود ، وإبراهيم التيمى ، وعمرو بن قيس ، وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر .

وقال ابن جرير : حدثنى أبو السائب ، حدثنا ابن إدريس ، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع إنسانا يقول : « اللهم دعوتنى فأجبتُ ، وأمرتنى فأطعتُ ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لى » . قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود . فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله : (سوف أستغفر لكم ربى)(1) .

وقد ورد فى الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة ، كما قال ابن جرير أيضا : حدثنى المثنى ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى ، حدثنا الوليد ، أنبأنا ابن جريج ، عن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سوف أستغفر لكم ربى) ، يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه(2) » .

وهذا غريب من هذا الوجه ، وفى رفعه نظر ، والله أعلم .

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن وُرود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر [الملك] أمراءه وأكابر الناس بالخروج [مع يوسف] لتلقى نبى الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه ، وهو الأشبه .

وقد أشكل قوله : (آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر) على كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ، ومعنى الكلام : (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ، وآوى إليه أبويه ، ورفعهما على العرش .

---

(1) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٨٧٠ : ٢٦١/١٦ .

(2) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٨٧٥ : ٢٦٢/١٦ .

وقد رد ابن جرير هذا ، وأجاد في ذلك . ثم اختار ما حكاه عن السُدّى : أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال : (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين (١)) .

وفى هذا نظر أيضا ، لأن الإيواء إنما يكون فى المنزل ، كقوله : (آوى إليه أخاه) ، وفى الحديث : « من آوى محدثا (٢) » ، وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه : (ادخلوا مصر) ، وضمّنه : اسكنوا مصر (إن شاء الله آمنين) ، أى : مما كنتم فيه من الجهد والقحط ، ويقال — والله أعلم — إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم ، كما رفع بقية السنين التى دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة حين قال : « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » ، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه ، وأرسلوا أبا سفيان فى ذلك ، فدعا لهم ، فرُفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام(٣) .

وقوله : (آوى إليه أبويه) ، قال السدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديما .

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ؛

قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها (٤) ؛ وهذا الذى نصره هو المنصور الذى يدل عليه السياق .

وقوله : (ورفع أبويه على العرش) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى السرير ، أى : أجلسهما معه على سريره .

(وخروا له سجدا) ، أى : سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلا ، (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) ، أى : التى كان قصها على أبيه (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) .

وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا فى هذه الملة ، وجُعِل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى .

هذا مضمون قول قتادة وغيره .

وفى الحديث أن معاذا قدم الشام ، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ فقال : إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ، وانت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ! فقال : « لو كنت

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ٢٦٦/١٦ .

(٢) البخارى ، كتاب الفرائض ، باب « إثم من تبرأ من مواليه » : ١٩٢/٧ . ومسلم ، كتاب العتق ، باب « تحريم تولى العتيق غير مواليه » : ٢١٧/٤ .

(٣) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب « الدعاء على المشركين » : ١٠٤/٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٦٧/١٦ .

آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها (١) » .

وفى حديث آخر : أن سلمان لقى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض طُرُق المدينة ، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام ، فسجد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت » .

والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم ، ولهذا خروا له سُجَّداً فعندها قال يوسف : (يا أبت ، هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً) ، أى هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، كما قال تعالى : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) (٢) ، أى : يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر .

وقوله : (قد جعلها ربى حقا) ، أى : صحيحة صِدْقاً ، يذكر نعم الله عليه ، (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) ، أى : البادية .

قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل بادية وماشية – وقال : كانوا يسكنون بالعَرَبات من أرض فلسطين(٣) ، من غور الشام – قال : وبعض يقول : كانوا بالأولاج من ناحية شِعْب أسفلَ من حِسْمَى(٤) ، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل (٥) .

(من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء) ، أى : إذا أراد أمراً قيَّض له أسبابا ويسره وقدره ، (إنه هو العليم) بمصالح عباده (الحكيم) فى أفعاله وأقواله ، وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده .

قال أبو عثمان النهدى ، عن سلمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة(٦) .

قال عبد الله بن شداد : وإليها ينتهى أقصى الرؤيا . رواه ابن جرير (٧) .

وقال أيضا : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا هشام ، عن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ، ثمانون سنة ، لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجرى على خديه ، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب(٨) .

وقال هشيم ، عن يونس، عن الحسن : ثلاث وثمانون سنة .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٣٨١/٤ ، وابن ماجه فى كتاب النكاح « باب حق الزوج على المرأة » ، الحديث ١٨٥٣ : ٥٩٥/١ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٣ .

(٣) فى تفسير الطبرى عن ابن إسحاق : « بالعربات من أرض فلسطين ، ثغور الشام » .

(٤) حسمى – بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، مقصورا – : أرض ببادية الشام ، بينها وبين وادى القرى ليلتان . (مراصد الاطلاع) .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٣١ ، ١٩٩٣٤ : ٢٧٥/١٦ ، ٢٧٦ .

(٦) ينظر الآثار فى ذلك عن سلمان الفارسى فى تفسير الطبرى : ٢٧١/١٦ .

(٧) آثار عبد الله بن شداد فى ذلك فى تفسير الطبرى : ٢٧٢/١٦ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٢٢ : ٢٧٣/١٦ .

وقال مبارك بن فضالة ، عن الحسن : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، فغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ، فمات وله عشرون ومائة سنة .

وقال قتادة : كان بينهما خمس وثلاثون سنة .

وقال محمد بن إسحاق : ذُكر والله أعلم — أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة — قال : وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ، ثم قبضه الله إليه .

وقال أبو إسحاق السَّبيعى ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : دخل بنو إسرائيل مصر ، وهم ثلاثة وستون إنسانا ، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا (١) .

وقال أبو إسحاق ، عن مسروق : دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة : والله أعلم .

وقال موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القُرَظى ، عن عبد الله بن شداد : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر . وهم ستة وثمانون إنسانا ، صغيرهم وكبيرهم ، وذَكَرهم وأنثاهم ، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف (٢) .

* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما مَنّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه . قاله الضحاك ، وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ، كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يرفع أصبعه عند الموت ، ويقول : « اللهم فى الرفيق الأعلى ، اللهم فى الرفيق الأعلى ، اللهم فى الرفيق الأعلى » (٣) .

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله ، وانقضى عمره ، لأنه سأل ذلك منجزاً ، كما يقول الداعى لغيره : « أماتك الله على الإسلام » . ويقول الداعى : « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين » .

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٣٧ : ١٦/٢٧٦ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٣٥ : ١٦/٢٧٦ .
(٣) البخارى ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذا خليلا » : ٥/٩ . ومسلم كتاب السلام ، باب « استحباب رقية المريض » : ٧/١٥ .

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغا فى ملتهم، كما قال قتادة قوله: (توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين)، لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور فى الدنيا(١) وملكها وغضارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف عليه السلام(٢).

وكذا ذكر ابن جرير، والسدى عن ابن عباس: أنه أول نبى دعا بذلك: وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحا أول من قال: (ربّ اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا)(٣)، ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز فى شريعتنا.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لابدّ متمنيا الموت فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى(٤)».

[وأخرجاه فى الصحيحين، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَان بن رفاعة، حدثنى على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكَّرنا ورقَّقنا، فبكى سعد بن أبى وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتنى مت! فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا سعد أعندى تتمنى الموت؟ فردّد ذلك [ثلاث] مرات، ثم قال: يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال عمرك، أو حَسُن من عملك، فهو خير لك(٦)».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس ــ هو سُلَيم بن جُبَير، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعونّ به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وَثِق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره(٧) إلا خيراً(٨)» تفرد به أحمد.

وهذا فيما إذا كان الضر خاصا به، أما إذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدّدهم بالقتل: (قالوا: ربنا، أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)(٩)، وقالت

(١) لفظ الطبرى: «مغموس فى نبت الدنيا».
(٢) تفسير الطبرى، الأثر ١٩٩٤٢: ١٦/٢٧٩.
(٣) سورة نوح، آية: ٢٨.
(٤) مسند الإمام أحمد: ٣/١٠١.
(٥) ما بين القوسين المعقوفين غير ثابت فى مخطوطة الأزهر، ولعله سقط نظر، وقد أثبتناه عن الطبعات السابقة. والحديث فى صحيح البخارى، وبعضه من رواية أنس بن مالك، وبعضه الآخر من رواية أبى هريرة، ينظر كتاب المرضى، باب «تمنى المريض الموت»: ٧/١٥٦، ١٥٧. ومسلم، كتاب الذكر، باب «كراهة تمنى الموت»: ٨/٦٤.
(٦) مسند الإمام أحمد: ٥/٢٦٦، ٢٦٧.
(٧) فى المخطوطة: «لا يزيد المؤمن عمله». والمثبت من المسند.
(٨) مسند الإمام أحمد: ٢/٣٥٠، من حديث طويل.
(٩) سورة الأعراف، آية: ١٢٦.

مريم لما أجاءها المخاض ، وهو الطلق ، إلى جذع النخلة (يا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا) ، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة ، لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت ، فيقول القائل أنى لها هذا ؟ ولهذا واجهوها أولا بأن قالوا (يا مريم ، لقد جئت شيئا فريا.يا أخت هرون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا)(١) فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا ، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله ، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه . وفي حديث معاذ ، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي ، في قصة المنام والدعاء الذي فيه : « وإذا أردت بقوم فتنة ، فتوفني إليك غير مفتون (٢) »

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة ، أنا عبد العزيز بن محمد ، عن عمرو عن عاصم عن عمر بن قتادة (٣) ، عن محمود بن لبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اثنتان يكرههما ابن آدم الموت ، والموت خير للمؤمن [من الفتنة](٤) ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب (٥) » .

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال : اللهم ، خذني إليك ، فقد سئمتهم وسئموني .

وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان : اللهم ، توفني إليك .

وفي الحديث : « إن الرجل ليمر بالقبر — أي في زمان الدجال — فيقول : ياليتني مكانك (٦) » ، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون .

قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ، استغفر [لهم] أبوهم ، فتاب الله عليهم وعفا عنهم ، وغفر لهم ذنوبهم .

[ذكر من قال ذلك]

حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج ، عن صالح المري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال :

---

(١) سورة مريم ، آية : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ٣٦٨/١ ، وعن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٦٦/٤ ، ٣٧٨/٥ ، وعن معاذ بن جبل : ٢٤٣/٥ ، وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة ص ، الحديث ٣٢٨٦ : ١٠١/٩ — ١٠٥ .

(٣) في المخطوطة : « عن عمرو بن عاصم ، عن كثير بن قتادة » . وهو خطأ ، والمثبت عن مسند الإمام أحمد ، وينظر التهذيب ، ترجمة عاصم بن عمر بن قتادة : ٥٣/٥ ، وترجمة عمرو بن أبي عمرو : ٨٢/٨ ، ٨٣ .

(٤) ما بين القوسين عن المسند .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤٢٧/٥

(٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ، باب « شدة الزمان » عن أبي هريرة ، الحديث ٤٠٣٧ : ١٣٤٠/٢ ، ولفظه : « والذي نفسي بيده ! لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر ، فيتمرغ عليه ، ويقول : ياليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدين ، إلا البلاء » .

إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله ، [وأقر عينه (١)] خلا ولده نجياً(٢) ، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم ، وما لقى منكم الشيخ ، وما لقى منكم يوسف ؟ قالوا : بلى . قال : فيغركم عفوهما عنكم ، فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا : يا أبانا ، إنا أتيناك فى أمر ، لم نأتك فى مثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله . حتى حركوه ، والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية ، فقال : مالكم يا بنىّ ؟ قالوا : ألست قد علمت ما كان منا إليك ، وما كان منا إلى أخينا يوسف ؟ قال : بلى . قالوا : أو لستما قد عفوتما ؟ قالا : بلى . قالوا : فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئا ، إن كان الله لم يعف عنا . قال : فما تريدون يا بنى ؟ قالوا : نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرّت أعيننا ، واطمأنت قلوبنا ، وإلا فلا قرة عين فى الدنيا أبداً لنا . قال : فقام الشيخ فاستقبل القبلة ، وقام يوسف خلف أبيه ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين . قال: فدعا وأمّن يوسف ، فلم يُجبْ فيهم عشرين سنة — قال صالح المرّى : يخيفهم— قال : حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام على يعقوب فقال : إن الله بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك ، وأنه قد عفا عما صنعوا ، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة(٣) .

هذا الأثر موقوف عن أنس ، ويزيد الرقاشى وصالح المرى ضعيفان جداً .

وذكر السدى : أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت ، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات صبّره(٤) وأرسله إلى الشام ، فدفن عندهما عليهم السلام .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه — لما قص عليه نبأ إخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام : هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ، (نوحيه إليك) ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ، (وما كنت لديهم) حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم (إذ أجمعوا أمرهم) ، أى : على إلقائه فى الجب ، (وهم يمكرون) به ، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك ، وإنزالا عليك ، كما قال تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون)(٥) وقال تعالى : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) . إلى أن

---

(١) مكانه فى المخطوطة : « ء بعينيه » . والمثبت من تفسير الطبرى .

(٢) أى : خلا بعضهم يتناجون ويتسارون الحديث .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٤٨ : ١٦ / ٢٨١ .

(٤) لفظ السدى كما فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٥٠ : « فلما مات نفخ فيه المر » وكأن معنى صبره : دهنه بالصبر — بفتح فكسر — وهو : عصارة شجر مر ، لحفظ جسده من التعفن .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ٤٤ .

قال : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) (١) ، قال : (وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين(٢))وقال :(ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين) (٣) .

يقرر تعالى أنه رسوله ، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم ؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ، وقال : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) (٤) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : (وما تسألهم عليه من أجر) ، أى: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أى من جُعَالة ولا أجرة على ذلك ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحا لخلقه .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) ، أى : يتذكرون به ويهتدون ، وينجون به فى الدنيا والآخرة .

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

يخبر تعالى عن [غفلة] أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم فى الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوانات ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات ، فى الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذى الأسماء والصفات .

وقوله : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ، قال ابن عباس : من إيمانهم ، إذا قيل لهم : من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا : « الله » ، وهم مشركون به (٥) . وكذا قال مجاهد ، وعطاء وعكرمة ، والشعبى ، وقتادة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وهكذا فى الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . وفى الصحيح : أنهم كانوا إذا قالوا : « لبيك لا شريك لك » يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ قَدْ » ، أى حَسْبُ حَسْبُ ، لا تزيدوا على هذا (٦) .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٤٦ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٤٥ .
(٣) سورة « ص » ، آية : ٦٩ ، ٧٠ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١٦ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٥٤ : ١٦ / ٢٨٦ .
(٦) مسلم ، كتاب الحج ، باب « التلبية وصفتها ووقتها » : ٨/٤ .

وقال الله تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) ، وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره ، كما فى الصحيحين ، عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك (١) » .

وقال الحسن البصرى فى قوله :(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ، قال :ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله ذاك ، يعنى قوله تعالى : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

وثمّ شركٌ آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه– أو : انتزعه (٢) –ثم قال : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » : رواه الترمذى وحسّنه من رواية ابن عمر (٣) .

وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرُّقَى والتَّمائم والتِّوَلة شِرْك (٤) » .

وفى لفظ لهما : « [الطِّيَرَة شرك] وما منّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل (٥) » .

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن يحيى الجزار ، عن ابن أخى ، زينب [عن زينب] امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحُمْرَة (٦) فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبى ، فرأى فى عنقى خيطا ، قال : ما هذا الخيط ؟ قالت ، قلت : خيط رُقِى لى فيه ، قالت : فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياءُ عن الشرك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك . قالت ، قلت له : لم تقول هذا وقد كانت عينى تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ، قال : إنما ذاك من الشيطان (٧) . كان ينخسها بيده ، فإذا رقيتها كف

---

(١) البخارى ، تفسير سورة البقرة : ٦ / ٢٢ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده » : ١ / ٦٣ .

(٢) وإنما فعل ذلك لظنه أن المريض يتوهم أن هذا السير له أثر فى إزالة المرض عنه .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب النذور ، الحديث ، ١٥٧٤ : ٥ / ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « فى تعليق التمائم » ، الحديث ٣٨٨٣ : ٤ / ٩ ومسند الإمام أحمد : ١ / ٣٨١ . والتولة – بكسر التاء وفتح الواو – : ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره ، جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « فى الطيرة » الحديث ، ٣٩١٠ : ٤ / ١٧ ، ومسند الإمام أحمد : ١ / ٣٨٩ .

(٦) الحمرة – بضم فسكون – : داء يعترى الناس ، فيحمر موضعها ، وتغالب بالرقية . (لسان العرب ، مادة : حمر) .

(٧) لفظ المسند : « إنما ذلك عمل الشيطان » .

عنها . إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما(١) » .

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد ، عن وكيع ، عن ابن أبى ليلى ، عن عيسى بن عبد الرحمن قال : دخلنا على عبد الله بن عُكَيم ، وهو مريض نعوده ، فقيل له : تَعَلَّقتَ شيئا ؟ فقال : أتعلق شيئا ! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تَعَلَّق شيئا وكل إليه(٢) » . ورواه النسائى عن أبى هريرة .

وفى مسند الإمام أحمد ، [من حديث] عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من علَّق تميمة فقد أشرك(٣) » — وفى رواية : « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تَعلَّق ودَعَةً فلا وَدَعَ الله له(٤) » .

وعن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول : قال الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشِرْكه » . رواه مسلم(٥) .

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، ينادى منادٍ : من كان أشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » . رواه أحمد(٦) .

وقال الإمام أحمد حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، عن يزيد — يعنى ابن الهاد — عن عمرو ، عن محمود بن لبيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » (٧) ؟

وقد رواه إسماعيل بن جعفر(٨) ، عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، به .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٨١ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٣١٠
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤ / ١٥٦ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤ / ١٥٤ .
والودع — بفتحتين ، وبفتح فسكون — : جمع ودعة ، وهو شىء أبيض يجلب من البحر ، يعلق فى حلوق الصبيان وغيرهم . وإنما نهى عنها لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين . ومعنى « لا ودع الله له » ، أى : لا جعله فى دعة وسكون .
(٥) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « من أشرك فى عمله غير الله » : ٨ / ٢٢٣ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٢١٥ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٤٢٨ .
(٨) كذا قال «رواه إسماعيل بن جعفر» . وهو فى المسند من غير طريق إسماعيل ، فقد رواه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن ابن أبى الزناد عن عمرو ، المسند : ٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ . وقد وقع فى المخطوطة : « عن عاصم بن عمرو عن قتادة » وهو خطأ ظاهر ، والصواب من المسند .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، أنبأنا ابن لهيعة ، أنبأنا ابن هبيرة ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رَدّته الطِّيَرَةُ من حاجة، فقد أشرك . قالوا : يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول أحدهم: اللهم لاخير إلاخيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك »(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العَرْزَمى ، عن أبي على ــ رجل من بنى كاهل ــ قال : خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال : يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل . فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [ذات يوم] فقال : « أيها الناس ، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم إنا نعوذ بك [من] أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه (٢) » .

وقد رُوى من وجه آخر ، وفيه أن السائل فى ذلك هو الصدّيق ، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى ، من حديث عبد العزيز بن مسلم ، عن ليث بن أبي سليم ، عن أبي محمد ، عن معقل بن يسار قال : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم : أو قال حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل . فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلها آخر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل . ثم قال ألا أدلك على ما يُذهِب عنك صَغير ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم ، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوى ، عن شيبان بن فروخ ، عن يحيى بن كثير ، عن الثورى ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا . قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟ فقال : ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئتَ من قليله وكثيره وصغيره وكبيره ؟ قال : بلى ، يا رسول الله . قال : قل : اللهم ، إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

قال الدارقطنى : يحيى بن كثير هذا يقال له « أبو النضر » ، متروك الحديث .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وصححه والنسائى ، من حديث يعلى بن عطاء ، سمعت عمرو بن عاصم(٣)، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: يا رسول الله ، علمنى شيئا أقوله إذا أصبحتَ ، وإذا أمسيتُ ، وإذا أخذت مضجعى . قال : قل : اللهم ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، شر الشيطان وشركه (٤) »

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٢٢٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٤٠٣ .

(٣) فى المخطوطة : « عمرو بن عاص » . والمثبت من مسند الإمام أحمد ، وسنن أبي داود . وهو عمرو بن عاصم بن سفيان ابن عبد الله . ينظر ترجمته فى الجرح : ٣ / ١ / ٢٥٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١ / ٩ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « ما يقول إذا أصبح » الحديث ٥٠٦٧ : ٣١٦/٤ ، ٣١٧ .

وزاد أحمد فى رواية له من حديث ليث بن أبى سليم ، [عن مجاهد] ، عن أبى بكر قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول ... فذكر هذا الدعاء وزاد فى آخره وأن أقترف على نفسى سُوءاً أو أجُرّه إلى مسلم(١) » .

وقوله : (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) ، أى : أفأمن هؤلاء المشركون أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون ، كما قال تعالى : (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون • أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين • أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم(٢)) ، وقال تعالى : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنابياتا وهم نائمون • أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون • أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون(٣)) .

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين : الإنس والجن ، آمراً له أن يخبر الناس : أن هذه سبيله أى طريقه ومسلكه وسنته ، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، يدعو إلى الله بها على بَصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، هو وكلّ من اتبعه ، يدعو إلى مادعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان شرعى وعقلى .

وقوله : (وسبحان الله) ، أى : وأنزّه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه ، عن أن يكون له شريك أو نظير ، أو عديل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة ، أو وزير أو مشير ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كلّه علوا كبيراً ، (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً(٤)) .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسلَ رسُلَه من الرجال لامن النساء . وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة : أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بنى آدم وَحى تشريع .

وزعم بعضهم : أن سارة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه(٥)) ... الآية ، وبأن الملك جاء

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١ / ١٤ .
(٢) سورة النحل ، الآيات : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .
(٣) سورة الأعراف ، الآيات : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .
(٥) سورة القصص ، آية : ٧ .

إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام ، وبقوله تعالى : (إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين • يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين(١)) .

وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف ، فهذا لاشك فيه ، ويبقى [الكلام] معه فى أن هذا : هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذى عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنهم : أنه ليس فى النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال : (ما المسيح ابنُ مريمَ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام(٢)) ، فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام ، فهى صديقة بنص القرآن .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ، أى : ليسوا من أهل السماء كما قلتم . وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق (٣)) ... الآية ، وقوله تعالى : (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين • ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين(٤)) ، وقوله تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل(٥)) ... الآية .

وقوله (من أهل القرى) ، المراد بالقرى المدن ، لا أنهم من أهل البوادى ، الذين هم أجفى الناس طباعا وأخلاقا ؛ وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعا ، وألطف من أهل سوادهم(٦) ، وأهل الريف والسواد اقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى ، ولهذا قال تعالى : (الأعراب أشد كفرا ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) .

وقال قتادة فى قوله : (من أهل القرى) ، لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود(٧) .

وفى الحديث الآخر : أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ناقة] فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد هَمَمْتُ أن لا أتّهِبَ هبَةً إلا من قرشى ، أو أنصارى ، أو ثقفى ، أو دَوْسِىّ »(٨) .

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٧٥ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٢٠ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٨ ، ٩ .
(٥) سورة الأحقاف ، آية : ٩ .
(٦) السواد : هو ما حول المدينة من القرى ، ومنه سواد الكوفة والبصرة : أى قراها .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٩٩٨٥ : ١٦ / ٢٩٣ .
(٨) مسند الإمام أحمد : ١/٢٩٥ ، ٢ / ٢٤٧ . وقد سبق تخريجه أيضا فى سورة « براءة » ، عند الآية ٩٧ : ٤/١٤١ . ومعنى « أتهب » : أقبل هدية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن يحيى بن وثاب ، عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال الأعمش : هو [ابن(١)] عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم (٢) » .

وقوله (أفلم يسيروا في الأرض) ، [يعني : هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ،] (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) ، أي : من الأمم المكذبة للرسل ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها ، كقوله : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ، فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى : (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) ، أي : وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضا ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٣)) .

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال : (ولدار الآخرة) ، كما يقال : « صلاة الأولى » ، « ومسجد الجامع »، « و عام الأول » ، « وبارحة الأولى » ، « ويوم الخميس » . قال الشاعر :

أتَمْدَحُ فَقْعَساً وَتَذُمّ عَبْساً ... ألا لله أمُّكَ مِنْ هَجِينِ(٤)
وَلَو أقْوَتْ(٥) عَلَيْكَ دِيارُ عَبْسٍ ... عَرَفْتَ الذّلَّ عِرْفانَ اليَقِينِ(٦)

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك ، كما في قوله تعالى : (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) . وفي قوله « كذبوا » قراءتان ، أحداهما بالتشديد : (قد كُذّبوا) ، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها ، قال البخاري :

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين عن مسند الإمام أحمد .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٤٣ ، ورواه الإمام أحمد أيضاً من وجه آخر عن يزيد ، عن سفيان بن سعيد ، عن الأعمش : ٥ / ٣٦٥ .

(٣) سورة غافر ، آية : ٤٠ ، ٤١ .

(٤) الهجين : ولد العربي لغير العربية .

(٥) أقوت الدار : خلت من سكانها .

(٦) البيتان والأمثلة المتقدمة في تفسير الطبري : ١٦ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، وذكر ذلك الفراء من قبل في كتابه معاني القرآن ، وقد كان الفراء يرى جواز إضافة الاسم إلى مرادفه إذا اختلف لفظ المتضافين ، مثل (دار الآخرة) فالدار هي الآخرة ، ولكن جازت الإضافة لما اختلف لفظ المضاف والمضاف إليه ، وقد ورد مثل هذا الأسلوب كثيراً في اللغة العربية .

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح ، عن ابن شهاب قال : أخبرني عروةُ بن الزبير عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله : (حتى إذا استيأس الرسل) ، قال قلت : أكُذِبوا أم كُذّبوا ؟ فقالت عائشة : كُذّبوا فقلت : فقد استيقنوا أن قومهم قد كذّبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ، لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، (حتى إذا استيأس الرسل) ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال : أخبرنا عروة فقلت: لعلها قد كُذِبوا مخففة ؟ قالت : معاذ الله . انتهى ما ذكره(١) .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن أبي مليكة : أن ابن عباس قرأها : (وظنوا أنهم قد كُذِبوا) خفيفة ــ قال عبد الله هو ابن أبي مليكة : ثم قال لي ابن عباس : كانوا بشراً، وتلا ابن عباس :(حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ــ قال ابن جريج : وقال لي ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة عن عائشة : أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت : ما وعد الله محمداً صلى الله عليه وسلم من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أنّ من معهم من المؤمنين قد كذّبوهم ــ قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها (وظنوا أنهم قد كُذّبوا) مثقلة ، للتكذيب(٢) .

وقال ابن أبي حاتم : أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، أنا ابن وهب ، أخبرني سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال : إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) ، فقال القاسم : أخبره عني أني سمعت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) ، تقول : كذبتهم أتباعهم . إسناد صحيح أيضا .

والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها ، فقال ابن عباس ما تقدم . وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله أنه قرأ : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا) ، مخففة ، قال عبد الله : هو الذي تكره (٣) .

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش ، عن مسلم ، عن ابن عباس في قوله : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا)، قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذّبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ، (فنجّي من نشاء(٤)) .

وكذا روى عن سعيد بن جبير ، وعمران بن الحارث السلمي ، وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة ، والعوفي، عن ابن عباس بمثله .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا عارم أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا شعيب ، حدثنا إبراهيم بن أبي حُرَّة الجَزَرِيّ قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله ، كيف هذا الحرف ، فإني إذا

---

(١) البخاري ، تفسير سورة يوسف : ٦ / ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٠٣٠ : ١٦ / ٣٠٧ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٠٢٥ : ١٦ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٩٩٨٧ : ١٦ / ٢٩٦ .

أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) ؟ قال : نعم ، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل كَذَبوا . فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ ! ! لو رحلت فى هذه إلى اليمن كان قليلا(١) .

ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر : أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب ، فقام إلى سعيد فاعتنقه ، وقال : فرَّج الله عنك كما فرَّجت عنى(٢) .

وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك . وكذا فسرها مجاهد بن جَبْر، وغير واحد من السلف ، حتى إن مجاهدا قرأها: (وظنوا أنهم قد كَذَبوا) ، بفتح الذال . رواه ابن جرير (٣)، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله : (وظنوا أنهم قد كَذَبوا) إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم ، أى : وظن الكفار أن الرسل قد كَذَبوا — مخففة — فيما وعدوا به من النصر .

وأما ابن مسعود فقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن جَحش بن زياد الضبى ، عن تميم بن حَذْلَم قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول فى هذه الآية : (حتى إذا استيأس الرسل) من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا ، بالتخفيف(٤) .

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك ، وانتصر لها ابن جرير ، ووجَّه المشهور عن الجمهور ، وزيف القول الآخر بالكلية ، وردَّه وأباه ، ولم يقبله ولا ارتضاه ، والله أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

يقول تعالى : لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ، (عبرة لأولى الألباب) وهى العقول ، (ما كان حديثا يفترى) ، أى : وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أى : يكذب ويختلق ، (ولكن تصديق الذى بين يديه) ، أى : من الكتب المنزلة من السماء ، وهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ، (وتفصيل كل شىء) ، من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجلية ، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان : (هُدًى ورحمة لقوم يؤمنون) تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد ، ومن الضلالة إلى السداد ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، فى هذه الحياة الدنيا والمعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة ، ويرجع المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة .

(آخر تفسير سورة يوسف ، ولله الحمد والمنه وبه المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل)

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٠٠٨ : ١٦ / ٣٠٠ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٠٠٩ : ١٦ / ٣٠١ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٠٣٥ : ١٦ / ٣١٠ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٠١٨ : ١٦ / ٣٠٣ .

تفسير سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تقدم فى أول سورة البقرة ، وقدَّمنا أن كل سورة تُبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ، ولهذا قال : (تلك آيات الكتاب) ، أى : هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن ، وقيل : التوراة والإنجيل . قاله مجاهد وقتادة (١) ، وفيه نظر ، بل هو بعيد .

ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله (والذى أنزل إليك) ، أى : يا محمد ، (من ربك الحق) ، خبر تقدم مبتدؤه ، وهو قوله : (والذى أنزل إليك من ربك) ، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة ، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا ، واستشهد بقول الشاعر :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ولَيثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ (٢)

وقوله : (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ، كقوله : (وما أكثر الناس ولو حرَصْتَ بمؤمنين) ، أى : مع هذا البيان والجلاء والوضوح ، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق ، والعناد والنفاق .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذى بإذنه وأمره رَفَع السموات بغير عمَد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها [فى نفسها] مسيرة خمسمائة عام . ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية ، بما فيها ، وبينها وبينها خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال تعالى : (الله الذى خلق

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٠٤٧ ، ٢٠٠٤٨ : ١٦ / ٣٢٠ .

(٢) معنى البيت فى : ١ / ٦٧ ، ٤٣٣ . وهو فى تفسير الطبرى : ٣ / ٣٥٣ ، ١٦ / ٣٢١ ، ولا يُعرف قائله .

سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما(١)) ، وفى الحديث : « ما السمواتُ السبع ومافيهنّ وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسى فى العرْش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة » ، وفى رواية : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » : وجاء عن بعض السلف أن بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو من ياقوته حمراء .

وقوله : (بغير عَمَد ترونها) ، روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : أنهم قالوا : لها عَمَد ، ولكن لا ترى(٢) .

وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة(٣) ، يعنى بلا عمد ، وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق . والظاهر من قوله تعالى : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه(٤)) ، فعلى هذا يكون قوله : (ترونها) تأكيدا لنفى ذلك ، أى : هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها : وهذا هو الأكمل فى القدرة : وفى شعر أمية ابن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه(٥) ، كما ورد فى الحديث : ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ورضى عنه :

وأنتَ الذى مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيا
فقلت له : يا اذهَبْ وهارونَ فادعُوَا ... إلى الله فرْعَونَ الذى كانَ طَاغياً
وَقُولاَ لَه : هَلْ أنتَ سَوَّيت هَذه ... بلا[وَتَد (٦)حتَّى اطمأنَّتْ كَمَا هِيَا]
[وقُولاَ لَه : آأنتَ رَفَّعتَ هَذه(٦) ... بلا]عَمَدٍ أرْفِقْ إذَا(٧) بِكَ بَانِيَا؟
وَقُولاَ لَه : هَل أنتَ سَوَّيتَ وَسْطَهَا ... مُنيراً إذا ما جَنَّكَ اللَّيلُ هاديا
وقُولا له : مَنْ يُرسِلُ الشَّمس غُدوةً ... فيُصبحَ مامَسَّتْ مِنَ الأرْضِ ضَاحِيَا
وَقُولا له : مَن يُنبت الحَبَّ فى الثَّرَى ... فيُصبحَ مِنْه العُشب(٨) يَهْتَزّ رَابِيَا
وَيُخْرِج مِنْه حَبَّه فى رُءُوسه ... فَفِى ذَاكَ آياتٌ لِمَن كانَ وَاعِيَا(٩)

---

(١) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .

(٢) ينظر تفسير الطبرى : ١٦ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٠٥٩ : ١٦ / ٣٢٥ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٦٥ .

(٥) ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١ / ٤٥٩ .

(٦) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من سيرة ابن هشام .

(٧) قال السهيلى فى الروض الأنف ١ / ١٤٩ : « أرفق : فعل تعجب ، وبك فى موضع رفع ، لأن المعنى : رفقت ، وبانيا : تمييز ، لأنه يصلح أن يجر بمن ، كما تقول : أحسن بزيد من رجل » .

(٨) فى سيرة ابن هشام : « فيصبح منه البقل » .

(٩) الأبيات فى سيرة ابن هشام منسوبة إلى زيد بن عمرو بن نفيل : ١ / ٢٢٨ .

وقوله : (ثم استوى على العرش) ، تقدم تفسير ذلك فى سورة « الأعراف »(١) ، وأنه يُمَرَّر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا .

وقوله : (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) ، قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كما فى قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم(٢)) .

وقيل : المراد إلى مستقرهما ، وهو تحت العرش مما يلى [بطن] الأرض من الجانب الآخر ، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش ، لأنه على الصحيح(٣) الذى تقومُ عليه الأدلة قبة مما يلى العالم من هذا الوجه ، وليس بمحيط كسائر الأفلاك ، لأنه له قوائم وحَمَلَة يحملونه . ولا يتصوَّر هذا فى الفلك المستدير ، وهذا واضح لمن تَدَبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة ، التى هى أشرف وأعظم من الثوابت ، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخلَ فى التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى والأحرى ، كما نبه بقوله تعالى : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون(٤)) ، مع أنه قد صرح بذلك بقوله : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين(٥)) .

وقوله : (يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ، أى : يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه .

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوى، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى ، فقال: (هو الذى مد الأرض) ، أى : جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، من كلّ زوجين اثنين، أى : من كل شكل صنفان .

---

(١) ينظر تفسير سورة الأعراف الآية ، ٥٤ : ٣ / ٤٢٢ .

(٢) سورة يس ، آية : ٣٨ .

(٣) الصحيح أن يفوض معناه إلى الله ، كما فوض معنى الاستواء ، فقد تعارضت فيه الأقوال وتضاربت .

(٤) سورة فصلت ، آية : ٣٧ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .

(يغشى الليل النهار) ، أى : جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، فإذا ذهب هذا غَشِيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتصرف أيضا فى الزمان كما تصرف أيضا فى المكان والسكان .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ، اى : فى آلاء الله وحكمته ودلائله .

وقوله : (وفى الأرض قطع متجاورات) ، أى : أراض يجاور بعضها بعضا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سَبَخَة مالحة لاتنبت شيئا . هكذا رُوى(١) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك وغيرهم .

وكذا يدخل فى هذه الآية اختلافُ ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات . فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولارب سواه .

وقوله : (وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيل) ، يحتمل أن تكون عاطفة على (جنات) ، فيكون (وزرعٌ ونخيل) مرفوعين . ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب ، فيكون مجرورا . ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة(٢) .

وقوله : (صنوان وغير صنوان) ، الصنوان : هى الأصول المجتمعة فى منبت واحد ، كالرمان والتين وبعض النخيل ، ونحو ذلك . وغير الصنوان : ما كان على أصل واحد ، كسائر الأشجار ، ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه ، كما جاء فى الحديث الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر : أما شَعَرْتَ أن عَمّ الرجل صِنْو أبيه(٣) ؟ .

وقال سفيان الثورى ، وشعبة ، عن أبى إسحاق ، عن البراء رضى الله عنه : الصنوان(٤) هى النخلات فى أصل واحد ، وغير الصنوان المتفرقات . وقاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقوله : (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) - قال الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) ، قال : « الدَّقَل(٥) والفارسى ، والحُلْو الحامض » ، رواه الترمذى وقال : حسن غريب(٦) .

أى : هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع ، فى أشكالها وألوانها ، وطعومها وروائحها ، وأوراقها وأزهارها . فهذا فى غاية الحلاوة ، وذا فى غاية الحموضة ، وذا فى غاية المرارة ، وذا عَفِص(٧) ، وهذا عذب ، وهذا جَمَع هذا

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٦ / ٣٣١ - ٣٣٣ .
(٢) ذكر ذلك الطبرى فى تفسيره : ١٦ / ٣٣٤ .
(٣) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فى تقديم الزكاة ومنعها » : ٣ / ٦٨ .
(٤) ينظر تفسير الطبرى ، الآثار : ٢٠٠٨٩ - ٢٠٠٩١ : ١٦ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
(٥) الدقل - بفتحتين - : ردىء التمر ويابسه . والفارسى : نوع من التمر .
(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الرعد ، الحديث ٥١٢٢ : ٨ / ٥٤٤ . وقد رواه الطبرى فى تفسيره ، الأثر ٢٠١٢٦ : ١٦ / ٣٤٤ .
(٧) العفوصة : المرارة .

وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى ، وهذا أصفر ، وهذا أحمر ، وهذا أبيض، وهذا أسود ، وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة ، وهو الماء ، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط ، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار ، الذى بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على مايريد ، ولهذا قال تعالى : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

* وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : (وإن تعجب) من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء ، فكوّنها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالمين خلقا جديدا ، وقد اعترفوا وشاهدوا ماهو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم : (أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد)، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه ، كما قال تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يَعْىَ بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير (١)) .

ثم نعت المكذّبين بهذا فقال : (أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم) ، أى: يُسْحَبُون بها فى النار ، (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى : ماكثون فيها أبدا ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

يقول تعالى : (ويستعجلونك) ، أى : هؤلاء المكذبون (بالسيئة قبل الحسنة) ، أى : بالعقوبة ، كما أخبر عنهم فى قوله : (وقالوا يا أيها الذى نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وماكانوا إذا منظرين (٢)) . وقال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٣)) ، وقال : (سأل سائل بعذاب واقع (٤)) ، وقال (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق (٥)) ، (وقالوا :

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .
(٢) سورة الحجر ، الآيات : ٦ ــ ٨ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) سورة المعارج ، آية : ١ .
(٥) سورة الشورى ، آية : ١٨ .

ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب(١)) أى حسابنا و عقابنا ، كما قال مخبرا عنهم : (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(٢)) فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله ، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم

قال الله تعالى : (وقد خلت من قبلهم المثلات)، أى : قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة ، كما قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة (٣)) .

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) ، أى :إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف ، كما قال تعالى : (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين (٤)) ، وقال : (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم (٥)) ، وقال : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم (٦)) ، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفوُ الله وتجاوُزه ما هنأ أحداً العيش(٧) ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كلّ أحد » .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الزيادى(٨) . أنه رأى رب العزة فى النوم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بين يديه يشفع فى رجل من أمته ، فقال له : ألم يكفك أنى أنزلت عليك فى سورة الرعد : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) ؟ قال : ثم انتبهت .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا : لولا يأتينا بآية [من ربه] كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن يزيل عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجا وأنهاراً قال الله تعالى : (وما منعنا

---

(١) سورة « ص » ، آية : ١٦ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .

(٣) سورة فاطر ، آية : ٤٥ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٤٧ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٦٧ .

(٦) سورة الحجر ، آية : ٤٩ ، ٥٠ .

(٧) يقال : « هنأنى الطعام يهنؤنى » : ساغ لى ولذ ، وأكلته هنيئاً مريئاً بلا مشقة .

(٨) فى المخطوطة : « الرمادى » ، والمثبت عن المشتبه للذهبى : ٣٤٠ ، وينظر ترجمة الحسن بن عثمان الزيادى فى العبر للذهبى ١ / ٤٣٧ .

أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً (١))

قال الله تعالى : (إنما أنت منذر) ، أي : إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، و(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء (٢)) :

وقوله : (ولكل قوم هاد) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، أي : ولكل قوم داع (٣) :

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى تفسيرها يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادى كل قوم (٤) . وكذا قال : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك :

وعن مجاهد : (ولكل قوم هاد) ، أي : نبي : كما قال : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٥)) : وبه قال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد .

وقال أبو صالح ، ويحيى بن رافع : (ولكل قوم هاد) ، أي : قائد :

وقال أبو العالية : الهادى القائد ، والقائد الإمام ، والإمام العمل (٦) :

وعن عكرمة ، وأبي الضحى : (ولكل قوم هاد) قالا : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال مالك : (ولكل قوم هاد) ، مَن يدعوهم إلى الله عز وجل .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثني أحمد بن يحيى الصوفى ، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى ، حدثنا معاذ بن مسلم بياع الهرويُ عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) ، قال : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ، وقال : أنا المنذر ، ولكل قوم هاد : وأومأ بيده إلى منكب عليّ ، فقال : أنت الهادى يا على ، بك يهتدى المهتدون من بعدى (٧) » :

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة (٨) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا المطلب بن زياد ، عن السدى ، عن عبد خير ، عن على : (ولكل قوم هاد) ، قال : الهادى رجل من بنى هاشم : قال الجُنَيد : هو على بن أبي طالب رضى الله عنه :

قال ابن أبي حاتم : وروى عن ابن عباس ــ فى إحدى الروايات ــ وعن أبي جعفر محمد بن على ، نحوُ ذلك :

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٥٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٦٢ : ١٦/٣٥٧ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٤٦ : ١٦/٣٥٥ .

(٥) سورة فاطر ، الآية : ٢٤ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٥٩ : ١٦/٣٥٦ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٦١ : ١٦/٣٥٧ .

(٨) ساق الحديث الذهبى فى ميزان الاعتدال ١/٤٨٤ ، فى ترجمة الحسن بن الحسين وقال : « رواه بن جرير فى تفسيره ، عن أحمد بن يحيى ، عن الحسن ، عن معاذ . ومعاذ نكرة ، فلعل الآفة منه .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى : (ويعلم ما فى الأرحام) ، أى : ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقى أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره ، كما قال تعالى : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى(١)) .

وقال تعالى : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث(٢)) ، أى : خلقكم طورا من بعد طور ، كما قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين(٣)) ؛ وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن خَلْق أحدكم يُجْمَع فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُبْعَث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات : بكَتْب رزقه ، وعمره ، وعمله ، وشقى أو سعيد(٤) » .

وفى الحديث الآخر : « فيقول الملك : أىْ ربّ، أذكر أم أنثى ؟ أىْ ربّ، أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ، ويكتب الملَك (٥) »

وقوله : (وما تغيض الأرحام وما تزداد) ـــ قال البخارى حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا مَعن ، حدثنا مالك ، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطرُ أحدٌ إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله (٦) »

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وما تغيض الأرحام) ، يعنى السِّقْط ـــ (وما تزداد) ، يقول : ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، و[منهن] من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد فى الحمل ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى(٧) ؛

---

(١) سورة النجم ، آية : ٣٢ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٦ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآيات : ١٢ - ١٤ .

(٤) البخارى ، كتاب القدر : ٨/١٥٢ . ومسلم ، كتاب القدر أيضاً ، باب « كيفية الخلق الآدمى ... » : ٨/٤٤ .

(٥) أخرجاه فى كتاب القدر ، البخارى : ٨/١٥٢ ، ومسلم : ٨/٤٦ .

(٦) البخارى ، تفسير سورة الرعد : ٦/٩٩ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٦٤ : ١٦/٣٥٩ .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : (وما تغيض الأرحام وما تزداد) ، قال : ما نقصت من تسعة وما زاد عليها .

وقال الضحاك : وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين ، وولدتنى وقد نبتت ثَنيَّتى .

وقال ابن جريج ، عن جميلة بنت سعد ، عن عائشة قالت لا يكون الحمل أكثر من سنتين ، قدر ما يتحرك ظلُّ مِغْزَل(١) .

وقال مجاهد (وما تغيض الأرحام وما تزداد) ، قال : ما ترى من الدم فى حملها ، وما تزداد على تسعة أشهر . وبه قال عطية العوفى وقتادة ، والحسن البصرى ، والضحاك .

وقال مجاهد أيضا إذا رأت المرأة الدم دونَ التسعة زادَ على التسعة ، مثل أيام الحيض وقاله عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وابن زيد .

وقال مجاهد أيضا : (وما تغيض الأرحام) : إراقة المرأة حتى يخسّ الولد ــ (وما تزداد) ، إن لم تَهرِق المرأةِ تم الولد وعَظُم(٢) .

وقال مكحول : الجنين فى بطن أمه لا يطلب ، ولا يحزن ولا يغتم ، وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها ، فمن ثم لا تحيض الحامل . فإذا وقع إلى الأرض استهل ، واستهلاله استنكار لمكانه ، فإذا قطعت سرته حوّل الله رزقه إلى ثديى أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم ، ثم يصير طفلا يتناول الشىء بكفه فيأكله ، فإذا هو بلغ قال : هو الموت أو القتل ، أنَّى لى بالرزق ؟ فيقول مكحول : يا ويلك . غذّاك وأنت فى بطن أمك ، وأنت طفل صغير ، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت : هو الموت أو القتل ، أنى لى بالرزق ؟ . ثم قرأ مكحول : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار)

وقال قتادة : (وكل شىء عنده بمقدار) ، أى : بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم ، وجعل لذلك أجلا معلوما .

وفى الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم بعثت إليه : أن ابناً لها فى الموت ، وأنها تحب أن يحضرَه . فبعث إليها يقول : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكلّ شىء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب(٣) الحديث بتمامه .

وقوله : (عالم الغيب والشهادة) ، أى : يعلم كل شىء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شىء ، (الكبير) ، الذى هو أكبر من كل شىء ، (المتعال) ، أى : على كل شىء ، قد أحاط بكل شىء علما ، وقهر كل شىء ، فخضعت له الرقاب ودان له العباد ، طوعا وكرها .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٩١ : ١٦/٣٦٤ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠١٧٢ : ١٦/٣٦٠ .
(٣) البخارى ، كتاب القدر ، باب « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » : ٨/١٥٣ . ومسلم ، كتاب الجنائز ، باب « البكاء على الميت » : ٣/٣٩ .

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، سواء منهم من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه ، لا يخفى عليه شيء كما قال : (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى (١)) ، وقال : (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : سبحان الذى وَسع سمعُه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى جنب البيت ، وإنه ليخفى علىّ بعض كلامها ، فأنزل الله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (٢)) .

وقوله : (ومن هو مستخف بالليل) ، أى : مختف فى قَعْر بيته فى ظلام الليل ، (وسارب بالنهار) ، أى : ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما فى علم الله على السواء ، كما قال تعالى : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون (٣)) ، وقال تعالى : (وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين (٤)) .

وقوله : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، أى : للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حَرَس بالليل وحَرَس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان ، كما جاء فى الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون (٥) » . وفى الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم (٦) »

---

(١) سورة طه ، آية : ٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٨٨ : ١/٦٧ ، والإمام أحمد فى مسنده :٦/٤٦

(٣) سورة هود ، آية : ٥ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٦١ .

(٥) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٤ ، ١٧٤ .

(٦) أخرجه الترمذى فى أبواب الاستئذان والآداب عن ابن عمر ، ينظر تحفة الأحوذى ، باب « ما جاء فى الاستتار عند الجماع » الحديث ٢٩٥٢ : ٨/٨٤ . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

ومعنى « استحيوهم » ، أى : استحيوا منهم ، « وأكرموهم » ، يعنى بالتغطى وغيره مما يوجب تعظيمهم وتكريمهم .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من [أمر] الله والمعقبات من أمر الله ، وهى الملائكة (١) .

وقال عكرمة ، عن ابن عباس : (يحفظونه من أمر الله) ، قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه (٢) .

وقال مجاهد : مامن عبد إلا له ملَك موكّل ، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال الملك : وراءك ، إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه (٣) .

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) ، قال : ذلك ملَك من ملوك الدنيا ، له حرس من دونه حرس (٤) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) ، يعنى ولىّ الشيطان ، يكون عليه الحرس (٥)
وقال عكرمة فى تفسيرها : هؤلاء الأمراء ، المواكب من بين يديه ومن خلفه (٦) .

وقال الضحاك : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، قال : هو السلطان المحترس من أمر الله ، وهم أهل الشرك (٧) .

والظاهر — والله أعلم — أن مُرَاد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم .

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال :

حدثنى المثنى ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القُشَيرى ، حدثنا على بن جرير ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال : « ملك على يمينك على حسناتك ، وهو آمر (٨) على الذى على الشمال ، إذا عملت حسنة كتبت عشرا ، فإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين : أكتب ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله ويتوب ، فإذا قال ثلاثا قال : نعم ، اكتب ، أراحنا الله منه ، فبئس القرين . ما أقل مراقبته لله

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢١٥ : ١٦/٣٧١ ، وما بين القوسين المعقوفين منه .
(٢) المرجع السابق ، الأثر ٢٠٢١٦ : ١٦/٣٧١ .
(٣) المرجع نفسه ، الأثر ٢٠٢٢٤ : ١٦/٣٧٢ ، ٣٧٣ .
(٤) المرجع نفسه ، الأثر ٢٠٢٢٦ : ١٦/٣٧٣ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٢٧ : ١٦/٣٧٣ .
(٦) هذان أثران رواهما الطبرى عن عكرمة ، أولهما « هؤلاء الأمراء » ، والثانى : « المواكب من بين يديه ومن خلفه » ، ينظر تفسير الطبرى ، الأثر : ٢٠٢٢٨ ، ٢٠٢٢٩ : ١٦/٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٣٠ : ١٦/٣٧٤ .
(٨) فى تفسير الطبرى : « وهو أمين » بالنون ، وفى الطبعات السابقة : « وهو أمير » . والمثبت عن مخطوطه الجامع الأزهر

وأقل استحياءه منا . يقول الله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، وملكان من بين يديك ومن خلفك ، يقول الله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، وملك قابض على ناصيتك ، فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا تجبّرتَ على الله قصمك . وملكان على شفتيك ، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد — صلى الله عليه وسلم — وملك قائم على فيك لا يدَع الحية أن تدخل فى فيك ، وملكان على عينيك . فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى (١) ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار ، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار ، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى (١) ، وإبليس بالنهار وولده بالليل (٢) » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا سفيان ، حدثنى منصور ، عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ، قال : « وإياى ولكن أعاننى الله عليه ، فلا يأمرنى إلا بخير (٣) »

انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وقوله : (يحفظونه من أمر الله) ، قيل : المراد حفظُهم له من أمر الله . رواه على بن أبى طلحة ، وغيره ، عن ابن عباس (٥) . وإليه ذهب مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخَعى ، وغيرهم .

وقال قتادة : (يحفظونه من أمر الله) — قال : وفى بعض القراءات (يحفظونه بأمر الله (٦)) .

وقال كعب الأحبار : لو تجلّى لابن آدم كل سهل وحزن ، لرأى كل شىء من ذلك شياطين (٧) لولا أن الله وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم ، إذاً لتُخُطِّفتم (٨) .

وقال أبو أمامة : مامن آدمى إلا ومه ملك يذُود عنه ، حتى يسلمه للذى قُدّر له (٩) .

وقال أبو مِجْلَز : جاء رجل من مُرَاد إلى على رضى الله عنه وهو يصلى ، فقال : احترس ، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك . فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر ، فإذا جاء القَدَرُ خلّيا بينه وبينه ، وإن الأجل جُنَّةٌ حَصينة (١٠) .

---

(١) فى المخطوطة : « على كل بنى آدم » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢١١ : ١٦/٣٧٠ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٧ . وينظر أيضاً : ١/٣٨٥ ، ٤٠١ ، ٤٦٠ .
(٤) مسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب « تحريش الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً » : ٨/١٣٩ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٣١ : ١٦/٣٧٥ .
(٦) المرجع السابق ، الأثر ٢٠٢٤٠ : ١٦/٣٧٦ .
(٧) فى المخطوطة : « من ذلك شيئاً نفسه » . والمثبت من تفسير الطبرى
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٤٦ : ١٦/٣٧٨ .
(٩) تفسير الطبرى ، ٢٠٢٤٨ : ١٦/٣٧٨ .
(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٤٧ : ١٦/٣٧٨ .

وقال بعضهم : (يحفظونه من أمر الله) : بامر الله ، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله ، أرأيت رُقى نسترقى بها ، هل ترد من قَدَر الله شيئا ؟ فقال : هى من قَدَر الله (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، عن أشعث ، عن جهم ، عن إبراهيم قال : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل : أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون ، ثم قال : إن مصداق ذلك فى كتاب الله : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع ، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتابه « صفة العرش » : حدثنا الحسن بن على ، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمى ، حدثنا أبو حنيفة اليمانى الأنصارى ، عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا سكتّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل قال : قال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ، مامن أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتى ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى ، إلا تحولت لهم مما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى »(٢) .

وهذا غريب ، وفى إسناده من لا أعرفه .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى يسخر البرق ، وهو : ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب .

وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبى الجَلْد يسأله عن « البرق » فقال : « البرق » (٢) . الماء .

وقوله : (خوفا وطمعا) ، قال قتادة : خوفا للمسافر ، يخاف أذاه ومشقته ــ وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله (٣) .

(وينشىء السحاب الثقال) ، أى : ويخلقها منشأة جديدة ، وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض .

قال مجاهد : والسحاب الثقال : الذى فيه الماء

(ويسبح الرعد بحمده) ، كما قال تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده (٤)) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب الطب ، باب « ما جاء فى الرقى والأدوية » ، الحديث ٢١٤٤ : ٦/٢٣٢ ، ٢٣٣ وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » . وأخرجه أيضاً فى أبواب القدر ، باب « ما جاء : لا ترد الرقى والدواء من قدر الله شيئاً » ، الحديث ٢٢٣٨ : ٦/٣٦٠ . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » ، الحديث ٣٤٣٧ : ٢/١١٣٧ والإمام أحمد فى مسنده : ٤/٤٢١ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٥١ : ١٦/٣٨٧ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٥٢ : ١٦/٣٨٧ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرني أبي قال : كنت جالساً إلى جنب حُمَيد بن عبد الرحمن في المسجد ، فمر شيخ[١] من بني غفار ، فأرسل إليه حميد ، فلما أقبل قال : يا ابن أخي ، وسّع له فيما بيني وبينك ، فإنه قد صَحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه ، فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال الشيخ : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله ينشيء السحاب ، فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك [٢] » .

والمراد – والله أعلم – أن نطقَها الرعدُ ، وضحكها البرقُ .

وقال موسى بن عبيدة ، عن سعد بن إبراهيم قال : يبعث الله الغيث ، فلا أحسن منه – مضحكا ، ولا آنس منه منطقا ، فضحكه البرق ، ومنطقه الرعد .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي ، عن محمد بن مسلم قال : بلغنا أن البرق مَلَكٌ له أربعة وجوه : وجه إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نسر ، ووجه أسد ، فإذا مَصَع بذنبه [٣] فذاك البرق [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الحجاج ، حدثني أبو مطر ، عن سالم ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سَمع الرعْد والصواعق قال : « اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تُهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك [٥] » .

ورواه الترمذي [٦] ، والبخاري في كتاب الأدب ، والنسائي في اليوم والليلة ، والحاكم في مستدركه ، من حديث الحجاج بن أرطاة ، عن أبي مطر – ولم يسم به –

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبي هريرة ، رفع الحديث قال : إنه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يُسبِّح الرعد بحمده [٧] » .

وروِي عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان من سَبَّحتَ له . وكذا رُوِي عن ابن عباس ، والأسود بن يزيد ، وطاوس : أنهم كانوا يقولون كذلك .

وقال الأوزاعي : كان ابن أبي زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد : « سبحان الله وبحمده » لم تصبه صاعقة [٨]

---

(١) لفظ المسند : « فمر شيخ جميل من بني غفار ، وفي أذنيه صمم – أو قال : وقر – أرسل إليه حميد ... » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣٥ .

(٣) مضى تفسير هذه الكلمة في : ٣/١٩ .

(٤) هذا من خيالات أهل الكتاب .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/١٠٠ ، ١٠١ .

(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، باب « ما يقول إذا سمع الرعد » ، الحديث ٣٥١٤ : ٩/٤١٢ ، ٤١٣ . وقال الترمذي : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٢٦٠ : ١٦/٣٨٩ . وأثر علي بعده .

(٨) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٢٦٥ : ١٦/٣٩٠ .

وعن عبد الله بن الزبير : أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذى يسبّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته ، ويقول : إن هذا لوعيد شديدٌ لأهل الأرض . رواه مالك فى الموطأ(١) ، والبخارى فى كتاب الأدب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الطيالسى ، حدثنا صَدَقة بن موسى ، حدثنا محمد بن واسع ، عن شُتير ابن نهار(٢)، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال ربكم عز وجل : لو أن عبيدى(٣) أطاعونى، لأسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد (٤) » .

وقال الطبرانى : حدثنا زكريا بن يحيى السَّاجى ، حدثنا أبو كامل الجَحْدرى حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر ، حدثنا عبد الكريم ، حدثنا عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله ؛ فانه لا يصيب ذاكرا » .

وقوله : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) ، أى : يرسلها نقمةً ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر فى آخر الزمان ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا عمارة ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتى الرجل القومَ فيقول : من صَعِق تلكم(٥) الغداة ؟ فيقولون : صَعِق فلان وفلان وفلان (٦) » .

وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى :

حدثنا إسحاق ، حدثنا على بن أبى سارة الشَّيبانى ، حدثنا ثابت ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رَجُلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : اذهب ، فادعه لى . قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : من رسول الله ؟ وما الله ؟ أمِن ذهب هو ؟ أم من فضة هو ؟ أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا رسول الله ، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، قال لى كذا وكذا ؛ فقال ارجع إليه الثانية ــ أُراه ــ ، فذهب فقال له مثلها فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك . قال ارجع إليه فادعه . فرجع إليه الثالثة . قال فأعاد عليه ذلك الكلام . فبينا هو يكلمه ، إذ بعث الله عز وجل سحابة حِيال رأسه ، فرَعَدت ، فوقعت منها صاعقة ، فذهبت بقِحْف رأسه (٧) فأنزل الله : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال) .

ورواه ابن جرير (٨) ، من حديث على بن أبى سارة ، به . ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عبدة بن عبد الله ، عن يزيد بن هارون ، عن ديلم بن غزوان ، عن ثابت ، عن أنس ، فذكر نحوه ؛

---

(١) الموطأ ، كتاب الكلام ، باب القول إذا سمعت الرعد : ٩٩٢/٢ .
(٢) فى المخطوطة : « معمر بن نهار » ، والمثبت عن المسند والخلاصة .
(٣) لفظ المسند : « لو أن عبادى » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٥٩/٢ .
(٥) فى المخطوطة : « قبلكم الغداة » . والمثبت عن المسند .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٦٤/٣ ، ٦٥ .
(٧) القحف ــ بكسر فسكون ــ : أعلى الدماغ ، والجمع : أقحاف .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٧٠ : ٣٩٢/١٦ .

وقال (١) : حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا عفان ، حدثنا أبان بن يزيد ، حدثنا أبو عمران الجونى ، عن عبد الرحمن بن صُحار العبدى : أنه بلغه أن نبى الله بعثه إلى جبّار يدعوه ، فقال : أرأيتم (٢) ربكم ، أذهب هو ؟ أو فضة هو ؟ ألؤلؤ هو ؟ قال : فبينا هو يجادلهم ، إذ بعث الله سحابة فرَعَدَت ، فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقحْف رأسه ، ونزلت هذه الآية (٣) .

وقال أبو بكر بن عياش ، عن ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد قال : جاء يهودى فقال : يا محمد أخبرنى عن ربك ، [من أى شىء هو (٤)] ، من نحاس هو ؟ من لؤلؤ ؟ أو ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته ، وأنزل الله : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء (٥))

وقال قتادة : ذُكرلنا أنّ رجلا أنكر القرآن ، وكذّب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته ، وأنزل الله : (ويرسل الصواعق) ... الآية (٦) .

وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة (٧) لما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عامر بن الطفيل ــ لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا (٨) ورجالا مُرْدًا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قَيْلة (٩) : يعنى الأنصار ، ثم إنهما هما بالفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وجعل أحدهما يخاطبه ، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه ، فحماه الله منهما وعَصَمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب ، يجمعان الناس لحربه ــ عليه السلام ــ فأرسل الله على أربد سحابةً فيها صاعقة فأحرقته . وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون ، فخرجت فيه غُدّةٌ عظيمة ، فجعل يقول : يا آل عامر ، غُدّةٌ كغدّة البَكْر (١٠) وموت فى بيت سَلُولية ؟ حتى ماتا ، لعنهما الله ، وأنزل الله فى مثل ذلك : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) ، وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة ، أخو أربد يرثيه :

---

(١) يعنى الطبرى ، وسيأتى التنبيه على موضعه .

(٢) فى المخطوطة : « أرأيتكم ربكم » . والمثبت من الطبرى .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٦٦ : ٣٩١/١٦ .

(٤) ما بين القوسين المعقوفين سقط من المخطوطة ، أثبتناه من تفسير الطبرى .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٦٧ : ٣٩١/١٦ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٢٧١ : ٣٩٣/١٦ .

(٧) كذا والمعروف أنه أربد بن قيس ، وأنه أخو لبيد لأمه ، وسيأتى ذلك فى رواية الطبرانى . ينظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٢٦٨ ، وأسد الغابة : ١٢٧/٣ .

(٨) الجرد ــ بضم فسكون ــ جمع أجرد ، وهو الذى يسبق الخيل وينجرد عنه لسرعته . والمرد ــ بضم فسكون أيضاً ــ جمع أمرد ، وهو الشاب الذى طر شاربه ولم تنبت لحيته ، ويعنى بهم الفتيان الأقوياء .

(٩) قيلة ــ بفتح القاف وسكون الياء ــ امرأة ينتسب إليها الأوس والخزرج .

(١٠) البكر ــ بفتح فسكون ــ ولد الناقة ، أو الفتىّ منها .

والغدة : طاعون الإبل ، وقلما تسلم منه . وأما سلول فكما يقول الميدانى : « أقل العرب وأذلهم » ، وكان عامر قد نزل ببيت امرأة من سلول ، فيضرب هذا المثل عندهم ، وهو : « أغدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية » ، فى خصلتين إحداهما شر من الأخــرى .

وهذا المثل فى صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الرجيع : ٣٥/٥ ، وأسد الغابة ، الترجمة : ٣ ١٢٧/٣/٢٧ بتحقيقنا ، والأمثال للميدانى : ٥٧/٢ ، ٥٨ ، وأمالى السهيلى : ١٢٠ .

أخشى على أربدَ الحتوفَ ولا أرهبُ نوءَ السِّماكِ والأسدِ (١)
فجَّعني الرَّعدُ والصَّواعقَ بالـ فارسِ يومَ الكريهةِ النَّجُدِ (٢)

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا مسعدة بن سعيد (٣) العطار ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثني عبد العزيز بن عمران ، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم ، عن أبيهما ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : أن أربد بن قيس بن جَزْء بن جليد بن جعفر بن كلاب ، و عامر بن الطفيل بن مالك ، قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهيا إليه وهو جالس ، فجلسا بين يديه ، فقال عامر بن الطفيل : يا محمد ، ما تجعل لى إن أسلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم . قال عامر بن الطفيل : أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن لك أعنَّة الخيل. قال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، اجعل لى الوَبَر ولك المدَر (٤) . قال رسول الله لا . فلما قفلا من عنده قال عامر : أما والله لأملأنَّها عليك خيلا ورجالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمنعك الله . فلما خرج أربد وعامر قال عامر : يا أربد ، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث ، فاضربه بالسيف ، فإن الناس إذا قتلتَ محمدا لم يزيدوا على أن يرضَوا بالدية ، ويكرهوا الحرب [فنعطيهم الدية] : قال أربد : افعل . فأقبلا راجعين إليه ، فقال عامر : يا محمد ، قم معى أكلمك . فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلسا إلى الجدار ، ووقف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه ، وسَلَّ أربدُ السيف ، فلما وضع يده على السيف يَبِست يده على قائم السيف ، فلم يستطع سَلَّ السيف ، فأبطأ أربد على عامر بالضرب ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع ، فانصرف عنهما . فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كانا بالحَرَّة — حَرَّة واقم (٥) — نزلا ، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير فقالا : اشخصا يا عدوَّى الله ، لعنكما الله ; فقال عامر : من هذا يا سعد ؟ قال : هذا أسَيد بن حُضَير الكتَائب (٦) . فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقم (٧) ، أرسل الله على أربدَ صاعقة فقتلته ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم (٨) ، أرسل الله قُرْحَةً فأخذته ، فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول ، فجعل يمس قُرحته فى حلقه ويقول : غُدَّة كغُدَّة الجمل فى بيت

---

(١) الحتوف : الآجال . و « نوء السماك والأسد » ، يعنى السماك الأعزل ، ونوؤه أربع ليال فى تشرين الأول (شهر أكتوبر) ، وهو نوء غزير . وأما « الأسد » ، فإنه يعنى زبرة الأسد ، ونوؤها أربع ليال فى أواخر آب « شهر أغسطس » ، ويكون فى نوء الزبرة مطر شديد . ينظر كتاب الأنواء لابن قتيبة : ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ .

يقول لبيد : كنت أخشى عليه كل حتف أعرفه ، إلا هذه الحتف المفاجىء من صواعق الصيف .

(٢) يوم الكريهة : يوم الشدة فى الحرب ، والنجد — بفتح فضم — الشجاع الشديد البأس ، السريع الإجابة إلى ما دعى إليه من خير أو شر ، مع مضاء فيما يعجز عنه غيره .

وهذا الأثر رواه الطبرى برقم ٢٠٢٥٠ : ١٦/٣٧٩ — ٣٨٢ ، ٢٠٢٧٢ : ١٦/٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٣) كذا فى المخطوطة ، وفى المعجم الصغير للطبرانى ٢/١١٦ : « مسعدة بن سعد » .

(٤) يطلب عامر أن تكون له زعامة البادية ، وللرسول عليه السلام المدن والحواضر .

(٥) حرة واقم : أطم بجانب المدينة . وقد كان لأسيد بن حضير حصن بها . ينظر أسد الغابة : ١/١١٢ بتحقيقنا .

(٦) ينظر كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣١٩ .

(٧) الرقم — بفتح أوله وثانيه — : موضع بالمدينة ، وجبال بديار غطفان .

(٨) كذا فى المخطوطة دون نقط ، وفى تفسير الطبرى ١٦/٣٨١ : الجرير .

سَلُولية ترغب أن يموت في بيتها ! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا ، فأنزل الله فيهما : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام) إلى قوله : (وما لهم من دونه من وال) — قال : المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر أربد وما قتله به ، فقال : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) الآية .

وقوله : (وهم يجادلون في الله) ، أي : يشكّون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ، (وهو شديد المحال) .

قال ابن جرير : شديدة مماحَلته في عقوبة من طغى عليه وعتَا وتمادى في كفره (١) .

وهذه الآية شبيهة بقوله : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٢)) .

وعن علي رضي الله عنه . (وهو شديد المحال) ، أي : شديد الأخذ (٣) . وقال مجاهد : شديد القوة .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (له دعوة الحق) ، قال : التوحيد . رواه ابن جرير (٤) .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومالك عن محمد بن المنكدر : (له دعوة الحق) : لا إله إلا الله .

(والذين يدعون من دونه) ، أي : ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ، (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه) ، قال علي بن أبي طالب : كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده ، وهو لا يناله أبدا بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ .

وقال مجاهد (كباسط كفيه) : يدعو الماء بلسانه ، ويشير إليه [بيده (٥)] فلا يأتيه أبدا .

وقيل : المراد كقابض يده على الماء ، فإنه لا يحكم منه على شيء ، كما قال الشاعر (٦) :

فإنِّي وإيَّاكُمْ وشَوْقاً إليكمُ ... كقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسِقْهُ (٧) أنَامِلُهْ

وقال الآخر (٨) :

فأصبحْتُ ممَّا كانَ بيْني وبيْنَها ... مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ المَاءَ باليَدِ

---

(١) تفسير الطبري : ١٦/٣٩٤ .

(٢) سورة النمل ، آية : ٥٠ ، ٥١ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٢٧٣ : ١٦/٣٩٦ . وأثر مجاهد بعده .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٢٨٢ : ١٦/٣٩٨ .

(٥) ما بين القوسين عن تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٢٨٧ : ١٦/٤٠٠ .

(٦) هو ضابيء بن الحارث البرجمي ، والبيت من أبيات سبعة قالها في الحبس ومات فيه ، وقد أوردها البغدادي في خزانة الأدب : ٤/٨٠ ، ورواية الشطر الثاني فيها : * كقابض ماء لم تطعه أنامله *

(٧) في اللسان : « وسقت الشيء أسقه وسقا : إذا حملته » وذكر شاهداً على ذلك هذا البيت . ثم قال : « أي لم تحمله ، يقول : ليس في يدي شيء من ذلك ، كما أنه ليس في يد القابض على الماء شيء » .

هذا والبيت أيضاً في تفسير الطبري : ١٦/٣٩٩ .

(٨) هو الأحوص بن محمد الأنصاري ، والبيت في تفسير الطبري : ١٦/٤٠٠ ، ولم نجده في ديوانه .

ومعنى الكلام : أن هذا الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضا وإما متناولا له من بُعد ، كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه ، الذى جعله محلا للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره ، لا ينتفعون بهم أبدا فى الدنيا ولا فى الآخرة . ولهذا قال : (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء ، ودان له كل شىء . ولهذا يسجد له كل شىء طوعاً من المؤمنين ، وكرها من المشركين ، (وظلالهم بالغُدُوّ) ، أى : البُكُر والآصال (١) ، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار ، كما قال تعالى (أولم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون)(٢)

قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

يقرّر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون أنه هو الذى خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبّرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى ، (نفعا ولا ضرا) ، أى : لا تحصل منفعة ، ولا تدفع مضرة : فهل يَستوِى من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال : (قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) ، أى : أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربّ وتماثله فى الخلق ، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ؟ أى : ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شىء ولا يماثله، ولا نِدّ له ولا عِدْل له ، ولا وزير له ، ولا ولد ولا صاحبة . (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) ، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك (٣) » وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(٤)) ، فأنكر تعالى ذلك عليهم ، حيث اعتقدوا ذلك ، وهو تعالى لا يُشَفَّع عنده أحداً إلا بإذنه ، (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له (٥)) (وكم من ملك فى السموات والأرض لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)(٦)

---

(١) البكر – بضمتين – جمع بكرة – بضم فسكون – أول النهار .
(٢) سورة النحل ، آية : ٤٨ .
(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب « التلبية وصفتها ووقتها » : ٤/٨ .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٣ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .
(٦) سورة النجم ، آية : ٢٦ .

وقال : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً(١)) ، فإذاكان الجميع عبيدا ، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك ، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله ، فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ، (ولا يظلم ربك أحدا (٢)) .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : (أنزل من السماء ماء) ، أى : مطرا ، (فسالت أودية بقدرها) ، أى : أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وَسِع كثيرا من الماء ، وهذا صغير فَوَسِع بقَدْره . وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علما كثيرا ، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ، (فاحتمل السيل زبدا رابياً) ، أى : فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه ، هذا مثل ، وقوله : (ومما يوقدون عليه فى النار) ، هذا هو المثل الثانى ، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة (ابتغاء حلية) ، أى : ليجعل حليةً نحاس أو حديد ، فيجعلَ متاعا فإنه يعلوه زَبَدٌ منه ، كما يعلو ذلك زبدٌ منه . (كذلك يضرب الله الحق والباطل) ، أى : إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك فى النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال : (فأما الزبد فيذهب جفاء) ، أى : لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ، ويعلَق بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ، لا يرجع منه شىء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به . ولهذا قال : (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) ، كما قال تعالى :(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (٣)) .

قال بعض السلف : كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكَيت على نفسى ، لأن الله تعالى يقول : (وما يعقلها إلا العالمون) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) : هذا مثل ضربه الله ، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ،

---

(١) سورة مريم، الآيات : ٩٣ — ٩٥ .
(٢) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٤٣ .

وهو قوله : (فأما الزبد فيذهب جفاء) ، [وهو الشك [1]] ، (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) ، وهو اليقين ، وكما يجعل الحَلْى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خَبَثه فى النار . فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك [2] .

وقال العوفى عن ابن عباس قوله : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً) ، يقول : احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودِمْنَة [3] (ومما توقدون [4] عليه فى النار) ، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خَبَث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت . فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله ، والعمل السيىء يضمحل عن أهله ، كما يذهب هذا الزبد ، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض . وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خَبَثه ، ويخرج جيده فينتفع به . كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة ، وأقيم الناس ، وعرضت الأعمال ، فيزيغ الباطل ويهلك ، وينتفع أهل الحق بالحق [5] .

وكذلك رُوى فى تفسيرها عن مجاهد ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريًا ومائيا ، وهما قوله : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله [6]) ... الآية ، ثم قال : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق [7]) ... الآية . وهكذا ضرَب للكافرين فى سورة النور مثلين ، أحدهما قوله : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) ... الآية ، والسراب إنما يكون فى شدة الحر ، ولهذا جاء فى الصحيحين : « فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون : أىْ رَبَّنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا تَردون ؟ فَيَردُون النار فإذا هى كالسراب يَحْطِمُ بعضها بعضا [8] .

ثم قال فى المثل الآخر : (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب) ... الآية ، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها [أخرى] ، إنما هى قيعان

---

(1) ما بين القوسين المعقوفين عن تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣١١ : ١٦/ ٤١٠ .
(2) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣١١ : ١٦/ ٤١٠ .
(3) الدمنة ـ بكسر فسكون ـ : آثار الديار .
(4) كذا فى مخطوطة الأزهر : « توقدون » بالتاء . وهى قراءة ثابتة فى السبعة . ينظر البحر المحيط : ٥/ ٣٨١ .
(5) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣١٢ : ١٦/ ٤١٠ ، ٤١١ .
(6) سورة البقرة ، آية : ١٧ .
(7) سورة البقرة ، آية : ١٩ .
(8) البخارى ، تفسير سورة النساء : ٦/ ٥٦ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « معرفة طريق الرؤية » : ١/ ١١٥ ، وذلك من حديث طويل عن أبى سعيد الخدرى .

لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت (١) به » .

فهذا مثل مائى ، وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثلى ومثلكم ، كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَرَاش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها ، وجعل يحجزُهُنّ ويغلبنه فيتقحمن فيها — قال : فذلكم مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار ، هلُمّ عن النار [هلُمّ عن النار ، هلُمّ (٢)] فتغلبونى ، فتقتحمون فيها (٣) » ، وأخرجاه فى الصحيحين أيضا (٤) ، فهذا مثل نارى .

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: (للذين استجابوا لربهم) ، أى : أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم(الحسنى) ، وهو الجزاء الحسن ، كما قال تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال : (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا (٥)) ، وقال تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (٦)) .

وقوله : (والذين لم يستجيبوا له) ، أى لم : يطيعوا الله ، (لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً) ، أى : فى الدار الآخرة ، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم ؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا ، (أولئك لهم سوء الحساب) ، أى : فى الدار الآخرة ، أى : يناقشون على النقير والقطمير (٧) ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذب ، ولهذا قال : (ومأواهم جهنم وبئس المهاد) .

* ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ (١٩) ﴾

يقول تعالى : لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى (أنزل إليك) يا محمد (من ربك) هو (الحق) ، أى : الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا ، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر ،

---

(١) البخارى ، كتاب العلم ، باب « فضل من علم وعلم » : ١/٣٠ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « بيان مثل مابعث النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم » : ٧/٦٣ .

(٢) ما بين القوسين المعقوفين عن مسند الإمام أحمد .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٣١٢ من حديث طويل .

(٤) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « الانتهاء عن المعاصى » : ٨/١٢٧ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم » : ٧/٦٣ ، ٦٤ .

(٥) سورة الكهف ، آية : ٨٧، ٨٨ .

(٦) سورة يونس ، آية : ٢٦ .

(٧) النقير : النكتة التى فى النواة ، والقطمير : شق النواة ، وفى الصحاح : القطمير الفوفة التى فى النواة ، وهى القشرة الدقيقة التى على النواة والتمر . يريد أنهم سيناقشون على كل الأمور ، صغيرها وكبيرها . وضرب مثلا للصغير بالنقير والقطمير .

فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا (١)) ، أى : صدقاً فى الإخبار ، وعدلا فى الطلب ، فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه ، كما قال تعالى : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون (٢)) ، وقال فى هذه الآية الكريمة : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) ، أى : أفهذا كهذا؟ لا استواء .

وقوله : (إنما يتذكر أولو الألباب) ، أى : إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة ، بأن لهم (عقبى الدار) ، وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

(الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) ، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) ، من صلة الأرحام ، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف ، (ويخشون ربهم) ، أى : فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله فى ذلك ، ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة . فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

(والذين صبروا ابتغاء وجه الله ربهم) ، أى : عن المحارم والمآثم ، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ، (وأقاموا الصلاة) بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى ، (وأنفقوا مما رزقناهم) ، أى : على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب ، من فقراء ومحاويج ومساكين ، (سرا وعلانية) ، أى : فى السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، فى آناء الليل وأطراف النهار ، (ويدرءون بالحسنة السيئة) ، أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا ، كما قال تعالى : (ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣)) ، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله : (جنات عدن) ، والعدن : الإقامة ، أى : جنات إقامة يخلدون فيها .

(١) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ .
(٢) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .
(٣) سورة فصلت ، آية : ٣٤ ، ٣٥ .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن فى الجنة قصرا يقال له « عدن » ، حوله البروج والمروج ، فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حبَرة ، (١) لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد (٢) .

وقال الضحاك فى قوله : (جنات عدن) ، مدينة الجنة ، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد والجنات (٣) حولها . رواهما ابن جرير .

وقوله : (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ، أى : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحسانا ، كما قال تعالى : (والذين آمنوا وأتبعناهم (٤) ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل أمرىء بما كسب رهين) (٥) .

وقوله : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ، أى : وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والأنعام ، والإقامة فى دار السلام ، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

وقال الإمام أحمد، رحمه الله : حدثنا أبو عبدالرحمن ، حدثنى سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا معروف بن سويد الجذامى عن أبى عُشَّانة المعافرى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور ، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره فلا يستطيع لها قضاء — قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب، (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٦) .

ورواه أبو القاسم الطبرانى ، عن أحمد بن رشدين ، عن أحمد بن صالح ، عن عبد الله بن وهب ، عن عَمْرو ابن الحارث ، عن أبى عُشانة سمع عبد الله بن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين ، الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ

---

(١) الحبرة — بكسر ففتح — : ضرب من برود اليمن .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٤٢ : ١٦/٤٢٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٤٣ : ١٦/٤٢٤ ، ٤٢٥ ، وقد وقع فى تفسير الطبرى : « والناس حولهم بعد الجنات » . وما فى الدر المنثور للسيوطى : ٤/٥٧ ، يوافق ما هنا .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة أبى عمرو ، وباقى السبعة : (واتبعتهم) ، ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٨/١٤٩

(٥) سورة الطور ، آية : ٢١ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٨ .

حتى يموت وهى فى صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول : أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ، ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى : فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن بقية بن الوليد ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، سمعت رجلا من مشيخة الجند، يقال له «أبو الحجاج » يقول: جلست إلى أبى أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة ، وعنده سماطان(١) من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوب ، فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول [أقصى الخدم] (٢) للذى يليه : « ملك يستأذن » ، ويقول الذى يليه للذى يليه : « ملك يستأذن » ، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا . فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا ، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا . حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب ، فيفتح له ، فيدخل فيسلم ثم ينصرف . رواه ابن جرير (٣) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، عن أرطاة بن المنذر ، عن أبى الحجاج (٤) يوسف الألهانى قال : سمعت أبا أمامة .. فذكر نحوه .

وقد جاء فى الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول ، فيقول لهم : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) . وكذا أبو بكر ، وعمر ، وعثمان .

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر مالهم فى الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) ، كما ثبت فى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » ــ وفى رواية : « وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر (٥) » .

ولهذا قال : (أولئك لهم اللعنة) ، وهى الإبعاد عن الرحمة ، (ولهم سوء الدار) ، وهى سوء العاقبة والمآل ، ومأواهم جهنم وبئس القرار .

---

(١) السماط : الصف .

(٢) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٤٤ : ١٦/ ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٤) كذا ، ومثله فى تفسير الطبرى . وقد رجح السيد محقق تفسير الطبرى أنه « أبو الضحاك » لا أبو الحجاج ، ورجع فى ذلك إلى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/ ٢/ ٢٣٥ والتاريخ الكبير للبخارى .

(٥) أخرجاه فى كتاب الإيمان ، ينظر صحيح البخارى ، باب « علامة المنافق » ١/ ١٥ ، ومسلم ، باب « بيان خصال المنافق » ١/ ٥٦ .

وقال أبو العالية فى قوله : (والذين ينقضون عهد الله) ... الآية ، قال : هى ست خصال فى المنافقين إذا كان فيهم الظّهرة [١] على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض ؛ وإذا كانت الظّهْرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل . وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا ، كما قال تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون[٢]) .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة فقال : (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) ، كما قال : (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا) ، [٣] وقال : (بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى) [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس ، عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم ترجع . وأشار بالسبابة [٥] . ورواه مسلم فى صحيحه [٦] .

وفى الحديث الآخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجَدْي أسكّ ميت – والأسك : الصغير الأذنين – فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه[٧] » .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين : (لولا) ، أى : هلا (أنزل عليه آية من ربه) كما قالوا : (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون[٨]) . وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا ؛ وفى الحديث : أن الله أوحى إلى

---

(١) لم نجد « الظهرة » فيما أتيح لنا من المعاجم ، وفى اللسان : « ظهر فلان على فلان : قوى عليه » .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .
(٣) سورة النساء ، آية : ٧٧ .
(٤) سورة الأعلى ، آية : ١٦ ، ١٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٦) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة » : ٨/١٥٦ .
(٧) مسلم ، كتاب الزهد والرقائق : ٨/٢١٠ ، ٢١١ . ومسند الإمام أحمد : ٣/٣٦٥ .
(٨) سورة الأنبياء ، آية : ٥ .

رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجرى لهم ينبوعاً ، وان يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا فإنى أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : « بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة »[(١)] . ولهذا قال لرسوله : (قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب) ، أى : هو المضل والهادى ، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا ، أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه ، كما قال : (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون[(٢)]) ، وقال : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم[(٣)]) ، وقال : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون [(٤)]) ، ولهذا قال : (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) ، أى : ويهدى من أناب إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه .

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) ، أى : تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ، أى : هو حقيق بذلك .

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) ، قال ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فرح وقُرة عين[(٥)] .

وقال عكرمة : نِعْمَ مالهم .

وقال الضحاك : غبطة لَهُم .

وقال إبراهيم النخعى : خير لهم .

وقال قتادة : هى كلمة عربية ، يقول الرجل : « طوبى لك » ، أى : أصبت خيراً ، وقال فى رواية : (طوبى لهم) ، حسنى لهم .

(وحسن مآب) ، أى : مرجع .

وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (طوبى لهم) ، قال : هى أرض الجنة بالحبشية[(٦)] .

وقال سعيد بن مَسْجُوح [(٧)] طوبى اسم الجنة ، بالهندية [(٨)] ، وكذا رَوَى السدى ، عن عكرمة : (طوبى لهم) ، أى : الجنة ، وبه قال مجاهد .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس : ١/٢٤٢ .
(٢) سورة يونس ، آية : ١٠١ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٦٩ : ١٦/٤٣٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٧٤ : ١٦/٤٣٦ .
(٧) كذا ورد فى مخطوطة الأزهر ، وفى بعض ما ورد فى مخطوطة الطبرى مثله ، وفى بعضها الآخر : « مشجوج » ، وهو ما اختاره السيد المحقق فأثبته . والله أعلم .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٧٦ : ١٦/٤٣٦ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال : (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) ، وذلك حين أعجبته (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، عن جعفر ، عن شهر بن حوشب قال : (طوبى) ، شجرة فى الجنة ، كل شجر الجنة منها ، أغصانها من وراء سور الجنة (٢) .

وهكذا رُوى عن أبى هريرة ، وابن عباس ، ومغيث بن سُمَىّ ، وأبى إسحاق السبيعى وغير واحد من السلف : أن طوبى شجرة فى الجنة ، فى كل دار (٣) منها غصن منها .

وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غَرَسها بيده من حبة لؤلؤة ، وأمرها أن تمتد ، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى ، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة ، من عسل وخمر وماء ولبن .

وقد قال عبد الله بن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث ، أن دَرّاجا أبا السَّمْح حدثه ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه [مرفوعا : (طوبى) : شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، سمعت عبد الله بن لهيعة ، حدثنا دَرّاج أبو السمح ، أن أباالهيثم حدثه ، عن أبى سعيد الخدرى](٥) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، ثم طوبى ، ثم طوبى ، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها(٦) .

وروى البخارى ومسلم جميعاً ، عن إسحاق بن راهويه ، عن مغيرة المخزومى ، عن وَهيب ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة شجرةً يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » . قال : فَحَدَّثت به النعمان بن أبى عياش الزُّرَقى ، فقال : حدثنى أبو سعيد الخُدْرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكبُ الجَوَادَ المضمَّرَ (٧) السريع مائة عام ما يقطعها » (٨) .

وفى صحيح البخارى ، من حديث يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله : (وظل ممدود) قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » (٩) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٨١ : ١٦/٤٣٧ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٨٥ : ١٦/٤٣٨ .

(٣) يعنى : فى كل دار فى الجنة ، ينظر أثر مغيث بن سمى فى الطبرى : ١٦/٤٣٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٩٥ : ١٦/٤٤٣ .

(٥) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة ، وهو سقط نظر .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٧١ .

(٧) تضمير الخيل هو : أن تشد عليها سروجها وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها ، فيذهب رهلها ، ويشتد لحمها ، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ، ولا يعنفون بها . فإذا فعل ذلك بها أمن عليها انقطاع النفس عند عدوها .

(٨) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « صفة الجنة والنار » : ٨/١٤٢ ، ١٤٣ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « إن فى الجنة شجرة ... » : ٨/١٤٤ .

(٩) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ٤/١١٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج ، حدثنا فليح ، عن هلال بن على ، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرأوا إن شئتم وظل ممدود » : أخرجاه فى الصحيحين .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين ــ أو : مائة سنة ــ هى شجرة الخلد(١) » .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر سدرة المنتهى، قال: « يسير فى ظل الفَنَن(٢)منها الراكب مائة سنة ــ أو : قال ــ يستظل فى الفنن منها مائة راكب، فيها فَراش (٣) الذهب، كأن ثمرها القلال(٤) » رواه الترمذى(٥).

وقال إسماعيل بن عياش ، عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلام الأسود قال : سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، فتفتح له أكمامها ، فيأخذ من أى ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن » :

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن أشعث بن عبد الله ، عن شهر بن حوشب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : طوبى شجرة فى الجنة ، يقول الله لها : « تفتَّقى لعبدى عمَّا شاء ؛ فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها ، وعما شاء من الكسوة(٦).

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب رحمه الله : إن فى الجنة شجرة يقال لها « طوبى »، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط (٧) ، وورقها برود(٨) ، وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووَحَلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهى مجلس لأهل الجنة ؛ فبيناهم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح حسنا ، ووبرها كخز المِرْعِزّى(٩)من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس وإستبرق،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٥٥ .

(٢) الفنن ــ بفتح الفاء والنون ــ : الغصن .

(٣) الفراش ــ بفتح الفاء ــ واحده فراشة ، وهى التى تطير وتتهافت فى السراج .

(٤) القلال ــ بكسر القاف ــ : جمع قلة ، وهى إناء للشرب ، كالجرة الكبيرة .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى صفة ثمار الجنة » ، الحديث ٢٦٦٤ : ٧/٢٤٨ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٨٤ : ١٦/٤٣٨ .

(٧) الرياط : جمع ريطة ، وهى كل ثوب لين رقيق .

(٨) البرود ، جمع برد ، وهو الموشى من الثياب .

(٩) المرعزى ــ بكسر الميم ، وسكون الراء ، وكسر العين ، وفتح الزاى مشددة ــ : الزغب الذى تحت شعر العنز ، وهــو ألين الصــوف .

فينيخونها ويقولون : « إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه » . قال : فيركبونها ، فهي أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش،نجبا من غير مَهَنَة(١)، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ، ولا بَرك راحلة برك الأخرى(٢) ، حتى إن الشجرة لتتنحّى عن طريقهم ، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه ، قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : « اللهم ، أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام » . قال : فيقول تعالى [عند ذلك] : « أنا السلام ومني السلام ، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي ، مرحبا بعبادى الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمرى » . قال : فيقولون : « ربنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك ، فأذن لنا في السجود قُدامك » ؛ قال : فيقول الله : « إنها ليست بدار نصب ولا عبادة ، ولكنها دار مُلْك ونعيم ، وإنى قد رفعت عنكم نَصَب العبادة ، فسلوني ما شئتم ، فإن لكل رجل منكم أمنيته » . فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : « رب ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا » ؛ فيقول الله تعالى : « لقد قصرت بك أمنيتك ، ولقد سألت دون منزلتك ،هذا لك مني ، [وسأتحفك بمنزلتي](٣) ، لأنه ليس في عطائي نكد ولا تصريد »(٤) . قال : ثم يقول : « اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيهم ، ولم يخطر لهم على بال » ؛ قال : فيعرضون عليهم حتى تَقْصر(٥) بهم أمانيهم التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقْرنة ، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة ، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفْرَغة ، في كل قبة منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة ، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما ، ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به ، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما ، كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتنقانه(٦) به ، ويقولان له : « والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك » ؛ ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة ، حتى ينتهي بكل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له ؛(٧) .

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده ، عن وهب بن منبه ، وزاد : فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم ، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى ، وغُرف مبنية من الدر والمرجان ، وأبوابها من ذهب ، وسررها من ياقوت ،

---

(١) المهنة – بفتحات – : جمع ماهن ، مثل كاتب وكتبة ، وهو : الخادم .

(٢) كذا في مخطوطة الأزهر والطبرى ، والبرك – بفتح فسكون – : الصدر . وقد رجح السيد محقق تفسير الطبرى أن يكون الصواب : « ورك » ، لا برك . ولكنه أثبت ما أثبتناه .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبرى .

(٤) التصريد : تقليل العطاء . وفى المخطوطة : « قصريد » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٥) فى تفسير الطبرى : « حتى يقضونهم أمانيهم » . وما هنا أوجه .

(٦) فى المخطوطة : « ويعلقا به » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٩٠ : ١٦/٤٣٩ – ٤٤١ .

وفرشها من سندس وإستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضيء ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها ، فلولا أنه مسخر إذاً لالتمع (١) الأبصارَ ، فما كان من تلك القصور من الياقوت [الأبيض ، فهو مفروش بالحرير الأبيض ، وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر ، وما كان فيها من الياقوت الأخضر] ، فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان فيها من الياقوت الأصفر ، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه (٢) بالزمرد الأخضر ، والذهب الأحمر ، والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشُرُفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غُرَف من المرجان ؛ فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قُرِّبت لهم براذين من ياقوت أبيض ، منفوخ فيها الروح ، تَجَنَّبُها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حَكَمَة (٣) برذَوْن من تلك البراذين ، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء ، منظومة بالدر والياقوت ، سُرُوجها سُرُر موضونة (٤) ، مفروشة بالسندس والإستبرق . فانطلقت بهم تلك البراذين تَزِفّ (٥) بهم ببطن رياض الجنة . فلما انتهوا إلى منازلهم ، وجدوا الملائكة قُعُودا على منابر من نور ، ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامةَ ربهم ، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تَطَاوَلَ (٦) به عليهم وما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كلّ قصر من تلك القصور أربعة جنان ، [جنتان] ذواتا أفنان ، وجنتان مُدْهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات فى الخيام ، فلما تَبَيَّنُوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم : هل وجدتم ما وعدتكم حقا ؟ قالوا : نعم ، وربَّنا ، قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا ، رضينا فارض عنا . قال : برضاى عنكم حللتم دارى ، ونظرتم إلى وجهى ، وصافحتكم ملائكتى ، فهنيئاً هنيئاً لكم ، (عطاء غير مجذوذ) ، ليس فيه تنغيص ولا تَصْريد . فعند ذلك قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وأدخلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ، إن ربنا لغفور شكور .

وهذا سياق غريب ، وأثر عجيب ولبعضه شواهد ، ففى الصحيحين : أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخرَ أهل الجنة دُخولاً الجنةَ : « تمنّ » ، فيتمنى ، حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى : « تمن من كذا ، وتَمَنّ من كذا » ، يذكره ثم يقول : « ذلك لك ، وعشرة أمثاله (٧) » .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله عز وجل : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، مانقص ذلك من ملكى شيئا ، إلاكما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل فى البحر (٨) » ... الحديث بطوله ،

(١) أى : أذهب ضوءها .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى الطبعات السابقة : « مبوبة » . ولا ندرى معنى واحدة منهما .

(٣) الحكمة – بفتح الحاء والكاف – : ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه .

(٤) أى : منسوجة بالدر والجوهر ، بعضها مداخل فى بعض .

(٥) أى : تسرع بهم .

(٦) أى : تفضل به .

(٧) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « الصراط جسر جهنم » : ٨/١٤٨ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « معرفة طريق الرؤية » : ١/١١٤ .

(٨) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ٨/١٧ .

وقال خالد بن معدان : إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لها ضروع ، كلها تُرضع صبيانَ أهل الجنة ، وإن سَقَط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة ، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة ، فيبعث ابن أربعين سنة . رواه ابن أبى حاتم .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة (لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) ، أى : تبلغهم رسالةَ الله إليهم ، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كُذِّب الرسل من قَبْلك ، فلك فيهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حُلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشدُّ من تكذيب غيرك من المرسلين ، قال الله تعالى : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم (١)) وقال تعالى : (ولقد كُذِّبت رسل من قبلك ، فصَبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدِّل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين(٢)) ، أى : كيف نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : (وهم يكفرون بالرحمن) ، أى : هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لا يقرّون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » وقالوا : ماندرى ما الرحمن الرحيم ؟ قاله قتادة (٣) ، والحديث فى صحيح البخارى ، وقد قال الله تعالى : (قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن(٤) » .

(قل هو ربى لا إله إلا هو) ، أى : هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالربوبية والإلهية هو ربى لا إله إلا هو ، (عليه توكلت) ، أى : فى جميع أمورى ، (وإليه متاب) ، أى : إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله : (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) ، أى : لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض

---

(١) سورة النحل ، آية : ٦٣ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٣٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٣٩٧ : ١٦/٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٤) مسلم ، كتاب الآداب ، باب « النهى عن التكنى بأبى القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء » : ٦/١٦٩ .

وتنشق ، أو تكلم به الموتى فى قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ، (بل لله الأمر جميعاً) ، أى : مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن يهد الله فلا مضل له .

وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة ، لأنه مشتق من الجمع . قال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خُفِّفَت على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته أن تُسرج ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » (١) . انفرد بإخراجه البخارى (٢) .

والمراد بالقرآن هنا الزبور .

وقوله : (أفلم ييأس الذين آمنوا) ، أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً) ، فإنه ليس ثَمّ حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (٣) ، معناه أن معجزة كل نبى انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، أنبأنا بشر بن عمارة ، حدثنا عمر بن حسان ، عن عطية العوفى قال : قلت له : (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) ... الآية قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ؟ فأنزل الله هذه الآية . قال قلت : هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذا روى ابن عباس ، والشعبى ، وقتادة ، والثورى ، وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية ، فالله أعلم .

وقال قتادة : لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم ، فَعل ، بقرآنكم (٤) .

وقوله : (بل لله الأمر جميعاً) ، قال ابن عباس : لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ، ولم يكن ليفعل . رواه ابن إسحاق بسنده عنه ، وقاله ابن جرير أيضاً .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٣١٤ .

(٢) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب « قول الله تعالى : وآتينا داود زبوراً » : ٤/١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « بعثت بجوامع الكلم » : ٩/١١٣ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته » : ١/٩٢ ، ٩٣ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٠٤ : ١٦/٤٤٩ .

وقال غير واحد من السلف فى قوله : (أفلم ييأس الذين آمنوا) ، أفلم يعلم الذين آمنوا ؛ وقرأ آخرون ، (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً (١)) .

وقال أبو العالية : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً .

وقوله : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم) ، أى : بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، كما قال تعالى : (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون (٢)) ، وقال : (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون (٣)) ؛

قال قتادة ، عن الحسن : (أو تحل قريباً من دارهم) ، أى : القارعة (٤) . وهذا هو الظاهر من السياق .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى ، عن قتادة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس فى قوله : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) ، قال : سرية ، (أو تحل قريباً من دارهم) ، قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، (حتى يأتى وعد الله) ، قال : فتح مكة (٥) .

وهكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، فى رواية .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (تصيبهم بما صنعوا قارعة) ، قال : عذاب من السماء ينزل عليهم — (أو تحل قريباً من دارهم) ، يعنى نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله إياهم (٦) .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وقال عكرمة فى رواية عنه ، عن ابن عباس : (قارعة) ، أى : نكبة .

وكلهم قال : (حتى يأتى وعد الله) ، يعنى فتح مكة . وقال الحسن البصرى : يوم القيامة .

وقوله : (إن الله لا يخلف الميعاد) أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام (٧)) .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من قومه : (ولقد استهزئ برسل من قبلك) ، أى : فلك فيهم أسوة ، (فأمليت للذين كفروا) ، أى : أنظرتهم وأجلتهم ، (ثم أخذتهم) أخذة رابية ، فكيف بلغك ماصنعت بهم وعاقبتهم ؟ ، كما قال تعالى : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير (٨)) ، وفى الصحيحين : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد (٩)) .

---

(١) نسبها ابن جرير إلى على وابن عباس ، ينظر : ١٦/٤٥٢ .
(٢) سورة الأحقاف ، آية : ٢٧ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٤٤ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٣٧ : ١٦/٤٥٩ ، ٤٦٠ .
(٥) رواه ابن جرير عن محمد بن المثنى عن أبى داود الطيالسى بإسناده ، ينظر الأثر ٢٠٤١٨ : ١٦/٤٥٦ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٢٣ : ١٦/٤٥٧ .
(٧) سورة إبراهيم ، آية : ٤٧ .
(٨) سورة الحج ، آية : ٤٨ .
(٩) البخارى ، تفسير سورة هود : ٦/٩٣ ، ٩٤ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ٨/١٩ .

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ، أى : حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفى عليه خافية ، (وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه(١)) ، وقال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها(٢)) ، وقال : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين(٣)) ، وقال : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار(٤)) ، وقال : (يعلم السر وأخفى (٥)) ، وقال : (وهو معكم أين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير(٦)) ... أفمن هو هكذا كالأصنام التى يعبدونها ، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله : (وجعلوا لله شركاء) ، أى : عبدوها معه ، من أصنام وأنداد وأوثان .

(قل سموهم) ، أى : أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، ولهذا قال : (أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) ، أى : لا وجود له ، لأنه لو كان له وجود فى الأرض لعلمها ، لأنه لا تخفى عليه خافية .

(أم بظاهر من القول) ـ قال مجاهد : بظن من القول .

وقال الضحاك وقتادة : بباطل من القول :

أى : إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آلهة ، (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٧)) .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) ، قال مجاهد : قولهم (٨) . أى : ماهم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين (٩)) .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٦١ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٣) سورة هود ، آية : ٦ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ١٠ .
(٥) سورة طه ، آية : ٧ .
(٦) سورة الحديد ، آية : ٤ .
(٧) سورة النجم ، آية : ٢٣ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٥٢ : ١٦/٤٦٧ .
(٩) سورة فصلت ، آية : ٢٥ .

(وَصَدُّوا عن السبيل) ، من قرأها بفتح (١) الصاد ، معناه أنهم لما زين لهم مافيه وأنه حق دَعَوا إليه وصَدّوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها : (وصُدّوا) ، أى : بما زين لهم من صحة ماهم عليه صُدّوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : (ومن يضلل الله فماله من هاد) ، كما قال : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا (٢)) وقال : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ، ومالهم من ناصرين (٣)) .

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

ذكر تعالى عقابَ الكفار وثواب الأبرار : فقال بعد إخباره عن حال المشركين وماهم عليه من الكفر والشرك : (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) ، أى : بأيدى المؤمنين قتلا وأسرا ، (ولعذاب الآخرة) ، أى : المدَّخَر مع هذا الخزى فى الدنيا (أشق) ، أى : من هذا بكثير كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين : « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة (٤) » . وهو كما قال — صلوات الله وسلامه عليه — فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدا فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ووَثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولايوثق وثاقه أحد (٥)) ، وقال تعالى : (وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً . لاتدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً . قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً (٦)) .

ولهذا قرن هذا بهذا ، فقال : (مثل الجنة التى وعد المتقون) ، أى : صفتها ونعتها ، (تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : سارحة فى أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها ، يفجرونها تفجيراً ، أى : يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا كما قال تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم ، كمن هو خالد فى النار وسقوا ماءً حميا ، فقطع أمعاءهم (٧)) .

وقوله : (أكلها دائم وظلها) ، أى : فيها المطاعم والفواكه والمشارب ، لا انقطاع ولا فناء .

---

(١) نسبها الطبرى إلى عامة قراء الحجاز والبصرة ، وأما قراءة الضم فنسبها إلى عامة الكوفيين : ٤٦٧/١٦ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٤١ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٣٧ .
(٤) مسلم ، كتاب اللعان : ٢٠٧/٤ .
(٥) سورة الفجر ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .
(٦) سورة الفرقان ، الآيات : ١١ — ١٥ .
(٧) سورة محمد ، آية : ١٥ .

وفي الصحيحين ، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف ، وفيه قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت (١) فقال : « إني رأيت الجنة — أو : أريت الجنة — فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا (٢) » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا أبو عقيل ، عن جابر قال : بينا نحن في صلاة الظهر ، إذ تقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فتقدمنا ، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر . فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب : يا رسول الله ، صنعت اليوم في الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه . فقال : إني عرضت على الجنة ومافيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به ، فحيل بيني وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » .

وروى مسلم من حديث أبي الزبير ، عن جابر ، شاهدا لبعضه (٣) .

وعن عتبة بن عبد السلمي : أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة ، فقال : فيها عنب ؟ قال : نعم ، قال : فما عظم العنقود ؟ قال : مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر (٤) » : رواه أحمد .

وقال الطبراني : حدثنا معاذ بن المثنى ، حدثنا علي بن المديني ، حدثنا ريحان بن سعيد ، عن عباد بن منصور ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي أسماء ، عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم جشاء (٥) كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس » . رواه مسلم (٦) .

وروى الإمام أحمد والنسائي ، من حديث الأعمش ، عن ثمام بن عقبة ، سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم ، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : « نعم ، والذي نفس محمد بيده ، [إن الرجل منهم] ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة . قال : فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة ، وليس في الجنة أذى ؟ قال : حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم ، كريح المسك ، فيضمر بطنه (٧) » .

---

(١) أي : توقفت وأحجمت .

(٢) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « رفع البصر إلى الإمام في الصلاة » : ١/١٩٠ ، ومسلم ، كتاب الكسوف ، باب « ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار » : ٣٤/٤ .

(٣) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ٣٠/٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٨٤/٤ .

والغراب الأبقع : الذي جمع لونه بين السواد والبياض ، وقيل : ما كان في صدره بياض . وفي المسند مكان « ولا يفتر » : « ولا يعتر » ، وهو خطأ .

(٥) الجشاء — بضم الشين — : تنفس المعدة من الامتلاء .

(٦) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشية » : ١٤٧/٨ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٦٧/٤ ، وينظر أيضاً : ٣٧١/٤ .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة ، فيخر بين يديك مشويا » .

وجاء في بعض الأحاديث : أنه إذا فُرغ منه عاد طائراً [كما كان] بإذن الله تعالى .

وقد قال تعالى : (وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة(١)) ، وقال : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا(٢)) .

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا (٣)) .

وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمَّر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤) » ، ثم قرأ : (وظل ممدود) .

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ، ليرغب في الجنة ويحذّر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر ، قال بعده : (تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) ، كما قال تعالى : (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون (٥)) .

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه : عباد الله ، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم تُقُبِّلت منكم ، أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم ؟ (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون) ، والله لو عُجِّل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افتُرض عليكم ، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل (٦) [دنياكم] ، ولا تنافسون في جنة (أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين النار) ، رواه ابن أبي حاتم

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب) ، وهم قائمون بمقتضاه ، (يفرحون بما أنزل إليك) ، أي : من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ، كما قال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون (٧)) . وقال تعالى : (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) سورة الإنسان ، آية : ١٤ .
(٣) سورة النساء ، آية : ٥٧ .
(٤) مضى هذا الحديث عند الآية ٢٩ من هذه السورة ، وخرجناه هناك .
(٥) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .
(٦) في المخطوطة : « أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل » ، دون ذكر « دنياكم » ، والله أثبتنا ما في الطبعات السابقة .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٢١ .

إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)(١) ، أى : إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لحقا وصدقا مفعولا لا محالة ، وكائنا ، فسبحانه ما أصدق وعده ، فله الحمد وحده ، (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (٢)) .

وقوله : (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) ، أى : ومن الطوائف من يكذّب ببعض ما أنزل إليك .

وقال مجاهد : (ومن الأحزاب) : اليهود والنصارى ، من ينكر بعض ما جاءك من الحق (٣) . وكذا قال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وهذا كما قال تعالى : (وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ، لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب (٤)) .

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) ، أى : إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلى ، (إليه أدعو) ، أى : إلى سبيله أدعو الناس ، (وإليه مآب) ، أى : مرجعى ومصيرى .

وقوله : (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) ، أى : وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء ، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا ، شرّفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٥) .

وقوله : (ولئن اتبعت أهواءهم) ، أى : آراءهم ، (بعد ما جاءك من العلم) ، أى : من الله تعالى ، (مالك من الله من ولىّ ولا واق) . وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشريا كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشَرَاً يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ (٦)) .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٠٩ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٥٧ : ١٦/٤٧٤ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٩٩ .
(٥) سورة فصلت ، آية : ١١ .
(٦) سورة الكهف ، آية : ١١٠ .

وفى الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل الدسم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنايزيد ، أنبأنا الحجاج بن أرطاة،عن مكحول قال : قال أبو أيوب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من سنن المرسلين : التعطر ، والنكاح ، والسواك ، والحناء (٢) » .

وقد رواه أبو عيسى الترمذى ، عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غياث ، عن الحجاج ، عن مكحول ، عن أبى الشمال ، عن أبى أيوب ... فذكره ، ثم قال : وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال (٣) .

وقوله : (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) ، أى : لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ، ليس ذلك إليه ، بل إلى الله عز وجل ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

(لكل أجل كتاب) ، أى : لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها ، وكل شىء عنده بمقدار ، (ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض ، إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير) (٤) .

وكان الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله : (لكل أجل كتاب) ، أى : لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين ، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويثبت ، يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه (٥) .

وقوله : (يمحو الله ما يشاء ويثبت)،اختلف المفسرون فى ذلك،فقال الثورى ، ووكيع ، وهشيم ،(٦)عن ابن أبى ليلى ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يدبر أمر السنة ، فيمحو مايشاء ، إلا الشقاء والسعادة ، والحياة والموت . وفى رواية : (يمحوالله ما يشاء ويثبت) ، قال : [كل شىء] ، إلا الحياة والموت ،والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما .

وقال مجاهد : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ، إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ، فإنهما لا يتغيران : (٧) .

وقال منصور : سألت مجاهداً فقلت : أرأيت دعاء أحدنا يقول : « اللهم إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم ، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء » : فقال : حسن : ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر ، فسألته عن ذلك ، فقال : (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين : فيها يفرق كل أمر حكيم) ، قال : يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يغير (٨) .

---

(١) أخرجاه فى كتاب النكاح ، ينظر البخارى ، باب « الترغيب فى النكاح » : ٧/٢ ، ومسلم : ١٢٩/٤ . ولم نجد فيهما : « وآكل الدسم » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٤٢١ .

(٣) تحفة الأحوذى، أبواب النكاح ، باب « ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه »، الحديث ١٠٨٦ : ١٩٦/٤ - ١٩٩ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٧٠ .

(٥) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٦٠ : ١٦ / ٤٧٦ .

(٦) آثارهم فى تفسير الطبرى : ١٦ / ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٦٧ : ١٦ / ٤٧٩ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٤٠٧٢ : ١٦ / ٤٨٩ .

وقال الأعمش ،عن أبي وائل شقيق بن سلمة : إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه (١) واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب » . رواه ابن جرير (٢) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي ، عن أبي حكيمة عصمة ، عن أبي عثمان النَّهدى : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي : اللهم ، إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة (٣) .

وقال حماد ، عن خالد الحذاء ، عن أبي قلابة ، عن ابن مسعود : أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا (٤) .

ورواه شريك ، عن هلال بن حميد ، عن عبد الله بن عُكَيْم ، عن ابن مسعود ، بمثله (٥) .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا حجاج ، حدثنا خصاف (٦) ، عن أبي حمزة ، عن إبراهيم : أن كعبا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة . قال : وما هي ؟ قال : قال الله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب (٧)) .

ومعنى هذه الأقوال : أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ، ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، وهو الثوري ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، لا يزيد في العمر إلا البر (٨) » .

ورواه النسائي وابن ماجه ، من حديث سفيان الثوري ، به (٩) .

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر ، وفي الحديث الآخر : « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان(١٠) بين السماء والأرض » .

---

(١) في تفسير الطبري : « فامحنا » .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٧٧ : ١٦ / ٤٨١ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٧٨ : ١٦ / ٤٨١ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٨٢ : ١٦ / ٤٨٣ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٨٤ : ١٦ / ٤٨٣ .
(٦) في تفسير الطبري : « حماد ، عن أبي حمزة » . وقد رجح السيد المحقق ذلك .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٨٥ : ١٦ / ٤٨٤ .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٢٧٧ .
(٩) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « في القدر » ، الحديث ٩٠ : ١ / ٣٥ .
(١٠) أي : يتصارعان .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن سهل بن عسكر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من درة بيضاء لها دَفَّتان من ياقوت — والدفتان : لوحان — لله عز وجل [كل يوم ثلاثمائة](١) وستون لحظة ، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »(٢).

وقال الليث بن سعد ، عن زيادة بن محمد ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن فضالة بن عُبَيد ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « [إن الله](٣) يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل ، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت(٤) » ؛ وذكر تمام الحديث ، رواه ابن جرير .

وقال الكلبي : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ، قال : يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، فقيل له : من حدثك بهذا ؟ فقال : أبو صالح ، عن جابر بن عبد الله بن رئاب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس ، طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلت وشربت ، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام ، وهو صادق ، ويثبت ما كان فيه الثواب ، وعليه العقاب (٥) .

وقال عكرمة ، عن ابن عباس : الكتاب كتابان ، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب (٦) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ، يقول : هو الرجل يعمل الزمانَ بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذي يمحو — والذي يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله ، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله ، فهو الذي يثبت (٧) .

وروى عن سعيد بن جُبَير : أنها بمعنى : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) (٨) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ، يقول : يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله — (وعنده أم الكتاب) ، يقول : وجملة ذلك عنده في أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ ، وما يبدل ، وما يثبت كل ذلك في كتاب (٩) .

وقال قتادة في قوله : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ، كقوله : (ما ننسخ من آية أو نَنْسأها(١٠) نأت بخير منها أو مثلها)(١١) .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبري ، ومكانه في المخطوطة : « ثلاث » .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٥٠٤ : ١٦ / ٤٨٩ .
(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبري .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٥٠٢ : ١٦ / ٤٨٨ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٨٧ : ١٦ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٧٧ : ١٦ / ٤٨٠ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٨٢ : ١٦ / ٤٨٣ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٢٨٤ .
(٩) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٨٩ : ١٦ / ٤٨٥ .
(١٠) كذا في مخطوطة الأزهر ، وهي قراءة ثابتة . ينظر تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة ، ١ : ١٠ / ٣٢٥ ، ٣٢٩ .
(١١) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٤٩٤ : ١٦ / ٤٨٦ .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ، قال : قالت كفار قريش [حين] أنزلت : (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) ، ما نراك يا محمد تملك من شىء ، ولقد فرغ من الأمر . فأنزلت هذه الآية تخويفا ووعيداً لهم : إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ، ونحدث فى كل رمضان ، فنمحو ونثبت ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم ، وما نعطيهم ، وما نقسم لهم (١) .

وقال الحسن البصرى : (يمحو الله ما يشاء) ، قال : من جاء أجله ، فذهب ، ويثبت الذى هو حىٌّ يجرى إلى أجله(٢) .

وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله (٣)

وقوله : (وعنده أم الكتاب) ، قال : الحلال والحرام (٤) .

وقال قتادة : أى جملة الكتاب وأصله .

وقال الضحاك : (وعنده أم الكتاب) ، قال : كتاب عند رب العالمين (٥) .

وقال سُنَيد بن داود ، حدثنى معتمر ، عن أبيه ، عن سيَّار ، عن ابن عباس : أنه سأل كعباً عن « أم الكتاب » ، فقال : علِم الله ، ما هو خالق ، وما خلقُه عاملون ، ثم قال لعلمه : « كن كتابا » . فكانا كتابا (٦) .

وقال ابن جرير ، عن ابن عباس : (وعنده أم الكتاب) ، قال : الذكر (٧) .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله : (وإما نرينك) يا محمد (بعض الذى نعدهم) ، أى : نعد أعداءك من الخزى والنكال فى الدنيا ، (أو نتوفينك) قبل ذلك ، (فإنما عليك البلاغ) ، أى : إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت ما أمرت به ، (وعلينا الحساب) ، أى : حسابهم وجزاؤهم ، كما قال تعالى : (فذكر إنما أنت مذكر ● لست عليهم بمسيطر ● إلا من تولى وكفر ● فيعذبه الله العذاب الأكبر ● إن إلينا إيابهم ● ثم إن علينا حسابهم (٨)) .

وقوله : (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) ، قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض (٩) . ؟

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٩٨ : ١٦ / ٤٨٧ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٤٩٤ : ١٦ / ٤٨٦ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٦ / ٤٨٨ .
(٤) هذا القول منسوب إلى الحسن البصرى ، ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٠٦ : ١٦ / ٤٩٠ . وأثر قتادة بعده .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٠٩ : ١٦ / ٤٩٠ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥١٢ : ١٦ / ٤٩١ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥١٣ : ١٦ / ٤٩١ .
(٨) سورة الغاشية ، الآيات : ٢١ – ٢٦ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥١٤ : ١٦ / ٣٩٣ .

وقال فى رواية : أو لم يروا إلى القرية تخرب ، حتى يكون العمران فى ناحية (١) .

وقال مجاهد وعكرمة : (ننقصها من أطرافها) ، قال : خرابها .

وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين .

وقال العوفى عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها .

وقال مجاهد : نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض .

وقال الشعبى : لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُّك(٢) ، ولكن تنقص الأنفس والثمرات (٣) ؛ وكذا قال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه ، ولكن هو الموت .

وقال ابن عباس فى رواية : خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخير منها ؛ وكذا قال مجاهد أيضاً : هو موت العلماء .

وفى هذا المعنى روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم المصرى الواعظ ، سكن أصبهان حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئى(٤) بدمشق ، أنشدنا أبو بكر الآجُرى بمكة قال : أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه :

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها • متى يمتْ عالم منها يمُت طرَفُ

كالأرض تحْيا إذا ما الغيث حلّ بها • وإن أبى عاد فى أكنافها التلَفُ

والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) ﴾

يقول : (وقد مكر الذين من قبلهم) برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فمكر الله بهم ، وجعل العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) (٥) . وقال تعالى : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) (٦) الآية .

وقوله : (يعلم ما تكسب كل نفس) ، أى : إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزى كل عامل بعمله .

(وسيعلم الكافر) وقرئ : الكُفّار لمن عقبى الدار (٧) ، أى : لمن تكون الدائرة والعاقبة ، لهم أو لأتباع الرسل ؟ كلا ، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥١٩ : ١٦ / ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٢) الحش : البستان . وحيث يقضى المرء حاجته .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٢٥ : ١٦ / ٤٩٦ .

(٤) كذا فى المخطوطة ، ولم نهتد لضبط هذا الاسم .

(٥) سورة الأنفال ، آية : ٣٠ .

(٦) سورة النمل ، الآيات : ٥٠ — ٥٢ .

(٧) ينظر تفسير الطبرى : ١٦ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٥ / ٤٠١ .

﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول : ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : (لست مرسلا) ، أي : ما أرسلك الله ، (قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم) ، أي : حسبي الله ، وهو الشاهد على وعليكم ، شاهد علىّ فيما بلغتُ عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

وقوله : (ومن عنده علم الكتاب) ، قيل : نزلت في عبد الله بن سلام ، قاله مجاهد (١) .

وهذا القول غريب ، لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . والأظهر في هذا ما قاله العوفي ، عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى (٢) .

وقال قتادة : منهم ابن سلام ، وسلمان ، وتميم الداري (٣) .

وقال مجاهد — في رواية — عنه : هو الله تعالى .

وكان سعيد بن جُبَير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ، ويقول : هي مكية ، وكان يقرؤها : (ومن عنده عُلِمَ الكتابُ) ، ويقول : من عند الله (٤) .

وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري .

وقد روى ابن جرير من حديث ، هارون الأعور ، عن الزهري ، عن سالم ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها : (ومن عنده عُلِمَ الكتابُ) ، ثم قال : لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات (٥) .

قلت : وقد رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده ، من طريق هارون بن موسى هذا ، عن سليمان بن أرقم — وهو ضعيف — عن الزهري ، عن سالم ، عن أبيه مرفوعا كذلك . ولا يثبت ، والله أعلم .

والصحيح في هذا : أن (ومَنْ عنده) ، اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم المتقدمة ، من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل(٦)) ... الآية ، وقال تعالى : (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل (٧)) ... الآية . وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل : أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد في حديث الأحبار ، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة ، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب « دلائل النبوة » ، وهو كتاب جليل :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٥٣٨ : ١٦ / ٥٠٢ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٥٤٢ : ١٦ / ٥٠٢ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٥٤٣ : ١٦ / ٥٠٣ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٥٥٠ : ١٦ / ٥٠٥ .
(٥) تفسير الطبري : ١٦ / ٥٠٦ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٧) سورة الشعراء ، آية : ١٩٧ .

حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى ، حدثنا عبدان بن أحمد ، حدثنا محمد بن مُصَفّى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن محمد ابن حمزة بن يوسف ، بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه أن عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود : إنى أردت أن أجدد(١) بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا (٢) . فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج ، فوجد رسول الله ، بمنى ، والناس حوله ، فقام مع الناس ، فلما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال قلت : نعم . قال : ادن . فدنوت منه ، قال : أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام ، أما تجدنى فى التوراة رسول الله ؟ فقلت له : انعتْ ربنا . قال : فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : (قل هو الله أحد . الله الصمد) ... إلى آخرها ، فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتم إسلامه . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجُدُّها(٣) ، فألقيت نفسى ، فقالت أمى [لله] أنت : لو كان موسى بن عمران ما كان(٤) لك أن تلقى نفسك من رأس النخلة . فقلت : والله لأنى أسر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من موسى بن عمران إذ بُعث (٥) .

وهذا حديث غريب جداً .

[آخر تفسير سورة الرعد ، ولله الحمد]

---

(١) فى المخطوطة : « أن أحدث » . والمثبت من دلائل النبوة .

(٢) فى المخطوطة « مكان « عهدا » : « عيدا » . والمثبت من المرجع السابق .

(٣) أى : أقطع ثمرها .

(٤) فى المخطوطة : « ما كان يوك أن تلقى » . وفى الدلائل : « ما كان ثم لك » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٥) دلائل النبوة لأبى نعيم ، ط حيدر آباد : ١ / ١٢٥ .

تفسير سورة ابراهيم عليه السلام

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور .

(كتاب أنزلناه إليك) ، أى : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم ، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض ، إلى جميع أهلها عَرَبهم وعَجَمهم .

(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) ، أى : إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب ، لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد ، كما قال : (الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) (١) ... الآية ، وقال تعالى : (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) (٢) .

وقوله : (بإذن ربهم) ، أى : هو الهادى لمن قَدَّر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم (إلى الصراط العزيز) ، أى : العزيز الذى لا يمانع ولا يُغالَب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ، (الحميد) ، أى : المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق فى خبره .

وقوله : (الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض)، قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة ، كما قال تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض)(٣) ... الآية .

وقوله : (وويل للكافرين من عذاب شديد) ، أى : ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك .

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، أى : يقدمونها ويُؤثرونها عليها ، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة ، وتركوها وراء ظهورهم ، (ويصدون عن سبيل الله) ، وهى اتباع الرسل ، (ويبغونها عوجا) ، أى : ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة (٤) ، وهى مستقيمة فى نفسها ، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق ، لا يرجى لهم — والحالة هذه — صلاح .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .

(٢) سورة الحديد ، آية : ٩ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .

(٤) عائلة : جائرة . وفى كتاب الإتباع والمزاوجة لأحمد بن فارس ٦٤ : وماله عال ومال ؟ أى : جار .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد : عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه » (١) .

وقوله : (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ، أى : بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدى من يشاء إلى الحق ، (وهو العزيز) ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، (الحكيم) فى أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدى من هو أهل لذلك .

وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه : أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمدَ بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يُعْطهُن أحد من الأنبياء قبلى : نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً ، وأحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة (٢) » .

وله شواهد من وجوه كثيرة ، وقال تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعا) (٣) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب ، لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى فى بنى إسرائيل بآياتنا ،

قال مجاهد : وهى التسع الآيات (٤)

(أن أخرج قومك من الظلمات) ، أى : أمرناه قائلين له : (أخرج قومك من الظلمات إلى النور) ، أى : ادعهم إلى الخير ، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان .

(وذكرهم بأيام الله) ، أى : بأياديه ونعمه عليهم ، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم . قال ذلك مجاهد (٥) ، وقتادة ، وغير واحد .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٥٨ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث عند الآية ٤٣ من سورة النساء : ٢ / ٢٨١ ، وانظره أيضا فى تفسير الآية الأولى من سورة الأنفال : ٣ / ٥٤٩ .

(٣) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٦٢ : ١٦ / ٥١٨ ، وبعده : « الطوفان وما معه » .

(٥) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٧٤ : ١٦ / ٥٢١ .

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل فى مسند [أبيه حيث(١)] قال : حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم ، حدثنا محمد بن أبان الجعفى ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس ، عن أبى بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تبارك وتعالى : (وذكرهم بأيام الله) ، قال بنعم الله تبارك وتعالى (٢) .

ورواه ابن جرير](٣)، وابن أبى حاتم، من حديث محمد بن أبان، به(٤) : ورواه عبد الله ابنه أيضا موقوفا، وهو أشبه .

وقوله : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، أى : إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعبرة لكل صبّار ، أى : فى الضراء ، شكور ، أى : فى السراء ، كما قال قتادة : نعم العبد ، عبد إذا ابتُلى صبَر ، وإذا أعطىَ شكر (٥) .

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أمر المؤمن كلَّه عَجَب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له (٦) » :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى ، حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعَمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون ، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بنى إسرائيل من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال : (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) ، أى : نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك ، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها .

وقيل : وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل (بلاء) ، أى : اختبار عظيم . ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا . والله أعلم كما قال تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (٧) .

وقوله : (وإذ تأذن ربكم) ، أى : آذنكم وأعلمكم بوعده لكم . ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال : (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة) (٨) ،

---

(١) فى المخطوطة : « فى مسنده حديث قال » . وقد أثبتنا ما فى الطبعات السابقة .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٢٢ .
(٣) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت من الطبعات السابقة ، ونص مسند الإمام أحمد .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٧٩ : ١٦ / ٥٢٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٨١ : ١٦ / ٥٢٣ .
(٦) مسلم ، كتاب الزهد، باب والمؤمن أمره كله خير : ٨ / ٢٢٧ ، ومسند الإمام أحمد عن صهيب : ٤ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٦٨ .
(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٦٧ .

وقوله : (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، أى : لئن شكرتم نعمتى(١) عليكم لأزيدنكم منها ، (ولئن كفرتم) ، أى : كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ، (إن عذابى لشديد) ، وذلك بسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها .

وقد جاء فى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »(٢).

وفى المسند : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرّ به سائل فأعطاه تمرة ، فتَسَخَّطها ولم يقبلها ، ثم مر به آخر فأعطاه إياها ، فقبلها وقال : تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمر له بأربعين درهما ، أو كما قال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا عمارة الصَّيدلانى ، عن ثابت ، عن أنس قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها — أو : وحَّش (٣) بها — قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال : سبحان الله ! تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال للجارية : اذهبى إلى أم سلمة ، فأعطيه الأربعين درهما التى عندها (٤) .

تفرد به الإمام أحمد .

وعمارة بن زاذان (٥) وثقه ابن حِبَّان ، وأحمد ، ويعقوب بن سفيان (٦) : وقال ابن معين : صالح : وقال أبو زرعة : لا بأس به : وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ، ليس بالمتين . وقال البخارى : ربما يضطرب فى حديثه . وعن أحمد أيضا أنه قال : روى عنه أحاديث منكرة . وقال أبو داود : ليس بذاك . وضعفه الدارقطنى ، وقال ابن عدى : لا بأس به ممن يكتب حديثه (٧) .

وقوله تعالى : (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) ، أى : هو غنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ، وإن كَفَرَه من كَفَرَه ، كما قال : (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم)(٨) . وقال تعالى : (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد)(٩) .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : « ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، مازاد ذلك فى ملكى شيئاً : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً : يا عبادى ، لو أن

---

(١) فى المخطوطة : « لئن شكرتم نعم الله لأزيدنكم » . وأثبتنا ما فى الطبعات السابقة .

(٢) سنن ابن ماجه ، عن ثوبان ، المقدمة ، باب « فى القدر » ، الحديث ٩٠ : ١ / ٣٥ . وكتاب الفتن ، باب « العقوبات » الحديث ٤٠٢٢ : ٢ / ١٣٣٤ .

(٣) وحش بها — بتضعيف العين — : رماها .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣ / ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٥) يعنى عمارة الصيدلانى الذى تقدم فى مسند الإمام أحمد ، وهو عمارة بن زاذان البصرى الصيدلانى ، أبو سلمة .

(٦) هو يعقوب بن سفيان الفسوى الحافظ ، أحد أركان الحديث ، وصاحب المشيخة والتاريخ ، سمع أبا عاصم وعبيد الله ابن موسى وطبقتهما فأكثر . وتوفى فى منتصف سنة ٢٧٧ . ينظر ترجمته فى العبر للذهبى : ٢ / ٥٨ . وكان فى المخطوطة : « يعقوب ابن عثمان » وهو خطأ .

(٧) ينظر ميزان الاعتدال للذهبى : ٣ / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٨) سورة الزمر ، آية : ٧ .

(٩) سورة التغابن ، آية : ٦ .

أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر (١) » : فسبحانه وتعالى الغنى الحميد

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قال ابن جرير : « هذا من تمام قيل موسى لقومه (٢) » .

يعنى : وتذكاره إياهم بأيام الله ، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل .

وفيا قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصّه عليهم ذلك فلا (٣) شك أن تكون هاتان القصتان فى « التوراة » ، والله أعلم . وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات ، أى : بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات .

وقال ابن إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله أنه قال فى قوله (لا يعلمهم إلا الله) : كذب النسابون (٤) .

وقال عروة بن الزبير : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان .

وقوله : (فردوا أيديهم فى أفواههم) ، اختلف المفسرون فى معناه فقيل : معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم ، لما دعوهم إلى الله عز وجل .

وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم .

وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد ، ومحمد بن كعب ، وقتادة : معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم (٥) .

قال ابن جرير : وتوجيهه أن « فى » هاهنا بمعنى « الباء » ، قال : وقد سمع من العرب : « أدخلك الله بالجنة » . يعنون فى الجنة ، وقال الشاعر :

وأَرْغَبُ فيها عَن لَقيطٍ ورهْطه ٭ ولكننى عَن سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

يريد : أرغب بها (٦) :

---

(١) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ٨ / ١٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦ / ٥٢٩ .
(٣) فى المخطوطة : « ولا » ، وقد استبدلنا بالواو فاء ليستقيم السياق .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٩١ : ١٦/٥٣٠ .
(٥) تفسير الطبرى ، الآثار : ٢٠٦٠٦ – ٢٠٦١٠ : ١٦ / ٥٣٣ ، ٥٣٤ .
(٦) تفسير للطبرى : ١٦ / ٥٣٤ ، ٥٣٥ . والبيت فى اللسان ، مادة : « فيا » .

ذلك : ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام : (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) ، فكأن هذا تفسير لمعنى « رَدّ أيديهم في أفواههم » .

وقال سفيان الثوري ، وإسرائيل ، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص ، عن عبد الله في قوله : (فردوا أيديهم في أفواههم) ، قال : عضوا عليها غَيْظًا (١) .

وقال شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن هُبَيرة بن مريم ، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضا (٢) .

وقد اختاره (٣) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ووجهه ابن جرير مختاراً له ، بقوله تعالى عن المنافقين : (وإذا خلوا عَضّوا عليكم الأنامل من الغيظ (٤)) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عَجِبوا ، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم (٥) .

وقالوا : (إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) ، يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به ؛ فإن عندنا فيه شكا قويا .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له ، قالت الرسل : (أفي الله شك) ؟ .

وهذا يحتمل شيئين ، أحدهما : أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطَر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه (فاطر السموات والأرض) ، الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها ، فلابد لها من صانع ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلاهه ومليكه .

---

(١) أثر سفيان في تفسير الطبري برقم ٢٠٥٩٤ ، وأثر إسرائيل برقم ٢٠٥٩٧ : ١٦/٥٣١ .

(٢) تفسير الطبري ، الآثار ٢٠٥٩٩ - ٢٠٦٠٢ : ١٦/٥٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٦٠٤ : ١٦/٥٣٣ .

(٤) تفسير الطبري : ١٦/٥٣٠ ، ٥٣٦ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٦٠٠ : ١٦/٥٣٢ .

والمعنى الثانى فى قولهم : (أفى الله شك) ، أى : أفى إلاهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو ، وحده لا شريك له ؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : [الله] (١) يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، أى : فى الدار الآخرة ، (ويؤخركم إلى أجل مسمى) ، أى : فى الدنيا ، كما قال تعالى : (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله) ... الآية ، (٢) فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة ، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول ، وحاصل ما قالوه : (إن أنتم إلا بشر مثلنا) ، أى : كيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ؟ . (فأتونا بسلطان مبين) ، أى : خارق نقترحه (٣) عليكم .

قالت لهم رسلهم : (إن نحن إلا بشر مثلكم) ، أى : صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ، (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) ، أى : بالرسالة والنبوة ، (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) ، على وفق ما سألتم ، (إلا بإذن الله) ، أى : بعد سؤالنا إياه ، وإذنه لنا فى ذلك ، (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ، أى : فى جميع أمورهم .

ثم قالت الرسل : (وما لنا أن لا نتوكل على الله) ، أى : وما يمنعنا من التوكل عليه ، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ، (ولنصبرن على ما آذيتمونا) ، أى : من الكلام السيء ، والأفعال السخيفة ، (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم ، من الإخراج من أرضهم ، والنفى من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) (٤). وقال قوم لوط : (أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥) . وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش : (وإن كادوا ليستفزونك

---

(١) فى المخطوطة : « وقالت لهم رسلهم : الرسل » فاستبدلنا بكلمة « الرسل » لفظ الجلالة ، ليستقيم السياق .
(٢) سورة هود ، آية : ٣ .
(٣) يعنى المعجزة ، لأنها أمر خارق للعادة .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٨٨ .
(٥) سورة النمل ، آية : ٥٦ .

من الأرض ليخرجوك منها، وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا) (١)، وقال تعالى: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) (٢) .

وكان من صنعه تعالى : أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسببه خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً ، يقاتلون في سبيل الله ، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء ، حتى فتح له مكة التي أخرجته ، ومكّن له فيها ، وأرغم آناف أعدائه منهم ، وسائر الأرض ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ، ولهذا قال تعالى : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم) ، كما قال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون) (٣)، وقال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٤))، وقال : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (٥) ، (وقال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) (٦) ، وقال تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون(٧)) .

وقوله : (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) ، أي : وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة ، وخشي من وعيدي ، وهو تخويفي وعذابي ، كما قال تعالى : (فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى (٨)) ، وقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتان (٩) .

وقوله : (واستفتحوا) ، أي : استنصرت الرسل ربها على قومها : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة (١٠) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها ، كما قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (١١) .

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم) (١٢) ... الآية ، والله أعلم .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٧٦ .
(٢) سورة الأنفال ، آية : ٣٠ .
(٣) سورة الصافات ، الآيات : ١٧١ - ١٧٣ .
(٤) سورة المجادلة ، آية : ٢١ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٥ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٢٨ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٣٧ .
(٨) سورة النازعات ، الآيات : ٣٧ - ٤١ .
(٩) سورة الرحمن ، آية : ٤٦ .
(١٠) ينظر آثارهم في تفسير الطبري : ١٦ / ٥٤٣ ، ٥٤٥ .
(١١) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٦٢٥ : ١٦ / ٥٤٥ ، ٥٤٦ .
(١٢) سورة الأنفال ، آية : ١٩ .

(وخاب كل جبار عنيد) ، أى : متجبر فى نفسه معاند للحق ، كما قال تعالى : (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد) (١) .

وفى الحديث : « إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق فتقول : إنى وُكلتُ بكل جبار عنيد » ... الحديث (٢)؛

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر .

وقوله : (من ورائه جهنم) ، و« وراء » هاهنا بمعنى « أمام » ، كما قال تعالى : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) ، وكان ابن عباس يقرؤها : (وكان أمامهم ملك)(٣) .

أى : من وراء الجبار العنيد جهنم ، أى : هى له بالمرصاد ، يسكنها مخلدا يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد .

(ويسقى من ماء صديد) ، أى : فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق ، فهذا فى غاية الحرارة ، وهذا فى غاية البرد والنتن ، كما قال : (هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج)(٤) .

قال مجاهد ، وعكرمة : « الصديد » : من القيح والدم » .

وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ؛ وفى رواية عنه : الصديد ما يخرج من جوف الكافر ، قد خالط القيح والدم .

وفى حديث شهر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت قلت : يا رسول الله ، ما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار (٥) ؛ وفى رواية : « عُصَارة أهل النار » (٦)

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، أنبأنا عبد الله ، أنا صفوان بن عمرو ، عن عبيد الله بن بُسْر ، عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) ، قال : يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه ، فإذا أدنى منه(٧) شَوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى : (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) ، ويقول : (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب)(٨) .

---

(١) سورة « ق » ، الآيات : ٢٤ ــ ٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى أبواب صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة النار ، وينظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٢٧٠٠ ، ٧ / ٢٩٥ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . وأخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى : ٣ / ٤٠ .

(٣) البحر المحيط لأبى حيان : ٦ / ١٥٤ .

(٤) سورة « ص » ، الآية : ٥٧ ، ٥٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٤٦٠ .

(٦) مسند الإمام أحمد عن أبى ذر : ٥ / [illegible] .

(٧) لفظ المسند : « فإذا دنا منه » .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٥ / [illegible] .

وهكذا رواه ابن جرير (١) ، من حديث عبد الله بن المبارك ، به : ورواه هو وابن أبي حاتم ، من حديث بقية ابن الوليد ، عن صفوان بن عمرو ، به (٢) .

وقوله : (يتجرعه) ، أي : يتغصصه ويتكرهه ، أي : يشربه قهرا وقسرا ، لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد ، كما قال تعالى : (ولهم مقامع من حديد) (٣) .

(ولا يكاد يسيغه) ، أي : يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه ، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع .

(ويأتيه الموت من كل مكان) ، أي : يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه .

قال ميمون بن مهران : من كل عظم ، وعرق ، وعصب .

وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره .

وقال إبراهيم التيمي : من موضع كل شعرة ، أي : من جسده ، حتى من أطراف شعره .

وقال ابن جرير : (ويأتيه الموت من كل مكان) ، أي : من أمامه وورائه ، وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (ويأتيه الموت من كل مكان) ، قال : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ، لأن الله تعالى قال : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) (٤) .

ومعنى كلام ابن عباس ، رضي الله عنه ، أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال : (ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت) .

وقوله : (ومن ورائه عذاب غليظ) ، أي : وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ ، أي : مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) (٥) ، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم ، وتارة في شرب حميم ، وتارة يردون إلى الجحيم ، عياذاً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى : (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن)(٦) ، وقال تعالى :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٦٣١ : ١٦ / ٥٤٩ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ٢٠٦٣٣ : ١٦ / ٥٥١ .
(٣) سورة الحج ، آية : ٢١ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .
(٥) سورة الصافات ، الآيات : ٦٤ - ٦٨ .
(٦) سورة الرحمن ، آية : ٤٣ ، ٤٤ .

(إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم. كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون) (١) ، وقال : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) (٢) ، وقال تعالى : (هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج)(٣) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله ، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، جزاء وفاقا ، (وما ربك بظلام للعبيد) (٤) .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨)

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) ، أى : مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شىء ، فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ، (فى يوم عاصف) ، أى : ذى ريح عاصفة قوية ، فلا [يقدرون على شىء من أعمالهم التى كسبوا فى الدنيا إلا كما] يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم ، كما قال تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) (٥) ، وقال : تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) (٦) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلداً ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين) (٧) .

وقال فى هذه الآية : (ذلك هو الضلال البعيد) ، أى : سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه ، (ذلك هو الضلال البعيد) .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس ، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات ، فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها ، وما فيها من الكواكب الثوابت

---

(١) سورة الدخان ، الآيات : ٤٣ – ٥٠ .
(٢) سورة الواقعة ، الآيات : ٤١ – ٤٤ .
(٣) سورة «ص» ، الآيات : ٥٥ – ٥٨ .
(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٦ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٢٣ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ١١٧ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .

والسيارات ، والحركات المختلفات ، والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبرارى وصحارى وقفار ، وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان ، على اختلاف أصنافها ومنافعها ، وأشكالها وألوانها ؛ (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعىَ بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى إنه على كل شىء قدير) (١) ، وقال تعالى : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين : وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون : أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، وإليه ترجعون (٢)) .

وقوله : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد : وما ذلك على الله بعزيز) ، أى : بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره ، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم ، كما قال تعالى : (يا أيها الناس ، أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد : إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد : وماذلك على الله بعزيز (٣)) ، وقال : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم (٤)) ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا ، من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه (٥)) ، وقال : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً (٦)) .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

يقول : (وبرزوا) ، أى : برزت الخلائق كلّها ، برّها وفاجرها لله وحده الواحد القهار ، أى : اجتمعوا له فى برَاز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدا ؛

(فقال الضعفاء) ، وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم : (إنا كنا لكم تبعا) ، أى: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ؛ (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟) ، أى : فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدُونا وتمنونا ؟ فقالت القادة لهم : (لو هدانا الله لهديناكم)، ولكن حقّ علينا قول ربنا ، وسبق فينا وفيكم قدَرُ الله ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين .

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) ، أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .
(٢) سورة يس ، الآيات : ٧٧ — ٨٣ .
(٣) سورة فاطر ، الآيات : ١٥ — ١٧ .
(٤) سورة محمد ، آية : ٣٨ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .
(٦) سورة النساء ، آية : ١٣٣ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله . فبكوا وتضرعوا ، فلما رأو ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر ، فصبروا صبرا لم يُر مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (١)) .

قلت : والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها ، كما قال تعالى : (وإذ يتحاجون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد (٢)) ، وقال تعالى : (قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم : ربنا ، هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار ؟ قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون(٣)) ، وقال تعالى : (يوم تقلّب وجوهم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا ، إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا ، آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا (٤)) .

وأما تخاصمهم فى المحشر ، فقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (٥)) .

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عما خطّب به إبليس أتباعه ، بعد ما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيباً ليزيدهم حزنا إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى

---

(١) تفسير الطبرى ، الإثر ٢٠٦٤٠ : ١٦ / ٥٥٩ ، ٥٦٠ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) سورة الأحزاب ، الآيات : ٦٦ ـ ٦٨ .
(٥) سورة سبأ ، الآيات : ٣١ ـ ٣٣ .

حسرتهم ، فقال : (إن الله وعدكم وعد الحق) ، أى : على ألسنة رسله ، ووعدكم فى اتّباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقا ، وخبرا صدقا ، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ، كما قال الله تعالى : (يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١)) .

ثم قال : (وما كان لى عليكم من سلطان) ، أى : ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ، (إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) ، بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ، (فلا تلومونى) اليوم ، (ولوموا أنفسكم) ، فإن الذنب لكم ، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد مادعوتكم إلى الباطل ، (ما أنا بمصرخكم) ، أى : بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ، (وما أنتم بمصرخىّ) ، أى : بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ، (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) .

قال قتادة : أى بسبب ما أشركتمونى من قبل .

وقال ابن جرير : يقول : إنى جَحدت أن أكون شريكا لله عز وجل (٢) .

وهذا الذى قاله هو الراجح ، كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٣)) ، وقال : (كلا ، سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٤)) .

وقوله : (إن الظالمين) ، أى : فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ، لهم عذاب أليم .

والظاهر من سياق الآية : أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار ، كما قدمنا ، ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم — وهذا لفظه — وابن جرير (٥) من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثنى دُخين الحَجْرى ، عن عقبة بن عامر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، فقضى بينهم ففرغ من القضاء ، قال المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا ، فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم — وذكر نوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى — فيقول عيسى : أدلكم على النبى الأمى ، فيأتونى ، فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور [من] مجلسى من أطيب ريح شمّها أحد قط ، حتى آتى ربى فيشفّعنى ، ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظُفُر قدمى ، ثم يقول الكافرون هذا : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه من

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٢٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦ / ٥٦١ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .
(٤) سورة مريم ، آية : ٨٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٥٤٥ ، ١٦ / ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظم نحيبهم ، (وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ،ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) .

وهذا سياق ابن أبي حاتم ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن دخين عن عقبة ، به مرفوعا .

وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله : لما قال أهل النار : (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) ، قال لهم : إبليس (إن الله وعدكم وعد الحق) ... الآية ، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم ، فنودوا : (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١)) .

وقال عامر الشعبي : يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس ، يقول الله لعيسى ابن مريم : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) ... إلى قوله : (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) ، قال : ويقوم إبليس ــ لعنه الله ــ فيقول : (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى (٢)) ... الآية .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزى والنكال . وأن خطيبهم إبليس ، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا،(خالدين فيها) ، ماكثين أبدا إلا يحولون ولا يزولون ، (بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام) ، كما قال تعالى : (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم (٣)) ، وقال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم (٤)) ، وقال تعالى : (ويلقون فيها تحية وسلاما (٥)) ، وقال : (دعواهم فيها : سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (٦)) :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : « ومثل كلمة طيبة » : شهادة أن لا إله إلا الله ، (كشجرة طيبة) ، وهو المؤمن ، (أصلها ثابت) ، يقول : لا إله إلا الله فى قلب المؤمن ، (وفرعها فى السماء) ، يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء (٧) :

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٦٤٧ : ١٦ / ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، والأثر ٢٠٦٥٦ : ١٦ ٪ ٥٦٥ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٦٤٣ : ١٦ ٪ ٥٦٢ .
(٣) سورة الزمر ، آية : ٧٣ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٧٥ .
(٦) سورة يونس ، آية : ١٠ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٦٥٨ ، ١٦ ٪ ٥٦٧ .

وهكذا قال الضحاك ، وسعيد بن جُبَير ، وعكرمة وقتادة وغير واحد : إن ذلك عبارة عن المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وإن المؤمن كالشجرة من النخل ، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت ، وصباح ومساء .

وهكذا رواه السُّدِّى ، عن مُرَّة ، عن ابن مسعود قال : هى النخلة (١) ،

وشعبة ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أنس : هى النخلة (٢) .

وحماد بن سلمة ، عن شُعَيب بن الحبحاب ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بِقِنَاعٍ (٣) بُسْر فقال (٤) : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » ، قال : هى النخلة (٥) ؛

وروى من هذا الوجه ومن غيره ، عن أنس موقوفا ، وكذا نص عليه مسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير ، والضحاك ، وقتادة وغيرهم .

وقال البخارى : حدثنا عُبَيْدُ بن إسماعيل ، عن أبى أسامة ، عن عُبَيْد الله عن نافع ، عن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أخبرونى عن (٦) شجرة تُشبه — أو : كالرجل — المسلم ، لا يتحات ورقها [ولا ، ولا ، ولا] (٧) تؤتى أكلها كل حين » قال ابن عمر : فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى النخلة . فلما قمنا قلت لعُمَر : يا أبتا ، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة . قال : ما منعك أن تَكَلَّم ؟ قال : لم أركم تَتَكَلَّمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا . قال عمر : لأن تكون قلتها أحبّ إلىّ من كذا وكذا (٨) .

وقال أحمد : حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مُجاهد : صحبت ابن عمر إلى المدينة ، فلم أسمعه يحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً واحدا — قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى بجُمَّار (٩) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٦٨٦ : ١٦ / ٥٧٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ٢٠٦٧٤ — ٢٠٦٧٦ : ١٦ / ٥٦٩ .

(٣) القناع — بكسر القاف — : الطبق الذى يؤكل عليه الطعام أو الفاكهة ، « والبسر » بضم فسكون : التمر قبل أن يرطب ، وهو ما لم يلون ولم ينضج .

(٤) فى المخطوطة ، « فقرأ » ، فأثبتنا « فقال » ، لأن الذى يأتى ليس لفظ الآية ، وهو لفظ الطبرى أيضا ، والترمذى .

(٥) تفسير الطبرى ، الآثار : ٢٠٦٧٧ — ٢٠٦٨١ : ١٦ / ٥٧٠ ، ٥٧١ . وقد أخرجه الترمذى فى تفسير سورة إبراهيم من عبد بن حميد ، عن أبى الوليد ، عن حماد بن سلمة بإسناده . ورواه من وجه آخر عن أنس بن مالك موقوفا ، وقال : « وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة . وروى غير واحد مثل هذا موقوفا ، ولا نعلم أحدا رفعه غير حماد بن سلمة ، ورواه معمر وحماد بن زيد ، وغير واحد ، ولم يرفعوه » . ينظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٥١٢٣ ، ٥١٢٤ : ٨ / ٥٤٥ — ٥٤٧ .

(٦) لفظ البخارى : « أخبرونى بشجرة » .

(٧) ما بين القوسين المعقوفين من البخارى .

(٨) صحيح البخارى ، تفسير سورة إبراهيم ٦ / [illegible] .

(٩) الجمار : قلب النخلة وشحمها .

فقال : « من الشجر شجرةٌ مَثَلُها مثل الرجل المسلم : فأردت أن أقول : « هى النخلة » ، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم ، [فسكتُّ] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هى النخلة (١) » : أخرجاه (٢) .

وقال مالك وعبد العزيز ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يَطْرحُ ورقها ، مثل المؤمن . قال : فوقع الناس فى شَجَر البوادى ، ووقع فى قلبى أنها النخلة [فاستحييت ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى النخلة] . أخرجاه (٣) أيضا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبان – يعنى ابن يزيد العطار – حدثنا قتادة : أن رجلا قال : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور (٤) بالأجور ! فقال : « أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا ، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء ؟ أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء ؟ قال : ما هو يا رسول الله ؟ قال : تقول : « لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله » ،عشر مرات فى دبر كل صلاة ، فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء » .

وعن ابن عباس : (كشجرة طيبة) ، قال : هى شجرة فى الجنة (٥) .

وقوله : (تؤتى أكلها كل حين) ، قيل : غُدوة وعَشيا . وقيل: كل شهر ، وقيل : كل شهرين : وقيل : كل ستة أشهر . وقيل : كل سبعة أشهر . وقيل : كل سنة :

والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة ، لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت وحين .

(بإذن ربها) ، أى : كاملا حسنا كثيراً طيبا ، (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) (٦) :

وقوله : (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) ، هذا مثل كفر الكافر ، لا أصل له ولا ثبات ، وشُبّه بشجرة الحَنْظَل ، ويقال لها : « الشَّرْيان » . [رواه شعبة ، عن معاوية بن قُرة ، عن أنس بن مالك : أنها شجرة الحنظل] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢ / ١٢ . وما بين القوسين منه .

(٢) البخارى ، كتاب العلم ، باب « الفهم فى العلم » : ١ / ٢٨ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « مثل المؤمن مثل النخلة » : ٨ / ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) البخارى ، كتاب العلم ، باب « قول المحدث ؛ حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا » : ١ / ٢٣ ، ٢٤ وباب « طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم » : ١ / ٢٤ ، وباب « الحياء فى العلم » : ١ / ٤٤ ، ٤٥ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « مثل المؤمن مثل النخلة » : ١٣٧/٨ ، ١٣٨ . ومسند الإمام أحمد : ١٢٣/٢ .

ومعنى « لا يطرح ورقها » : لا يسقط . ومعنى « فوقع الناس فى شجر البوادى » ، أى ذهبت أفكارهم إلى أشجار البوادى ، وكان كل إنسان يفسرها بنوع من أنواع شجر البوادى ، وذهلوا عن النخلة .

(٤) الدثور : جمع دثر – بفتح فسكون – وهو : المال الكثير .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٦٩٥ : ٥٧٣/١٦ .

(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٢٥ .

وقال أبو بكر البزار الحافظ : حدثنا يحيى بن محمد [ابن] السكن ، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أنس — أحسبه رفعه — قال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » ، قال : هي النخلة ، (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) ، قال : هي الشَّرْيان .

ثم رواه عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن معاوية ، عن أنس موقوفا (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد — هو ابن سلمة — عن شُعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة » ، هي الحنظلة . فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنا نسمع .

ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة ، به . ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال :

حدثنا غسان ، عن حماد ، عن شعيب ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقِناع عليه بُسْر ، فقال : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » ، فقال : هي النخلة — (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) ، قال : هي الحنظل . قال شعيب : فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : كذلك كنا نسمع .

وقوله : (اجتثت) ، أي : استؤصلت (من فوق الأرض مالها من قرار) ، أي : لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يُتَقَبَّل منه شيء :

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرني علقمة بن مَرْثَد قال : سمعت سعد بن عُبَيْدة ، عن البراء ابن عازب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم إذا سئل في القبر ، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فذلك قوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة وفي الآخرة (٢)) »

ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم ، من حديث شعبة ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلْحَد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، كأن على رءوسنا الطير ، وفي يده عود يَنْكُت (٤) به في الأرض ،

---

(١) وكذا أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره من هذه الطريق ، ينظر الأثر ٢٠٧٣٧ : ١٦/٥٨٣ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة إبراهيم : ٦/١٠٠ .

(٣) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر » والنسائي كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر : ٤/١٠١ ، وسنن أبي داود كتاب السنة ، باب « في المسألة في القبر وعذاب القبر » ، الحديث ٤٧٥٠ : ٤/ ٢٣٨ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر القبر والبلى » ، الحديث ٢٦٩ : ٢/١٤٢٧ .

(٤) أي : يضرب الأرض به .

فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط(١) من حَنُوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول: أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السِّقاء (٢) فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنُوط ، ويخرج منها كأطيب نَفْحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها ، فلا يمرون ــ يعنى بها ــ على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح [الطيب] (٣) ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التى [كانوا] (٣) يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فتُعاد روحه [فى جسده] (٣) ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : « ربى الله » . فيقولون له : ما دينك ؟ فيقول : « دينى الإسلام » . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ فيقول : « هو رسول الله » . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : « قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدقت » . فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ــ قال : فيأتيه من رَوْحها(٤) وطيبها ، ويفسح له فى قبره مد بصره . ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت تُوعَد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب ، أقم الساعة . رب ، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى (٥) .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المُسُوح (٦) ، فجلسوا منه مَد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سَخَط من الله وغَضَب ــ قال : فتفرق فى جسده ؛ فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يجعلوها فى تلك المسوح . ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا] (٧) فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول

---

(١) الحنوط : ما يطيب به الميت .

(٢) السقاء : القربة .

(٣) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .

(٤) الروح : برد نسيم الريح .

(٥) أى : حتى أرجع لمشاهدة أهلى و ما قدر لى من الأجر على ما قدمت من عمل صالح .

(٦) المسوح : جمع مسح ــ بكسر فسكون ــ وهو : كساء من الشعر .

(٧) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت عن المسند ، وهو سقط نظر .

الله صلى الله عليه وسلم : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) (١) ، فيقول الله اكتبوا كتابه فى سجين ، فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا — ثم قرأ : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) (٢) .

فتعاد روحه فى جسده ، و يأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ ، فيقول : هاه هاه : لا أدرى : فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه . لا أدرى . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه . لاأدرى، فينادى مناد من السماء : أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول : ومن أنت فوجهك [الوجه] يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب ، لا تقم الساعة ، (٣) .

ورواه أبو داود من حديث الأعمش ، والنسائى وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يونس بن خباب(٥)،عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة » ... فذكر نحوه .

وفيه « حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ،[وكل ملك فى السماء](٦) ، وفتحت أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم » .

وفى آخره : « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، وفى يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا ، فيضربه ضربة فيصير ترابا ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين — قال البراء : ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمهد من فرش النار (٧)

وقال سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن خيثمة ، عن البراء فى قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا) ، قال : عذاب القبر (٨) .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٤٠ .
(٢) سورة الحج ، آية : ٤٠٩ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٢٨٧ . وقد ساقه الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف : ٣ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، باب « الجلوس عند القبر » الحديث ٣٢١٢ : ٣ / ٢١٣ . وكتاب السنة ، باب « فى المسألة فى القبر وعذاب القبر » ، الحديث ٤٧٥٣ : ٤ / ٢٣٩ .
(٥) فى المخطوطة : « يونس بن حبيب » . والمثبت من المسند . وينظر التهذيب .
(٦) ما بين القوسين من المسند .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ . وقد ساقه الحافظ أيضا عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف : ٤ / ٤٠٩ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٧٧٢ : ١٦ / ٥٩٩ .

وقال المسعودى، عن عبد الله بن مخارق ، عن أبيه ، عن عبد الله قال : إن المؤمن إذا مات أجْلِس فى قبره ، فيقال له : من ربك ؟ ما دينك؟من نبيك ؟ ، فيثبته الله ، فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم : وقرأ عبد الله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) (١) .

وقال الإمام عبد بن حميد رحمه الله فى مسنده : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا وضع فى قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ــ قال : فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ــ قال : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة : قال نبى الله صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعا : قال قتادة : وذُكِر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة .

رواه مسلم (٢) عن عبد بن حميد ، به : وأخرجه النسائى من حديث يونس بن محمد المؤدّب ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج ، أخبرنى أبو الزبير ، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتّانى القبر فقال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذه الأمة تُبْتَلَى فى قبورها ، فاذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه ، جاء ملك شديد الانتهار ، فيقول له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول المؤمن : أقول إنه رسول الله وعبده : فيقول له الملَكُ : انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار ، قد أنجاك الله منه ، وأبدلك بمقعدك الذى ترى من النار مقعدك الذى ترى من الجنة ، فيراهما كليهما . فيقول المؤمن : دعونى أبشر أهلى . فيقال له : اسكن : وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله ، فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى ، أقول كما يقول الناس . فيقال له : لا دَرَيْتَ ، هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة ، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار .

قال جابر : فسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يبعث كل عبد فى القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه » .

إسناده صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه (٣) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر ، حدثنا عباد بن راشد ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى نَضْرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : شَهِدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس ، إن هذه الأمة تُبتَلى فى قبورها ، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه ، جاءه ملك فى يده مطراق فأقعده ، قال : ماتقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمنا قال : أشهد أن لا إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، فيقول له : صدقت . ثم

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٧٧١ : ١٦ / ٥٩٧ ، ٥٩٨ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه » : ٨ / ١٦١ ، ١٦٢ . والنسائى ، كتاب الجنائز ، باب « المسألة فى القبر : ٤ / ٩٧ .

(٣) الذى أمامنا فى المسند الآن رواية الإمام أحمد عن موسى بن داود ، عن ابن لهيعة ، عن أبى الزبير : ٣ / ٣٤٦ . وهى بهذا اللفظ .

يفتّح له بابا إلى النار ، فيقول : هذا كان منزلك لو كفرت بربك ، فأما إذ آمنت فهذا منزلك : فيفتح له بابا إلى الجنة ، فيريد أن ينهض إليه ، فيقول له : « اسكن » ، ويفسح له فى قبره : وإن كان كافرا أو منافقا يقول له : ما تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئا : فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ (١) ولا اهتديتَ ، ثم يفتح له بابا إلى الجنة ، فيقول له : هذا منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا ، فيفتح له بابا إلى النار ، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق يسمعها خَلْقُ الله عز وجل كلهم غير الثقلين : فقال بعض القوم : يا رسول الله ، ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق إلا هيل (٢) ، عند ذلك : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت (٣)) .

وهذا أيضا إسناد لا بأس به ، فإن عباد بن راشد التميمى روى له البخارى مقرونا ، ولكن ضعفه بعضهم :

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين (٤) بن محمد ، عن ابن أبى ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد ابن يسار ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الميت تحضُره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس المطمئنة (٥) كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة ، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان » قال : فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقولون : « مرحبا بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة ، وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان » — قال : — فلا يزال يقال لها ذلك ، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل : وإذا كان الرجل السوء قالوا : « اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمة ، وأبشرى بحميم وغَسَّاق ، وآخر من شكله أزواج » فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمة ، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء . فيرسل من السماء ، ثم يصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول (٦) :

ورواه النسائى وابن ماجه ، من طريق ابن أبى ذئب بنحوه (٦) :

---

(١) قال ابن الأثير فى النهاية ، مادة « تلا » : « هكذا يرويه المحدثون . والصواب « ولا أتليت » » وقال فى مادة « ألا » : « لا دريت ولا تليت » ، أى : ولا استطعت أن تدرى .
هذا وقد قال أحمد بن فارس فى كتابه الاتباع والمزاوجة ٦٩ : « ويقولون : لا دريت ولا تليت ، اتباع أيضا ، ويقال أيضا : ائتليت ، أى استطعت ، ويقال : ما يألوه ، أى : ما يطيقه » .

(٢) أى : خاف ، ورعب .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣ ، ٤ .

(٤) فى المسند : « حسن بن محمد » . وهو خطأ ، والصواب ما فى المخطوطة . وينظر ترجمته فى الخلاصة .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وقد مر مثله من قبل فى سورة الأعراف ، وفى المسند : « النفس الطيبة » ، ويبدو أن نسخة المسند عند ابن كثير على ما أثبتنا .

(٦) مضى الحديث فى سورة الأعراف : ٣/١٠ ، وخرجناه هناك .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا خرجت روح العبد المؤمن ، تلقاها ملكان يصعدان (١) بها — قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك — قال : ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلّى الله عليك وعلى جسَد كنت تعمُرينه ، فينطلَق به إلى ربه عز وجل ، فيقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ؛ وإن الكافر إذا خرجت روحه — قال حماد : وذكر من نتْنها وذكر مقتا (٢) . ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض — قال : فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل — قال أبو هريرة : فردَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رَيْطَةً (٣) كانت عليه على أنفه ، هكذا (٤) .

وقال ابن حبان فى صحيحه : حدثنا عمر بن محمد الهمدانى ، حدثنا زيد بن أخزَم ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى أبى ، عن قتادة، عن قسامة بن زهير ، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا قُبِض ، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجى إلى روح الله . فتخرج كأطيب ريح مسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل الأرض ؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فلَهُم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فإنه كان فى غمّ ! فيقول : قد مات ، أما أتاكم ؟ فيقولون : ذُهِب به إلى أمه الهاوية . وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسْح (٥) فيقولون : اخرجى إلى غضب الله ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فيُذْهَب به إلى باب الأرض » .

وقد روى أيضا من طريق همام بن يحيى ، عن قتادة عن أبى الجوزاء ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه — قال : « فيُسأل : ما فعل فلان ، مافعل فلان ؟ مافعلت فلانة ؟ قال : وأما الكافر فإذا قُبِضت نفسه ، وذُهِب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريحا أنتن من هذه . فيُبْلَغ بها الأرض السفلى .

قال قتادة : وحدثنى رجل ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : أرواح المؤمنين تجمع بالجابية (٦) ، وأرواح الكفار تجمع ببرهوت ، سبخة بحضرموت

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى رحمه الله : حدثنا يحيى بن خلف ، حدثنا بشر بن المفضل ، عن عبد الرحمن ابن إسحاق ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبُرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قبر الميت

---

(١) لفظ مسلم : « يصعدانها » .

(٢) لفظ مسلم : « وذكر لعنا » .

(٣) الريطة : ثوب رقيق . وقيل : هى الملاءة . وكان سبب ردها على الأنف ما ذكر من نتن ريح الكافر .

(٤) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، وإثبات عذاب القبر ، و التعوذ منه » ١٦٢/٨ ، ١٦٣ .

(٥) المسح : كساء من شعر .

(٦) فى المخطوطة : « يجمع بالجابيتين » . والمثبت من معجم البلدان لياقوت ، وإن كان قد نسب الأثر إلى عبد الله بن عباس ، ولفظ معجم البلدان : « وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : أرواح المؤمنين بالجابية من أرض الشام ، وأرواح الكفار فى برهوت من أرض حضرموت » .

ــ أو قال : أحدكم ــ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : « المنكر » والآخر : « النكير » ، فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول(١) : « هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا . ثم يُفسَح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين : ثم ينوّر له فيه ، ثم يقال له : نَمْ . فيقول : أرجع إلى أهلى فأخبرهم ؟ فيقولان : نَمْ نومةَ العروس الذى لا يوقظه إلا أحَبّ أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك : وإن كان منافقا قال : « سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم ، لا أدرى » ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التئمى عليه . فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك »

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب (٢) .

وقال حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) ــ قال : « ذاك إذا قيل له فى القبر : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : « ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد ، جاءنا بالبينات من عند الله ، فآمنت به وصدّقت » . فيقال له : صدّقت ، على هذا عشتَ ، وعليه متَّ ، وعليه تُبعث (٣) » .

وقال ابن جرير : حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا : حدثنا يزيد ، أنبأنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة : إن الميت ليسمع خفق نعالهم (٤) حين يُوَلّون عنه مدبرين ، فاذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، والزكاة عن يمينه ، والصيام عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلى مَدخَلٌ ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة : ما قبلى مدخل ، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام : ما قبلى مدخل : فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات : ما قبلى مدخل . فيقال له : اجلس . فيجلس ، قد تَمثّلت (٥) له الشمس ، قد دنت للغروب ، فيقال له : أخبرنا عما نسألك . فيقول : دعونى (٦) حتى أصلى : فيقال : إنك ستفعل ، فأخبرنا عما نسألك . فيقول : وعَمّ تسألونى ؟ فيقال : أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ، ماذا تقول فيه ، وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : أمحمد ؟ فيقال له : نعم : فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله ، فصدقناه . فيقال له : على ذلك حَيِيتَ ، وعلى ذلك متَّ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله : ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويُنوّر له فيه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : انظر إلى ما أعد الله لك فيها : فيزداد غبطة [وسرورا] ، ثم يُجعل نَسَمه فى النَّسَم الطيب ، وهى طير خضر تعلق بشجر

---

(١) أى : يقول الميت ما كان يقوله قبل الموت ، وهو : هو عبد الله ورسوله .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الجنائز ، باب « ما جاء فى عذاب القبر » ، الحديث ١٠٧٧ : ٤/١٨١ – ١٨٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٧٦٩ : ١٦/٥٩٦ .

(٤) فى المخطوطة : « خفق نعالى » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى .

(٥) فى المخطوطة : « قد مثلت » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٦) فى المخطوطة : « دعنى ، دعنى حتى أصلى » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

الجنة ، ويعاد الجسد إلى ما بدىء منه من التراب » ، وذلك قول الله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة (١)) .

ورواه ابن حبّان ، من طريق المعتمر بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، وذكر جواب الكافر وعذابه .

وقال البزار : حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي (٢) ، حدثنا الوليد بن القاسم ، حدثنا يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم ،عن أبي هريرة — أحسبه رفعه — قال : « إن المؤمن ينزل به الموت ، ويعاين ما يعاين ، فيودّ لو خرجت — يعني نفسه — والله يحب لقاءه ، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء ، فتأتيه أرواح المؤمنين ، فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض ، فإذا قال : « تركت فلانا فى الأرض » ، أعجبهم ذلك. وإذا قال : « إن فلانا قد مات » ، قالوا : ماجيء به إلينا . وإن المؤمن يجلس فى قبره ، فيسأل : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، ويسأل : من نبيك ؟ فيقول : محمد نبيى . فيقال : ماذا دينك ؟ قال : دينى الإسلام . فيفتح له باب فى قبره ، فيقول — أو : يقال — انظر إلى مجلسك . ثم يرى القبر فكأنما كانت رقْدة ، وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ماعاين ، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً ، والله يبغض لقاءه ، فإذا جلس فى قبره — أو : أجلس — يقال له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقال : لادَرَيت . فيفتح له باب من جهنم ، ثم يضرب ضربة يسمعها كل دابة إلا الثقلين ، ثم يقال له : نم كما ينام المنهوش . قلت لأبى هريرة : ما المنهوش ؟ قال : الذى تنهشه الدواب والحيات ، ثم يضيق عليه قبره .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم (٣) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا حُجَين بن المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشُون ، عن محمد ابن المنكدر قال : كانت أسماء — يعني بنت الصديق — رضى الله عنها ، تحدّث عن النبى صلى الله عليه وسلم قالت : قال : « إذا دخل الإنسان قبره ، فإن كان مؤمنا أحفّ به عملُه : الصلاةُ والصيام ، قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ، ومن نحو الصيام فيرده ، قال : فيناديه : اجلس . فيجلس. فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ يعنى النبى صلى الله عليه وسلم قال : من ؟ قال : محمد . قال : أشهد أنه رسول الله ، قال : يقول : وما يدريك ؟ أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله . قال : يقول : على ذلك عشتَ ، وعليه متّ ، وعليه تبعثُ . وإن كان فاجراً أو كافراً ، جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرُدّه ، فأجلسه يقول : : اجلس ، ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ قال : أىّ رجل ؟ قال : محمد ؟ قال يقول : والله ما أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته . قال له الملك : على ذلك عشتَ ، وعليه متّ ، وعليه تبعث . قال: وتسلّط عليه دابة فى قبره . معها سوط ثمرته جمرةٌ مثل غرْب(٤) البعير ، تضربه ما شاء الله ، صماء لا تسمع صوته فترحمه (٥) » .

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٧٧٠ : ١٦/٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٢) فى اللباب لابن الأثير ٢/٢٤٩ : «سعيد بن محمد القراطيسى» .

(٣) فى المخطوطة : « الوليد بن مسلم » . وهو خطأ ، وقد سبق فى السند على الصواب ، والوليد بن القاسم ترجمة فى التهذيب : ١٢/١٤٥ ، والجرح لابن أبى حاتم : ٤/٢/١٣ .

(٤) فى المخطوطة : « عرق » . والمثبت عن مسند الإمام أحمد . والغرب : الدلو العظيمة .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٥٢ ، ٣٥٣ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال : إن المؤمن إذا حَضَرَه الموتُ شهدته الملائكة ، فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مَشَوا مع جنازته ، ثم صَلَّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقال له : من رسولك ؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم : فيقال له : ما شهادتك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . فيوسَّع له فى قبره مد بَصَره، وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة ، فيبسطون أيديهم - « والبسط » : هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت ، فإذا أدخل قبره أقعد فقيل له : من ربك ؟ فلم يَرْجع إليهم شيئا ، وأنساه الله ذكر ذلك : وإذا قيل: من الرسول الذى بُعِثَ إليكم ؟لم يهتد (١) له ، ولم يرجع إليه شيئاً ، كذلك يضل الله الظالمين (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى ، حدثنا شريح بن مسلمة ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق ، عن عامر بن سعد البجلى ، عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) الآية ، قال : إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله . فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله . فيقال له ذلك مرات : ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له انظر إلى منزلك فى النار لو زُغت . ثم يفتْح له باب إلى الجنة ، فيقال له : انظر إلى منزلك [من الجنة إذا ثبت . وإذا مات الكافر أجلس فى قبره ، فيقال له : من ربك ؟ من نبيك ؟ فيقول : لا أدرى ، كنت أسمع الناس يقولون .فيقال له : لا دريت . ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : انظر إلى منزلك](٣) لو ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له : انظر إلى منزلك إذ زغت ، فذلك قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا)، قال لا إله إلا الله - (وفى الآخرة) ، المسألة فى القبر (٤) .

وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ، (وفى الآخرة) ، فى القبر : وكذا روى عن غير واحد من السلف .

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه « نوادر الأصول » : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن نافع ، عن ابن أبى فديك ، عن عبد الرحمن(٥) بن عبد الله ، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، ونحن فى مسجد المدينة ، فقال : « إنى رأيت البارحةَ عجباً ، رأيت رجلا من أمتى [جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه برُّه بوالديه فرد عنه : ورأيت رجلا من أمتى] قد بُسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وُضوءه فاستنقذه من ذلك . ورأيت رجلامن أمتى [قد] احتوشته الشياطين(٦) ،فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم؛

---

(١) فى المخطوطة : « لم يهش » . والمثبت من تفسير الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثران : ٢٠٧٧٤ : ١٦/٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٢٠٧٨٦ : ١٦/٦٠٣ .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين سقط من المخطوطة ، أثبتناه من الطبعات السابقة .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٢٠٧٨٤ : ١٦/٦٠٢ . وأثر قتادة بعده .

(٥) فى التذكرة : « عبد الرحمن بن أبى عبد الله » .

(٦) احتوش القوم فلاناً : جعلوه وسطهم . (لسان العرب) .

ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم . ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا ، كلما ورد حوضا مُنِع منه ، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه . ورأيت رجلا من أمتي والنبيون قعود حلَقاً حلَقاً ، وكلما دنا لحلقة طردوه ، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي . ورأيت رجلا من أمتي [من] بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، فهو متحير فيها فجاءته حَجته وعُمرته ، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور . ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه ، فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا معشر المؤمنين ، كلموه ، فكلموه . ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهَج النار أو شَررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلاً على رأسه . ورأيت رجلا من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذاه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة . ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه ، بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خُلُقه ، فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل . ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته ، فجعلها فى يمينه [ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه ، فجاءته أفراطه (١) فثقلوا ميزانه] ورأيت رجلا من أمتي قائما على شفير جهنم ، فجاءه وجَله من الله ، فاستنقذه من ذلك ومضى . ورأيت رجلا من أمتي هوى فى النار ، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار . [ورأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط يرعَد كما ترعد السَّعَفة ، فجاء حسن ظنه بالله ، فسكَّن رِعدَته ، ومضى] . ورأيت رجلا من أمتي على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحياناً ، فجاءته صلاته عليَّ ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط . ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب(٢) الجنة ، فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة : أن لا إله إلا الله » ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » .

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : « هذا حديث عظيم ، ذكَر فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة » ; أورده هكذا فى كتابه « التذكرة(٣) » .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي فى هذا حديثا غريبا مطولا فقال : حدثنا أبو عبدالله(٤) أحمد بن إبراهيم النُكْري حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان ، حدثنا أبو عاصم (٥) الحبطي ــ وكان من خيار أهل البصرة ، وكان من أصحاب حزم ، وسلام بن أبي مطيع ، حدثنا بكر بن خُنَيس ، عن ضرار (٥) بن عمرو ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك ، عن تميم الداري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق إلى وليّي فأتني به ، فإني قد ضرّبته بالسراء والضراء ، فوجدته حيث أحب . ائتني به فلأريحنّه .

---

(١) أفراطه : أي أولاده الذين ماتوا ولم يدركوا .

(٢) فى المخطوطة : « إلى باب الجنة » . والمثبت عن التذكرة .

(٣) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ، باب « ما ينجي من أحوال يوم القيامة ومن كربها » : ٢٤٠ ــ ٢٤٢ . وما بين الأقواس المعقوفة سقط من المخطوطة أثبتناه عن هذا المصدر .

(٤) فى المخطوطة : « أبو عبد الرحمن » . والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم : ٣٩/١ . والتهذيب : ١٠/١ ، والمشتبه للذهبي : ٨٨ .

(٥) لم نجد من رجال هذا السند رجلين : « أبا عاصم الحبطي » ، و « ضرار بن عمرو » . وعسى أن نستدرك ذلك فيما بعد .

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة، ومعهم ضبائر(١) الرَّيْحان، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لونا ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر (٢) . فيجلس ملك الموت عند رأسه [وتحف] (٣) به الملائكة ، ويضع كل مَلَك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه، ويُفتح له بابٌ إلى الجنة ، فإن نفسه لتَعَلَّلُ(٤) عند ذلك بطرف الجنة تارة وبأزواجها [تارة] ومرةً بكسْواتها ومرَّةً بثمارها ، كما يُعَلَّل الصبى أهله إذا بكى — قال : وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً(٥) .

قال : وتنزو الروح — قال البُرْسانى : يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب — قال ويقول مَلَك الموت : اخرجى يا أيتها الروح الطيبة ، إلى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب — قال : ولَمَلَك الموت أشدّ به لطفا من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه ، فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه ، فتُسَلّ روحه كما تسل الشعرة من العجين — قال : وقال الله عز وجل : (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) — وقال : (فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم) — قال : روح من جهة الموت ، وريحان يتلقى به ، وجنة نعيم تقابله .

قال : فإذا قَبض ملك الموت روحه ، قال الروح للجسد : جزاك الله عنى خيرا ، فقد كنت سريعا بى إلى طاعة الله ، بطيئا بى عن معصية الله ، فقد نجيت وأنجيت . قال : ويقول الجسد للروح مثل ذلك .

قال : وتبكى عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها ، وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة .

قال : فإذا قَبَض ملك الموت روحه ، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده ، فلا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم ، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم ، وحَنُوط قبل حنوط بنى آدم ، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة ، يستقبلونه بالاستغفار ، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده — قال : ويقول لجنوده : الويل لكم . كيف خَلَص هذا العبد منكم ، فيقولون : إن هذا كان عبدا معصوما .

قال : فإذا صعد ملك الموت بروحه ، يستقبله جبريل فى سبعين ألفاً من الملائكة ، كلٌّ يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه — قال : فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش ، خرّ الروح ساجدا — قال يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب .

---

(١) الضبائر : جمع ضبارة ، بكسر الضاد ، وهى : الباقة والحزمة .

(٢) المسك الأذفر : الجيد إلى الغاية .

(٣) مكان هذه الكلمة فى المخطوطة : (ويحفو به) ، دون نقط ولم نهتد إليها . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) أى : تتشاغل .

(٥) أى : يسرعن إليه ، يقال للإنسان إذا نظر إلى الشيء فأعجبه واشتهاه وأسرع نحوه : قد بهش إليه .

قال : فإذا وضع فى قبره ، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه ، وجاءه الصيام فكان عن يساره ، وجاءه القرآن فكان عند رأسه ، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه ، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر ــ قال : فيبعث الله عز وجل عُنُقاً (١) من العذاب قال : فيأتيه عن يمينه قال فتقول الصلاة وراءك والله مازال دائبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع فى قبره ــ قال : فيأتيه عن يساره ، فيقول الصيام مثل ذلك ــ قال : ثم يأتيه من عند رأسه ، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك ــ قال : ثم يأتيه من عند رجليه ، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك . فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مساغاً إلا وجد ولى الله قد أخذ جنته ــ قال : فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج ــ قال : ويقول الصبر لسائر الأعمال : أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ماعندكم ، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه ، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان .

قال : ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصى ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن فى أشعارهما (٢) ، بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا ، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة ، يقال لهما : « منكر ونكير » ، فى يد كل واحد منهما مطرقة ، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلّوها (٣) ــ قال : فيقولان له : اجلس : قال : فيجلس فيستوى جالسا : قال : وتقع أكفانه فى حَقْوية(٤)، قال : فيقولان له : من ربك وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .

قال : قالوا : يا رسول الله ، ومن يطيق الكلام عند ذلك ، وأنت تصف من الملكين ماتصف؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

قال : فيقول : ربى الله وحده لا شريك له ، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة ، ونبيى محمد خاتم النبيين . قال : فيقولان : صدقت : قال : فيدفعان القبر ، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا ، وعن يمينه أربعين ذراعا ، وعن شماله أربعين ذراعا ، ومن خلفه أربعين ذراعا ، ومن عند رأسه أربعين ذراعا ، ومن عند رجليه أربعين ذراعا ــ قال : فيوسعان له مائتى ذراع .

قال البرسانى : فأحسبه : وأربعين ذراعا تحاط به .

قال : ثم يقولان له : انظر فوقك ، فإذا باب مفتوح إلى الجنة ، قال : فيقولان له : ولىّ الله ، هذا منزلك إذ أطعت الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده ، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة ، ولا ترتد أبداً » ، ثم يقال له : انظر تحتك : قال : فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ــ قال : فيقولان : ولى الله

---

(١) أى : قطعة منه . وينظر فيما تقدم : ٣/٢٧٩ .

(٢) فى المخطوطة : « يطنان » . وسيأتى على الصواب بعد . ومعنى « يطآن فى أشعارهما » ، الأشعار : جمع شعر ، يصف الملكين بطول الشعر حتى إنهما ليسيران عليه ؟

(٣) أى : لم يرفعوها .

(٤) الحقو : الخصر

يموت آخر ما عليك — قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا ، قال : فقالت عائشة : يفتح له سبعة وسبعون بابا إلى الجنة ، يأتيه ريحها وبردها ، حتى يبعثه الله عز وجل .

وبالإسناد المتقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ويقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى عدوى فأتنى به ، فإنى قد بسطت له رزقى ، ويسّرت له نعمتى ، فأبى إلا معصيتى ، فأتنى به لأنتقم منه .

قال : فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة رآها أحد من الناس قطّ ، له اثنتا عشرة عينا ، ومعه سفّود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم نحاس وجمْر من جمر جهنم ، ومعهم سياط من نار ، لينها لين السياط وهى نار تأجج — قال : فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يَغيبُ كلّ أصل شوكة من ذلك السفّود فى أصل كلّ شعرة وعرْق وظفر . قال : ثم يلويه ليا شديدا — قال : فينزع روحه من أظفار قدميه ، قال : فيلقيها فى عقبيه (١) ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرة ، فيرفّه ملك الموت عنه . قال : وتضرب الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط ، [قال : فيشده ملك الموت شدة ، فينزع روحه من عقبيه ، فيلقيها فى ركبتيه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة ، فيرفه ملك الموت عنه — قال : فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط (٢)] قال : ثم ينتره (٣) ملك الموت نتّرة ،فينتزع روحه من ركبتيه فيلقيها (٤) فى حقويه — قال : فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة ، فيرفه ملك الموت عنه ، قال : وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط ، قال كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه ، قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه ، قال: ويقول ملك الموت : اخرجى أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد:جزاك الله عنى شرا ، فقد كنت سريعا بى إلى معصية الله ، بطيئا بى عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلكت — قال:ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها ، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار .

قال : فاذا وضع فى قبره ضُيّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى ، واليسرى فى اليمنى — قال : ويبعث الله إليه أفاعى دُهماً كأعناق الإبل يأخذن بأرنبته (٥) وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه .

قال : ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصى ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن فى أشعارهما ، بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة ، يقال لهما : « منكر ونكير » ، فى يد كل واحد منهما مطرقة ، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلوها — قال : فيقولان له :

(١) فى المخطوطة : « فيلقيها فى ركبتيه » . وقد أثبتنا ما فى الطبعات السابقة ، رعاية السياق .

(٢) ما بين القوسين المعقوفين سقط من المخطوطة . وهو سقط نظر ، أثبتناه من الطبعات السابقة .

(٣) النتر : الجذب بجفاء .

(٤) فى المخطوطة : « فينزع روحه من عقبيه فيلقيها فى ركبتيه ، فيلقيها فى حقويه » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٥) الأرنبة : طرف الأنف .

اجلس . قال : فيستوى جالسا ــ قال : وتقع أكفانه فى حقويه ، قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان : لا دريت ولا تليت ، فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره ، ثم يعودان ــ قال : فيقولان : انظر فوقك . فينظر ، فإذا باب مفتوح من الجنة ، فيقولان : هذا ــ عدوّ الله ــ منزلك لو أطعت الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا » .

قال : ويقولان له : انظر تحتك ، فينظر تحته ، فإذا باب مفتوح إلى النار ، فيقولان : عدوّ الله ــ هذا منزلك إذ عصيت الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً » .

قال : وقالت عائشة : ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار ، يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها .

هذا حديث غريب جداً ، وسياق عجيب ، ويزيد الرقاشي ــ راويه عن أنس ــ له غرائب ومنكرات ، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة ، والله أعلم .

ولهذا قال أبو داود : حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى ، حدثنا هشام ــ هو ابن يوسف ــ عن عبد الله بن بَحير ، عن هانىء مولى عثمان ، عن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له بالتثبيت ، فإنه الآن يسأل » . انفرد به أبو داود (١) .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَردُويه عند قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) ... الآية ، حديثا مطولا جداً ، من طريق غريب ، عن الضحاك ، عن ابن عباس مرفوعا ، وفيه غرائب أيضاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال البخارى : قوله : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) : ألم تعلم ؟ كقوله : (ألم تر كيف) ، (ألم تر إلى الذين خرجوا) ، البوار : الهلاك ، بار يبور بَوراً ، و(قوما بورا) : هالكين .

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء سمع ابن عباس : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) قال : هم كفار أهل مكة (٢) .

(١) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، باب « الاستغفار عند القبر للميت » ، الحديث ٣٢٢١ : ٣/٢١٥ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة ابراهيم : ٦/١٠٠ .

[تنبيه]

[من هذه الآية يبتدىء اعتمادنا فى تخريج آثار الطبرى على الطبعة الأميرية ، وسوف ننبه على ذلك أيضاً إن شاء الله فى آخر]
[هذا المجلد ، واعترافاً بالفضل ينبغى أن نشيد هنا بالعمل العظيم الذى قدمه المحقق الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر ، فى]
[الأجزاء التى صدرت من تفسير الطبرى ، فقد أفدنا من ذلك أيما فائدة ، ونسأل الله أن يتم هذا السفر الجليل ، حتى يعم]
[به النفع ، إنه حميد مجيد] ط

وقال العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية هو جبلة بن الأيهم ، والذين اتبعوه من العرب ، فلحقوا بالروم (١) .

والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ؛ فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردّها وكفرها دخل النار .

وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول ، قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا شعبة ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن أبي الطفيل : أن ابن الكوّاء سأل علياً عن : (الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) قال : كفار قريش يوم بدر(٢) .

حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا بسام — هو الصيرفي — عن أبي الطفيل قال : جاء رجل إلى علي فقال : يا أمير المؤمنين ، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال : منافقو قريش(٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نفيل قال : قرأت على معقل ، عن ابن أبي حسين قال : قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به ، وإن كان من وراء البحار ، لأتيته . فقام عبد الله بن الكواء فقال : من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ؟ فقال : مشركو قريش ، أتتهم نعمة الله : الإيمان ، فبدلوا نعمة الله « كفراً » وأحلوا قومهم دار البوار .

وقال السدي في قوله : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) الآية ، ذكر مسلم المستوفي(٤) عن علي أنه قال : هما الأفجران من قريش : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد . وكان أبو جهل يوم بدر ، وأبو سفيان يوم أحد ، وأما دار البوار فهي جهنم .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا الحارث بن منصور ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق عن عمرو بن مرة قال : سمعت علياً قرأ هذه الآية : (وأحلوا قومهم دار البوار) ، قال : هما الأفجران من قريش ، بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين .

ورواه أبو إسحاق ، عن عمرو ذي مرّ ، عن علي ، نحوه : وروي من غير وجه عنه .

وقال سفيان الثوري ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن سعد ، عن عمر بن الخطاب في قوله : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) ، قال : هما الأفجران من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين .

---

(١) تفسير الطبري : ١٣/١٤٨ .

(٢) وقد أخرجه الطبري في تفسيره ، من غير طريق شعبة : ١٣/١٤٦ .

(٣) وأخرجه الطبري أيضاً : ١٣/١٤٦ ، ١٤٧ .

(٤) في المخطوطة : « المستوفى » ، ولم نجده .

وكذا رواه حمزة الزيات ، عن عمرو بن مُرَّة قال : قال ابن عباس لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، هذه الآية : (الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) ، قال : هم الأفجران من قريش : أخوالى وأعمامك فأما أخوالى فاستأصلهم [الله] يوم بدر ، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين (١) :

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة بن زيد : هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع ، عن ابن عمر :

وقوله : (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله)(٢) ، أى : جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودَعَوْا الناس إلى ذلك ،

ثم قال تعالى مُهدِّداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) ، أى : مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شىء (فإن مصيركم إلى النار) ، أى : مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) ، وقال تعالى : (متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) (٣) .

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى آمراً العباد بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب .

والمراد بإقامتها هو : المحافظة على وقتها وحدودها ، وركوعها وخشوعها وسجودها .

وأمر تعالى بالإنفاق مما رَزَق فى السر ، أى : فى الخفية ، والعلانية وهى : الجهر ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ، (من قبل أن يأتى يوم) ، وهو يوم القيامة ، وهو يوم (لا بيع فيه ولا خلال) ، أى : لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه ، كما قال تعالى : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا)(٤) .

وقوله : (ولا خلال) ، قال ابن جرير : يقول : ليس هناك مُخَالَّة خليل ، فيصفَح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَّته ، بل هنالك العدل والقسط ، فالخلال مصدر ، من قول القائل : خاللت فلانا ، فأنا أخاله مُخَالَّة وخلالا ، ومنه قول امرىء القيس :(٥)

صَرَفْتُ الهَوَى عَنْهُنَّ مِن خَشْيَةِ الرَّدَى ٭ وَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ الخلالِ ولا قَالِ

وقال قتادة : إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها فى الدنيا ، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب ، فإن كان لله فليداوم ، وإن كان لغير الله فسيقطع (٦) عنه .

(١) تفسير الطبرى : ١٣/١٤٦ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٧٠ .
(٤) سورة الحديد ، آية : ١٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٣/١٤٩ .
(٦) لفظ الطبرى : « وإن كان لغير الله فإنها ستقطع » ، الأثر فى التفسير : ١٣/١٤٩ .

قلت : والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده ، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقى الله كافراً ، قال الله تعالى: (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون(١)) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا، أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون(٢)) .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه ، بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظاً ، والأرض فراشاً ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى ، ما بين ثمار وزروع ، مختلفة الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح والمنافع ؛ وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجرى عليه بأمر الله تعالى ، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ، لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هاهنا ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر ، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع .

(وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) ، أى : يسيران لا يقران ليلا ولا نهاراً ، (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون(٣)) ، (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين(٤)) ، فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتقارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ، (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) (٥). [وقال تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى (٦)] .

وقوله : (وآتاكم من كل ماسألتموه) ، يقول : هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم .

وقال بعض السلف من كل ما سألتموه وما لم تسألوه(٧) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٤ .

(٣) سورة « يس » ، آية : ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .

(٥) سورة فاطر ، آية : ١٣ .

(٦) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ولا بد من إثباته ، ونحسب أنه سقط نظر ، وهو من الآية رقم : ٥ من سورة الزمر .

(٧) رواه الطبرى عن ركانه بن هاشم ، والضحاك بن مزاحم : ١٣/ ١٥٠ .

وقرأ بعضهم : (وآتاكم من كلِّ ما سألتموه) (١) .

وقوله : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ، يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحُوا توابين وأمسُوا توابين (٢) .

وفي صحيح البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم ، لك الحمد غير مكفيّ ولا مودّع ، ولا مستغنى عنه ربَّنا (٣) » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث ، حدثنا داود بن المُحَبَّر ، حدثنا صالح المُرِّي ، عن جعفر بن زيد العَبْدِي ، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح ، وديوان فيه ذنوبه ، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه ، فيقول الله لأصغر نعمه ـ أحسبه قال : في ديوان النعم : خذى ثمنك من عمله الصالح ، فتستوعب عمله الصالح كله ، ثم تَنَحّى وتقول : وعزتك ما استوفيت : وتبقى الذنوب والنعم فإذا أراد الله أن يرحم قال : يا عبدى ، قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال : ووهبت لك نعمى » غريب ، وسنده ضعيف .

وقد رُوى في الأثر : أن داود عليه السلام قال : يا رب : كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك عليّ ؟ فقال الله تعالى : الآن شكرتنى يا داود : أي : حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم .

وقال الشافعي رحمه الله : « الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه ، إلا بنعمة (٤) تُوجب على مُؤدى ماضى نعمه بأدائها ، نعمةً حادثةً توجب (٥) عليه شكره بها » .

وقال القائل في ذلك :

لو كل جارحةٍ منّى لها لُغَةٌ ... تُثْنى عليكَ بما أوليتَ من حَسَنِ
لكان ما زادَ شُكرى إذ شكرتُ به ... إليكَ أبلغَ في الإحسان والمنَنِ

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر المحيط : ٥/٤٢٨ إلى ابن عباس والضحاك وآخرين ، وقال الطبرى في توجيهها ١٣/١٥٠ : « بمعنى : وآتاكم من كل شيء لم تسألوه ولم تطلبوه منه ، وذلك أن العباد لم يسألوه الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وخلق ذلك لهم من غير أن يسألوه » . وقال بعد : « والصواب ن القول في ذلك عندنا القراءة التي عليها قراء الأمصار ، وذلك إضافة « كل » إلى « ما » ، بمعنى : وآتاكم من سؤلكم شيئاً ، على ما قد بينا قبل ، لإجماع الحجة من القراء عليها ، ورفضهم القراءة الأخرى » .

هذا وقد ذكر أبو حيان توجيها آخر لهذه القراءة ، وهو أن « ما » موصولة مفعول ثان لآتى ، والمعنى : وآتاكم ما شأنه أن يسأل ، بمعنى يطلب للانتفاع به .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣/١٥١ .

(٣) البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه ، عن أبي أمامة : ٧/١٠٦ .

(٤) في المخطوطة : « إلا بنعمة حادثة » . نحذفنا كلمة « حادثة » موافقة للرسالة للإمام الشافعى .

(٥) في الرسالة ٧ ، ٨ : « نعمة حادثة يجب عليه شكره بها » .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب ، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله(١) وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : (رب ، اجعل هذا البلد آمنا) ؛ وقد استجاب الله له ، فقال تعالى : (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) (٢) ، وقال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) (٣) ، وقال فى هذه القصة : (رب ، اجعل هذا البلد آمنا) (٤) فعرّفه كأنه دعا به بعد بنائها ، ولهذا قال : (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) ، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة ، فإنه دعا أيضا فقال : (رب اجعل هذا بلداً آمنا) (٥) ، كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصًى مطولا .

وقال : (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) ، ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه برىء ممن عبدها ، ورد أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، كما قال عيسى عليه السلام : (إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) (٦) وليس فى هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجويز وقوع ذلك .

قال عبد الله بن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث ، أن بكر بن سوادة حدثه ، عن عبد الرحمن (٧) بن جبير عن عبد الله بن عمر : وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم وقول عيسى عليه السلام : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ورفع يديه ، قال : « اللهم أمتى ، اللهم أمتى ، اللهم أمتى » ، وبكى فقال الله اذهب إلى محمد — وربك أعلم — وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال الله ، اذهب إلى محمد ، فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك(٨) .

---

(١) ووجه الاحتجاج بذلك : أن العرب كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، فبينت لهم الآية أنهم كاذبون فى هذا الادعاء ، فقد تبرأ ابراهيم عليه السلام من الشرك وأهله .

(٢) سورة العنكبوت ، آية ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) سورة إبراهيم ، آية : ٣٩ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٢٦ . وينظر فيما تقدم : ١/٢٤٩ — ٢٥٢ .

(٦) سورة المائدة ، آية : ١١٨ .

(٧) فى المخطوطة : « عبد الرحمن بن جرير » ، وهو خطأ ، والمثبت من تفسير الطبرى ، والجرح لابن أبى حاتم ٢/٢/٢٢١ .

(٨) تفسير الطبرى : ١٣/١٥١ ، ١٥٢ .

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذى دعا به عند ما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه ، تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال : (عند بيتك المحرم) .

وقوله : (ربنا ليقيموا الصلاة) قال ابن جرير : هو متعلق بقوله : (المحرم) ، أى : إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده(١) .

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : لو قال : أفئدة الناس ، لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال : (من الناس) . فاختص به المسلمون(٢) .

وقوله : (وارزقهم من الثمرات) ، أى : ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه (واد غير ذى زرع) فاجعل لهم ثماراً يأكلونها : وقد استجاب الله ذلك ، كما قال : (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا (٣)) ، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته : أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها ، استجابة لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾

قال ابن جرير(٤) : يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) ، أى : أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، ولا يخفى عليك منها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، فقال : (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء) ، أى : إنه ليستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣/١٥٤ .

(٢) يعنى من آمن من أتباع الأنبياء من لدن إبراهيم إلى محمد عليهم السلام ؛ فإنهم جميعاً مسلمون بنص التنزيل . وينظر تفسير الطبرى : ١٣/١٥٤ .

(٣) سورة القصص ، آية : ٥٧ .

(٤) ينظر نص الطبرى فى تفسيره : ١٣/١٥٥ .

ثم قال : (رب اجعلني مقيم الصلاة) ، أي : محافظا عليها مقيما لحدودها ، (ومن ذريتي) ، أي : واجعلهم كذلك معيمين الصلاة ، (ربنا وتقبل دعاء) ، أي : فيما سألتك فيه كله .

(ربنا اغفر لي ولوالدي) ، وقرأ بعضهم : (ولوالدي) ، على الإفراد (١). وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ، (وللمؤمنين) ، أي : كلهم ، (يوم يقوم الحساب) ، أي : يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ

يقول : ولا تحسبن الله — يا محمد — غافلا عما يعمل الظالمون ، أي : لا تحسبه إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عداً ، أي : (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ، أي : من شدة الأهوال يوم القيامة .

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال : (مهطعين) ، أي : مسرعين ، كما قال تعالى : (مهطعين إلى الداع (٢)) ... الآية ، وقال تعالى : (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) إلى قوله : (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما (٣)) ، وقال تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون (٤)) .

وقوله : (مقنعي رءوسهم) ، قال ابن عباس ، ومجاهد وغير واحد : رافعي رءوسهم .

(لا يرتد إليهم طرفهم) ، أي : أبصارهم طائرة شاخصة ، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة ، لما يحل بهم ، عياذاً بالله العظيم من ذلك ، ولهذا قال : (وأفئدتهم هواء) ، أي : وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف . ولهذا قال قتادة وجماعة : إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف . وقال بعضهم : (هواء) ، خراب لا تعي شيئا ، ولشدة ما أخبر (٥) الله تعالى عنهم . قال لرسوله : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) ،

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط ٥/٤٣٥ : «وقرأ ابن جبير : (ولوالدي) ، بإسكان الياء على الإفراد ، كقوله : (واغفر لأبي) .

(٢) سورة القمر ، آية : ٨ .

(٣) سورة «طه» ، الآيات : ١٠٨ – ١١١ .

(٤) سورة المعارج ، آية : ٤٣ .

(٥) في المخطوطة : «لشدة» ، وقد زدنا «الواو» ليستقيم السياق .

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم ،عند معاينة العذاب : (ربنا أخرنا إلى أجل قريب ، نجب دعوتك ونتبع الرسل) ، كما قال تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون(١)) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول : رب ، لولا أخرتني إلى أجل قريب ، فأصدق وأكن من الصالحين(٢)) ، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (٣)) ، وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (٤) ، وقال تعالى : (وهم يصطرخون فيها : ربنا ، أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير (٥)) .

وقال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا : (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ، أى : أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال : أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذلك .

قال مجاهد وغيره : (ما لكم من زوال) ، أى : ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، كما أخبر عنهم تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقاً(٦)) .

(وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال) ، أى : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم ؟ ، (حكمة بالغة فما تغنى النذر (٧)) .

---

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ٩٩ ، ١٠٠ .
(٢) سورة « المنافقون » ، آية : ٩ ، ١٠ .
(٣) سورة السجدة ، آية : ١٢ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .
(٦) تفسير الطبري : ١٣/١٥٩ .
(٧) سورة القمر ، آية : ٥ .

وقد روى شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن أن عليا رضى الله عنه قال فى هذه الآية : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ، قال : أخذ ذاك الذى حاج إبراهيم فى ربه نَسرين صغيرين ، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا(١) وشبا — قال : فأوثق رِجْلَ كل واحد منهما بوَتد إلى تابوت ، وجوعهما ، وقعد هو ورجل آخر فى التابوت — قال : ورفع فى التابوت عصا على رأسه اللحم — قال : فطارا ، وجعل يقول لصاحبه : انظر ، ما ترى ؟ قال : أرى كذا وكذا ، حتى قال أرى الدنيا كلها كأنها ذباب — قال : فقال : صوِّبِ العصا ، فصوبها ، فهبطا — قال : فهو قول الله عز وجل : (وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال) — قال أبو إسحاق : وكذلك هى فى قراءة عبد الله : (وإن كاد مكرهم (٢)) .

قلت : وكذا رُوى عن أُبيّ بن كعب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما أنهما قرآ : (وإن كاد) ، كما قرأ على ، وكذا رواه سفيان الثورى ، وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عبد الرحمن بن أذنان (٣) ، عن على ، فذكر نحوه ، وكذا رُوى عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان : أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر ، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط فى بناء الصرح ، فعجزا وضعفا . وهما أقل وأحقر ، وأصغر وأدحر .

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر ، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها ، نودى أيها الطاغية : أين تريد ؟ فَفَرِق ، ثم سمع الصوت ، فوقه فصوب الرماح ، فصوبت النسور ، ففزعت الجبال من هَدّتها ، وكادت الجبال أن تزول من حسّ ذلك (٤) فذلك قوله : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) (٥) .

ونقل ابن جُرَيج عن مجاهد أنه قرأها (لَتَزُول منه الجبال) ، بفتح اللام الأولى ، وضم الثانية .

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ، يقول : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال (٦) . وكذا قال الحسن البصرى ، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به ، ماضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم .

قلت : ويشبه هذا إذاً قوله تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحا : إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا (٧))

---

(١) فى المخطوطة : « واستعجلا » . والصواب من تفسير الطبرى ، وفى اللسان : « واستعلج الرجل : خرجت لحيته وغلظ واشتد وعبل بدنه » ، أراد أن النسرين قد ضخما وسمنا .

(٢) تفسير الطبرى : ١٦٠/١٣ . وصوب العصا : خفضها وأنزلها .

(٣) ينظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢١٠/٢/٢ . وفى المخطوطة : « أرباب » وقد ترجم هذا الاسم فى تفسير ابن أبى حاتم فى ترجمة عبد الرحمن هذا : « سمع عليا » قوله . روى عنه أبو إسحاق الهمدانى » . وقد ورد « أذنان » هكذا فى تاج العروس .

(٤) الحس : الصوت والحركة .

(٥) تفسير الطبرى : ١٦٠/١٣ ، ١٦١ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٦٢/١٣ .

(٧) سورة الإسراء ، آية : ٣٧ .

والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ، يقول شركهم ، كقوله : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولدا(١)) وهكذا قال الضحاك ، وقتادة :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ ﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً : (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) ، أي : من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده (ويل يومئذ للمكذبين (٢)) ولهذا قال : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ، أي : وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض [غير الأرض] ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة ، كما جاء في الصحيحين ، من حديث أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقُرصة النَّقِيّ ، ليس فيها مَعْلَم لأحد (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن داود ، عن الشعبي ، عن مسروق عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) ، قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط (٤) .

رواه مسلم منفرداً به دون البخاري ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث داود بن أبي هند ، به ، وقال الترمذي : حسن صحيح(٥) .

ورواه أحمد أيضا ، عن عفان ، عن وهيب ، عن داود ، عن الشعبي ، عنها : ولم يذكر مسروقا (٦) .

وقال قتادة ، عن حسان بن بلال المزني ، عن عائشة رضي الله عنها : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

---

(١) تفسير الطبري : ١٣٪١٦١ .

(٢) سورة الطور ، آية : ١١ . وقد تكررت في سورة المرسلات .

(٣) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « يقبض الله الأرض يوم القيامة » ٨٪١٣٥ . وقرصة النقي : الخبز الحوارى ، وهو الذي نخل مرة بعد مرة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦٪٣٥ .

(٥) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة » : ٨٪١٢٧ ، ١٢٨ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة إبراهيم ، الحديث ٥١٢٧ : ٨٪٥٤٨ ، ٥٤٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر البعث » ، الحديث ٤٢٧٩ : ٢٪١٤٣٠ .

(٦) مسند الإمام أحمد ٦٪١٣٤ .

قول الله : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ، قال : قالت : يا رسول الله ، فأين الناس يومئذ ؟ قال : « لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ، ذاك أن الناس على جسر جهنم (١) » .

وروى الإمام أحمد ، من حديث حبيب بن أبي عمرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن قوله تعالى : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ، فأين الناس يومئذ يا رسول الله قال : « هم على متن جهنم » .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن ، حدثنا علي بن الجعد ، أخبرني القاسم ، سمعت الحسن قال : قالت عائشة : يا رسول الله ، (يوم تبدل الأرض غير الأرض) ، فأين الناس يومئذ ؟ قال : « إن هذا شيء ما سألني عنه أحد ، قال : على الصراط يا عائشة (٢) » .

ورواه أحمد ، عن عفان ، عن القاسم بن الفضل ، عن الحسن ، به(٣) .

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثني الحسن بن علي الحُلْواني ، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا معاوية ابن سلام ، عن زيد — يعني أخاه — أنه سمع أبا سلّام ، حدثني أبو أسماء الرَّحَبِي : أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه حَبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دَفعةً كاد يُصرَع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول : « يا رسول الله » ؟ ! فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سَمَّاه به أهله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اسمي محمدٌ الذي سمَّاني به أهلي . فقال اليهودي : جئت أسألك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أينفعك شيء إن حدثتك ؟ فقال : أسمع بأذني . فنكت (٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه ، فقال : سل . فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم (٥) تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم في الظلمة دون الجسر . قال : فمن أول الناس إجازة (٦) ؟ قال—فقال : [فقراء] المهاجرين . قال اليهودي : فما تُحْفَتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : زيادة كبد النون (٧) . قال : فما غذاؤهم في أثرها ؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين [فيها] تسمى سلسبيلا . قال : صدقت . قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان ؟ قال : ينفعك إن حدثتك ؟ قال : أسمع بأذني . قال : جئت أسألك عن الولد . قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا (٨) بإذن الله تعالى ، وإذا

---

(١) في المخطوطة : « الناس مع غيرهم » . والمثبت من تفسير الطبري : ١٣/١٦٦ .

(٢) تفسير الطبري : ١٣/١٦٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/١٠١ .

(٤) أي : ضرب به الأرض .

(٥) في المخطوطة : « حين تبدل » . والمثبت من صحيح مسلم .

(٦) الإجازة هنا بمعنى الجواز والعبور .

(٧) في المخطوطة : « زيادة كبد الحوت » . والمثبت من صحيح مسلم . « والنون » : « الحوت » ، وزيادة الكبد : طرفه .

(٨) أي : كان الولد ذكراً .

علا منىّ المرأة منى الرجل أنثا(١) بإذن الله . قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ؛ ثم انصرف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد سألني هذا عن الذى سألني عنه ، ومالى علم بشىء منه ، حتى أتاني الله به (٢) » .

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى : حدثنى ابن عوف (٣) ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعى ، عن أبي أيوب الأنصارى : قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم حبْر من اليهود فقال : أرأيت إذ يقول الله فى كتابه : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ، فأين الخَلْق عند ذلك ؟ فقال : أضياف الله ، فلن يعجزهم ما لديه (٤) .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم ، به .

وقال شعبة : أخبرنا أبو إسحاق ، سمعت عمرو بن ميمون — وربما قال : قال عبد الله ، وربما لم يقل — فقلت له : عن عبد الله ؟ فقال : سمعت عمرو بن ميمون يقول : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) ، قال : أرض كالفضة البيضاء نقية ، لم يسفك (٥) فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ينفذهم(٦) البصر ، ويُسمعهم الداعى ، حفاةً عراة كما خلقوا قال : أراه قال : قياما حتى يُلجمَهم العرق (٧) .

وروى من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن مسعود ، بنحوه ، وكذا رواه عاصم ، عن زرّ ، عن ابن مسعود ، به .

وقال سفيان الثورى ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، لم يخبر به : أورد ذلك كله ابن جرير (٧) .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عبد الله بن عُبَيد بن عقَيل ، حدثنا سهل بن حماد أبو عتَّاب ، حدثنا جرير بن أيوب ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قول الله عز وجل : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) ، قال : أرض بيضاء لم يسقط عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ثم قال : لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب ، و ليس بالقوى .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن سنان ، عن جابر الجعفى ، عن أبي جُبَيرة ، عن زيد قال : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليهود فقال : « هل تدرون لم أرسلت إليهم ؟ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) ، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة ، فلما جاءوا سألهم فقالوا : تكون بيضاء مثل النقيّ (٧) .

---

(١) أنثا : بتشديد النون . ويروى : « آنثا » ، بمد الهمزة وتخفيف النون ، ومعناه : كان الولد أنثى .

(٢) مسلم ، كتاب الحيض ، باب « بيان صفة منى الرجل والمرأة ، وأن الولد مخلوق من مائهما » : ١/١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) فى تفسير الطبرى : « بن عون » . والصواب ما فى تفسير ابن كثير . وهو محمد بن عوف بن سفيان الطائى . ينظر ترجمته فى التهذيب : ٩/٣٨٣ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٦ .

(٥) فى تفسير الطبرى : « لم يسل فيها دم » .

(٦) أى يخترقهم ويجاوزهم لاستواء الصعيد . وفى النهاية : قال أبو حاتم : أصحاب الحديث يروونه بالذال المعجمة ، وإنما هو بالمهملة . أى : يبلغ أولهم وآخرهم حتى يراهم كلهم ويستوعبهم » .

(٧) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٥ .

وهكذا رُوِي عن علي ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، ومجاهد بن جبير : أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة .

وعن علي رضى الله عنه أنه قال : تصير الأرض فضة ، والسموات ذهبا .

وقال الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : تصير السموات جنانا .

وقال أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ، أو عن محمد(١) بن قيس في قوله : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) ، قال : خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم (٢) .

وكذا رَوَى وكيع ، عن عمر بن بشير الهمداني (٣) ، عن سعيد بن جبير في قوله : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال : تبدل خبزة بيضاء ، يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وقال الأعمش عن خيثمة قال : قال عبد الله — هو ابن مسعود — : الأرض كلها يوم القيامة نار ، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها ، ويُلجِمِ (٤) الناس العرقُ ، أو يبلغ منهم العرق ، ولم يبلغوا الحساب (٥) .

وقال الأعمش أيضاً ، عن المنهال بن عمرو ، عن قيس بن السكن قال : قال عبد الله : الأرض كلها نار يوم القيامة ، الجنة من ورائها ، ترى أكوابها وكواعبها ، والذى نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترسُخَ في الأرض قدمه ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه ، ومامسه الحساب . قالوا : مم ذاك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : مما يرى الناس يلقون (٦) .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن كعب في قوله : (يوم تبدل الأرض غ الأرض والسموات) ، قال : تصير السموات جنانا ، ويصير مكان البحر ناراً ، وتبدل الأرض غيرها (٧) .

وفى الحديث الذى رواه أبو داود : « لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر ، فإن تحت البحر ناراً — أو : تحت النار بحرا (٨) » .

وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى ، لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم فى هذه المبدلة » .

وقوله : (وبرزوا لله) ، أى : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله (الواحد القهار) ، أى : الذى قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

---

(١) فى المخطوطة : « عن محمد بن كعب القرظى ، عن محمد بن قيس » . وقد أثبتنا « أو » من تفسير الطبرى . وأبو معشر يروى عن محمد بن كعب ، ومحمد بن قيس المدنى . ينظر التهذيب : ٩/٤١٤ ، ٤٢١ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٥ .

(٣) فى المخطوطة : « معمر بن بشير » . والمثبت من الجرح : ٣/١/١٠٠ .

(٤) أى : يصير العرق لهم بمنزلة اللجام .

(٥) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٥ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٤ ، ١٦٥ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٥ .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى ركوب البحر فى الغزو » ، الحديث ٢٤٨٩ : ٣/٦ . ورواية السنن : « فإن تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً » .

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ، وتبرز الخلائق لديّانها ، ترى يا محمد يومئذ المجرمين ، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ، (مقرنين) ، أى : بعضهم إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم)(١) ، وقال : (وإذا النفوس زوجت)(٢) ، وقال : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبوراً)(٣) ، وقال : (والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد)(٤) .

والأصفاد : هى القيود ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والأعمش ، وعبد الرحمن بن زيد . وهو مشهور فى اللغة ، قال عمرو بن كلثوم :

فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبايا ... وأُبنا بالمُلُوك مُصَفَّدينا(٥)

وقوله : (سرابيلهم من قطران) ، أى : ثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران ، وهو الذى تُهنأ به الإبل ، أى : تطلى ، قاله قتادة (٦) : وهو ألصق شىء بالنار .

ويقال فيه : « قَطِران » ، بفتح القاف وكسر الطاء وبفتح القاف وتسكين الطاء . وبكسر القاف وتسكين الطاء ، ومنه قول أبى النجم :

كأنّ قِطْراناً إذا تلاهَا ... تَرْمِى به الرّيحُ إلى مَجْراها(٧)

وكان ابن عباس يقول : القَطِران هو : النحاس المذاب ، وربما قرأها : (سرابيلهم من قَطْرآن (٨)) ، أى : من نُحاس حار قد انتهى حره . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، والحسن ، وقتادة .

وقوله : (وتغشى وجوههم النار) ، كقوله : (تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون (٩)) .

---

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٢ .
(٢) سورة التكوير ، آية : ٧ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ١٣ .
(٤) سورة ص ، آية : ٣٧ ، ٣٨ .
(٥) البيت فى تفسير الطبرى : ١٣/١٦٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٣/١٦٨ .
(٧) البيت فى تفسير الطبرى : ١٣/١٦٧ .
(٨) ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٥/٤٤٥ .
(٩) سورة المؤمنون ، آية : ١٠٤ .

وقال: الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد(١)، عن أبي سلاّم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من أمر الجاهلية لايُتْرَكْنَ(٢): الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء (٣) بالنجوم، والنياحة، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال (٤) من قَطِران، ودرْع من جَرَب» (٥). انفرد بإخراجه مسلم (٦).

وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النائحة إذا لم تتب، توقف في طريق بين الجنة والنار، سرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار».

وقوله: ﴿ليجزي الله﴾، أي: يوم القيامة، [كما قال (٧)] ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى (٨)﴾.

﴿إن الله سريع الحساب﴾، يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (٩)﴾، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كلّ شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾(١٠)، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ [إحصاء] (١١).

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ (١٢)﴾، أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾.

﴿ولينذروا به﴾، أي: ليتعظوا به، ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾، أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وليذكر أولو الألباب﴾، أي: ذوو العقول.

[آخر تفسير «سورة ابراهيم» عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين]

---

(١) في المسند: «عن زيد بن أبي سلام». والصواب ما في ابن كثير، فزيد هو ابن سلام يروي عن جده «ممطور» وهو أبو سلام. ينظر الخلاصة، وسند الحديث الذي يأتي بعد هذا في مسند الإمام أحمد.

(٢) في المخطوطة: «لا يتركهن». والمثبت عن المسند.

(٣) كانوا يعتقدون أن نزول المطر بسبب سقوط نجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من المشرق، وكان من كلماتهم: «مطرنا بنوء كذا».

(٤) قالوا: لأنها كانت تلبس الثياب السود في المآتم. ومعنى: «ودرع من جرب»: أنه يسلط على أعضائها الجرب والحكة، بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع، وهو القميص.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٥/٣٤٢، ٣٤٣. وينظر أيضاً: ٥/٣٤٤.

(٦) مسلم، كتاب الجنائز، باب «التشديد في النياحة»: ٣/٤٥.

(٧) في المخطوطة: «أي: يقسم يوم القيامة»، فأثبتنا ما في الطبعات السابقة.. وقد زدنا ما بين القوسين ليستقيم السياق.

(٨) سورة النجم، آية: ٣١.

(٩) سورة الأنبياء، آية: ١.

(١٠) سورة لقمان، آية: ٢٨.

(١١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة.

(١٢) سورة الأنعام، آية: ١٩.

تفسير سورة الحجر

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٢) ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٣)﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور .

وقوله : (ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين) ، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين فى الدار الدنيا .

ونقل السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما من الصحابة : ان الكفار لما عرضوا على النار ، تمنوا أن لو كانوا مسلمين .

وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا .

وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة ، كما فى قوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا : يا ليتنا نُرَدّ ، ولا نكذبَ بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين)(١) .

وقال سفيان الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن أبى الزعراء ، عن عبد الله فى قوله : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ، قال : هذا فى الجُهنميين إذ رأوهم يخرجون من النار (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى ، حدثنا مسلم ، حدثنا القاسم ، حدثنا ابن أبى فَرْوَة العَبْدى : أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ، يتأولانها يوم يَحبِس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار — قال : فيقول لهم المشركون : « ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا » — قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته ، فيخرجهم ، فذلك حين يقول : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى ، عن حماد ، عن إبراهيم — وعن خُصَيف (٤) ، عن مجاهد قالا : يقول أهل النار للموحدين : ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك — قال : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة — قال : فعند ذلك قوله : (يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (٥) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤/٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٤/٣ ، ٤ .

(٤) يعنى : أن سفيان الثورى روى أيضاً عن خصيف ، عن مجاهد . وفى تفسير الطبرى : « عن إبراهيم ، عن خصيف » ، دون ذكر « الواو » . وهو خطأ . ينظر الخلاصة .

(٥) تفسير الطبرى : ١٤/٤ .

وهكذا رُوى عن الضحاك ، وقتادة ، وأبى العالية ، وغيرهم . وقد ورد فى ذلك أحاديثُ مرفوعة ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى :

حدثنا محمد بن العباس هو الأخرم ، حدثنا محمد بن منصور الطوسى ، حدثنا صالح بن إسحاق الجهبذ — رأى عليه (١) بن موسى — حدثنا مُعَرِّف (٢) بن واصل ، عن يعقوب بن (٣) نباتة ، عن عبد الرحمن الأغر ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ناسا من أهل « لا إله إلا الله » يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم « لا إله إلا الله » وأنتم معنا فى النار ؟ : فيغضب الله لهم ، فيخرجهم ، فيلقيهم فى نهر الحياة ، فيبرأون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة ، ويسمَّون فيها الجهنميين . فقال رجل : يا أنس ، أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أنس : سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، نعم ، أنا سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول هذا .

ثم قال الطبرانى : تفرد به الجهبذ .

الحديث الثانى : وقال الطبرانى أيضاً : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أبو الشعثاء على بن الحسن الواسطى ، حدثنا خالد بن نافع الأشعرى ، عن سعيد بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا اجتمع أهل النار فى النار ، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى . قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام ! فقد صرتم معنا فى النار . قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها . فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرجَ كما خرجوا . قال : ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث خالد بن نافع ، به — وزاد فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، عوض الاستعاذة .

الحديث الثالث : وقال الطبرانى أيضا : حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا إسحاق بن راهويه قال : قلت لأبى أسامة : أحدثكم أبو رَوق — واسمه عطية بن الحارث — : حدثنى صالح بن أبى طريف قال : سألت أبا سعيد الخدرى فقلت له : هل سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى هذه الآية : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : يخرج الله ناسا من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقمته منهم ، وقال : لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون : تزعمون أنكم أولياء الله فى الدنيا ، فما بالكم معنا فى النار ؟ فإذا سمع الله ذلك منهم

---

(١) كذا فى المخطوطة . ولم نهتد إلى ترجمة لصالح بن إسحاق هذا . وفى بعض الطبعات : « الجهبذ وابن علية يحيى بن موسى » . ولا ندرى ماالمقصود بهذا .

(٢) فى المخطوطة : « معروف بن واصل » . والصواب ما أثبتناه ، وينظر التهذيب : ١٠/ ٢٢٩ .

(٣) فى التهذيب ، ترجمة معرف بن واصل : « يعقوب بن أبى نباته » .

أذن فى الشفاعة لهم فتشفع الملائكة والنبيون ، ويشفع المؤمنون ، حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : يا ليتنا كنا مثلهم ، فتدركنا الشفاعة ، فنخرج معهم — قال : فذلك قول الله : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ، فيسمّون فى الجنة الجُهَنَّميين ، من أجل سَوَاد فى وجوههم ، فيقولون : يارب ، أذهب عنا هذا الاسم : فيأمرهم فيغتسلون فى نهر الجنة ، فيذهب ذلك الاسم عنهم : فأقر به أبو أسامة ، وقال : نعم .

الحديث الرابع : وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا العباس بن الوليد النَّرْسى ، حدثنا مسكين أبو فاطمة ، حدثنى اليمان بن يزيد ، عن محمد بن جبر ، عن محمد بن على ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجزته (١) ، ومنهم من تأخذه النار إلى عُنقه ، على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجوا منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل الأديان والأوثان ، لمن فى النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله ، فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء ، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشىء فيما مضى ، فيخرجهم إلى عين فى الجنة ، وهو قوله : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (٢) :

وقوله : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) ، تهديد لهم شديد ، ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : (قل : تمتعوا ، فإن مصيركم إلى النار)(٣) (وقوله : (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون)(٤) ، ولهذا قال : (ويلههم الأمل) ، أى : عن التوبة والإنابة ، (فسوف يعلمون) ، أى : عاقبة أمرهم .

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى : إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم : وهذا تنبيه لأهل مكة ، وإرشاد لهم إلى الاقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد ، الذى يستحقون به الهلاك .

وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم فى قولهم : (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) ، أى : الذى يدّعى ذلك : (إنك لمجنون) ، أى : فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا : (لوما) ، أى : هلاّ (تأتينا بالملائكة) ، أى : يشهدون لك بصحة ماجئت به ، (إن كنت من الصادقين) ، كما قال فرعون : (لولا ألقى عليه أسورة)(٥)

---

(١) الحجزة – بضم فسكون – : معقد الإزار .

(٢) الدر المنثـــور .

(٣) سورة النجم ، آية : ٣٠ .

(٤) سورة المرسلات ، آية : ٤٦ .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة ثابتة ، ينظر البحر المحيط ، ٥ / ٢٣ .

من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) (١) ، (وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا ؟ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)(٢) .
وكذا قال فى هذه الآية : (ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذا منظرين) .

وقال مجاهد فى قوله : (ماننزل الملائكة إلا بالحق) : بالرسالة والعذاب (٣) .

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل .

ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى : (له لحافظون) ، على النبى صلى الله عليه وسلم ، كقوله : (والله يعصمك من الناس (٤)) . والمعنى الأول أولى ، وهو ظاهر السياق .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله فى تكذيب من كذّبه من كفار قريش : إنه أرسل من قبلِه(٥) فى الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذّبوه واستهزءوا به .

ثم أخبر أنه سَلَكَ التكذيبَ فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

قال أنس ، والحسن البصرى : (كذلك نَسلُكه فى قلوب المجرمين) ، يعنى الشرك(٦) .

وقوله : (وقد خلت سنة الأولين) ، أى : قد علِم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق : أنه لو فتح لهم باباً من السماء ، فجعلوا يصعدون فيه ، لما صدّقوا بذلك ، بل قالوا : (سُكِّرت أبصارنا) .

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٥٢ .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٢١ ، ٢٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤/٦ .
(٤) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٥) فى المخطوطة : « من الأمم » ، فأثبتنا « فى » ليستقيم السياق .
(٦) تفسير الطبرى : ١٤/٧ .

قال مجاهد وابن كثير ، والضحاك : سدت أبصارنا .

وقال قتادة ، عن ابن عباس : أخذت أبصارنا .

وقال العوفى عن ابن عباس : شُبِّهَ علينا ، وإنما سحرنا .

وقال الكلبي : عَمِيت أبصارنا .

وقال ابن زيد : (سكرت أبصارنا) ، السكران الذى لا يعقل(١) .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زَيَّنها به من الكواكب الثواقب ، لمن تأملها ، وكرر النظر فيها ، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات ، ما يَحار نظره فيه ، ولهذا قال مجاهد و قتادة : البروج هاهنا هى : الكواكب(٢) .

قلت : وهذا كقوله تعالى : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً)(٣) ، ومنهم من قال : البروج هى : منازل الشمس والقمر .

وقال عطية العوفى : البروج هاهنا : هى قصور الحرس .

وجعل الشهب حرساً لها من مَرَدَة الشياطين ، لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرد منهم لاستراق السمع جاءه (شهاب مبين) فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التى سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذى هو دونه ، فيأخذها الآخر ، ويأتى بها إلى وليه ، كما جاء مصرحا به فى الصحيح ، كما قال البخارى فى تفسير هذه الآية :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن أبى هريرة — يبلُغُ به النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً(٤) لقوله كأنه سلسلة على صفوان(٥) ، قال على : وقال غيره : صفوان يَنْفُذُهم ذلك ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقَّ ، وهو العلىُّ الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا واحد فوق آخر — ووصف سفيان بيده فَفَرَّج بين أصابع يده اليمنى ، نَصَبَها بعضَها فوق بعض — فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرْمِيَ بها إلى صاحبه فيحرقَه ، وربما لم يدركه [حتى] يَرْمِيَ بها إلى الذى يليه ، [إلى الذى]هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى

(١) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٤/ ٩ ، ١٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٤/ ١١ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٦١ .
(٤) الخضعان — بضم الخاء — : مصدر « خضع يخضع خضوعا وخضعانا » ، كالغفران والكفران ، ويروى بكسر الخاء كالوجدان . ويجوز أن يكون جمع خاضع . وفى رواية : « خضعا لقوله » — بضم الخاء وتشديد الضاد — : جمع خاضع .
(٥) الصفوان : الحجر الأملس .

الأرض — وربما قال سفيان : «حتى تنتهي إلى الأرض فتُلْقَى على فم الساحر — أو : الكاهن[1] — فيَكذب معها مائة كَذبة ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا ، فوجدناه حقاً ؟ للكلمة التي سُمِعت من السماء[2] .

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ، ومده إياها وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة .

وقال ابن عباس : (من كل شيء موزون) ، أي : معلوم . وكذا قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وأبو مالك ، ومجاهد ، والحكم بن عُتَيبة ، والحسن بن محمد ، وأبو صالح ، وقتادة[3] .

ومنهم من يقول : مقدر بقدر .

وقال ابن زيد : من كل شيء يُوزَن ويقدر بقدر ، وقال ابن زيد : ما تزنه الأسواق .

وقوله : (وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) ، يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش ، وهي جمع معيشة .

وقوله : (ومن لستم له برازقين) — قال مجاهد : وهي الدواب والأنعام .

وقال ابن جرير : هم العبيد والإماء والدواب والأنعام[4] .

والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسَّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله تعالى .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كلّ شيء سهل عليه ، يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ، (وما ننزله إلا بقدر معلوم) ، كما يشاء وكما يريد ، ولما لَهُ في ذلك من الحكمة البالغة ، والرحمة بعباده ، لا على [جهة] الوجوب ، بل هو كتب على نفسه الرحمة .

قال يزيد بن أبي زياد ، عن أبي جُحَيفة ، عن عبد الله : ما من عام بأمطرَ من عام ، ولكن الله يقسمه حيث

---

(1) قوله : « أو الكاهن » . ليست في الصحيح .

(2) البخاري ، تفسير سورة الحجر : ٦/١٠١ .

(3) ينظر تفسير الطبري : ١٤/١٢ .

(4) تفسير الطبري ، ١٤/١٣ .

شاء ، عاماً هاهنا ، وعاماً هاهنا : ثم قرأ :(وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ،وما ننزله إلا بقدر معلوم) رواه ابن جرير(١) .

وقال أيضاً : حدثنا القاسم : حدثنا الحسن ، حدثنا هشيم ، أخبرنا إسماعيل بن سالم ، عن الحكم بن عُتَيْبة فى قوله : (وما ننزله إلا بقدر معلوم) ، قال : ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطَرقوم ويُحرَم آخرون [وربما](٢) كان فى البحر ــ قال : وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثرُ من عدَد ولد إبليس وولد آدم ، يُحصُون كلَّ قطرة حيث تقع وما(٣) تنبت .

وقال البزار : حدثنا داود ــ وهو ابن بكر التسترى ــ حدثنا حيَّان بن أغلب بن تميم ، حدثنى أبى ، عن هشام عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خزائن الله الكلام ، فإذا أراد شيئاً قال له : كن ، فكان » .

ثم قال : لا يرويه إلا « أغلب » ، ولم يكن بالقوى ، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ، ولم يروه عنه إلا ابنه .

وقوله : (وأرسلنا الرياح لواقح) ، أى : تلقح السحاب فتُدرّ ماء ، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها

هذه «الرياح » ذكرها بصيغة الجمع ، ليكون منها الإنتاج ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج ، لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعدا .

وقال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن قيس بن السكن ، عن عبد الله بن مسعود فى قوله : (وأرسلنا الرياح لواقح) ، قال : ترسل الريح ، فتحمل الماء من السماء ، ثم تَمرى السحاب(٤) ، حتى تَدِرَّ كما تَدِرّ اللَّقحة (٥) .

وكذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعى ، وقتادة .

وقال الضحاك : يبعثها الله على السحاب ، فتُلقِحُه ، فيمتلئ ماء .

وقال عُبَيد بن عُمَير الليثى : يبعث الله المُبشِّرة فتَقُمُّ الأرض قمّاً(٦) ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ، ثم تلا : (وأرسلنا الرياح لواقح)(٧) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤/١٤ .
(٢) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى . ومكانه فى المخطوطة : « بما » ، ليستقيم السياق .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤/١٤ .
(٤) مرى الناقة : مسح ضرعها ، فأمرت هى : در لبنها . وكلام عبد الله بن مسعود على سبيل التمثيل لأثر الريح فى السحاب . واللقحة ــ بكسر اللام وفتحها ــ : الناقة القريبة العهد بالنتاج ، واللقوح أيضاً : هى غزيرة اللبن .
(٥) تفسير الطبرى : ١٤/١٥ .
(٦) أى : تكنس الأرض كنساً .
(٧) تفسير الطبرى : ١٤/١٥ .

وقد روى ابن جرير ، من حديث عُبَيْس بن ميمون ، عن أبى المهزّم ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الريح الجنوب من الجنة ، وهى [الريح اللواقح ،وهى التى] (١) ذكر الله فى كتابه ، وفيها منافع للناس(٢) » .
وهذا إسناد ضعيف .

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيْدى فى مسنده : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى يزيد بن جُعْدُبَة الليثى : أنه سمع عبد الرحمن بن مخراق ، يحدّث عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق فى الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين ، وإن من دونها بابا مغلقاً ، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب ، ولو فتح لأذْرَتْ(٣) ما بين السماء والأرض من شئ ، وهى عند الله الأزْيَبُ (٤) وهى فيكم الجَنُوب » .

وقوله : (فأسقيناكموه) ؛ أى : أنزلناه لكم عَذْبا يُمكنكم أن تشربوا منه ، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً ، كما ينبه الله على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة « الواقعة » ، وهو قوله : (أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون (٥)) ، وفى قوله : (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (٦)) .

وقوله : (وما أنتم له بخازنين) ، قال سفيان الثورى : بمانعين (٧) .

ويحتمل أن المراد : وما أنتم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله مَعينا وينابيع فى الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا ، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ، ليبقى لهم فى طول السنة ، يشربون ويُسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله : (وإنا لنحن نحيى ونميت) ، إخبارٌ عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته ، وأنه هو الذى أحيا الخلق من العَدَم ، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع .

وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم ، أوّلهم وآخرهم : (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : المستقدمون : كل من هلك من لدن آدم عليه السلام ، والمستأخرون : من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامه .

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى : ١٤/١٥ .
(٣) يقال : « ذرته الريح وأذرته » : أطارته .
(٤) الأزيب : « من أسماء ريح الجنوب . وأهل مكة يستعملون هذا الاسم كثيراً » . هذا ما ذكره ابن الأثير فى النهاية .
وفى اللسان ، مادة « زيب » « قال شمر : ومن يركب البحر ، فيما بين جدة وعدة ، يسمون الجنوب : الأزيب ، لا يعرفون لها اسما غيره ، وذلك أنها تعصف الرياح ، وتثير البحر حتى تسوده ، وتقلب أسفله فتجعله أعلاه » .
(٥) سورة الواقعة ، الآيات : ٦٨ - ٧٠ .
(٦) سورة النحل ، آية : ١٠ .
(٧) تفسير الطبرى : ١٤/١٩ .

وروى نحوه عن عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، والشعبى ، وغيرهم ؛ وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، [عن رجل](٢) ، عن مَرْوان بن الحكم أنه قال : كان أناس يستأخرون فى الصفوف من أجل النساء فأنزل الله : (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين)(٣) .

وقد ورد فى هذا حديث غريب جدا ، فقال ابن جرير :

حدثنى محمد بن موسى الحَرَشىّ ، حدثنا (٤) نوح بن قيس ، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة ـ قال ابن عباس : لا والله ما إنْ رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى لئلا يراها ـ وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم !! فأنزل الله : (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) (٥) .

وكذا رواه أحمد (٦) وابن أبى حاتم فى تفسيره ، والترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما ، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحُدّانى ـ وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وحكى عن ابن معين تضعيفه ، وأخرج له مسلم وأهل السنن .

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة ، وقد رواه عبد الرزاق ، عن جعفر بن سليمان ، عن عمرو بن مالك وهو النُّكْرِىّ ؛ أنه سمع أبا الجوزاء يقول فى قوله : (ولقد علمنا المستقدمين منكم) ، فى الصفوف فى الصلاة (والمستأخرين) ـ فالظاهر أنه من كلام أبى الجوزاء فقط ، ليس فيه لابن عباس ذكر ، وقد قال الترمذى : « هذا أشبه من رواية نوح ابن قيس » ، والله أعلم .

وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبى معشر ، عن أبيه ؛ أنه سمع عون بن عبد الله يُذاكر محمدَ بنَ كعب فى قوله : (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) ، وأنها فى صفوف الصلاة ، فقال محمد بن كعب :

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/١٤ ، ١٧ .

(٢) ما بين القوسين من تفسير الطبرى ، ومكانه فى المخطوطة : « أخبرنا » .

(٣) تفسير الطبرى : ١٨/١٤ .

وفى هذه الرواية نظر ؛ فإن هذه الآية مكية ، وشهود النساء الصلاة فى جماعة إنما كان فى المدينة .

(٤) وقع فى السند : « حدثنا نوح بن قيس ، حدثنا عمرو بن قيس . . حدثنا عمرو » . بزيادة « عمرو بن قيس » ، وهى زيادة غير ثابتة فى كتب السنة التى خرجنا منها الحديث . ونوح بن قيس يروى عن عمرو النكرى ، ينظر التهذيب : ١٠/٤٨٥ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٨/١٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٠٥/١ ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحجر ، الحديث ٥١٢٨ : ٨/٥٥٠ ، ٥٥١ ، وقال الترمذى : « وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث ، عن عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، نحوه . ولم يذكر فيه : « عن ابن عباس » ، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح » . وسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : « الخشوع فى الصلاة » ، الحديث ١٠٤٦ : ٣٣٢/١ .

قبلهم هلكوا ، (ولقد علمنا المستقدمين منكم) : الميت والمقتول — (والمستأخرين) : من يُخلَقُ (١) بعدُ ، (وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) . فقال عون بن عبد الله : وفقك الله وجزاك خيراً (٢) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : المراد بالصلصال هاهنا : التراب اليابس .

والظاهر أنه كقوله تعالى : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار (٣)) .

وعن مجاهد أيضاً : (الصلصال) المنتن .

وتفسير الآية بالآية أولى :

وقوله : (من حمأ مسنون) ، أي : الصلصال من حمأ ، وهو : الطين . والمسنون الأملس ، كما قال الشاعر (٤) :

ثُمَّ خاصَرْتُها إلى القُبَّةِ الخَضْـ ... ـراءِ تَمْشِي في مَرْمَرٍ مَسْنُونِ

أي : أملس صقيل .

ولهذا روي عن ابن عباس : أنه قال هو التراب الرطب . وعن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك أيضاً : أن الحمأ المسنون هو المنتن . وقيل : المراد بالمسنون هاهنا المصبوب :

وقوله : (والجان خلقناه من قبل) ، أي : من قبل الإنسان ، (من نار السموم) — قال ابن عباس : هي السموم التي تقتل .

وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار . ومنهم من يقول : السموم بالليل ، والحرور بالنهار .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق قال : دخلت على عَمْرو الأصم أعوده ، فقال : ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود ، يقول : هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان . ثم قرأ : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم (٥)) .

وعن ابن عباس : أن الجان خُلق من لهب النار ، وفي رواية : من أحسن النار .

وعن عمرو بن دينار : من نار الشمس ، وقد ورد في الصحيح : « خُلِقَت الملائكة من نور ، وخُلِقَت الجان من مارج من نار ، وخُلِق بنو آدم مما وُصِف لكم (٦) » ومقصود الآية : التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة مَحْتِدِه .

---

(١) لفظ الطبري : « من يلحق بهم من بعد » .

(٢) تفسير الطبري : ١٤ / ٢٦ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ١٤ ، ١٥ .

(٤) هو عبد الرحمن بن حسان ، والبيت قاله في رملة بنت معاوية . وينظر خبر ذلك في الشعر والشعراء : [illegible] . والبيت في اللسان أيضاً ، مادة : « سنن » .

(٥) أخرجه الطبري من حديث شعبة ، به نحوه : ١٤ / ٢١ .

(٦) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « في أحاديث متفرقة » : ٨ / ٢٢٦ . ومسند الإمام أحمد عن عائشة : ٦ / [illegible] . وفي الصحيح : « وخلق آدم ... » وقد امتازت مخطوطة الأزهر بذكر : « بنو آدم » .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم فى ملائكته قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له . ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة ، حسداً وكفراً ، وعناداً واستكباراً ، وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) كما قال فى الآية الأخرى : (أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) (١) ، وقوله : (أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا)(٢) .

وقد روى ابنُ جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً ، من حديث شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما خلق الله الملائكة قال : إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته(٣) فاسجدوا له . قالوا : لانفعل . فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك ، [فقالوا : لا نفعل . فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم . ثم خلق ملائكة أخرى فقال : إنى خالق بشرا من طين ، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا . فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم . ثم خلق ملائكة فقال : إنى خالق بشرا من طين ، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له] (٤) . قالوا : سمعنا وأطعنا ، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين (٥) .

وفى ثبوت هذا عنه بعد ، والظاهر أنه إسرائيلى ، والله أعلم .

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالَف ولا يمانَع ، بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملأ الأعلى ، وإنه (رجيم) ، أى : مرجوم . وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به ، لاحقةً له ، متواترة عليه إلى يوم القيامة .

وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعنَ الله إبليس ، تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورنّ رنةً ، فكل رنةٍ فى الدنيا إلى يوم القيامة منها . رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٢ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٦٢ .

(٣) فى تفسير الطبرى : « فإذا أنا خلقته فاسجدوا له » .

(٤) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٢/١٤ .

وإنه لما تحقق الغضب الذى لا مَرَدَّ له ، سأل من تمام حسَده لآدم وذريته النَّظِرة إلى يوم القيامة ، وهو يوم البعث ، وإنه أجيب إلى ذلك استدراجا له وإمهالا ، فلما تحقق النظرةَ قبحه الله :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب : (بما أغويتنى) — قال بعضهم : أقسم بإغواء (١) الله له .

قلت : ويحتمل أنه بسبب ما أغويتنى وأضللتنى (لأزينن لهم) ، أى : لذرية آدم عليه السلام ، (فى الأرض) أى : أحبب إليهم المعاصى وأرغِّبهم فيها ، وأؤزّهم (٢) إليها ، وأزعجهم إزعاجا ، (ولأغوينهم)أى : كما أغويتنى وقدَّرت علىَّ ذلك ، (أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ، كما قال : (أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٣)) .

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً : (هذا صراط على مستقيم) ، أى : مرجعكم كلكم إلىَّ ، فأجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر كما قال تعالى : (إن ربك لبالمرصاد (٤)) .

وقيل : طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى ، وإليه تنتهى . قاله مجاهد (٥) ، والحسن ، وقتادة كما قال : (وعلى الله قصد السبيل (٦)) .

وقرأ قيس بن عُبَاد ، ومحمد بن سيرين ، وقتادة : (هذا صراط علىٌّ مستقيم) ، كقوله : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىٌّ حكيم (٧)) ، أى : رفيع والمشهور القراءة الأولى (٨) .

وقوله : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ، أى : الذين قدرتُ لهم الهداية ، فلا سبيل لك عليهم ، ولا وصول لك إليهم ، (إلا من اتبعك من الغاوين) ، استثناء منقطع .

---

(١) ذكر ذلك ابن جرير الطبرى ، قال ١٤/٢٣ : « وكأن قوله بما أغويتنى خرج مخرج القسم ، كما يقال : « بالله أو بعزة الله لأغوينهم » .

(٢) أزهم حركهم وأزعجهم .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٢ .

(٤) سورة الفجر ، آية : ١٤ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٤/٢٣ .

(٦) سورة النحل ، آية : ٩ .

(٧) سورة الزخرف ، آية : ٤ .

(٨) ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٥/٤٥٤ .

وقد أورد ابنُ جرير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك ، عن عبد (١) الله بن موهب ، حدثنا يزيد بن قُسَيط قال : كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجةً من قراهم ، فإذا أراد النبي أن يستنبئ ربه عن شيء ، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له ، ثم سأل ما بدا له ، فبينا نبيٌّ في مسجده إذ جاء عدو الله – يعني إبليس – حتى جلس بينه وبين القبلة ، فقال النبي : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، [فقال عدوّ الله : أرأيتَ الذي تَعَوَّذُ منه ؟ فهو هو ، فقال النبي : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (٢) »] قال : فَرَدَّدَ ذلك ثلاث مرات ، فقال عدو الله : أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟ فقال النبي : بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم ؟ مرتين ، فأخذ كل [واحد] منهما على صاحبه ، فقال النبي : إن الله تعالى يقول : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين) – قال عدو الله : قد سمعت هذا قبل أن تولد ، قال النبي : ويقول : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) ، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك ، قال عدو الله : صدقتَ ، بهذا تنجو مني ، فقال النبي : أخبرني بأيِّ شيء تغلبُ ابن آدم ؟ قال : آخذه عند الغضب والهوى (٣) .

وقوله : (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) ، أي : جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده (٤)) .

ثم أخبر أن لجهنم سبعةَ أبواب ، (لكل باب منهم جزء مقسوم) ، أي : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه ، لا محيد لهم عنه – أجارنا الله منها – وكلٌّ يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في دَرَكه بقدر فعله .

قال إسماعيل ابن عُلَيَّة وشعبة كلاهما ، عن أبي هارون الغَنَوِيّ ، عن حِطّان بن عبد الله أنه قال : سمعت علي ابن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا – قال أبو هارون : أطباقا بعضها فوق بعض (٥) .

وقال إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن هُبَيرة بن يَرِيم (٦) ، عن علي رضي الله عنه قال : أبواب جهنم ، سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلئ الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تُمْلأَ كلها (٧) .

وقال عكرمة : (سبعة أبواب) : سبعة أطباق .

وقال ابن جُرَيج : (سبعة أبواب) : أولها جهنم ، ثم لظىً ، ثم الحُطَمة ، ثم سعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

وروى الضحاك عن ابن عباس ، نحوه ، وكذا [روى] عن الأعمش بنحوه أيضاً .

---

(١) في تفسير الطبري : « عبيد الله » ، وهو خطأ ، ينظر الخلاصة .

(٢) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، وهو سقط نظر ، أثبتناه من تفسير الطبري .

(٣) تفسير الطبري : ٣٤/١٤ .

(٤) سورة هود ، آية : ١٧ .

(٥) تفسير الطبري : ١٤ / ٢٤ .

(٦) في المخطوطة : « مريم » . بالميم ، ومثله في تفسير الطبري ، المثبت من المشتبه : ٦٦٢ ، وترجمته في الخلاصة .

(٧) تفسير الطبري : ٢٤/١٤ .

وقال قتادة : (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) ، هي والله منازل بأعمالهم . رواهن ابن جرير (١) .

وقال جُويبر ، عن الضحاك : (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) ، قال : باب لليهود ، وباب للنصارى ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا — وهم كفار العرب — وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد ، [فأهلُ التوحيد] يُرجَى لهم ولا يُرجَى لأولئك أبداً .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عثمان بن عمر ، عن مالك بن مغْوَل ، عن جُنَيد (٢) ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لجهنم سبعة أبواب : باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي — أو قال : على أمة محمد » .

ثم قال : لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغْوَل (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ، عباس بن الوليد الخلال ، حدثنا زيد — يعني ابن يحيى — حدثنا سعيد ابن بشير ، عن قتادة ، عن أبي نضرة ، عن سَمُرة بن جُندب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (لكل باب منهم جزء مقسوم) — قال : إن [من] أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجْزَته (٤) ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه منازل بأعمالهم ، فذلك قوله : (لكل باب منهم جزء مقسوم (٥)

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار ، عطف على ذكر أهل الجنة ، وأنهم في جنات وعيون .

وقوله : (ادخلوها بسلام) ، أي : سالمين من الآفات ، مسلماً عليكم ، (آمنين) من كل خوف وفزع ، ولا تخشَوا من إخراج ، ولا انقطاع ، ولا فناء .

وقوله : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين) — روى القاسم ، عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنةَ على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافَوا وتقابلوا نزَع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) (٦) .

---

(١) لم نجد الآثار الثلاثة الأخيرة في تفسير الطبري عند هذه الآية .

(٢) في المخطوطة : « حميد » . والمثبت من الترمذي وفي الجرح لابن أبي حاتم ١ / ١ / ٥٢٧ : « جنيد ، روى عن ابن عمر ، مرسل ، روى عنه مالك بن مغول » .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الحجر ، الحديث ٥١٢٩ : ٨/٥٥١ ، ٥٥٢ . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذي : « وأخرجه البخاري في تاريخه » .

(٤) الحجزة — بضم فسكون — : معقد الإزار .

(٥) أخرجه مسلم بنحوه في كتاب الجنة ، من حديث سعيد عن قتادة ، ينظر باب : في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين : ٨/١٥٠ . وأخرجه الإمام أحمد أيضاً من طريق سعيد : ٥/١٠ ، ١٨ .

(٦) تفسير الطبري : ١٤/٢٥ .

هكذا فى هذه الرواية ، والقاسم بن عبد الرحمن ــ فى روايته عن أبى أمامة ــ ضعيف .

وقد روى سُنَيد فى تفسيره : حدثنا ابن (١) فضالة ، عن لقمان ، عن أبى أمامة قال : لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله مافى صدورهم من غل ، حتى ينزع منه مثل السبع الضارى (٢) .

وهذا موافق لما فى الصحيح ، من رواية قتادة ، حدثنا أبو المتوكل الناجى : أن أبا سعيد الخدرى حدثهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَخلُص المؤمنون من النار ، فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتَصّ لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا ، أذن لهم فى دخول الجنة (٣) » .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا هشام ، عن محمد ــ هو ابن سيرين ــ قال : استأذن الأشتر على علىّ رضى الله عنه ، وعنده ابن لطلحة ، فحبسه ثم أذن له . فلما دخل قال : إنى لأراك إنما احتبستنى لهذا ؟ قال : أجل . قال : إنى لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستنى ؟ قال : أجل ، إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى : (ونزعنا مافى صدورهم من غل) على سرر متقابلين . (٤)

وحدثنا الحسن : حدثنا أبو معاوية الضرير ، حدثنا أبو مالك الأشجعى ، عن أبى حبيبة ــ مولى لطلحة ــ قال : دخل عمران بن طلحة على علىّ رضى الله عنه ، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل ، فرحب به وقال : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال الله : (ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) ــ قال : ورجلان جالسان على ناحية البساط ، فقالا : الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس ، وتكونون إخوانا ! فقال على رضى الله عنه : قُوما أبعد أرض وأسحقها ! فمن هو إذاً إن لم أكن أنا وطلحة ، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله (٥) .

وروى وكيع ، عن أبان بن عبد الله البجلى ، عن نُعَيم بن أبى هند ، عن ربعى بن جراش ، عن على ، نحوه ــ وقال فيه : فقام رجل من هَمْدان فقال : الله أعدل من ذاك يا أمير المؤمنين . قال : فصاح به علىّ صيحة ، فظننت أن القصر تَدَهْدَه (٦) لها ، ثم قال : إذا لم نكن نحن فمن هو (٧) ؟ .

وقال سعيد بن مسروق ، عن أبى طلحة ــ وذكره ــ فيه : فقال الحارث الأعور ذلك ، فقام إليه على رضى الله عنه فضربه بشىء كان فى يده فى رأسه ، وقال : فمن هم يا أعور إذا لم نكن نحن ؟

---

(١) فى تفسير الطبرى : « حدثنا أبو فضالة » . وكلاهما صواب وهو الفرج بن فضالة بن النعمان ، وكنيته أبو فضالة . ينظر ترجمته فى التهذيب : ٨ / ٢٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٥ . ولفظه : « ..من غل ، ثم ينزع » .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصاص يوم القيامة » : ٨ / ١٣٨ ، ١٣٩ . ومسند الإمام أحمد : ٣ / ١٣ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٦ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٥ ، ٢٦ .

(٦) معنى تفسير هذه الكلمة فى : ٣ / ٣٠٤ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٥ .

وقال سفيان الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علىّ رضى الله عنه ، فحجبه طويلا ، ثم أذن له . فقال له : أما أهل البلاء فتجفوهم . فقال على : بفيك التراب ، إنى لأرجو أنأكون أنا وطلحة والزبير ، ممن قال الله : (ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) .

وكذا روى الثورى ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن على ، بنحوه .

وقال سفيان بن عيينة ، عن اسرائيل ، عن أبى موسى ، سمع الحسن البصرى يقول : قال على : فينا والله — أهل بدر — نزلت هذه الآية : (ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) .

وقال كثير النّواء : دخلت على أبى جعفر محمد بن على فقلت : ولىى وليكم ، وسلمى سلمكم ، وعدوى عدوكم ، وحَربى حَربكم . إنى أسألك بالله : أتبرأ من أبى بكر وعمر ؟ فقال : (قد ضللت إذاً ، وما أنا من المهتدين) ، تولهما ياكثير ، فما أدركك فهو فى رقبتى هذه ، ثم تلا هذه الآية : (إخوانا على سرر متقابلين) — قال : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقال الثورى ، عن رجل ، عن أبى صالح فى قوله : (إخوانا على سرر متقابلين) ، قال : هم عشرة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقوله : (متقابلين) — قال : مجاهد لا ينظر بعضهم فى قفا بعض (١) .

وفيه حديث مرفوع ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان ، حدثنا إبراهيم بن بشير (٢) ، حدثنا يحيى بن معين ، عن إبراهيم القرشى (٣) ، عن سعيد بن شرحبيل ، عن زيد بن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا هذه الآية : (إخوانا على سرر متقابلين) ، فى الله ، ينظر بعضهم إلى بعض .

وقوله : (لا يمسهم فيها نصب) ، يعنى المشقة والأذى ، كما جاء فى الصحيحين ، : « إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصَب ، لا صخب فيه ولا نصب » (٤) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٦ .

(٢) فى المخطوطة « بشر » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١ / ١ / ٩٠ .

(٣) فى المخطوطة : « ابراهيم القومسى » . والمثبت من المرجع السابق : ١ / ١ / ١٥٠ .

(٤) البخارى ، أبواب العمرة ، باب « متى يحل المعتمر » : ٣ / ٧ ، ٨ . ومناقب الأنصار ، باب « تزويج النبى صلى الله عليه وسلم عائشة وفضلها رضى الله عنها » : ٥ / ٤٨ . وكتاب التوحيد : ٩ / ١٧٦ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضائل خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها » : ٧ / ١٣٣ .

والمراد بالقصب : اللؤلؤ المجوف . والصخب : الصوت المختلط المرتفع . والنصب : المشقة والتعب .

وقوله : (وما هم منها بمخرجين) ، كما جاء فى الحديث : « يقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا »(١) .

وقال الله تعالى : (خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) (٢) .

وقوله : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم • وأن عذابى هو العذاب الأليم) ، أى : أخبر يا محمد عبادى أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم .

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة ، وهى دالة على مقامى الرجاء والخوف ، وذكر فى سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه يضحكون ، فقال : « اذكروا الجنة ، واذكروا النار » ، فنزلت : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم • وأن عذابى هو العذاب الأليم) ، رواه ابن أبى حاتم ، وهو مرسل .

وقال ابن جرير ، حدثنى المثنى ، حدثنا إسحاق ، أخبرنا ابن المكى ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا مصعب بن ثابت ، حدثنا عاصم بن عبيد الله ، عن ابن أبى رباح ، عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة ، فقال : « ألا أراكم تضحكون ؟ » ثم أدبر ، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى ، فقال : « إنى لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ؟ إن الله يقول : لم تقنط عبادى ؟ (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم • وأن عذابى هو العذاب الأليم) (٣) .

وقال سعيد ، عن قتادة فى قوله تعالى : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) ــ قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه » (٤) :

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى : وخبرهم يا محمد عن قصة (ضيف إبراهيم) ــ والضيف : يطلق على الواحد والجمع ، كالزَّور والسَّفْر ــ وكيف (دخلوا عليه فقالوا : سلاماً ، قال : إنا منكم وجلون) ، أى : خائفون .

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة ، وهو العجل السمين الحنيذ .

(قالوا : لا توجل) ، أى : لا تخف ، (وبشروه بغلام عليم)ــ وهو إسحاق عليه السلام ، كما تقدم فى سورة هود ،

---

(١) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فى دوام نعيم أهل الجنة » : ٨ / ١٤٨ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١٠٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٧ .

(٤) أى : قهر نفسه وأهلكها ، والأثر فى تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٧ .

ثم (قال) متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد : (أبشرتموني على أن مسني الكبر ؟ فبم تبشرون ؟) ، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ، (قالوا : بشرناك بالحق ، فلا تكن من القانطين) — وقرأ بعضهم : (القَنِطين) (١) — فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنّت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى إخبارا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى : إنه شرع يسألهم عما جاءوا له ، فقالوا : (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) ، يعنون قوم لوط : وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين . ولهذا قالوا : (إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) ، أي : الباقين المهلكين .

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه ، فدخلوا عليه داره ، قال : (إنكم قوم منكرون ، قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) ، يعنون : بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم . (وآتيناك بالحق) ، كما قال تعالى : (ما ننزل الملائكة إلا بالحق (٢)) .

وقوله : (وإنا لصادقون) ، تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به ، من نجاته وإهلاك قومه .

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يُسرى بأهله بعد مُضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ، ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقة ، يُزجي الضعيف ، ويحمل المنقطع (٣) .

---

(١) ينظر تفسير الطبري : ١٤ / ٢٨ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٥ / ٤٥٩ .

(٢) سورة الحجر ، آية : ٨ .

(٣) يزجي الضعيف : أي يسوقه ليلحقه بالرفاق ، والمنقطع : المنفرد . والحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب « في لزوم الساقة » برقم ٢٦٣٩ : ٣ / ٤٤ عن جابر بن عبد الله ، ولفظه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في المسير ، فيزجي الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم » .

وقوله : (ولا يلتفت منكم أحد) ، أى : إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ، (وامضوا حيث تؤمرون) ، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل .

(وقضينا إليه ذلك الأمر) ، أى : تقدمنا إليه فى هذا (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ، أى : وقت الصباح كما قال فى الآية الأخرى : (إن موعدهم الصبح ، أليس بقريب (١)) :

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن مجىء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ، (قال : إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون) :

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما فى سياق سورة هود ، وأما هاهنا فتقدم ذكرُ أنهم رسل الله ، وعطف بذكر مجىء قومه ومحاجته لهم . ولكن الواو لا تقتضى الترتيب ، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه ، فقالوا له مجيبين : (أولم ننهك عن العالمين) ، أى : أوما نهيناك أن تضيف أحدا ؟ فأرشدهم إلى نسائهم ، وماخلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم أيضا القول فى ذلك ، بما أغنى عن إعادته (٢) :

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم ، وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر : ولهذا قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) ، أقسم تعالى بحياة نبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفى هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع وجاه عريض .

قال عمرو بن مالك النُّكْرىّ ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره : قال الله تعالى (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) : رواه ابن جرير (٣) :

وقال قتادة : (فى سكرتهم) ، أى : فى ضلالتهم ، (يعمهون) ، أى : يلعبون .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (لعمرك) : لعيشك ، (إنهم لفى سكرتهم يعمهون) ، قال : يتحيَّرون (٤) .

---

(١) سورة هود ، آية : ٨١ .
(٢) ينظر تفسير سورة الأعراف : ٣ / ٤٤١ ، ٤٤٢ . وتفسير سورة هود : ٤ / ٢٦٧ - ٢٧٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ٣٠ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ولكن « الهاء » أقرب إلى « الميم » . وفى تفسير الطبرى ١٤ / ٣٤ : « يترددون » .

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

يقول : (فأخذتهم الصيحة) ، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها ، وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجّيل عليهم . وقد تقدم الكلام على السجيل فى هود بما فيه كفاية .

وقوله : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) ، أى : إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسّمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد فى قوله : (للمتوسمين) ، قال : المتفرسين .

وعن ابن عباس ، والضحاك : للناظرين . وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مالك عن بعض أهل المدينة : (للمتوسمين) : للمتأملين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير العبْدى ، عن عمرو بن قيس ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله . ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) .

رواه الترمذى ، وابن جرير ، من حديث عمرو بن قيس الملائى ، وقال الترمذى : لا نعرفه إلا من هذا الوجه(١) .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنى أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا الفرات بن السائب ، حدثنا ميمون بن مهْران ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإن المؤمن ينظر بنور الله » (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنى أبو شرحبيل الحمصى ، حدثنا سليمان بن سلمة ، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرَّحبى ، حدثنا أبو المعلى أسد بن وَداعة الطائى ، حدثنا وهب بن مُنبّه ، عن طاوس بن كيسان ، عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احذروا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله [وينطق] بتوفيق الله »(٣) .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الأعلى بن واصل ، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى ، حدثنا عبد الواحد بن واصل ، حدثنا أبو بشر المزلق ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم » .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى ، حدثنا أبو بشر — يقال له : ابن المزلق ، قال : وكان ثقة — عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم » .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحجر ، الحديث ٥١٣٣ : ٨ / ٥٥٤ — ٥٥٦ . وتفسير الطبرى : ١٤ / ٣١ ، ٣٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ٣٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ٣٢ . وما بين القوسين عنه .

وقوله : (وإنها لبسبيل مقيم) ، أى : وإن قرية سدوم التى أصابها [ما أصابها] من القلب الصورى والمعنوى ، والقذف بالحجارة ، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة لبطريق مهيع(١) مسالكه ، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين : وبالليل أفلا تعقلون)(٢) :

وقال مجاهد ، والضحاك : (وإنها لبسبيل مقيم)، قال: معلم : وقال قتادة : بطريق واضح : وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد :

وقال السدى : « بكتاب مبين » ، يعنى كقوله : (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) : ولكن ليس المعنى على ما قال هاهنا ، والله أعلم .

وقوله : (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) ، أى : إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله ، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب .

قال الضحاك ، وقتادة ، وغيرهما : الأيكة الشجر الملتف :

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان . فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ، ومسامتين لهم فى المكان ، ولهذا قال تعالى: (وإنهما لبإمام مبين) ، أى : طريق مبين .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : طريق ظاهر . ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم : (وما قوم لوط منكم ببعيد)(٣) .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

أصحاب الحجر هم : ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين .

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح ، كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح

(١) طريق مهيع : واضحة .
(٢) سورة الصافات ، آية : ١٣٧ .
(٣) سورة هود ، آية : ٨٩ .

من صخرة صماء ، فكانت تسرح فى بلادهم ، لها شرْب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتَوا وعقَرُوها قال لهم: (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب) (١) ، وقال تعالى :(وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى) (٢) .

وذكر تعالى : أنهم (كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) ، أى : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطرا وعبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر ، الذى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك فقَنّع(٣) رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه: « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم(٤) » .

وقوله :(فأخذتهم الصيحة مصبحين) . أى : وقت الصباح من اليوم الرابع ، (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون)، أى : ماكانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضنُّوا بمائها عن الناقة ، حتى عقروها لئلا تُضيّق عليهم فى المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى : (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ، أى : بالعدل ، (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (٥) ، وقال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)(٦) ، وقال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)(٧) .

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة ، وإنها كائنة لا محالة : ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين ، فى أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به ، كما قال تعالى : (فاصفح عنهم وقل : سلام ، فسوف يعلمون)(٨) .

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : « كان هذا قبل القتال »(٩) . وهو كما قالا ، فإن هذه مكية ، والقتال إنما شرع بعد الهجرة .

وقوله : (إن ربك هو الخلاق العليم) ، تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ؛ فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء ، وهو العليم بما تمزق من الأجساد ، وتفرق فى سائر أقطار الأرض ، كما قال تعالى (أوليس الذى خلق

---

(١) سورة هود ، آية : ٦٥ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ١٧ .
(٣) أى : سجى ثوبه على رأسه .
(٤) ينظر سيرة ابن هشام : ٢ / ٥٢١ ، ٥٢٢ .
(٥) سورة النجم ، آية : ٣١ .
(٦) سورة « ص » ، آية : ٢٧ .
(٧) سورة « المؤمنون » ، آية : ١١٥ ، ١١٦ .
(٨) سورة الزخرف ، آية : ٨٩ .
(٩) تفسير الطبرى : ١٤ / ٣٥ .

السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، وإليه ترجعون) (١) .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه : كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، [فلا تغبطهم بما هم فيه] ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك : (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)(٢) ، أى : ألن لهم جانبك ، كما قال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم) (٣) .

وقد اختلف فى السبع المثانى : ما هى ؟ فقال ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك وغير واحد : «هى السبع الطُّوَل » . يعنون : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ، نص عليه ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

وقال سعيد : بيَّن فيهن الفرائض ، والحدود ، والقصص ، والأحكام .

وقال ابن عباس : بين الأمثال والخَبَر والعِبَر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : (المثانى) ، المُثَنَّى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال وبراءة سورة واحدة .

قال ابن عباس : ولم يُعْطَهن أحد إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، وأعطى موسى منهن ثنتين . رواه هُشَيم، عن الحجاج ، عن الوليد بن العيزار ، عن سعيد بن جُبَير عنه(٤) .

وقال الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أوتى النبى صلى الله عليه وسلم سبعاً من المثانى الطُّوَل ، وأوتى موسى عليه السلام ستاً ، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع .

وقال مجاهد : هى السبع الطُول ــ ويقال : هى القرآن العظيم(٥) .

وقال خُصَيف ، عن زياد بن أبى مريم فى قوله تعالى : (سبعاً من المثانى) ، قال : أعطيتك سبعة أجزاء : آمر ، وأنهى ، وأبشر ، وأنذر ، وأضرب الأمثال ، وأعدِّد النعم ، وأنبئك بنبأ القرآن . رواه ابن جرير (٦) ، وابن أبى حاتم .

---

(١) سورة « يس » ، الآيات : ٨١ ــ ٨٣ .
(٢) هذا لفظ آية الشعراء : ٢١٥ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ١٢٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٤/٣٥ .
(٥) المصدر السابق : ١٤/٣٦ .
(٦) المصدر السابق : ١٤/٣٩ . هذا وقد كان ينبغى أن يفرد ابن كثير هذا الأثر عن الآثار السابقة ، فهو يمثل قولا آخر ، وهو أن المقصود بالسبع المثانى معانى القرآن . وقد بين ذلك ابن جرير الطبرى .

والقول الثانى : أنها الفاتحة ، وهى سبع آيات . روى ذلك عن عمر وعلى ، وابن مسعود ، وابن عباس – قال ابن عباس : والبسملة هى الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها . وبه قال إبراهيم النخعى ، وعبد الله ابن عُبَيد بن عُمَير ، وابن أبى مليكة ، وشهر بن حوشب ، والحسن البصرى ، ومجاهد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب ، وأنهن يثنين فى [كل](١) قراءة – [وفى رواية فى] كل ركعة مكتوبة أو تطوع .

واختاره ابن جرير ، واحتج بالأحاديث الواردة فى ذلك ، وقد قدمناها فى فضائل « سورة الفاتحة » فى أول التفسير ، ولله الحمد (٢) .

وقد أورد البخارى رحمه الله هاهنا حديثين ، أحدهما قال :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن خُبَيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم ، عن أبى سعيد بن المعلّى قال : «مر بى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أصلى، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: ما منعك أن تأتينى؟ فقلت : كنت أصلى . فقال : ألم يقل الله : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) ، ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج ، فذكّرته فقال : (الحمد لله رب العالمين) ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

الثانى قال : حدثنا آدم ، حدثنا ابن أبى ذئب ، حدثنا المقبرى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم القرآن هى : السبع المثانى والقرآن العظيم » (٣) .

فهذا نص فى أن الفاتحة السبع المثانى والقرآن العظيم ، ولكن لا ينافى وصف غيرها من السبع الطّوَل بذلك ، لما فيها من [هذه] الصفة ، كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً ، كما قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى (٤) ، فهو مثانى من وجه ، ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضاً ، كما أنه عليه السلام لما سُئل عن المسجد الذى أسس على التقوى ، فأشار إلى مسجده ، والآية نزلت فى مسجد قُباء ، فلا تنافى ، فإنّ ذكر الشىء لا ينفى ذكر ما عداه إذا اشتركا فى تلك الصفة ، والله أعلم .

وقوله : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) ، أى : استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين زيادة يستقيم بها السياق . وقد روى الأثران فى تفسير الطبرى : ١٤/ ٣٩ .
(٢) ينظر : ١/ ٢١ – ٢٣ .
(٣) البخارى، تفسير سورة الحجر : ٦/ ١٠١ ، ١٠٢ .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٢٣ .

ومن هاهنا ذهب ابن عُيَينة إلى تفسير الحديث الصحيح : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » (١) ، إلى أنه يُستغنى به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث ، كما تقدم فى أول التفسير .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن وكيع بن الجراح ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط ، عن أبى رافع صاحب النبى صلى الله عليه وسلم قال : أضاف النبى صلى الله عليه وسلم ضيفاً ، ولم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم شىء (٢) يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود : يقول لك محمد رسول الله : أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب . قال : لا ، إلا برَهْن . فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم [فأخبرته](٣) فقال : أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا)... الى آخر الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (لا تمدن عينيك) ــ قال : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه (٤) .

وقال مجاهد : (إلى ما متعنا به أزواجا منهم) ، هم : الأغنياء .

وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يأمر تعالى نبيه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أن يقول للناس : إنه (النذير المبين) ، البين النِّذَارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

وقوله : (المقتسمين) ، أى : المتحالفين . أى : تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح . أنهم (قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) (٥) ، أى : نقتلهم ليلا ، قال مجاهد : تقاسموا : تحالفوا .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لا يبعث الله من يموت) (٦) ، (او لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) (٧) ،

---

(١) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) : ٩/١٨٨ ، وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « استحباب الترتيل فى القراءة » ، الحديث ١٤٦٩ : ٢/٧٤ ، وسنن الدارمى ، كتاب الصلاة ، باب : « التغنى بالقرآن » ، الحديث ١٤٩٨ : ١/٢٨٨ ، وكتاب فضائل القرآن ، باب : « التغنى بالقرآن » ، الحديث ٣٤٩١ : ٢/٣٣٨ . ومسند الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص : ١/١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

(٢) فى المخطوطة : « أمراً يصلحه » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين عن الطبعات السابقة .

(٤) تفسير الطبرى : ١٤/٤٢ .

(٥) سورة النمل ، آية : ٤٩ . وسيأتى أثر مجاهد عند هذه الآية .

(٦) سورة النحل ، آية : ٣٨ .

(٧) سورة إبراهيم ، آية : ٤٤ .

(أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة (١) ، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه ، فسموا مقتسمين .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح ، الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله (٢) .

وفي الصحيحين ، عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحق » .

وقوله : (الذين جعلوا القرآن عضين) ، أي : جزَّءوا كتبهم المنزلة عليهم ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض (٣) .

قال البخاري : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أنبأنا أبو بشر ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس : (جعلوا القرآن عضين) — قال : هم أهل الكتاب ، جزَّءوه أجزاء ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه .

حدثنا عُبَيد الله بن موسى ، عن الأعمش ، عن أبي ظَبْيَان ، عن ابن عباس : (جعلوا القرآن عضين) — قال : هم أهل الكتاب ، جزءوه أجزاء ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه (٤) .

حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن الأعمش ، عن أبي ظَبيان ، عن ابن عباس : (كما أنزلنا على المقتسمين) — قال : آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض : اليهود والنصارى (٥) .

قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك ، مثل ذلك .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (جعلوا القرآن عضين) ، قال : السحر .

وقال عكرمة : « العَضْه » . السحر بلسان قريش ، تقول للساحرة : إنها العاضهة (٦) .

وقال مجاهد : عَضَوه أعضاءً (٧) ، قالوا : سحر ، وقالوا : كهانة ، وقالوا : أساطير الأولين .

وقال عطاء : « قال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : مجنون . وقال (بعضهم) كاهن . فذلك العضين » .
وكذا روي عن الضحاك وغيره .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٤٩ .
(٢) تفسير الطبري : ١٤/٤٤ .
(٣) البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب « الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ٩/١١٥ . وكتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي » : ٨/١٢٧ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم » : ٧/٦٣ .
(٤) لم يرد هذا الأثر في كتاب التفسير من الصحيح . ونخشى أن يكون قد سقط منه ، وهو سقط نظر . ولم نجد هذه الرواية أيضاً في فتح الباري : ٨/٢٦٧ .
(٥) البخاري ، تفسير سورة الحجر : ٦/١٠٢ .
(٦) في المخطوطة : « إنها الكاهنة » . فأثبتنا ما في تفسير الطبري : ١٤/٤٥ ، والطبعات السابقة .
(٧) أي : فرقوه فرقاً .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد ، عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس : أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا شرف فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردُّ قولكم بعضُه بعضا . فقالوا : وأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال : بل أنتم قولوا لأسمع . قالوا : نقول : «كاهن» . قال : ما هو بكاهن . قالوا : فنقول : «مجنون» . قال : ما هو بمجنون ! قالوا : فنقول : «شاعر» . قال : ما هو بشاعر ! قالوا : فنقول : «ساحر» . قال : ما هو بساحر ! قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله حلاوة ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا : هو ساحر . فتفرقوا عنه بذلك ، وأنزل الله فيهم : (الذين جعلوا القرآن عضين) ، أصنافا ، (فو ربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون) ، دُوينك النفر الذين قالوا : ذلك لرسول الله .

وقال عطية العوفى ، عن ابن عمر فى قوله : (لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ــ قال : عن لا إله إلا الله .

وقال عبد الرزاق . أنبأنا الثورى ، عن ليث ــ هو ابن أبى سليم ــ عن مجاهد ، فى قوله : (لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ــ قال : عن لا إله إلا الله .

وقد روى الترمذى ، وأبو يعلى الموصلى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث شريك القاضى ، عن ليث ابن أبى سليم ، عن بشير بن نهيك ، عن أنس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : (فو ربك لنسألنهم أجمعين) : عن لا إله إلا الله .

ورواه ابن إدريس ، عن ليث ، عن بشير ، عن أنس موقوفا . (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عُكَيم قال: قال عبدالله ــ هو ابن مسعود ــ : والذى لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة ، كما يخلو أحدكم (٢) بالقمر ليلة البدر ، فيقول : ابنَ آدم ، ماذا غرك منى بى ؟ ابنَ آدم ، ماذا عملتَ فيما علمت ؟ ابنَ آدم ، ماذا أجبت المرسلين (٣)

وقال أبو جعفر : عن الربيع ، عن أبى العالية : (فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون) ــ قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة ، عما كانوا يعبدون ، وما ذا أجابوا المرسلين .

وقال ابن عيينة : عن عملك ، وعن مالك .

---

(١) ينظر الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ٤٦/١٤ ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحجر ، الحديث ٥١٣٤ : ٥٥٧/٨ ، ٥٥٨ . وقد وقع فى الترمذى : «عن بشر عن أنس» . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : «قال فى التقريب : بشر عن أنس ، قيل : هو ابن دينار ، مجهول من السادسة» . هذا وقد ورد فى تفسير الطبرى أيضاً : «بشير بن نهيك» ، فالله أعلم .

(٢) عند رؤية القمر يظن الرائى أنه قد انفرد برؤيته ، وأنه له وحده ، لا يشاركه فيه أحد .

(٣) تفسير الطبرى : ٤٦/١٤ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيّ ، حدثنا يونس الحذاء (١) عن أبي حمزة الشيباني ، عن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا أُلفينّك يوم القيامة ، وأحدٌ أسعد بما آتى الله منك » .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون) ، ثم قال : (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) — قال : لا يسألهم : هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ؟

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصَّدع به ، وهو مواجهة المشركين به ، كما قال ابن عباس : (فاصدع بما تؤمر) ، أي : أمضه — وفي رواية : افعل ما تؤمر (٢) .

وقال مجاهد : هو الجهر بالقرآن في الصلاة .

وقال أبو عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود (٣) : مازال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا ، حتى نزلت : (فاصدع بما تؤمر) ، فخرج هو وأصحابه (٤) .

وقوله : (وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين) ، أي : بلغ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلى المشركين [الذين] يريدون أن يصدوك عن آيات الله . (ودوا لو تدهن فيدهنون)(٥) ، ولا تخفهم ؛ فإن الله كافيك إياهم ، وحافظك منهم ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس) (٦) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا عون بن كَهْمَس ، عن يزيد بن درهم ، عن أنس قال : سمعت أنساً يقول في هذه الآية : (إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله

---

(١) لعله : يونس بن أبي الفرات القرشي مولاهم الإسكاف . يروى عن أبي حمزة جار شعبة ، ينظر ترجمته في التهذيب : ١١/٤٦٦ ، وأما أبو حمزة جار شعبة فهو : عبد الرحمن بن عبد الله المازني البصري ، وقد وقع في اسمه خلاف ، ينظر ترجمته في التهذيب : ٦/٢١٩ ، والجرح لابن أبي حاتم : ٢/٢/٢٥٧ . وأما « الشيباني » : فهكذا في الطبعات السابقة ، وفي المخطوطة « البسالي » .

(٢) تفسير الطبري : ١٤/٤٧ .

(٣) ورد الأثر في تفسير الطبري ١٤/٤٧ : « عن موسى بن عبيدة ، عن أخيه عبد الله بن عبيدة » . وقد ورد السند في الدر المنثور ٤/١٠٦ ، كما هنا من طريق أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود .

(٤) تفسير الطبري : ١٤/٤٧ .

(٥) سورة القلم ، آية : ٩ .

(٦) سورة المائدة ، آية ، ٦٧ .

إلها آخر) ، قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغمزه بعضهم ، فجاء جبريل ــ أحسبه قال : فغمزهم فوقع فى أجسادهم ، كهيئة الطعنة حتى ماتوا .

وقال محمد بن إسحاق : كان عظماء المستهزئين ــ كما حدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ــ خمسة نفر ، كانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم ، من بنى أسد بن عبد العزى بن قُصى : الأسود بن المطلب أبو زمعة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى قد دعا عليه ، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه ، فقال : اللهم ، أعْمِ بصره ، وأثكله ولده. ومن بنى زهرة : الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة . ومن بنى مخزوم : الوليد بن المغيرة بن عبد الله ابن عُمَر بن مخزوم : ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤى : العاص بن وائل بن هشام بن سُعَيد بن سعد . ومن خزاعة : الحارث بن الطُّلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان ــ فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء ، أنزل الله تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين إلى قوله : (فسوف يعلمون) :

وقال ابن إسحاق : فحدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، أو غيره من العلماء : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه، فمر به الأسود [بن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء ، فعمى ، ومر به الأسود] (١) بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى بطنه ، فمات منه حَبَناً (٢) ، ومر به الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله ــ كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر إزاره (٣) ، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش (٤) نبلا له ، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش رجلَه ذلك الخدش ، وليس بشيء ــ فانتقض به فقتله . ومر به العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص قدمه ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربَض (٥) على شبْرِقَة فدخلت فى أخمص رجله منها شوكة(٦) فقتلته . ومر به الحارث بن الطلاطلة ، فأشار إلى رأسه ، فامتخط (٧) قيحا ، فقتله (٨) .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن رجل ، عن ابن عباس قال : كان رأسَهم الوليد بن المغيرة ، وهو الذى جمعهم .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين سقط من تفسير ابن كثير ، أثبتناه من سيرة ابن هشام وتفسير الطبرى .

(٢) الحبن ــ بفتح الحاء والباء ــ : عظم البطن ، والأحبن : المستسقَى .

(٣) فى سيرة ابن هشام والطبرى : « وهو يجر سبله » . والسبل ــ بفتح السين والباء ــ : فضول الإزار .

(٤) أى : ينحتها ويعمل لها ريشاً .

(٥) أى : برك . ولفظ السيرة كما هنا . وفى تفسير الطبرى « فوقص على شبرقة » . والشبرقة ــ بكسر فسكون فكسر ــ : نبت حجازى يؤكل ، وله شوك » .

(٦) فى المخطوطة : « منها شبرقة » . والمثبت عن المرجعين السابقين .

(٧) كذا ، ومثله فى تفسير الطبرى . وفى سيرة ابن هشام : « فامتخض » ، بالضاد . ولا معنى له . والمخاط : ما يسيل من الأنف ، ويقال : امتخط وتمخط : أى استخرج المخاط من أنفه .

(٨) ينظر هذا الأثر فى سيرة ابن هشام : ٤٠٩/١ ، ٤١٠ . وتفسير الطبرى : ٤٨/١٤ .

وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة ، نحو سياق محمد بن إسحاق ، عن يزيد ، عن عروة ، بطوله : إلا أن سعيداً يقول : الحارث بن غيطلة . وعكرمة يقول : الحارث بن قيس .

قال الزهرى : وصدقا ، هو الحارث بن قيس ، وأمه غيطلة .

وكذا روى عن مجاهد ، ومقسم ، وقتادة ، وغير واحد : أنهم كانوا خمسة .

وقال الشعبى : كانوا سبعة .

والمشهور الأول .

وقوله : (الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) ، تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، لمن جعل مع الله معبوداً آخر .

وقوله : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون : فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) ، أى : وإنا لنعلم يامحمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر : فلا يهيدنك (١) ذلك ، ولا يثنينَّك عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التى هى الصلاة : ولهذا قال : (وكن من الساجدين) ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن كثير بن مرة ، عن نعيم بن هَمَّار (٢) : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله : يا ابن آدم ، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » (٣) .

رواه أبو داود ، من حديث مكحول ، عن كثير بن مرة ، بنحوه (٤) .

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى .

وقوله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال البخارى : قال سالم : الموت (٥) .

وسالم هذا هو : سالم بن عبد الله بن عمر ، كما قال ابن جرير :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، حدثنى طارق بن عبد الرحمن ، عن سالم بن عبد الله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) — قال : الموت (٦) .

وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره .

---

(١) هذه الكلمة إحدى لوازم ابن كثير فى التعبير ، وقد مضى تفسيرها فى : ١/٣٢١ ، ٢/١٥٤ ، ٣/٣١١ .
(٢) فى المخطوطة : « عمار » . والمثبت عن المسند ، وأسد الغابة ، وفى القاموس المحيط : « همار » كشداد .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٨٦ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب صلاة الضحى ، الحديث ١٢٨٩ : ٢/٢٧ ، ٢٨ .
(٥) البخارى ، تفسير سورة الحجر : ٦/١٠٢ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٤/٥١ .

والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا : (لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين)(١) .

وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء ــ امرأة من الأنصار ــ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على عثمان بن مظعون ، وقد مات ــ قلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبى وأمى يا رسول الله ، فمن(٢) ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنى لأرجو له الخير (٣) » .

ويستدل من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ، على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً فيصلى بحسب حاله ، كما ثبت فى صحيح البخارى ، عن عمران بن حصين رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » (٤) .

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس (٥) عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت ، كما قدمناه . ولله الحمد والمنة ، والحمد لله على الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها .

[آخر تفسير سورة الحجر ، والحمد لله رب العالمين]

---

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٣ ــ ٤٧ .
(٢) لفظ الصحيح : « فمن يكرمه الله ؟ » . والاستفهام وحده ــ كما فى تفسير ابن كثير ــ مفيد هذا المعنى .
(٣) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه » : ٩١/٢ . ومسند الإمام أحمد : ٤٣٦/٦ .
(٤) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب » : ٦٠/٢ .
(٥) فى المخطوطة : « أعبد الناس ، وأكثر الناس عبادة » . وفى الطبعات السابقة ما أثبتناه .

تفسير سورة النحل

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضى الدال على التحقق والوقوع لا محالة (اقترب للناس حسابهم ، وهم فى غفلة معرضون) (١) ، وقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر) (٢) .

وقوله : (فلاتستعجلوه) ، أى : قرب ما تباعد فلاتستعجلوه .

يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم ، كما قال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (٣).

وقد ذهب الضحاك فى تفسير هذه الآية إلى قول عجيب،فقال فى قوله (أتى أمر الله):أى فرائضه وحدوده (٤) ؛ وقد رده ابن جرير فقال : لانعلم أحداً استعجل الفرائض والشرائع قبل وجودها ،بخلاف العذاب فانهم استعجلوه قبل كونه ، استبعاداً وتكذيباً (٥) .

قلت : كما قال تعالى : (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) (٦) .

وقال ابن أبى حاتم : ذُكر عن يحيى بن آدم،عن أبى بكر بن عياش ، عن محمد بن عبد الله — مولى المغيرة بن شعبة — عن كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن حُجَيْرة ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فما تزال ترتفع فى السماء ، ثم ينادى مناد فيها : يا أيها الناس :فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟ فمنهم من يقول : نعم . ومنهم من يشك . ثم ينادى الثانية : يا أيها

---

(١) سورة الأنبياء، آية : ١ .
(٢) سورة القمر ، آية : ١ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٥٣/٥٤ .
(٤) تفسير الطبرى : ٥٢/١٤ .
(٥) تفسير الطبرى : ٥٣/١٤ .
(٦) سورة الشورى ، آية : ١٨ .

الناس . فيقول الناس بعضهم لبعض : هل سمعتم ؟ فيقولون : نعم . ثم ينادى الثالثة : يا أيها الناس ، أتى أمر الله فلا تستعجلوه ــ قال رسول الله ﷺ : فو الذى نفسى بيده ، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقى فيه شيئاً أبداً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ــ قال : ويشتغل الناس » .

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً وهؤلاء هم المكذبون بالساعة ــ قال : (سبحانه وتعالى عما يشركون) :

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

يقول تعالى : (ينزل الملائكة بالروح) ، أى : الوحى كما قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا(١) .

وقوله : (على من يشاء من عباده) ، وهم الأنبياء ، كما قال : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٢) ، وقال : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس(٣) ، وقال : (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) (٤) .

وقوله : (أن أنذروا) ، أى : لينذروا (أنه لاإله إلا أنا فاعبدون)(٥) ، وقال فى هذه : (فاتقون) ، أى : فاتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى وعبد غيرى .

خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات ، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لاللعبث ، بل (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (٦) .

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لاشريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لاشريك له .

ثم نبه على خلق جنس الإنسان (من نطفة) ، أى : ضعيفة مهينة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ، ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبداً لاضداً ، كما قال تعالى : (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً

(١) سورة الشورى ، آية : ٥٢ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .
(٣) سورة الحج ، آية : ٧٥ .
(٤) سورة غافر ، آية : ١٥ ، ١٦ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .
(٦) سورة النجم ، آية : ٣١ .

وكان ربك قديراً . ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولايضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيراً) (١) ، وقال : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم • قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) (٢) .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بُسْر بن جحَّاش قال : بصق رسول الله في كفه ، ثم قال : « يقول الله : ابن آدم ، أنَّى تُعجزني وقد خلقتكَ من مثل هذه ، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعتَ ومنعت ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : أتصدقُ . وأنَّى أوان الصدقة » (٣) ؟

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في « سورة الأنعام » (٤) إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع ، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ، ولهذا قال : (ولكم فيها جمال حين تريحون) ، وهو [وقت] رجوعها عشياً من المرعى ، فإنها تكون أمدّه (٥) خواصر ، وأعظمه ضُرُوعاً ، وأعلاه أسنمة ، (وحين تسرحون) ، أي : غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى .

وتحمل أثقالكم ، وهي الأحمال المثقلة التي تعجزُون عن نقلها وحملها ، (إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة ، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها [في] أنواع الاستعمال ، من ركوب وتحميل ، كما قال تعالى : (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون • وعليها وعلى الفلك تحملون) (٦) ، وقال تعالى : (الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون • ولكم فيها منافع ،

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) سورة « يس » ، آية : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢١٠/٤ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب « النهي عن الإمساك في الحياة ، والتبذير عند الموت » ، الحديث ٢٧٠٧ : ٩٠٣/٢ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ينظر فيما تقدم من هذا التفسير : ٣٤٥/٣ ، ٣٤٦ .

(٥) هذا أسلوب فصيح شائع في لغة العرب ، فان الظاهر أن يقال : « أمدها » ، و « أعظمها » ، و « أعلاها » . ذلك أن الضمير يعود على الأنعام ، ولكن رجال العربية يقولون : إن التقدير : « أمد شيء خواصر ، وأعظمه ، وأعلاه » . وعلى ذلك ورد الحديث الذي رواه البخاري في كتاب النكاح ، باب « إلى من ينكح » : ٧/٧ ، قال عليه السلام : خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده » . ويعدون ذلك من قبيل مراعاة المعنى لا اللفظ .

هذا وعبارة الحافظ ابن كثير مقتبسة من حديث رواه الإمام مسلم عن النواس بن سمعان ، في كتاب الفتن ، باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » : ١٩٧/٨ .

(٦) سورة « المؤمنون » ، آية : ٢١ ، ٢٢ .

ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها ، وعلى الفلك تحملون ، ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون) (١)، ولهذا قال ها هنا بعد تعداد هذه النعم : (إن ربكم لرءوف رحيم) ، أى ربكم : الذى قيّض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كما قال : (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) (٢)، وقال : (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وماكنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) (٣) .

قال ابن عباس : (لكم فيها دفء)، أى : ثياب ؛ والمنافع : ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة(٤) ؛

وقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (دفءومنافع) ، نسل كل دابة

وقال مجاهد : (لكم فيها دفء) ، قال : لباس ينسج ، ومنافع تركبَ ، ولحم ولبن ؛

وقال قتادة : (دفء ومنافع) ، يقول : لكم فيها لباس ، ومنفعة ، وبُلْغة .

وكذا قال غير واحد من المفسرين ، بألفاظ متقاربة ؛

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ، يمتن به عليهم ، وهو : الخيل والبغال والحمير ، التى جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ــ ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل ــ بذلك على ماذهب إليه فيها ، كالإمام أبى حنيفة رحمه الله ، ومن وافقه من الفقهاء ، لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهى حرام ، كما ثبتت به السنة النبوية ، وذهب إليه أكثر العلماء .

وقد روى الإمام أبوجعفر بن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، أنبأنا هشام الدستوائى ، حدثنا يحيى ابن أبى كثير ، عن مولى نافع بن علقمة أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكان يقول : قال الله : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) ، فهذه للأكل ، (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) ، فهذه للركوب (٥) .

وكذا روى من طريق سعيد بن جُبَيْر وغيره ، عن ابن عباس ، بمثله . وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة رضى الله عنه أيضا واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده :

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا ثور بن يزيد ، عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب،

---

(١) سورة غافر ، آية : ٧٩ – ٨١ .
(٢) سورة «يس» ، آية : ٧١ ، ٧٢ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ١٢ – ١٤ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٤/٥٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٤/٥٧ .

عن أبيه ، عن جده ، عن خالد بن الوليد رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الخيل ، والبغال ، والحمير(١) .

وأخرجه أبوداود ، والنسائي ، وابن ماجه ، من حديث صالح بن يحيى بن المقدام ــ وفيه كلام ــ به .

ورواه أحمد أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال :

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام ، عن جده المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة (٢) ، فقرم (٣) أصحابنا إلى اللحم ، فسألونى رَمَكَةَ(٤) فدفعتها إليهم فحبلوها(٥) وقلت مكانكم حتى آتى خالداً فأسأله . فأتيته فسألته ، فقال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة خيبر ، فأسرع الناس فى حظائر يهود ، فأمرنى أن أنادى : « الصلاة جامعة ، ولايدخل [الجنة] إلا مسلم » ثم قال : أيها الناس ، إنكم قد أسرعتم فى حظائر يهود ، ألا لاتحل أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الأتُن(٦) الأهلية وخيلها وبغالها ، وكل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير(٧) » .

والرمكة : هى الحجرة(٨) . وقوله : حبلوها ، أى : أوثقوها فى الحبل ليذبحوها . والحظائر : البساتين القريبة من العمران .

وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر ، والله أعلم .

فلو صحّ هذا الحديث لكان نصاً فى تحريم [لحوم] الخيل ، ولكن لايقاوِمُ ما ثبت فى الصحيحين ، عن جابر بن عبد الله قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى لحوم الخيل » (٩) .

ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين ، كل منهما على شرط مسلم ، عن جابر قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ، فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ، ولم ينهنا عن الخيل(١٠) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٨٩/٤ . وأخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب « فى أكل لحوم الخيل » ، الحديث ٣٧٩٠ : ٣٥٢/٣ ، والنسائى فى كتاب الصيد ، باب « تحريم أكل لحوم الخيل » : ٢٠٢/٧ ، وابن ماجه فى كتاب الذبائح ، باب « لحوم البغال » ، الحديث ٣١٩٨ : ١٠٦٦/٢ .

(٢) الصائفة : الغزوة فى الصيف .

(٣) القرم – بفتحتين – : شدة الشهوة إلى اللحم . وفى المخطوطة : « فقدم » . وهو خطأ .

(٤) لفظ المسند : « فقرم أصحابنا إلى اللحم ، فقالوا : أتأذن لنا أن نذبح رمكة له ، فدفعتها إليهم » .

(٥) سيشرح ابن كثير غريب هذا الحديث .

(٦) لفظ المسند : « لحوم الحمر .. » . والأتن : جمع أتان ، وهو الحمارة ، الأنثى خاصة .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٨٩/٤ .

(٨) الحجرة : الفرس . وبعض اللغويين يمنع تأنيثه بالهاء ، بل يقول : « حجر » .

(٩) مسلم ، كتاب الصيد ، باب « فى أكل لحوم الخيل » : ٦ / ٦٥ ، ٦٦ والبخارى ، كتاب الذبائح ، باب « لحوم الخيل » : ٧ / ١٢٣ .

(١٠) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٣٥٦ ، وسنن أبي داود ، كتاب الأطعمة ، باب « فى أكل لحوم الخيل » ، الحديث ٣٧٨٩ : ٣ / ٣٥١ ، ٣٥٢ .

. وفى صحيح مسلم ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول صلى الله عليه وسلم فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة(١) .

فهذه أدل وأقوى وأثبت . وإلى ذلك صار جمهورُ العلماء : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأصحابهم ، وأكثر السلف والخلف ، والله أعلم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا ابن جُرَيج ، عن ابن أبى مليكة ، عن ابن عباس قال : كانت الخيل وحشية ، فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وذكر وهب بن منبه فى إسرائيلياته : أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب ، والله أعلم :

فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ، ومنها البغال . وقد أهديت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلة ، فكان يركبها ، مع أنه قد نَهَى عن إنزاء الحُمُر على الخيل لئلا ينقطع النسل :

قال الإمام أحمد : حدثنى محمد بن عبيد ، حدثنا عمر من آل حذيفة ، عن الشعبى ، عن دحية الكلبى قال : قلت : يارسول الله ، ألا أحمل لك حماراً على فرس ، فتنتج لك بغلا ، فتركبها ؟ قال : إنما يفعل ذلك الذين لايعلمون(٢) .

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَار عليه فى السبل الحسّية ، نبه على الطرق المعنوية الدينية : وكثيراً ما يقع فى القرآن العبورَ من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كما قال تعالى : (وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى(٣)) ، وقال : (يابنى آدم ، قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير(٤)) .

ولما ذكر فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ــ شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه ، فبيّن أن الحق منها ما هى موصلة إليه ، فقال : (وعلى الله قصد السبيل) كما قال : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرقَ بكم عن سبيله)(٥) ، وقال : (هذا صراط على مستقيم(٦)) .

قال مجاهد : (وعلى الله قصد السبيل) ، قال : طريق الحق على الله (٧) .

وقال السّدى : (وعلى الله قصد السبيل) ، قال : الإسلام :

(١) مسلم ، كتاب الصيد ، باب « فى أكل لحوم الخيل » : ٦٦/٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣١١/٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٩٧ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٢٦ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٥٣ .
(٦) سورة الحجر ، آية : ٤١ .
(٧) تفسير الطبرى : ٥٨/١٤ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (وعلى الله قصد السبيل) ، يقول : وعلى الله البيان ، أى : تبيين الهدى والضلال .

وكذا روى على بن أبى طلحة ، عنه ؛ وكذا قال قتادة ، والضحاك ؛ وقولُ مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق ، لأنه تعالى أخبر أن ثَمّ طرقاً تُسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريقُ الحق ، وهى الطريق التى شرّعها ورضيها ، وما عداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى : (ومنها جائر) ، أى : حائد مائل زائغ عن الحق .

قال ابن عباس وغيره : هى الطرق المختلفة ، والآراء [والأهواء] المتفرقة ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقرأ ابن مسعود : (ومنكم جائر) (١) .

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته ، فقال : (ولو شاء لهداكم أجمعين) ، كما قال : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) (٢) ، وقال : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (٣) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع فى ذكر نعمته عليهم ، فى إنزال المطر من السماء — وهو العلو — مما لهم فيه بُلْغة ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال : (لكم منه شراب) ، أى : جعله عذباً زلالا ، يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً .

(ومنه شجر فيه تسيمون) أى : وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم ، كما قال ابن عباس ، وعكرمة والضحاك ، وقتادة وابن زيد ، فى قوله : (فيه تسيمون) ، أى ترعون (٤) .

ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى .

وروى ابن ماجه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن السوم قبل طلوع الشمس (٥) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٥٩ . وفى البحر المحيط لأبى حيان ٥ / ٤٧٧ : « وقرأ عبد الله : (ومنكم جائر) ، يعنى : ومنكم جائر عن القصد بسوء اختياره ، والله برىء منه ، ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاء » .

(٢) سورة يونس ، آية ٩٩ .

(٣) سورة هود ، آية : ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٤ / ٥٩ ، ٦٠ .

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « السوم » ، الحديث ٢٢٠٦ ، ٢ / ٧٤٤ .

وقوله : (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) ، أى : يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها . ولهذا قال : (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)، أى : دلالة وحجة على أنه لاإله إلا الله ، كما قال تعالى : (أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون(١) .

ثم قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

ينبّه تعالى عباده على آياته العظام ، ومننه الجسام ، فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات ، فى أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها فى الظلمات ، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مُقدرة ، لايزيد عليها ولاينقص منها . والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، كما قال : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين) (٢) . ولهذا قال : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ، أى : لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم ، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

وقوله : (وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه) ، لمّا نبه سبحانه على معالم السماوات ، نبه على ماخلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات [والجمادات] على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) أى آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لعباده لحمها حيّها وميتها ، فى الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها . وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره . أى تشقه .

(١) سورة النمل ، آية : ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .

وقيل: تمخرُ الرياح . وكلاهما صحيح بجؤجئها وهو صدرها المسنَّم – الذى أرشد العباد إلى صنعتها ، وهداهم إلى ذلك ، إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام ؛ فانه أول من ركب السفن ، وله كان تعليم صنعتها ، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل ، يسيرون من قطر إلى قطر ، وبلد إلى بلد ، وإقليم إلى إقليم تجلب ماهنا إلى هنالك ، وماهنالك إلى هنا ، ولهذا قال تعالى : (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) ، أى : نعمه وإحسانه .

وقد قال الحافظ أبوبكر البزار فى مسنده : وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية البغدادى : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن[عمر(١) ، عن] سُهَيل(٢) بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : كلم الله هذا البحر الغربى ، وكلم البحر الشرقى ، فقال للبحر الغربى : إنى حامل فيك عباداً من عبادى، فكيف أنت صانع فيهم ؟ قال : أغرقهم ؛ قال : بأسك فى نواحيك . وأحملهم على يدى : وحرّمه الحلية والصيد ، وكلم هذا البحرَ الشرقى فقال : إنى حامل فيك عباداً من عبادى ، فما أنت صانع بهم ؟ فقال : أحملهم على يدى ، وأكون لهم كالوالدة لولدها ، فأثابه الحلية(٣) والصيد .

ثم قال البزار : لا نعلم [من] رواه عن سهيل(٤) غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر(٥) ، وهو منكر الحديث .

وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبى عياش ، عن عبد الله بن عمر(٦) موقوفاً .

ثم ذكر تعالى الأرض ، وما جعل فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات ، لتقر الأرض ولاتميد – أى : تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ، ولهذا قال : (والجبال أرساها) (٧) .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن قتادة ، سمعت الحسن يقول : لما خُلقت الأرضُ كانت تميد(٨) ، فقالوا : ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً : فأصبحوا وقد خُلقت الجبال ، لم تدر الملائكة مِمّ خلقت الجبال(٩) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن قيس بن عُبَاد : أن الله تعالى : لما خلق الأرض ، جعلت تمور ، فقالت الملائكة : ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً ، فأصبحت صبحا وفيها رواسيها .

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد ، عن عطاء بن السائب ، عن عبدالله بن حَبيب ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لماخلق الله الأرض قمصت(١٠) وقالت : أى رَب ، تجعل على بنِى آدم يعملون

---

(١) ما بين القوسين سقط من المخطوطة . وينظر ترجمة « عبد الرحمن بن عبد الله » فى التهذيب : ٦ / ٢١٣ فهو يروى عن سهيل بن أبى صالح .

(٢) فى المخطوطة : « سهل » . وهو خطأ ، ينظر التهذيب : ٤ / ٢٦٣ .

(٣) الأثر فى الدر المنثور عن البزار : ٤ / ١١٣ .

(٤) فى المخطوطة : « سهل » . وقد سبق التنبيه عليه .

(٥) فى المخطوطة : « بن عمرو » . وقد سبق أيضا التنبيه عليه .

(٦) فى المخطوطة : « عبد الله بن أبى عمرو » . وما أثبتناه عن ترجمة النعمان فى التهذيب ١٠ / ٤٥٥ ، فهو يروى عن عبد الله بن عمر .

(٧) سورة النازعات ، آية : ٣٢ .

(٨) لفظ الطبرى « كادت تميد » .

(٩) تفسير الطبرى ١٤ / ٦٢ .

(١٠) أى : اضطربت .

علىّ الخطايا ويجعلون علىّ الخبث ؟ : قال : فارسى الله فيها من الجبال ماترون ومالا ترون ، فكان إقرارها كاللحم يترجرج(١) .

وقوله : (وأنهاراً وسبلا) ،أى : وجعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبرارى والقفار ،ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى البلد الذى سُخّر لأهله . وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالا ، وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجرى حيناً وتنقطع فى وقت ، وما بين نبع وجمع(٢) ، وقوى السير وبطيئه ، بحسب ما أراد وقدّر ، وسخر ويسر . فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وكذلك [جعل] فى الأرض سبلا ،أى : طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد،حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً كما قال تعالى : (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا) (٣) .

وقوله : (وعلامات) ، أى : دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك ، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطريق .

وقوله : (وبالنجم هم يهتدون) ، أى : فى ظلام الليل ، قاله ابن عباس .

وعن مالك فى قوله : (وعلامات) : « يقولون : النجوم ، وهى الجبال » .

ثم قال تعالى منبها على عظمته ، وأنه لاتنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان ، التى لاتخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال : (أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون) .

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فقال : (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الله لغفور رحيم) ، أى : يتجاوز عنكم ، ولوطالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولوعذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازى على اليسير .

وقال ابن جرير : يقول : (إن الله لغفور) لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك ، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ، (رحيم) بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة (٤) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٦٢ .
(٢) كذا ، ولعله بين نبع وهمع . والنبع هو المتفجر ، والهمع - بفتح فسكون : السائل .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٣١ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٤ / ٦٤ .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون ، كما قال الخليل : (أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون) (١) .

وقوله : (أموات غير أحياء) أى : هى جمادات لاأرواح فيها ، فلا تسمع ولاتبصر ولاتعقل ؛

(وما يشعرون أيان يبعثون) ، أى : لايدرون متى تكون الساعة ، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أوجزاء ؟ إنما يرتجى ذلك من الذى يعلم كل شىء ، وهو خالق كل شىء ؛

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشىء عُجَاب) (٢) ، وقال تعالى : (وإذا ذُكِر الله وحده ، اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون)(٣) ؛

وقوله : (وهم مستكبرون) ، أى : عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده ، كما قال : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)(٤)، ولهذا قال هاهنا : (لاجرم) ، أى : حقاً (أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون)، أى : وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ، (إنه لايحب المستكبرين) .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين : (ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا) معرضين عن الجواب : (أساطير الأولين) ،

---

(١) سورة الصافات ، آية : ٩٥ ، ٩٦ .
(٢) سورة «ص» ، آية : ٥ .
(٣) سورة الزمر ، آية : ٤٥ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

أى : لم ينزله شيئاً ، إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين ، أى: مأخوذ من كتب المتقدمين(١) ، كما قال تعالى : (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) (٢) أى : يفترون على الرسول ، ويقولون أقوالا مختلفة متضادة ، كلها باطلة ، كما قال تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا(٣) ، وذلك أن كل من خروج عن الحق فهما قال أخطأ ، وكانوا يقولون : ساحر ، وشاعر ، وكاهن ، ومجنون . ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد [المسمى] بالوليد بن المغيرة المخزومى ، لما (فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبَسَر . ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر) (٤) ، أى : ينقل ويحكى ، فتفرّقوا عن قوله ورأيه ، قبحهم الله .

قال الله تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) ، أى : إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقوبهم ، أى : يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم ، كما جاء فى الحديث : « من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثلُ أجور من اتبعه ، لاينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتبعه ، لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً(٥) .

وقال تعالى : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) (٦) :

وهكذا روَى العَوفى عن ابن عباس فى قوله (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) : إنها كقوله : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) (٧) .

وقال مجاهد : يحملون أثقالهم : ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً .

---

(١) وإنما قالوا «أساطير الأولين» ، لأن الجانب المكى من القرآن مفعم بقصص الماضين وسيرهم ، ولم يفطنوا أنتنزول هذه القصص لأغراض أهمها بيان آثار سنن الله فى المصلحين والمفسدين .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٥ .

(٣) سورة الفرقان ، آية : ٩

(٤) سورة المدثر ، الآيات : ١٨ — ٢٤ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « لزوم السنة » ، الحديث ٤٦٠٩ : ٤ / ٢٠١ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب «من سن سنة حسنة أو سيئة » ، الحديث ٢٠٦ : ١ / ٧٥ . والإمام أحمد فى مسنده : ٢ / ٣٩٧ .

(٦) سورة العنكبوت ، آية : ١٣ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٤ / ٦٦ .

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (قد مكر الذين من قبلهم) ، قال : هو نمرود الذى بنى الصرح(١) ؛ قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد نحوه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زيد بن أسلم : أولُ جبار كان فى الأرض نمرود ، فبعث الله عليه بَعُوضَة ، فدخلت فى منخرة ، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه ؛ وكان جبارا أربعمائة سنة ، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله وهو الذى كان بنى صرحاً إلى السماء ، وهو الذى قال الله : (فأتى الله بنيانهم من القواعد) .

وقال آخرون : بل هو بختنصر . وذ هروا من المكر الذى حكى الله هاهنا ، كما قال فى سورة إبراهيم : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) (٢) .

وقال آخرون : هذا من باب المثل ، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام : (ومكروا مكراً كباراً) (٣) ، أى : احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة ، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة : (بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) (٤) .

وقوله : (فأتى الله بنيانهم من القواعد) ، أى : اجتثه من أصله ، وأبطل عملهم ، وأصلها كما قال تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) (٥) .

وقوله : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار) (٦) .

وقال هاهنا : (فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم يوم القيامة يخزيهم) ، أى : يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم ، فيجعله علانية كما قال تعالى :

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٦٧ .
(٢) آية : ٤٦ .
(٣) سورة نوح ، آية : ٢٢ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٣٣ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ٦٤ .
(٦) سورة الحشر ، آية : ٢ .

(يوم تبلى السرائر) ، أى : تظهر وتشتهر ، كما فى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدْرَته ، فيقال : هذه غَدْرَة فلان بن فلان » (١)

وهكذا هؤلاء ، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا : (أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) : تحاربون وتعادون فى سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا ؟ (هل ينصرونكم أو ينتصرون) (٢) ، (فماله من قوة ولا ناصر) (٣) : فإذا توجهت عليهم الحجة ، وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة ، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار (قال الذين أوتوا العلم) — وهم السادة فى الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ : (إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) ، أى : الفضيحة والعذاب [محيط] اليوم بمن كفر بالله ، وأشرك به مالا يضره ولا ينفعه :

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم : (فألقوا السَّلَم) ، أى : أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين : (ما كنا نعمل من سوء) ، كما يقولون يوم المعاد : (والله ربنا ما كنا مشركين) (٤) ، (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) (٥) .

قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك : (بلى ، إن الله عليم بما كنتم تعملون ، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين) ، أى : بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله .

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، ويأتى أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم ، وخلدت فى نار جهنم ، (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم عذابها) (٦) ، كما قال الله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) (٧) :

---

(١) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « إثم الغادر للبر والفاجر » : ٤ / ١٢٧ . وكتاب الأدب ، باب ما يدعى الناس بآبائهم : ٨ / ٥١ . وكتاب الفتن ، باب « إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج فقال بخلافه » : ٩ / ٧٢ ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « تحريم الغدر » : ٥ / ١٤١ ، ١٤٢ .

واللواء : الراية . وعند استه : خلف ظهره . وقد ذكر النووى أن العرب كانت تنصب الألوية فى الأسواق الحفلة ، لغدرة الغادر ، لتشهيره بذلك . وأن هذا الحديث وارد فى الإمام الغادر ، متضمن نهيه عن أن يغدر فى عهوده لرعيته وللكفار وغيرهم ، ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم فقد غدر بعهده .

هذا ورفع اللواء عند دبر الغادر كناية عن الإذلال والاحتقار .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ٩٣ .

(٣) سورة الطارق ، آية : ١٠ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٢٣ .

(٥) سورة المجادلة ، آية : ١٨ .

(٦) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .

(٧) سورة غافر ، آية : ٤٦ .

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف (ما أخبر) به عن الأشقياء ، فإن أولئك قيل لهم : (ماذا أنزل ربكم) ، فقالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئاً ، إنما هذا أساطير الأولين . وهؤلاء (قالوا خيرا) ، أى : أنزل خيرا ، أى : رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به .

ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا : (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) ، كما قال تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)(١) ، أى : من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة .

ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير ، أى : من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا ، كما قال تعالى : (وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير) (٢) . وقال تعالى: (وما عند الله خير للأبرار) (٣) وقال تعالى (والآخرة خير وأبقى) (٤) ، وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وللآخرة خير لك من الأولى) (٥) :

ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا : (ولنعم دار المتقين) :

وقوله : (جنات عدن) ، بدل من (دار المتقين) ، أى : لهم فى الآخرة (جنات عدن) ، أى : إقامة (٦) يدخلونها (تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : بين أشجارها وقصورها ، (لهم فيها ما يشاءون) ، كما قال تعالى : (وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون (٧) ، وفى الحديث : « إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم ، فلا يشتهى أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم ، حتى إن منهم لمن يقول : أمطرينا كواعب أتراباً ، فيكون ذلك » .

(كذلك يجزى الله المتقين) ، أى : كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله :

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، أنهم طيبون ، أى مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كما قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا

---

(١) سورة النحل ، آية : ٩٧ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٩٨ .
(٤) سورة الأعلى ، آية : ١٧ .
(٥) سورة الضحى ، آية : ٤ .
(٦) فى المخطوطة : « مقامة » . وقد سبق تفسير (عدن) عند الآية ٢٣ من سورة الرعد : ٣٧٢/٤ .
(٧) سورة الزخرف ، آية ٧١ .

ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم) (١) .

وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء) (٢) .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا : هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم ، قاله قتادة (٣) .

(أو يأتى أمر ربك) ، أى : يوم القيامة وما يعاينوله من الأهوال .

وقوله : (كذلك فعل الذين من قبلهم) ، أى : هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين ، حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال : (وما ظلمهم الله) ، لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أى : بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ، (وحاق بهم) ، أى : أحاط بهم من العذاب الأليم (ماكانوا به يستهزئون) ، أى : يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيامة :(هذه النار التى كنتم بها تكذبون) (٤) .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر ، فى قولهم : (لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء) ، أى : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك ، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ، مالم ينزل الله به سلطانا .

---

(١) سورة فصلت ، الآيات ٣٠ — ٣٢ .
(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٠ .
(٤) سورة الطور ، آية : ١٤ .

ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا ، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا منه – قال الله راداً عليهم شبهتهم : (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) ؟ أى : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره(١)، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه آكد النهى ، وبعث فى كل أمة رسولا ، أى : فى كل قرن من الناس وطائفة رسولا ، وكلهم يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه : (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك ، منذ حدث الشرك فى بنى آدم ، فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢) ، وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) (٣) ، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) ، فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية ، وهى تمكينهم من ذلك قدرا ، فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير عليهم ، وأنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال : (فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ، أى : اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) (٤) ، (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) (٥) .

ثم أخبر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم ، إذا كان الله قد أراد إضلالهم ، كما قال تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) (٦) ، وقال نوح لقومه : (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم) (٧) ، وقال فى هذه الآية الكريمة : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) ، كما قال تعالى : (من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) (٨) ، وقال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (٩) .

---

(١) فى المخطوطة : « أنه لم يغير عليكم ولا يكره » . ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٤٥ .
(٤) سورة محمد ، آية : ١٠ .
(٥) سورة الملك ، آية : ١٨ .
(٦) سورة المائدة ، آية : ٤١ .
(٧) سورة هود ، آية : ٣٤ .
(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٨٦ .
(٩) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

فقوله : (فان الله) ، أى : شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال : (لا يهدى من يضل) ، أى : من أضله فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ أى : لا أحد . (وما لهم من ناصرين) ، أى : ينقذونهم من عذابه ووثاقه، (ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين) (١) .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين : أنهم حلفوا فأقسموا (بالله جهد أيمانهم) ، أى : اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الإيمان على أنه (لا يبعث الله من يموت) ، أى : استبعدوا ذلك ، فكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك ، وحلفوا على نقيضه . فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم : (بلى) ، أى : بلى سيكون ذلك ، (وعدا عليه حقا) ، أى : لا بد منه ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أى : فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر .

ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد ، فقال : (ليبين لهم) ، أى : للناس (الذى يختلفون فيه) ، أى : من كل شىء ، و (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (٢) ، (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) ، أى: فى أيمانهم وأقسامهم : لا يبعث الله من يموت . ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا(٣) وتقول لهم الزبانية : (هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) (٤)

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن » ، فيكون ، [والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة ، فيكون] كما يشاء ، كما قال (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (٥) ، وقال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) (٦) ، وقال فى هذه الآية الكريمة : (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ، أى : أن يأمر به دفعة واحدة فاذا هو كائن ، كما قال الشاعر : (٧)

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ٭ يقول له : « كن » ، قولة فيكون

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(٢) سورة النجم ، آية : ٣١ .
(٣) الدع : الطرد والدفع .
(٤) سورة الطور ، الآيات : ١٤ – ١٦ .
(٥) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٦) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٧) مضى البيت عند تفسير الآية ١١٧ من سورة البقرة : ١ / ٢٣٢ .

أى : أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا ممانع ولا مخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، أخبرنى عطاء : أنه سمع أبا هريرة يقول : قال الله تعالى : سبّنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى ، وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى ، فأما تكذيبه إياى فقال : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) ، قال : وقلت : (بلى ، وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، وأما سبه إياى فقال : (إن الله ثالث ثلاثة) ، وقلت : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) .

هكذا ذكره موقوفا ، وهو فى الصحيحين مرفوعا ، بلفظ آخر(١) .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه .

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ، ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم : عثمان بن عفان ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر بن أبى طالب ، ابن عم الرسول ، وأبو سلمة بن عبد الأسد فى جماعة قريب من ثمانين ، ما بين رجل وامرأة ، صديق وصديقة ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال : (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) — قال ابن عباس والشعبى ، وقتادة : المدينة . وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد (٢) .

ولا منافاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها فى الدنيا ، فان من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم فى البلاد وحكمهم على رقاب العباد ، فصاروا أمراء حكاما ، وكل منهم للمتقين إماما ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا ، فقال : (ولأجر الآخرة أكبر) ، أى : مما أعطيناهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) ، أى : لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ، ولهذا قال هشيم ، عن العوام ، عمن حدثه : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول : خذ ، بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم قرأ هذه الآية : (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) (٣) .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة البقرة : ١ / ٢٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٤ .
(٣) هذا الأثر أيضا فى تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٤ .

ثم وصفهم تعالى فقال : (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ، اى : صبروا على أقل من آذاهم من قومهم ، متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قال الضحاك ، عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . فأنزل الله : (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم) ، وقال: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ، نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) يعنى أهل الكتب الماضية : أبشر كانت الرسل [التى أتتكم](١) أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا ؟ قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يُوحَى(٢) إليهم من أهل القرى)، ليسوا من أهل السماء كما قلتم .

وهكذا روى عن مجاهد ، عن ابن عباس ، أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب . وقاله مجاهد ، والأعمش .

وقول عبد الرحمن بن زيد ـ الذكر : القرآن واستشهد بقوله : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) ـ صحيح ، لكن ليس هو المراد هاهنا ، لأن المخالف لا يرجع فى إثباته بعد إنكاره إليه .

وكذا قول أبى جعفر الباقر: « نحن أهل الذكر » ـ ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر ـ صحيح ، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة ، وعلماء أهل بيت الرسول ـ عليهم السلام والرحمة ـ من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة ، كعلى ، وابن عباس ، وبنى(٣) على : الحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، وعلى بن عبد الله بن عباس، وأبى جعفر الباقر ـ وهو محمد بن على بن الحسين ـ وجعفر ابنه ، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، وعرف لكل ذى حق حقه ، ونزل كلَّ المنزل الذى أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين .

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أنّ الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر ، كما قال تعالى : (قل : سبحان ربى . هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً

---

(١) مابين القوسين عن تفسير الطبرى والدر المنثور : ٤ / ١١٨ ومكانه فى المخطوطة : « إليهم » .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٥ / ٤٩٣ : « وقرأ الجمهور (يوحى) بالياء وفتح الحاء وقرأت فرقة بالياء وكسرها ، وعبد الله والسلمى وطلحة وحفص ، بالنون وكسرها » .
(٣) فى المخطوطة : « وابنى » .

رسولا ؟) (١) ، وقال تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) (٢) ، وقال : (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٣) ، وقال : (قل ما كنت بدعاً من الرسل) (٤) ، وقال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ) (٥) .

ثم أرشد الله تعالى مَن شكّ فى كون الرسل كانوا بشراً ، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا : هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم (بالبينات) ، أى : بالدلالات والحجج ، (والزبر) ، وهى الكتب : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم (٦) .

والزبر : جمع زبُور ، تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبته ، وقال تعالى : (وكل شيء فعلوه فى الزبر) (٧) ، وقال : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (٨)

ثم قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر) ، يعنى القرآن ، (لتبين للناس ما نزل إليهم) ، من ربهم أى : لعلمك بمعنى ما أنزل عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، لعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم ، فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين لهم ما أشكل : (ولعلهم يتفكرون) ، أى : ينظرون لأنفسهم فيهتدون ، فيفوزون بالنجاة فى الدارين .

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على (أن يخسف بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون) ، أى : من حيث لايعلمون مجيئه إليهم ، كما قال تعالى : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) (٩) ، وقوله : (أو يأخذهم فى تقلبهم) ، أى : فى تقلبهم فى المعايش واشتغالهم بها ، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٩٣ ، ٩٤ .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٢٠ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٨ .
(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٩ .
(٥) سورة الكهف ، آية : ١١٠ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٦ .
(٧) سورة القمر ، آية : ٥٢ .
(٨) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٥ .
(٩) سورة الملك ، الآية : ١٦ ، ١٧ .

قال قتادة والسدى : (تقلبهم) أى : أسفارهم (١) ؛

وقال مجاهد ، والضحاك : (فى تقلبهم) ، فى الليل والنهار ، كما قال تعالى : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؛ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) .

وقوله : (فما هم بمعجزين) ، أى : لا يُعجزون الله على أى حال كانوا عليه.

وقوله : (أو يأخذهم على تخوف) ، أى : أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد . ولهذا قال العوفى ،عن ابن عباس: (أو يأخذهم على تخوف) ، يقول : إن شئت [أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك . وكذا روى عن] مجاهد ، والضحاك ، وقتادة وغيرهم ؛

ثم قال تعالى : (فإن ربكم لرءوف رحيم) ، أى : حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، كما ثبت فى الصحيحين « إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) (٢) وقال تعالى : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير) (٣) .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذى خضع له كل شىء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها : جمادها وحيواناتها ، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة . فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أى : بكرة وعشيا ، فإنه ساجد بظله لله تعالى .

قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كلُّ شىء لله عز وجل (٤) . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وغيرهم ؛

وقوله : (وهم داخرون) ، أى : صاغرون .

وقال مجاهد أيضاً : سجود كل شىء فيه ــ وذكر الجبال قال : سجودها فيها

وقال أبو غالب الشيبانى : أمواج البحر صلاته (٥)

ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم ؛

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٨ .
(٢) سبق الحديث عند الآية ١٠٢ من سورة هود : ٤ / ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، وخرجناه هناك .
(٣) سورة الحج ، آية : ٤٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٩ .
(٥) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٤ / ١٢٠ .

ثم قال : (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة) ، كما قال : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) ، وقوله : (والملائكة وهم لا يستكبرون) ، أى : تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته ، (يخافون ربهم من فوقهم) ، أى : يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ، (و يفعلون مايؤمرون) ، أى : مثابرين على طاعته تعالى ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره :

* وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

يُقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه لاينبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له ؛ فإنه مالك كل شىء وخالقه وربه ؛

(وله الدين واصباً) — قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وميمون بن مِهران ، والسدّى، وقتادة ، وغير واحد : أى دائما (١) ؛

وعن ابن عباس أيضاً : واجبا ، وقال مجاهد : خالصا : أى : له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض ، كقوله : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً) — هذا على قول ابن عباس وعكرمة ، فيكون من باب الخبر ، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب [الطلب] أى : ارهبوا أن تشركوا به شيئا ، وأخلصوا له الطلب ، كما فى قوله تعالى : (ألا لله الدين الخالص (٢)) .

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر ، وأن مابالعبد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه ، وإحسانه إليه ، (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) ، أى : لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه ، وتسألونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به ، كما قال تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان (٣) كفوراً) : وقال هاهنا : (ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون : ليكفروا بما آتيناهم)

قيل : « اللام » ها هنا لام العاقبة : وقيل : لام التعليل ، بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أى : يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه المسدى إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم .

ثم توعدهم قائلا : (فتمتعوا) ، أى : اعملوا ماشئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا ، (فسوف تعلمون) ، أى : عاقبة ذلك ؛

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ ٪ ٨١ .
(٢) سورة الزمر ، آية : ٣ . هذا وقد ذكر الطبرى ١٤ ٪ ٨١ أن مجاهداً كان يقول : « معنى الدين فى هذا الموضع الإخلاص » .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد ، وجعلوا لها نصيبا [مما] رزقهم الله ، فقالوا (هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم)(١) ، أى : جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوهم أيضا على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم ، فقال : (تالله لتسئلن عما كنتم تفترون) .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات الله ، وعبدوها معه ، فأخطأوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ، ولا ولد له ! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : (ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى) (٢) ، وقال ها هنا : (ويجعلون لله البنات سبحانه) ، أى : عن قولهم وإفكهم ، (ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون) (٣) .

وقوله : (ولهم مايشتهون) ، أى : يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، فإنه (إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا) ، أى : كئيبا من الهم ، (وهو كظيم) ، ساكت من شدة ماهو فيه من الحزن ، (يتوارى من القوم) ، اى : يكره أن يراه الناس (من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) . فأى : إن أبقاها أبقاها مهانة لايورثها ولا يعتنى بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها ، (أم يدسه فى التراب) ، أى : يئدها ، وهو : أن يدفنها فيه حية ، كما كانوا يصنعون فى الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ (ألا ساء مايحكمون) ، أى : بئس ماقالوا ، وبئس ماقسموا ، وبئس مانسبوا إليه ، كما قال تعالى : (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) ، وقال ها هنا : (للذين لا يؤمنون مثل السوء) ، أى : النقص إنما ينسب إليهم ، (ولله المثل الأعلى) ، أى : الكمال المطلق من كل وجه ، وهو منسوب إليه ، (وهو العزيز الحكيم) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٣٦ .

(٢) سورة النجم ، آية : ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة الصافات ، الآيات : ١٥١ – ١٥٤ .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ماترك على ظهر الأرض من دابة ، أى : لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم . ولكن الرب – جل جلاله – يحلم ويستر ، وينْظِرُ (إلى أجل مسمى) ، أى : لايعاجلهم بالعقوبة ؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا .

قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص أنه قال : كاد الجُعَل(١) أن يعذب بذنب بنى آدم، وقرأ: (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من (٢) دابة)

وكذا روى الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عُبَيدة قال : قال عبد الله: كاد الجُعَل أن يهلك فى جحره بخطيئة بنى آدم .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن المثنى ، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعى ، حدثنا محمد بن جابر الحنفى(٣)، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول : إن الظالم لايضر إلا نفسه. قال: فالتفت إليه فقال : بلى والله ، حتى إن الحبارى (٤) لتموت فى وكرها [هُزَالا] (٥) بظلم الظالم .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله بن مسرح(٦)، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مَسْلَمة بن عبد الله (٧) ، عن عمه أبى مشجعة بن ربعى ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : ذكرنا عند رسول

---

(١) الجعل – بضم ففتح – : حيوان كالخنفساء .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ٨٥ .

(٣) فى تفسير الطبرى : « محمد بن جابر الجعفى » . وهو خطأ . ينظر التهذيب : ٩ / ٨٨ .

(٤) وقعت « بلى » فى هذا الأثر موقع « بل » ، استدراكا على الكلام المتقدم ، مثل قوله تعالى : (وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ... بلى ، من كسب سيئة ...) . ومعنى الأثر « بل والله إنه ليضر غيره ، حتى إن الحبارى .. » : والحبارى – بضم الحاء – كما فى المصباح : « طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة، برأسه وبطنه غبرة، ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا » .

وفى النهاية لابن الأثير : « وفى حديث أنس رضى الله عنه: (إن الحبارى لتموت هزلا بذنب ابن آدم) : يعنى أن الله يحبس عنها القطر بعقوبة ذنوبهم ، وإنما خصها بالذكر لأنها أبعد الطير نجعة، فربما تذبح بالبصرة ويوجد فى حوصلتها الحبة الخضراء ، وبين البصرة وبين منابتها مسيرة أيام » .

(٥) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبرى : ١٤ / ٨٥ .

(٦) فى المخطوطة : « الوليد بن عبد الملك ، حدثنا عبيد الله بن شرح » . والصواب أنه : « الوليد بن عبد الله بن عبيد الله ابن مسرح » وترجمته فى الجرح والتعديل : ٤ / ١ / ١٠ .

(٧) فى المخطوطة : « سلمة بن عبد الله» . والصواب من الجرح لابن أبى حاتم : ٤/ ١ / ٢٦٩ ، وترجمة سليمان بن عطاء القرشى : ٢ / ١ / ١٣٣ .

الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن الله لايؤخر شيئا إذا جاء أجله ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة ، يرزقها الله العبدَ فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : (ويجعلون لله مايكرهون) ، أى : من البنات ومن الشركاء الذين هم عَبِيده ، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله .

وقوله : (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) ، إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا ، وإن كان ثَمّ معاد ففيه أيضا لهم الحسنى ، وإخبارٌ عن قيل من قال منهم ، كقوله : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته [ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور]) (١) ، وكقوله : (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ) (٢) ، وقوله : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا) (٣) ، وقال إخبارا عن أحد الرجلين : أنه (دخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ماأظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) (٤) ـ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل ، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل ، كما ذكر ابن إسحاق : أنه وُجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ ، فمن ذلك : تعملون السيئات وتجزَون الحسنات؟ أجل ، كما يجتنى من الشوك العنب (٥) .

وقال مجاهد ، وقتادة : (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) ، أى : الغلمان (٦) .

وقال ابن جرير : (أن لهم الحسنى) ، أى : يوم القيامة ـ كما قدمنا بيانه ، وهو الصواب ، ولله الحمد .

ولهذا قال تعالى زادا عليهم فى تمنيهم : (لاجرم)، أى : حقا لابد منه (أن لهم النار) ، أى : يوم القيامة ، (وأنهم مفرطون) .

قال مجاهد ، وسعيد بن جُبَير ، وقتادة وغيرهم : منسيون فيها مضيعون .

وهذا كقوله تعالى (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) (٧) .

وعن قتادة أيضا : (مفرطون) ، أى : معجلون إلى النار ، من الفَرَط وهو السابق إلى الورْد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار ، وينسون فيها ، أى : يخلدون .

---

(١) سورة هود ، آية : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة فصلت ، آية : ٥٠ .

(٣) سورة مريم ، آية : ٧٧ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ، حديث بنيان الكعبة : ١ / ١٩٦ . ولفظ السيرة : «كما لا يجتنى » . وهو خطأ ، ومعنى الموعظة : أن هذا مستحيل استحالة جنى العنب من الشوك .

(٦) تفسير الطبرى : ١٤ / ٨٦ .

(٧) سورة الأعراف ، آية : ٥١ . وكان فى المخطوطة : « فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » . وصواب هذه الآية من سورة الجاثية ٣٤ : (اليوم ننساكم ...) ، دون الفاء . ولذلك أثبتنا آية الأعراف .

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رُسُلا ، فكُذّبت الرسل ، فلك يامحمد فى إخوانك من المرسلين أسوة ، فلا يهيدنَّك (١) تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل ، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم مافعلوه ، (فهو وليهم اليوم) ، أى : هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ، ولا يملك لهم خلاصا ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم .

ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس فى كل مايتنازعون فيه ، (وهدى) ، أى : للقلوب ، (ورحمة) ، أى : لمن تمسك به ، (لقوم يؤمنون) :

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ، (إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) ، أى : يفهمون الكلام ومعناه .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾

يقول تعالى : (وإن لكم) أيها الناس (فى الأنعام) ، وهى : الإبل والبقر والغنم ، (لعبرة) ، أى : لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته ، (نسقيكم مما فى بطونه) ، وأفرد هاهنا عوداً على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ؛ فإن الأنعام حيوانات ، أى : نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان .

وفى الآية الأخرى : (مما فى بطونها (٢)) ، ويجوز هذا وهذا ، كما فى قوله تعالى : (كلا إنها تذكرة. فمن شاء ذكره (٣) وفى قوله تعالى : (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء (٤) سليمان) ، أى : المال .

وقوله : (من بين فرث ودم لبناً خالصاً) ، أى : يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان ، فيسرى كلٌّ إلى موطنه ، إذا نضج الغذاء فى معدته تصرف منه دم إلى العروق ، [ولبن إلى الضرع] ، وبول إلى المثانة ، وروث ، إلى المخرج ، وكل منها لايشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ، ولا يتغير به :

(١) ينظر تفسير هذه اللفظة فى : ١ / ٣٢١ .
(٢) سيأتى فى هذه السورة ، وهى برقم : ٦٩.
(٣) سورة المدثر ، آية : ٥٤ ، ٥٥ .
(٤) سورة النمل ، آية : ٣٥ ، ٣٦ .

وقوله : (لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) ، أى : لايغص به أحد .

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغا، ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة ، من ثمرات النخيل والأعناب ، وماكانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً) ، دل على إباحته شرعا قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين السكَر المتخذ من العنب ، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل ، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك ــ كما قال ابن عباس فى قوله : (سكرا ورزقا حسناً) ، قال : السكَر : ماحرم من ثمرتيها ، والرزق الحسن ماأحل من ثمرتيها ــ وفى رواية : « السكر حرامه ، والرزق الحسن حلاله » . يعنى مايبس منها من تمر وزبيب ، وما عمل منها من طِلاء (١) ــ وهو الدِّبس ــ وخل ونبيذ ، حلال يشرب قبل أن يشتد ، كما وردت السنة بذلك .

(إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون)، ناسب ذكر العقل ها هنا ، فإنه أشرف مافى الانسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها ، قال الله تعالى: (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون) (٢)،

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المراد بالوحى ها هنا : الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ، ومما يعرشون . ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورَصّها ، بحيث لايكون بينها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى لها مذللة ، أى: سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها ، لاتحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل ، فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتقىء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (فاسلكى سبل ربك ذللا) ، أى : مطيعة (٣) . فجعلاه حالا من السالكة ــ قال ابن زيد : وهو كقول الله تعالى : (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) ــ قال : ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم .

(١) الطلاء ــ بالكسر والمد ــ: الشراب المطبوخ من عصير العنب . أما الدبس ــ بكسر فسكون ــ فهو عسل التمر وعصارته . كذا ذكر اللغويون ، ينظر المصباح ، والنهاية ، واللسان .

(٢) سورة يس ، الآيات : ٣٤ ــ ٣٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ٩٤ .

والقول الأول أظهر ، وهو أنه حال من الطريق ، أى : فاسلكيها مذلّلة لك ، نص عليه مجاهد : وقال ابن جرير : كلا القولين صحيح.

وقد قال أبو يعلى الموصلى : حدثنا شيبان بن فرّوخ ، حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز ، عن أبيه ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُمْرُ الذباب أربعون يوما ، والذباب كله فى النار إلا النحل » .

وقوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) ، أى : مابين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : (فيه شفاء للناس) ، أى : فى العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم .

قال بعض من تكلم على الطب النبوى : لو قال فيه : « الشفاء للناس » لكان دواء لكل داء ، ولكن قال (فيه شفاء للناس) ، أى : يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار ، والشىء يداوى بضده .

وقال مجاهد بن جَبْر فى قوله : (فيه شفاء للناس) ، يعنى : القرآن .

وهذا قول صحيح فى نفسه ، ولكن ليس هو الظاهر ها هنا من سياق الآية ، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل ، ولم يتابَع مجاهد على قوله ها هنا ، وإنما الذى قاله ذكروه فى قوله تعالى : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١) ... الآية وقوله تعالى : (ياأيها الناس ، قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) (٢) .

والدليل على أن المراد بقوله تعالى : (فيه شفاء للناس) ، هو العسل — الحديثُ الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من رواية قتادة ، عن أبى المتوكل على بن داود (٣) الناجى ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استَطْلَق (٤) بطنُه ؟ فقال : اسقه عسلا فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يارسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ! قال : اذهب فاسقه عسلا . فذهب فسقاه ، ثم جاء فقال : يارسول الله ، مازاده إلا استطلاقا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك ! اذهب فاسقه عسلا . فذهب فسقاه فبرئ (٥) .

قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٥٧ .

(٣) يقال أيضا : « على بن دؤاد » . ينظر التهذيب : ٣١٨/٧ .

(٤) الاستطلاق : الإسهال .

(٥) مسلم ، كتاب السلام ، باب « التداوى بسقى العسل » : ٢٦/٧ ، والبخارى ، كتاب الطب ، باب « دواء المبطون » : ٢٠/٧ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

وفى الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الحلْواء والعسل . هذا لفظ البخارى (١) .

وفى صحيح البخارى ، من حديث سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير (٢) ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشفاء فى ثلاثة : فى شَرْطة محجَم ، أو شربة عسل ، أو كيَّة بنار ، وأنهى أمتى عن الكى (٣) » .

وقال البخارى : حدثنا أبو نُعيم ، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسيل ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، سمعت جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن كان فى شىء من أدويتكم ، أو يكونُ فى شىء من أدويتكم خير : ففى شَرطة محجَم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار توافق الداء ، وما أحب أن أكتوى (٤) » .

ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة ، عن جابر ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا عبد الله بن الوليد ، عن أبى الخير ، عن عقبة بن عامر الجُهَنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إن كان فى شىء شفاء : فشَرطة (٦) محجَم ، أو شربة عسل ، أو كيَّة تصيب ألما ، وأنا أكره الكى ولا أحبه (٧) » .

ورواه الطبرانى عن هارون بن مَلّول (٨) المصرى ، عن أبى عبد الرحمن المقرئ ، عن عبد الله بن الوليد ، به ولفظه : « إن كان فى شىء شفاء : فشرطة محجم » . . . وذكره ، وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه .

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد بن ماجه القزوينى فى سننه : حدثنا على بن سلمة — هو اللبَقى (٩) ، حدثنا زيد ابن الحباب ، حدثنا سفيان عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن (١٠) » .

وهذا إسناد جيد ، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً ، وقد رواه ابن جرير (١١) ، عن سفيان بن وكيع ، عن أبيه ، عن سفيان — هو الثورى — به موقوفا ؛ ولَهوَ أشبه .

---

(١) البخارى ، كتاب الأشربة ، باب « شراب الحلواء والعسل » : ٧/١٤٣ . وكتاب الطب ، باب « الدواء بالعسل » : ٧ / ١٥٩ .

(٢) فى المخطوطة مكان « سعيد بن جبير » : « مجاهد بن جبر » . والمثبت من الصحيح .

(٣) البخارى ، كتاب الطب ، باب « الدواء بالعسل » : ٧/١٥٩ .

(٤) البخارى ، الكتاب والباب المتقدمان : ٧ / ١٥٩ .

(٥) مسلم ، كتاب السلام ، باب « لكل داء دواء واستحباب التداوى » : ٧/٢١ ، ٢٢ .

(٦) لفظ المسند : « ففى شرطة » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤/١٤٦ .

(٨) فى المخطوطة : « مملول » . والمثبت عن المعجم الصغير للطبرانى : ٢/١٢٧ ، والمشتبه للذهبى : ٦١٣ .

(٩) فى المخطوطة : « هو الملقبى » . والمثبت عن سنن ابن ماجه ، والمشتبه للذهبى ، تعليق : ٥٥٧ ، والخلاصة .

(١٠) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « العسل » ، الحديث ٣٤٥٢ : ٢/ ١١٤٢ .

(١١) تفسير الطبرى : ١٤ / ٩٤ .

وروينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « إذا أراد أحدكم الشفاء ، فليكتب آية من كتاب الله فى صَحْفَة ، وليغسلها بماء السماء ، وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها ، فليشتر به عسلا فليشربه بذلك فإنه شفاء (١) » : أى من وجوه ، قال الله : (وننزل من القرآن ماهو شفاء) (٢) ، وقال : (ونزلنا من السماء ماء مباركا) (٣) ، وقال : (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) (٤) ، وقال فى العسل : (فيه شفاء للناس) »

وقال ابن ماجه أيضاً : حدثنا محمود بن خداش ، حدثنا سعيد بن زكريا القرشى (٥) ، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمى ، عن عبد الحميد بن سالم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لَعِقَ العسل ثلاث غدَوَاتٍ فى كل شهر ، لم يصبه عظيم من البلاء » (٦) .

الزبير بن سعيد متروك .

وقال ابن ماجه أيضاً : حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سَرْح الفريابى ، حدثنا عمرو بن بكر السَّكْسَكى ، حدثنا إبراهيم بن أبى عَبْلَة : سمعت أبا أُبىّ بن أمّ حَرَام — وكان قد صلى القبلتين — يقول : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عليكم بالسَّنى (٧) والسَّنُّوت ؛ فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام . قيل : يارسول الله، وما السام؟ قال : الموت .

قال عمرو : قال ابن أبى عبلة : « السَّنُّوت » : الشِّبْثُ (٨) ، وقال آخرون : بل هو العسل الذى [يكون] (٩) فى زِقَاق السمن ، وهو قول الشاعر (١٠) :

هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُّوتِ لا أَلْسَ فيهمُ • وَهُمْ يَمْنَعُونَ الجارَ أنْ يُقَرَّدَا

كذا رواه ابن ماجه (١١) ، وقوله : « لا أَلْسَ فيهم » ، أى : لا خلط (١٢) ، وقوله : « يمنعون الجار أن يُقَرَّدا » ، [أى : يضطهد ويظلم] (١٣) .

---

(١) فى ورود هذا عن الإمام على نظر ؛ فإن هذا العمل أشبه بما يصنعه السحرة ، وإنما نزل القرآن الكريم لعلاج المجتمعات أما الأجسام فلها من العقاقير — التى خلقها الله — الشىء الكثير

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .

(٣) سورة «ق» ، آية : ٩ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٤ .

(٥) فى المخطوطة : « زكريا المقرى » . والمثبت من سنن ابن ماجه والخلاصة .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « العسل » ، الحديث ٣٤٥٠ : ٢ / ١١٤٢ .

(٧) السنى — بفتح السين والنون — : نبات معروف من الأدوية ، له حمل [أى : ثمر] إذا يبس وحركته الريح سمعت له زجلا . الواحدة : سناة .

(٨) الشبت — بكسر فسكون — : بقلة .

(٩) ما بين القوسين عن سنن ابن ماجه .

(١٠) البيت فى اللسان ، مادة « ألس » ، و« قرد » ، غير منسوب .

(١١) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « السنى والسنوت » ، الحديث : ٣٤٥٧ : ٢/١١٤٤ .

(١٢) فى اللسان : « الألس : أصله الولس ، وهو الخيانة . والألس : الأصل السوء . والألس : الغدر . والألس : الكذب » .

(١٣) ما بين القوسين مكانه بياض فى المخطوطة ، والمثبت عن الطبعات السابقة . وفى اللسان : « والتقريد : الخداع » .

وقوله : (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) ، أى : إن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك فى هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل ، وهو من أطيب الأشياء . (لآية لقوم يتفكرون) فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده ، وأنه هو [الذى] أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم ــ وهو الضعف فى الخلقة ــ كما قال الله تعالى : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة . ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير) (١) .

وقد روى عن على رضى الله عنه فى أرذل العمر : خمس وسبعون سنة . وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم . ولهذا قال : (لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) ، أى : بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفَنَد(٢) والخرف . ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية :

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور ، عن شُعَيب ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو : « أعوذ بك من البخل والكَسَل ، والهرم (٣) وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » (٤).

ورواه [مسلم ، من حديث هارون الأعور ، به (٥)] .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة (٦) :

سئِمتُ تكاليفَ الحياة ، ومَنْ يعِشْ • ثمانينَ عاما ــ لا أبَالك ــ يَسْأَم(٧)
رأيتُ المنَايا خبْطَ (٨) عَشْواء من تُصِبْ • تمته ، ومَنْ تخْطِئْ يعَمَّرْ فيهرم

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، كما كانوا يقولون فى تلبياتهم فى حجهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » . فقال تعالى منكرا عليهم : إنكم ،

(١) سورة الروم ، آية : ٥٤ .
(٢) الفند فى الأصل : الكذب ، وأفند : تكلم بالكذب ، ثم قالوا للشيخ إذا هرم : قد أفند ، لأنه يتكلم بالمحرف من الكلام عن سنن الصحة .
(٣) لايوجد فى الصحيح : « والهرم » .
(٤) البخارى ، تفسير سورة النحل : ٦ / ١٠٣ .
(٥) ما بين القوسين المعقوفين مكانه بياض فى المخطوطة . وقد سقط من الطبعات السابقة ، وأسقط أيضا لفظ : « ورواه » . والحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب « التعوذ من العجز والكسل » : ٨ / ٧٥ ، ٧٦ وقد أثبتنا ما بين القوسين اعتماداً على ما ألفناه من ابن كثير من تخريجه الحديث عن الصحيحين ، والله أعلم .
(٦) ديوانه : ٢٩ .
(٧) لا أبالك : كلمة يستعملها العرب عند الغلظة وتشديد الأمر .
(٨) العشا : ضعف البصر . وخبطه خبط عشواء : لم يتعمده . وأصله من الناقة العشواء ، لأنها لا تبصر ما أمامها ، فهى تخبط بيديها ، وذلك أنها ترفع رأسها فلا تتعهد مواضع أخفافها .

لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم ، كما قال فى الآية الأخرى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) (١) .... الآية .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : يقول : « لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معى فى سلطانى ، فذلك قوله : (أفبنعمة الله يجحدون) .

وقال فى الرواية الأخرى ، عنه : « فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم » (٢) .

وقال مجاهد فى هذه الآية : هذا مثل للآلهة الباطلة .

وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله ، فهل منكم من أحد شارك مملوكه فى زوجته وفى فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا ، فالله أحق أن يُنَزَّه منك (٣) .

وقوله : (أفبنعمة الله يجحدون) ، أى : إنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فجحدوا نعمته ، وأشركوا معه غيره .

وعن الحسن البصرى قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الرسالة إلى أبى موسى الأشعرى : « واقنع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق ، بل يبتلى به كلاً ، فيبتلى من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله ؟ » رواه ابن أبى حاتم .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة . ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثا ، وجعل الإناث أزواجا للذكور .

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن . والضحاك وابن زيد .

قال شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : (بنين وحفدة) : هم الولد وولد الولد (٤) :

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٨ .
(٢) الأثران فى تفسير الطبرى : ١٤ / ٩٥ ، ٩٦ .
(٣) لفظ الطبرى عن مجاهد ١٤ / ٩٦ : « فالله أحق أن ينزه منه ، من نفسك ، ولا تعدل بالله أحدا من عباده وخلقه » .
(٤) تفسير الطبرى : ١٤ / ٩٨ .

وقال سنيد : حدثنا حجاج عن أبي بكر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بنوك حين يحفدونك ويَرْفِدُونك(١) ويعينونك ويخدمونك ، قال جميل (٢) :

حَفَدَ الولائدُ حَوْلَهُنَّ وأسْلَمَتْ • بِأكُفِّهِن أزِمَّةَ الأجْمَالِ (٣)

وقال مجاهد : (بنين وحفدة) : ابنه وخادمه . وقال في رواية : « الحفدة » الأنصار والأعوان والخدام .

وقال طاوس : الحفدة الخدم . وكذا قال قتادة ، وأبو مالك ، والحسن البصري .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك (٤) .

قال الضحاك : إنما كانت العرب يخدمها بنوها

وقال العوفي ، عن ابن عباس قوله : (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) ، يقول : بنو امرأة الرجل ، ليسوا منه . ويقال : « الحفدة » : الرجل يعمل بين يدي الرجل ، يقال : فلان يحفد لنا — قال : ويزعم رجال أن الحفدة أختان (٥) الرجل : (٦) .

وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وأبو الضحى ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد ابن جُبَيْر ، ومجاهد ، والقرظي . ورواه عكرمة ، عن ابن عباس .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هم الأصهار .

قال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى : « الحَفْد » ، وهو الخدمة ، الذي منه قوله في القنوت : « وإليك نسعى ونحفد » ، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم ، فالنعمة حاصلة بهذا كله ، ولهذا قال : (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) .

قلت : فمن جعل (وحفدة) متعلقا بأزواجكم ، فلابد أن يكون المراد الأولاد ، وأولاد الأولاد ، والأصهار ؛ لأنهم أزواج البنات ، وأولاد الزوجة ، كما قال الشعبي والضحاك ، فإنهم غالبا يكونون تحت كنف الرجل وفي حِجْره وفي خدمته . وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه السلام في حديث بَصرة بن أكثم : « والولد عبد لك » رواه أبو داود (٧) .

وأما من جعل الحَفَدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) ، أي : وجعل لكم الأزواج والأولاد .

---

(١) يرفدونك : يعينونك .

(٢) كذا ، ولم نجده في ديوان جميل ط بيروت . وفي تفسير الطبري مكان جميل : « حميد » . ولم نجده في ديوان حميد بن ثور ، وإن كان فيه قصيدة من البحر والقافية ، لكن جوها غير جو البيت الذي معنا .

(٣) الأثر والبيت في تفسير الطبري : ١٤ / ٩٨.

(٤) تفسير الطبري : ١ / ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) الأختان : جمع ختن — بفتحتين — وهو : كل ما كان من قبل المرأة ، كالأب والأخ .

(٦) تفسير الطبري : ١٤ / ٩٨ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب « في الرجل يتزوج المرأة فيجدها حبلى » ، الحديث ٢١٣١ : ٢ / ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(ورزقكم من الطيبات) ، من المطاعم والمشارب .

ثم قال تعالى : منكرا على من أشرك فى عبادة المنعم غيره : (أفبالباطل يؤمنون) ، وهم : الأصنام والأنداد، (وبنعمة الله هم يكفرون) ، أى : يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره .

وفى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟»(١) .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره ، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان (مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئاً) ، أى : لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك ، أى : ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه؛ ولهذا قال تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال) ، أى : لا تجعلوا له أنداداً وأشباها وأمثالا ، (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) ، أى : إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)

قال العوفى ، عن ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن : وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير .

والعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل الكافر . والمرزوق الرزق الحسن،فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هو المؤمن .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى ، فهل يستوى هذا وهذا ؟

ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحا ظاهراً لا يجهله إلا كل غبى ، قال تعالى : (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)

قال مجاهد : وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى،يعنى أن الوثن أبكم لايتكلم ولا ينطق بخير ولا بشىء،ولا يقدر على شىء بالكلية ، فلا مقال ، ولا فعال ، وهو مع هذا «كَلّ» ، أى : عيال وكلفة على مولاه ، (أينما يوجهه) ، أى : يبعثه (لا يأت بخير) ولا ينجح مسعاه ، (هل يستوى) من هذه صفاته ، (ومن يأمر بالعدل) ، أى : بالقسط فقاله حق و فعاله مستقيمه ، (وهو على صراط مستقيم) . وبهذا قال السدى ، وقتادة وعطاء الخراسانى : واختار هذا القول ابن جرير .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٦ من سورة البقرة : ٢٦/١ ، وشرح غريبه هنالك . والحديث رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ، عن أبى هريرة : ٨ / ٢١٦ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن الصباح البزار ، حدثنا يحيى بن إسحاق ، السَّيْلَحِينى ، حدثنا حماد ، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خثيم ، عن إبراهيم ، عن عكرمة ، عن يعلى بن أمية ، عن ابن عباس فى قوله : (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء) : نزلت فى رجل من قريش وعبده . وفى قوله : (مثلا رجلين أحدهما أبكم) إلى قوله : (وهو على صراط مستقيم) ، قال : هو عثمان بن عفان ـ قال : والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو : مولى لعثمان بن عفان ، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما (١) .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء ، فى علمه غيبَ السموات والأرض ، واختصاصه بذلك ، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يُطلعه تعالى على ما يشاء ـ وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له « كن » ، فيكون كما قال : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (٢)، أى : فيكون ما يريد كطرف العين . وهكذا قال هاهنا : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شىء قدير) ، كما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) (٣) .

ثم ذكر تعالى مِنَّتَه على عباده ، فى إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات ، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات ، والأفئدة ـ وهى العقول ، التى مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ؛ وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا ، كلما كبر زِيدَ فى سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده .

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما جاء فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول تعالى : مَن عادى لى وليا فقد بارزنى(٤) بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت(٥) عليه ؛ ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ،

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٥١ .
(٢) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٣) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٤) لفظ الصحيح : « فقد آذنته بالحرب » .
(٥) لفظ الصحيح : « وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ... » .

ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجيبنه (١) ، ولئن استعاذ بي (٢) لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » (٣) .

فمعنى الحديث : أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله ، أي : ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل ، مستعينا بالله في ذلك كله . ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح ، بعد قوله : «ورجله التي يمشي بها » : «فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي» ، ولهذا قال تعالى : (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ، كما قال في الآية الأخرى : (قل : هو الذي أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون * قل : هو الذي ذرأكم في الأرض ، وإليه تحشرون) (٤) .

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض ، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى ، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك ، كما قال تعالى في سورة الملك : (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير) (٥) . وقال هاهنا : (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده ، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم ، يأوون إليها ، ويستترون بها ، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً (من جلود الأنعام بيوتا) ، أي : من الأدم (٦) ، يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر [والحضر] . ولهذا قال : (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها) ، أي : الغنم ، (وأوبارها) ، أي : الإبل ، (وأشعارها) ، أي : المعز — والضمير عائد على الأنعام — (أثاثا) ، أي : تتخذون منه أثاثا ، وهو المال . وقيل : المتاع . وقيل : الثياب . والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ مالا وتجارة .

---

(١) قوله : « ولئن دعاني لأجيبنه » . ليس في الصحيح .

(٢) لفظ الصحيح : « ولئن استعاذني » .

(٣) قوله : « ولا بد له منه » ليست في الصحيح . والحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب « التواضع » : ١٣١/٨ .

(٤) سورة الملك ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) آية : ١٩ .

(٦) الأديم : الجلد ، والأدم : اسم جمع له .

وقال ابن عباس : الأثاث المتاع . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وعطية العوفى ، وعطاء الخراسانى ، والضحاك ، وقتادة (١) .

وقوله : (إلى حين) ، أى : إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

وقوله : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) ، قال قتادة : يعنى الشجر .

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) ، أى : حصونا ومعاقل ، كما (جعل لكم سرابيل تقيكم الحر) ، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف ، (وسرابيل تقيكم بأسكم) ، كالدروع من الحديد المصفّح والزّرَد وغير ذلك ، (كذلك يتم نعمته عليكم) ، أى : هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ، ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته ، (لعلكم تسلمون) .

هكذا فسره الجمهور ، وقرءوه بكسر اللام من (تسلمون) ، أى : من الإسلام .

وقال قتادة فى قوله : (كذلك يتم نعمته عليكم) : هذه السورة تسمى سورة النِّعَم .

وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام ، عن حنظلة السدوسى ، عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس أنه كان [يقرؤها] (تَسلَمون) ـ بفتح اللام ـ يعنى من الجراح . رواه أبو عبيد القاسم بن سلام ، عن عباد ، وأخرجه ابن جرير من الوجهين ، وردّ هذه القراءة (٢) .

وقال عطاء الخراسانى : إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا) ، وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله : (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) ، وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحابَ وبَر وشَعَر . ألا ترى إلى قوله : ويُنزل من السماء من جبال فيها من بَرَد) ، لعجبهم من ذلك ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى : (سرابيل تقيكم الحر) ، وما يقى من البرد أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر (٣) .

وقوله : (فإن تولوا) ، أى : بعد هذا البيان وهذا الامتنان ، فلا عليك منهم ، (فإنما عليك البلاغ المبين) ، وقد أديته إليهم .

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) ، أى : يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويُسندون النصر والرزق إلى غيره ، (وأكثرهم الكافرون) ـ كما قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان(٤) ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن مجاهد : أن

---

(١) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٥ .

(٤) هو صفوان بن صالح الدمشقى ، يروى عن الوليد بن مسلم ، ويروى عنه أبو زرعة . ينظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢ / ١ / ٤٢٥ .

أعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم [فسأله] ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) ، قال الأعرابى : نعم . قال: (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)، قال الأعرابى : نعم . ثم قرأ عليه ، كل ذلك يقول الأعرابى : نعم ، حتى بلغ : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ، فولى الأعرابى فأنزل الله : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) (١) .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا ، وهو نبيها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ، (ثم لا يؤذن للذين كفروا) ، أى : فى الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كما قال : (هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) (٢) . ولهذا قال : (ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا) ، أى : أشركوا (العذاب فلا يخفف عنهم) ، أى : لايفتر عنهم ساعة واحدة ، (ولا هم ينظرون) ، أى : لا يؤخر عنهم ، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب ، فانه إذا جىء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فيشرف عُنُق(٣) منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، فتقول : إنى وكلت بكل جبار عنيد، الذى جعل مع الله إلهاً آخر ، وبكذا وكذا ، وتذكر أصنافا من الناس ، كما جاء فى الحديث. ثم تنطوى عليهم وتتلقَّطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب — قال الله تعالى : (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) (٤) ، وقال تعالى : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) (٥) ، وقال تعالى : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) (٦) ،

(١) الأثر فى الدر المنثور : ٤ / ١٢٦ .
(٢) سورة المرسلات ، آية : ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٣ / ٢٧٩ .
(٤) سورة الفرقان ، الآيات : ١٢ — ١٤ .
(٥) سورة الكهف ، آية : ٥٣ .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ٣٩ ، ٤٠ .

ثم أخبر تعالى عن تبرّئ ، آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال : (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) ، أى : الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، (قالوا : ربنا ، هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك * فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) ، أى : قالت لهم الآلهة : كذبتم ، ما نحن أمرناكم بعبادتنا . كما قال تعالى: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)(١)، وقال تعالى :(واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا)(٢) . وقال الخليل عليه الصلاة والسلام :(ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين(٣)) ، وقال تعالى : (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم ، فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (٤)) . والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله : (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) — قال قتادة ، وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ(٥) . أى : استسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع . كما قال : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (٦)) ، أى : ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ ! وقال تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (٧)) ، وقال : (وعنت الوجوه للحى القيوم (٨)) ، أى : خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت .

(وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) ، أى : ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير .

ثم قال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) ، أى : عذابا على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كما قال تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه (٩)) ، أى : ينهون [الناس] ، عن اتباعه ، ويبتعدون هم منه أيضاً (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم ، كما قال تعالى : (قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون(١٠)) .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٨١ ، ٨٢ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٤) سورة الكهف ، آية : ٥٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٧ .
(٦) سورة مريم ، آية : ٣٨ .
(٧) سورة السجدة ، آية : ١٢ .
(٨) سورة طه ، آية : ١١١ .
(٩) سورة الأنعام ، آية : ٢٦ .
(١٠) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سُرَيج بن يونس ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن مُرّة ، عن مسروق ، عن عبد الله فى قول الله : (زدناهم عذابا فوق العذاب) — قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال (١) .

وحدثنا سريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان ، حدثنا الأعمش، عن الحسن ، عن ابن عباس أنه قال : (زدناهم عذابا فوق العذاب) ، قال : هى خمسة أنهار فوق العرش يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار (٢) .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨٩)

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم : (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) ، يعنى أمته .

أى : اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر « سورة النساء » فلما وصل إلى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : حَسْبك . — قال ابن مسعود رضى الله عنه : فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان (٣) .

وقوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) — قال ابن مسعود : قد بيّن لنا فى هذا القرآن كل علم، وكل شىء (٤) .

وقال مجاهد : كل حلال وحرام .

وقول ابن مسعود أعم وأشمل ؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتى ، وحكم كل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم ، ومعاشهم ومعادهم .

(وهدى) ، أى : للقلوب ، (ورحمة وبشرى للمسلمين) .

وقال الأوزاعى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) ، أى بالسنة .

ووجه اقتران قوله : (ونزلنا عليك الكتاب) ، مع قوله : (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) ، أن المراد — والله أعلم — : إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ

---

(١) أخرجه الطبرى من طريق أبى معاوية : ١٤ / ١٠٧ .
(٢) الأثر فى الدر المنثور ٤ / ١٢٧ عن أبى يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، ولفظه : « قال : خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم ، يعذبون ببعضها بالليل ، وببعضها بالنهار » .
(٣) تقدم هذا الحديث عند تفسير الآية ٤١ من سورة النساء : ٢ / ٢٦٩ ، وخرجناه هنالك .
(٤) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٨ .

إليهم ولنسألن المرسلين) (١) ، (فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون)(٢) ، (يوم يجمع الله الرسل ، فيقول : ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا ، إنك أنت علام الغيوب)(٣)وقال تعالى:(إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)(٤)، أى : إن الذى أوجب [عليك] تبليغ القرآن ، لرادك إليه ، ومعيدك يوم القيامة ، وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ،وهو مُتَّجه حسن .

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل ، وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان ، كما قال تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (٥)، وقال : (وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله (٦) ، وقال : (والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له) (٧) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا ، من شرعية العدل والندب إلى الفضل .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (إن الله يأمر العدل) ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله (٨) .

وقال سفيان بن عيينة : العدل فى هذا الموضع : استواء السريرة . والعلانية من كل عامل لله عملا . والإحسان : أن تكون سريرته أحسن من علانيته . والفحشاء والمنكر : أن تكون علانيته أحسن من سريرته .

وقوله : (وإيتاء ذى القربى) ، أى : يأمر بصلة الأرحام ، كما قال : (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) (٩) .

وقوله : (وينهى عن الفحشاء والمنكر) ، فالفواحش : المحرمات . والمنكرات : ما ظهر منها [من فاعلها ، ولهذا قال فى الموضع الآخر : (قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها] وما بطن) (١٠) . وأما البغى فهو : العدوان على الناس . وقد جاء فى الحديث : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم (١١) » .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٦ .
(٢) سورة الحجر ، آية : ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) سورة المائدة ، آية : ١٠٩ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٨٥ .
(٥) سورة النحل ، آية : ١٢٦ .
(٦) سورة الشورى ، آية : ٤٠ .
(٧) سورة المائدة ، آية : ٤٥ .
(٨) تفسير الطبرى : ١٤ ٪ ١٠٩ .
(٩) سورة الإسراء ، آية : ٢٦ .
(١٠) سورة الأعراف ، آية : ٣٣ .
(١١) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الزهد ، باب « البغى » ، الحديث ٤٢١١ : ٢ ٪ ١٤٠٨ . والإمام أحمد فى مسنده عن أبى بكرة : ٥ ٪ ٣٦ ، ٣٨ .

وقوله : (يعظكم)، أى : يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، (لعلكم تذكرون) .

قال الشعبى ، عن شُتَير بن شَكَل: سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ... الآية . رواه ابن جرير (١) .

وقال سعيد عن قتادة : قوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ... الآية ، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

قلت : ولهذا جاء فى الحديث : « إن الله يحب معالى الأخلاق ، ويكره سفسافها » .

وقال الحافظ أبو نُعَيم فى كتابه « كتاب معرفة الصحابة » : حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى ، حدثنا يحيى بن محمد مولى بنى هاشم ، حدثنا الحسن بن (٢) داود المنكدرى ، حدثنا عمر بن على المقدمى ، عن على بن عبد الله بن عمير ، عن أبيه قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : « أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه ! قال: فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه . فانتدب رجلان فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله » — قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) ، قالوا : اردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه . فأتيا أكثم فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكى النسب، واسطا(٣) فى مضر ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إنى قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا .

وقد ورد فى نزول هذه الآية الكريمة حديث حَسَن ، رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر ، حدثنى عبد الله بن عباس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته جالس ، إذ مر به عثمان بن مظعون ، فكَشَر(٤) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . قال: فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شَخَص(٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى [السماء] فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يَمْنَتِه(٦) فى

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٩ .

(٢) أخرجه ابن السكن ، عن ابن صاعد ، عن الحسن بن داود بإسناده ، ذكر الحافظ فى الإصابة ، الترجمة ٤٨٥ : ٢١٨/٣ ، ١١٩ . وقال : « وهو مرسل » .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى المعاجم : فلان وسط — بفتحتين — ووسيط : إذا كان حسيباً فى قومه ، على أنه فى السان : ووسط قومه فى الحسب يسطهم سطة حسنة » ؛ فلا يبعد أن يكون الوصف منه على فاعل .

(٤) فى المسند : « فتكشر » . والكشر : بدو الأسنان عند التبسم .

(٥) شخص الرجل ببصره : فتح عينيه لا يطرف .

(٦) فى المسند : « على يمينه » .

الأرض، فتحرّف(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره. فأخذ ينغض(٢) رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر: فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى فى السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: وما رأيتنى فعلت؟ قال: رأيتك شخص(٣) بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتنى، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك. قال: وفطنت لذلك؟ فقال عثمان: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتانى رسول الله (٤) آنفا وأنت جالس. قال: رسولُ الله؟ قال: نعم. قال: فما قال لك؟ قال: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) ــ قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى، وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم (٥).

إسناد جيد متصل حسن، قد بُيِّن فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبى حاتم، من حديث عبد الحميد بن بَهرام مختصراً.

حديث آخر، عن عثمان بن أبى العاص الثقفى فى ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هريم، عن ليث، عن شهر بن حَوشب، عن عثمان بن أبى العاص قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا، إذ شَخَصَ بَصرَه فقال: أتانى جبريل، فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)(٦) . . . الآية.

وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها).

---

(١) أى: مال عنه وتحول.
(٢) فى المسند: «ينفض» بالفاء. وفى النهاية: «وأخذ ينفض رأسه كأنه يستفهم ما يقال له: أى يحركه ويميل إليه».
(٣) لفظ المسند: «رأيت تشخص ببصرك».
(٤) يعنى جبريل عليه السلام.
(٥) مسند الإمام أحمد: ١ / ٣١٨.
(٦) مسند الإمام أحمد: ٤ / ٢١٨.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا) (١) — وبين قوله تعالى: (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم) (٢) ، أي : لا تتركوها بلا تكفير ، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين : « إني والله إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها — وفي رواية : وكفرت عن يميني (٣) » — لا تعارض بين هذا كله ، ولا بين الآية المذكورة ها هنا وهي قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ، لأن هذه الأيمان،المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع ؛ ولهذا قال مجاهد في قوله : (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ، يعني : الحلف (٤) أي : حلف الجاهلية ؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا عبد الله بن محمد — هو ابن أبي شيبة — حدثنا ابن نمير وأبو أسامة ، عن زكريا — هو ابن أبي زائدة — عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حلف في الإسلام ، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة (٥) » .

وكذا رواه مسلم ، عن ابن أبي شيبة ، به (٦) .

ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه .

وأما ما ورد في الصحيحين ، عن عاصم الأحول ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دارنا(٧) — فمعناه أنه آخى بينهم،فكانوا يتوارثون به،حتى نسخ الله ذلك ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عمارة الأسدي ، حدثنا عبيد (٨) الله بن موسى ، أخبرنا ابن أبي ليلى، عن مزيدة

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٢٤ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٨٩ .

(٣) أخرجاه في كتاب الأيمان ، ينظر البخاري : ١٥٩/٨ ، ومسلم ، باب « ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه » : ٨٣/٥ ، ٨٤ .

(٤) تفسير الطبري : ١١٠/١٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٨٣/٤ .

(٦) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم » : ٧ / ١٨٣ .

(٧) البخاري ، كتاب الاعتصام : ١٣٠/٩ . ومسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ١٨٣/٧ .

(٨) في المخطوطة وتفسير الطبري : «عبد الله بن موسى» . والمثبت من تفسير الطبري ، تحقيق الأستاذ محمود شاكر : ٢ % ٣٢٧ الأثر ١٥١١ ، ففيه يروي محمد بن عمارة الأسدي عن عبيد الله بن موسى » .

وقد كان في المخطوطة أيضا وتفسير الطبري : « أخبرنا أبو ليلى » ، فأثبتنا « ابن أبي ليلى » . وهو : محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى الأنصاري ، فهو يروي عن مزيدة بن جابر ، كما في التهذيب : ١٠١/١٠ ، ويروي عنه عبيد الله بن موسى . كما في ترجمته في التهذيب : ٣٠٢/٩ .

هذا وقد وقع في تفسير الطبري مكان « مزيدة » : « بريدة » . ونسأل الله سبحانه أن يكون التوفيق حليفنا فيما ضبطنا من رجال هذه السند ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فى قوله : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) ــ قال : نزلت فى بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ، كان من أسلم بايع النبى صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فقال : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) ، هذه البيعة التى بايعتم على الإسلام ، (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) : البيعة لا يحملنكم قلة محمد [وأصحابه] (١) وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا صخر ابن جُوَيرية ، عن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية ، جمع ابن عمر بنيه وأهله ، ثم تشهد ، ثم قال : أما بعد فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الغادر يُنصَب له لواء يوم القيامة ، فيقال : هذه غَدْرَة فلان » : وإن من أعظم الغَدرْ ــ إلا أن يكون الإشراك بالله (٣) ــ أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ، ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعَن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحدٌ منكم فى هذا الأمر ، فيكون صَيلم (٤) بينى وبينه » (٥) .

المرفوع منه فى الصحيحين (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا حجاج ، عن عبد الرحمن بن عابس ، عن أبيه ، عن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من شرط لأخيه شرطاً ، لا يريد أن يفى له به ، فهو كالمدلى جارَه إلى غير مَنْعة (٧)

وقوله : (إن الله يعلم ما تفعلون) ، تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

وقوله : (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ــ قال عبد الله بن كثير ، والسدّى : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه (٨) .

وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده .

وهذا القول أرجح وأظهر وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا .

---

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى : ١١٠/١٤ .
(٣) لفظ المسند : « وإن من أعظم الغدر أن لا يكون له الإشراك بالله تعالى » . وهو خطأ ، وقد ورد على الصواب كما هنا فى المسند : ٩٦/٢ .
(٤) لفظ المسند : « فيكون صلى الله عليه وسلم بينى وبينه » . وهو خطأ ، وقد ورد على الصواب فى المسند : ٩٦/٢ ، والصيلم : القطيعة ، والمعنى : فتحدث قطيعة بينى وبينه .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤٨/٢ .
(٦) سبق تخريج المرفوع من هذا الحديث عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٠٤/٥ .
(٨) تفسير الطبرى : ١١١/١٤ .

وقوله : (أنكاثا) ، يحتمل أن يكون اسم مصدر (١) : نقضت غزلها أنكاثا ، أى : أنقاضا ؛ ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان ، أى : لا تكونوا أنكاثا ، جمع نكث من ناكث (٢) ، ولهذا قال بعده : (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أى: خديعة ومكرا ، (أن تكون أمة هى أربى من أمة)، أى: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدرُ بهم غدَرتُم : فنهى الله عن ذلك ، لينبه بالأدنى على الأعلى ؛ إذا كان قد نُهِى عن الغدر والحالة هذه ، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى .

وقد قدمنا ولله الحمد فى «سورة الأنفال » (٣) قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمَدٌ ، فسار معاوية إليهم فى آخر الأجل ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم ، أغار عليهم وهم غارّون لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عَبَسَة الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدراً ، سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلَّنَّ عُقْدة حتى ينقضى أمَدُها » ، فرجع معاوية بالجيش رضى الله عنه وأرضاه .

قال ابن عباس : (أن تكون أمة هى أربى من أمة) ، أى : أكثر (٤) .

وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز . فنهوا عن ذلك .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد نحوه .

وقوله : (إنما يبلوكم الله به) — قال سعيد بن جُبَير : يعنى بالكثرة : رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : أى بأمره إياكم بالوفاء والعهد (٥) .

(وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) ، فيجازى كل عامل بعمله ، من خير وشر .

---

(١) يعنى أن (أنكاثا) جمع نكث ، بكسر فسكون ، وهو الغزل من الصوف أو الشعر ، تبرم وتنسج، فإذا خلقت النسيجة قطعت قطعا صغاراً ، وتكثت خيوطها المبرومة ، وخلطت بالصوف الجديد ، ونشبت به ، ثم ضربت بالمطارق وغزلت ثانية واستعملت والذى ينكثها يقال له : « نكاث... » . فقد وضع الاسم — وهو الشىء المنكوث — مكان المصدر... ويقول الألوسى فى روح المعانى ٢٢١/١٤ : « وجوز الزجاج كون النصب على المصدرية ، لأن نقضت بمعنى نكثت فهو ملاق لعامله فى المعنى » .

(٢) كذا ، ولم نجد « نكثا » بهذا المعنى فى المعاجم .

(٣) ينظر : ٢٢/٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٢٢/١٤ .

(٥) تفسير الطبرى : ١١٣/١٤ .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

يقول تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم) أيها الناس (أمة واحدة) ، كما قال تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) (١) ، أى : لوفق بينكم : ولما جعل اختلافا ولا تباغُض ولا شحناء (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين : إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (٢) ، وهكذا قال هاهنا : (ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم ، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطْمير (٣) .

ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخَلا ، أى : خديعة ومكرا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها : مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى ، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الاسلام ، ولهذا قال : (وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم) .

ثم قال تعالى : (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا) ، أى : لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرَض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، أى : جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده : ولهذا قال : (إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد) ، أى : يفرغ وينقضى ؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر متناه ، (وما عند الله باق) ، أى : وثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له ؛ فإنه دائم لا يحول ولا يزول ، (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) : قسم من الرب عز وجل متلقّى باللام ، أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم ، أى : ويتجاوز عن سيئها :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً ــ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ، من ذكر أو أنثى من بنى آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ــ بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن [ما عمله] فى الدار الآخرة :

(١) سورة يونس ، آية : ٩٩ .
(٢) سورة هود ، آية : ١١٨ ، ١١٩ .
(٣) تقدم شرح هذه المفردات فى : ٣٧١/٤ .

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من اى جهة كانت . وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه فسرها بالقناعة . وكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ووهب بن منبه ؛

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أنها : السعادة .

وقال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، لا يطيب لأحد الحياة إلا فى الجنة ؛

وقال الضحاك : هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا ، وقال الضحاك أيضا : هى العمل بالطاعة والانشراح بها : (١)

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد .

حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى شرحبيل بن شريك ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عـمْرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا ، وقَنَّعه الله بما آتاه (٢) »

ورواه مسلم ، من حديث عبد الله بن يزيد المقرىء ، به (٣) .

وروى الترمذى والنسائى ، من حديث أبى هانىء ، عن أبى على الجنبى (٤) عن فضالة بن عُبَيْد : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد أفلح من هـدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا ، وقنع به » . وقال الترمذى : هذا حديث صحيح (٥) .

وقال الإمام أحمد ، حدثنا يزيد ، حدثنا هـمّام ، عن يحيى ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا [ويثاب عليها فى الآخرة . وأما الكافر فيعطيه حسناته فى الدنيا] (٦) حتى إذا أفضى إلى الاخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً (٧) » . انفرد بإخراجه مسلم (٨) ؛

---

(١) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٤/١١٤ ، ١١٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٨ .

(٣) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فى الكفاف والقناعة » : ٣/١٠٢ .

(٤) فى المخطوطة : « الجهى » مكان « الجنبى » . والمثبت عن الترمذى : وهو عمرو بن مالك الجنبى المصرى . ينظر ترجمته فى التهذيب : ٨/٩٥ ، ٩٦ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ما جاء فى الكفاف والصبر عليه » ، الحديث ٢٤٥٣ : ٧/١٥ ، ١٦ .

(٦) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه عن مسند الإمام أحمد . وقد ورد فى رواية أخرى فى المسند ٣/٢٨٣ : « وأما الكافر فيطعم بحسناته » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣/١٢٣ .

(٨) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر فى الدنيا » ٨/١٣٥ .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، إذا أرادوا قراءة القرآن ، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم . وهو أمر ندب ليس بواجب ، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الاستعاذة مبسوطة فى أول التفسير (١) ولله الحمد والمنة .

والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة ، لئلا يلبس على القارىء قراءته ويخلط عليه ، ويمنعه من التدبر والتفكر . ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، و حكى عن حمزة ، وأبى حاتم السجستانى : أنها تكون بعد التلاوة . واحتجا بهذه الآية . ونقل النووى فى شرح المهذب مثل ذلك عن أبى هريرة أيضا ، ومحمد بن سيرين ، وإبراهيم النخعى . والصحيح الأول ، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة ، والله أعلم .

وقوله : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) — قال الثورى : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه (٢) .

وقال آخرون : معناه لا حجة له عليهم . وقال آخرون : كقوله : (إلا عبادك منهم المخلصين) .

(إنما سلطانه على الذين يتولونه) — قال مجاهد : يطيعونه .

وقال آخرون : اتخذوه ولياً من دون الله

(والذين هم به مشركون) ، أى أشركوه فى عبادة الله تعالى . ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى : صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى .

وقال آخرون : معناه أنه شركهم فى الأموال والأولاد (٣) .

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول (إنما أنت مفتر) ، أى : كذاب . وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

وقال مجاهد : (بدلنا آية مكان آية) ، أى : رفعناها وأثبتنا غيرها .

---

(١) ينظر : ٢٧/١ — ٣١ .

(٢) فى المخطوطة : « أن لا يتوبون منه » . والمثبت من الطبعات السابقة ، والأثر فى الدر المنثور عن الطبرى وابن أبى حاتم ١٣٥/٤ « ليس له على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم » .

(٣) وهو مأخوذ من قوله تعالى : (وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) .

وقال قتادة ، هو كقوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها) (١) ؛

فقال تعالى مجيبا لهم : (قل نزله روح القدس) ، أى : جبريل ، (من ربك بالحق) ، أى : بالصدق والعدل ، (ليثبت الذين آمنوا) ، فيصدقوا بما نزل أولا وثانيا وتخبت له قلوبهم ، (وهدى وبشرى للمسلمين) ، أى : وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت : إن محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم ، غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، فربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يَرُد جواب الخطاب فيما لا بد منه ، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم فى فى افترائهم ذلك : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) ، يعنى : القرآن ، أى : فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن ، فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة ،التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على نبى أرسل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَة من العقل .

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار فى السيرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى — كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مَبِيعة (٢) غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبعض بنى الحضرمى ، [فكانوا يقولون : والله ما يُعلِّم محمداً كثيرا مما يأتى به إلا جبر النصرانى ، غلام بنى الحضرمى] (٣) فأنزل الله : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) (٤) .

وكذا قال عبد الله بن كثير . وعن عكرمة وقتادة . كان اسمه يعيش .

وقال ابن جرير : حدثنى أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا أبو عامر(٥) ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن مسلم بن عبد الله الملائى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [يعلم] قَيْناً بمكة ، وكان اسمه « بلعام » وكان أعجمى اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية : (ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) (٦) .

(١) تفسير الطبرى : ١١٨/١٤ .

(٢) فى المخطوطة : « إلى سبيعة غلام » . والمثبت من سيرة ابن هشام .

(٣) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير . وقد أثبتناه عن سيرة ابن هشام .

(٤) سيرة ابن هشام : ٣٩٣/١ .

(٥) فى تفسير الطبرى : « أبو عاصم » . وقد وجدنا فى ترجمة إبراهيم بن طهمان فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١٠٧/١ أنه يروى عنه أبو عامر العقدى . وهو عبد الملك بن عمرو القيسى .

(٦) تفسير الطبرى : ١١٩/١٤ .

وقال الضحاك بن مزاحم: «هو سلمان الفارسي» وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة، وقال عبيد(١) الله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن [كتابا] لهما بلسانهما، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بهما، فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية (٢).

وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة، قبحه الله!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٠٥)﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه (إنما يفترى الكذب) على الله وعلى رسوله شرارُ الخلق، (الذين لا يؤمنون بآيات الله)(٣) من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد. ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان فيما قال له: أو كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٠٧) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (١٠٩)﴾

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به؛ أنه قد غضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه

(١) في تفسير الطبري: «عبد الله بن مسلم»، وكلاهما صواب، ينظر التهذيب، ترجمة عبيد الله بن مسلم: ٤٨/٧، ٤٧.
(٢) تفسير الطبري: ١٢٠/١٤.
(٣) سورة النحل، آية: ١٠٥.

من الردة لأجل الدنيا ، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق ، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئا ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئا فهم غافلون عما يراد بهم .

(لاجرم) ، أى : لابد ولا عَجَب أن من هذه صفته ، (أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) ، أى : الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم(١) يوم القيامة .

وأما قوله : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ، فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها ، لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله .

وقد روى العَوفىّ عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى عَمَّار بن ياسر ، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مُكرَهًا ، وجاء معتذراً إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه(٢) الآية ، وهكذا قال الشعبى ، وأبو مالك ، وقتادة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثَور ، عن معمر ، عن عبد الكريم الجَزَرىّ ، عن أبى عبيدة [بن](٣) محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم(٤) فى بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن عادوا فعد .

ورواه البيهقى بأبسط من ذلك ، وفيه أنه سب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ، وأنه قال : يا رسول الله ، ما تُرِكتُ حتى سَبَبتك وذكرت آلهتهم بخير ! قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان . فقال : إن عادوا فعد ، وفى ذلك أنزل الله : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُوالىَ المكرَه على الكفر ، إبقاءً لمهجته ، ويجوز له أن يستقتل(٥) كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحرّ ، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة أغيظَ لكم منها لقلتها ، رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك (٦) .

---

(١) الأهالى : جمع أهل . والمشهور فى الجمع : الأهلون . ينظر المصباح المنير .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٢٢ .

(٣) ما بين القوسين ، عن تفسير الطبرى . وفى التهذيب ، ترجمة محمد بن عمار بن ياسر ، أنه يروى عنه ابنه أبو عبيدة : ٩ / ٣٥٩ .

(٤) فى تفسير الطبرى : « حتى باراهم » . وباراهم : فعل مثل فعلهم .

(٥) فى اللسان ، مادة « قتل » : المستقتل : المستميت . وفى مادة «موت» : « واستمات الرجل : إذا طاب نفسا بالموت » والمستميت : الشجاع الطالب للموت على حد ما يجىء عليه بعض هذا النحو . والمستميت : المستقتل ، الذى لا يبالى فى الحرب من الموت » . وعلى هذا فمعنى « لا يجوز له أن يستقتل » : يجوز له أن يصبر على ما هو عليه من الإيمان والإعلان به ، وإن عرضه ذلك للقتل

(٦) ينظر ترجمته فى أسد الغابة : ١ / ٤٤٣ بتحقيقنا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن عكرمة ، أن عليا رضى الله عنه حرّق ناسا ارتدّوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابنَ عباس فقال : لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تعذبوا بعذاب الله . وكنت قاتلهم بقول(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » فبلغ ذلك عليا فقال : ويح أم ابن عباس(٢) . رواه البخارى(٣) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمّر ، عن أيوب ، عن حُميد بن هلال العَدَوىّ ، عن أبى بردة قال : قدم على أبى موسى معاذُ بن جبل باليمن ، فإذا رجل عنده ، قال : ما هذا ؟ قال : رجل كان يهوديا فأسلم ثم تهوّد ، ونحن نريده على الإسلام منذ ـ قال : أحسبه ـ شهرين فقال : والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه . فضربت عنقه ، فقال : قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه ـ أو قال : من بدل دينه فاقتلوه (٤) .

وهذه القصة فى الصحيحين بلفظ آخر (٥) .

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ، ولو أفضى إلى قتله ، كما قال الحافظ ابن عساكر ، فى ترجمة عبد الله ابن حُذافة السهمى أحد الصحابة : أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصّر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى . فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ، ما فعلت ! فقال : إذا أقتلك . قال : أنت وذاك ! فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية ، فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر ـ وفى رواية : ببقرة من نحاس ، فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها ، فرفع فى البكرة ليلقى فيها ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه فقال له : إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة ، تلقى فى هذه القدر الساعة فى الله ، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله(٦) ـ وفى بعض الروايات أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حلّ لى ، ولكن لم أكن لأشمّتك فىّ . فقال له الملك : فقبّل رأسى وأنا أطلقك . [فقال] : وتطلق معى جميع أسارى المسلمين ؟ قال : [نعم] فقبل رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر ابن الخطاب : حقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ . فقام فقبّل رأسه .

---

(١) لفظ المسند : « لقول » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٢١٧ .
(٣) البخارى ، كتاب استتابة المرتدين ، باب « حكم المرتد والمرتدة » : ١٩ / ١٨ ، ١٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٢٣١ .
(٥) البخارى ، كتاب استتابة المرتدين ، باب « حكم المرتد والمرتدة » : ١٩/٩ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « النهى طلب الإمارة والحرص عليها » : ٦ / ٦ .
(٦) ينظر أسد الغابة : ٣ / ٢١٢ ، ٢١٣ بتحقيقنا .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين فى قومهم قد واتوهم(١) على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، والتظموا فى سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه (من بعدها)، أى: تلك الفعلة، وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

(يوم تأتى كل نفس تجادل)، أى: تحاجّ (عن نفسها)، ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، (وتوفى كل نفس ما عملت)، أى: من خير وشر، (وهم لا يظلمون)، أى: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب(٢) الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: (وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا) (٣): وهكذا قال ها هنا: (يأتيها رزقها رغداً)، أى: هنيئا سهلا، (من كل مكان، فكفرت بأنعم الله)، أى: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، كما قال تعالى: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار) (٤): ولهذا بدّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)، أى: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجبَى إليهم ثمراتُ كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز(٥)— وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

---

(١) أى: وافقوهم؛ يقال: واتيته على الأمر مواتاة ووتاء: طاوعته ووافقته.

(٢) الثواب: يكون فى الخير والشر، إلا أنه بالخير أخص وأكثر استعمالا.

(٣) سورة القصص، آية: ٥٧.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٢٨، ٢٩.

(٥) فى النهاية لابن الأثير: «العلهز: هو شيء يتخذونه فى سنى المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه — وقيل: العلهز: شيء ينبت ببلاد بنى سليم، له أصل كأصل البردى».

وقوله : (والخوف) ، وذلك بأنهم بدلوا بامنهم خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوة سَرَاياه وجُيوشه ، وجعلوا كل ما لهم فى سَفَال ودمار ، حتى فتحها الله عليهم ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم فى قوله : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) (١) وقال تعالى : (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولا (٢) ... الآية ، وقوله : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) إلى قوله : (ولا تكفرون) (٣) .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العَيْلَة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم ، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم .

وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة ، قاله العوفى ، عن ابن عباس . وإليه ذهب مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وحكاه مالك عن الزهرى رحمهم الله .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن عبد الرحيم البَرْقى ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، حدثنا عبد الرحمن بن شريح ، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه ، أنه سمع مِشْرَح بن هاعان يقول : سمعت سليم بن عتر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعثمان رضى الله عنه محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه : ما فعل ؟ حتى رأت راكبين ، فأرسلت إليهما تسألهما ، فقالا : قتل فقالت حفصة: والذى نفسى بيده ، إنها القرية (٤) التى قال الله : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله) — قال أبو شريح (٥) : وأخبرنى عبيد الله بن المغيرة ، عمن حدثه : أنه كان يقول : إنها المدينة (٦) .

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب ، وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء ، الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٦٤ .
(٢) سورة الطلاق ، آية : ١٠ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٥١ ، ١٥٢ .
(٤) بعده فى تفسير الطبرى : « تعنى المدينة » .
(٥) أبو شريح : كنية عبد الرحمن بن شريح .
(٦) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٢٥ .

ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، من الميتة والدم ، ولحم الخنزير .

(وما أهل لغير الله به) ، أى : ذبح على غير اسم الله : ومع هذا (فمن اضطر إليه) ، أى : احتاج فى غير بغى ولا عدوان ، (فإن الله غفور رحيم) .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى « سورة البقرة » (١) بما فيه كفاية عن إعادته ، ولله الحمد .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين ، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، لتفتروا على الله الكذب) : ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله ، أو حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه :

« وما » فى قوله : (لما) مصدرية ، أى : ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم :

ثم توعد على ذلك فقال : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) ، أى : فى الدنيا ولا فى الآخرة : أما فى الدنيا فمتاع قليل ، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) (٢) ، وقال : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون : متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) (٣) :

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وأنه أرخص فيه عند الضرورة — وفى ذلك توسعة لهذه الأمة ، التى يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر — ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرّمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق ، فقال ، : (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) ، يعنى فى « سورة الأنعام » ، فى قوله : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظُفُر ، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورهما) ، إلى قوله : (لصادقون) (٤) ، ولهذا قال هاهنا : (وماظلمناهم) أى : فيما ضيقنا عليهم ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أى : فاستحقوا ذلك ، كما قال : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) (٥) :

---

(١) ينظر فيما تقدم تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة : ١/ ٢٩٣ — ٢٩٥ .

(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) ينظر فيما تقدم تفسير الآية ١٤٦ من سورة الأنعام : ٣ / ٣٤٨ — ٣٥١ .

(٥) سورة النساء ، آية : ١٦٠ .

ثم أخبر تعالى تكرّماً وامتناناً فى حق العصاة المؤمنين : أن من تاب منهم إليه تاب عليه ، فقال : (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) ــ قال بعض السلف : «كل من عصى الله فهو جاهل » .

(ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) ، أى : أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى ، وأقبلوا على فعل الطاعات، (إن ربك من بعدها) ، أى : تلك الفعلة والزلة (لغفور رحيم) .

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية ، فقال : (إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً) ، فأما « الأمة » ، فهو الإمام الذى يقتدى به . والقانت : هو الخاشع المطيع ؛ والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : (ولم يك من المشركين) .

قال سفيان الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن مسلم البطين ، عن أبى العبيدين : أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت ، فقال : الأمة : معلم الخير ، والقانت : المطيع لله ورسوله ؛

وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذى يعلم الناس دينهم .

وقال الأعمش ، [عن الحكم (١)] عن يحيى بن الجزار ، عن أبى العُبَيْدين : أنه جاء إلى عبد الله فقال : من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رقّ له ، فقال : أخبرنى عن الأمّة ، فقال : الذى يعلم الناس الخير .

وقال الشعبى : حدثنى فروة بن نوفل الأشجعى قال : قال ابن مسعود : إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفا . فقلت فى نفسى : غلط أبو عبد الرحمن ، إنما قال الله : (إن إبراهيم كان أمة) ، فقال : أتدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت : الله أعلم . قال : الأمة الذى يعلم الخير . والقانت : المطيع لله ورسوله ؛ وكذلك كان معاذ معلم الخير ، وكان مطيعا لله ورسوله .

وقد روى من غير وجه ، عن ابن مسعود ؛ حرره ابن جرير (٢) .

وقال مجاهد:(أمة) ، أى : أمة وحده ، والقانت المطيع ــ وقال مجاهد أيضاً : كان إبراهيم أمة ، أى مؤمنا وحده ، والناس كلهم إذ ذاك كفار .

وقال قتادة : كان إمام هُدًى ، والقانت المطيع لله ؛

---

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبرى . والحكم هذا هو ابن عتيبة ، يروى عن يحيى بن الجزار ، ويروى عنه الأعمش، ينظر التهذيب : ١١ / ١٩١ ، ٢ / ٤٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

وقوله : (شاكرا لأنعمه) ، أى : قائماً بشكر نعم الله عليه ، كما قال : (وإبراهيم الذى وفى) (١) ، أى : قام بجميع ما أمره الله تعالى به .

وقوله : (اجتباه) ، أى : اختاره واصطفاه ، كما قال : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) (٢) .

ثم قال : (وهداه إلى صراط مستقيم) ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى .

وقوله : (وآتيناه فى الدنيا حسنة) ، أى : جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة ، (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

وقال مجاهد فى قوله : (وآتيناه فى الدنيا حسنة) ، أى : لسان صدق (٣) .

وقوله : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) ، أى : ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه ، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء : (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ، كما قال : فى « الأنعام » : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (٤) ، ثم قال تعالى منكرا على اليهود :

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

لاشك أن الله شرع فى كل ملة يوما من الأسبوع ، يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة ، لأنه [اليوم] السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة ، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده . ويقال : إنه تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى ، فعدلوا عنه واختاروا السبت ، لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزمهم تعالى به فى شريعة التوراة ، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه ، مع أمره إياهم بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم إذا بعثه . وأخذه مواثيقهم وعهودهم على ذلك ، ولهذا قال تعالى : (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) .

قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة (٥) .

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به ، حتى بعث الله عيسى ابن مريم ، فيقال : إنه حولهم إلى يوم الأحد ، ويقال إنه : لم [يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم] يزل محافظا على السبت حتى رفع ، وإن النصارى بعده فى زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد ، مخالفة لليهود ، وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة ، والله أعلم .

---

(١) سورة النجم ، آية : ٣٧ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٥١ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٣٠ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٦١ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٣٠ .

وقد ثبت فى الصحيحين ، من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا ، والنصارى بعد غد » . لفظ البخارى (١) .

وعن أبى هريرة ، وحذيفة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تَبَع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة ، والمقضى بينهم قبل الخلائق » . رواه مسلم (٢) :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله (بالحكمة) .

قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة : (والموعظة الحسنة)(٣) ، أى : بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ، ليحذروا بأس الله تعالى .

وقوله : (وجادلهم بالتى هى أحسن) ، أى : من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كما قال : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم (٤) ، فأمره تعالى بلين الجانب ، كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فقال : (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) (٥) .

وقوله : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) ، أى : قد علم الشقى منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله ، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات ، فإنه ليس عليك هداهم ، إنما أنت نذير ، عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، (إنك لا تهدى من أحببت) (٦) ، و (ليس عليك هداهم) (٧) .

---

(١) البخارى ، كتاب الأيمان : ٨ / ١٥٩ ، ١٦٠ . ومسلم ، كتاب الجمعة ، باب « هداية هذه الأمة ليوم الجمعة » : ٣ / ٧ .

(٢) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ٣ / ٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٣١ ، ولفظه : « بالحكمة ، يقول : بوحى الله الذى يوحيه إليك ، كتابه الذى ينزله عليك ، والموعظة الحسنة ... » .

(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٤٦ .

(٥) سورة طه ، آية : ٤٤ .

(٦) سورة القصص ، آية : ٥٦ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾

يأمر تعالى بالعدل فى الاقتصاص والمماثلة فى استيفاء الحق ، كما قال عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن خالد ، عن ابن سيرين : أنه قال فى قوله تعالى : (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) : إن أخذ منك رجل شيئاً ، فخذ [منه] (١) مثله .

وكذا قال مجاهد ، وإبراهيم ، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

وقال ابن زيد : كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذوومَنَعة ، فقالوا : يا رسول الله ، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ! فنزلت هذه الآية ، ثم نسخ ذلك بالجهاد .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت : « سورة النحل » ، كلها بمكة ، وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد ، حيث قتل حمزة رضى الله عنه ومُثّل به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلا منهم » فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مُثْلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) . . . إلى آخر السورة (٢) .

وهذا مرسل ، وفيه مبهم لم يسم ، وقد روى هذا من وجه آخر متصل ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا الحسن بن يحيى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا صالح المرى ، عن سليمان التيمى ، عن أبى عثمان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . أو قال : لقلبه ، فنظر إليه وقد مثل به فقال : رحمة الله عليك ، إن كنت — ما علمتُ — لوصولا للرحم ، فَعُولا للخيرات ، والله لولا حزْن من بعدك عليك ، لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع — أو كلمة نحوها — أما والله على ذلك ، لأمثلهن بسبعين كمثلتك » . فنزل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بهذه السورة ، وقرأ : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)... إلى آخر الآية ، فكفّر رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى عن يمينه — وأمسك عن ذلك .

وهذا إسناد فيه ضعف ، لأن صالحا — هو ابن بشير المرى — ضعيف عند الأئمة ، وقال البخارى : هو منكر الحديث .

وقال الشعبى وابن جريج : نزلت فى قول المسلمين يوم أحد فيمن مثّل بهم : لنمثلن بهم . فأنزل الله فيهم ذلك .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه : حدثنا هدية بن عبد الوهاب المروزى ، حدثنا الفضل بن موسى ، حدثنا

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤/١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٣٢ .

عيسى بن عبيد ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد ، قتل من الأنصار ستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنُرْبِيَنّ عليهم(١) ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم . فنادى(٢) [مناد] : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا — ناسا سماهم — فأنزل الله تبارك وتعالى : (وإن عاقبتم) ...الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نصبر ولا نعاقب » (٣) .

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل ، كما في قوله : (وجزاءُ سيئة سيئة مثلها) ، ثم قال : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (٤) . وقال : (والجروح قصاص) ، ثم قال : (فمن تصدق به فهو كفارة له) (٥) ، وقال في هذه الآية الكريمة :(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)، ثم قال : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

وقوله : (واصبر وما صبرك إلا بالله)، تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوته .

ثم قال تعالى: (ولا تحزن عليهم)، أي: على من خالفك ،لا تحزن عليهم؛ فإن الله قَدَّر ذلك ،(ولا تك في ضيق)، أي: غم (مما يمكرون)، أي: مما يَجهدون(٦) في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك ، ومظهرك ومظفرك بهم .

وقوله :(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)، أي : معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه مَعِيَّة خاصة، كقوله: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا (٧) ، وقوله لموسى وهارون : (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) (٨)،وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما في الغار : (لا تحزن إن الله معنا)(٩) — وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى :(وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) (١٠) ، وكقوله تعالى: (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من

---

(١) أي : لنزيدن ولنضاعفن .
(٢) لفظ المسند : « فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن ... » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٣٥ .
(٤) سورة الشورى ، آية : ٤٠ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ٤٥ .
(٦) أي : يجدون .
(٧) سورة الأنفال ، آية : ١٢ .
(٨) سورة طه ، آية : ٤٦ .
(٩) سورة التوبة ، آية : ٤٠ .
(١٠) سورة الحديد ، آية : ٤ .

ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا (١) ، وكما قال تعالى : (وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل ، إلا كنا عليكم شهوداً) (٢) ... الآية .

ومعنى : (الذين اتقوا) ، أى : تركوا المحرمات ، (والذين هم محسنون) ، أى : فعلوا الطاعات : فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم ، وينصرهم ويؤيدهم ، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا مسعر ، عن ابن عون، عن محمد بن حاطب قال : كان عثمان رضى الله عنه من الذين آمنوا ، والذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

[آخر تفسير سورة النحل ، ولله الحمد اجمعه والمنة ، وبه المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل]

---

(١) سورة المجادلة ، آية : ٧ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٦١ .

الفهرس الموضوعى

سورة النحل

أعلام المفسرين والفقهاء

(ش)

(ص)

(ض)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

غريب اللغة

فهرس الشعر

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	٤ من التعليق	عبسة	عنبسه
٣٩	٢	وقال	وقاله
٥٧	١٠ من التعليق	الشعب	السقب
٧١	١٧	أسورة	أسوّره
١٢٦	٩ من التعليق	وكسر الزاى	وكسر الهاء
١٧٨	٩	قَطْن	قَطَن
٢٣٧	٢	لا إله أنا فاعبدون	(لا إله إلا أنا فاعبدون)
٢٨٠	٦ من التعليق	هكذا	فهكذا
٢٩٥	٢	أبى كعب	أبى بن كعب
٣٣٩	٧	عن عاصم عن عمر	عن عاصم بن عمر
٣٤٥	١	عن مجاد	عن مجاهد
٣٥٦	٨ من التعليق	بن جرير	ابن جرير
٤٠١	٥	مريم	يريم
٤١١	٦	بقناعَ	بقناعٍ
٤٣٥	٥ من التعليق	تفسير ابن أبى حاتم	تفسير الطبرى على صور مختلفة ، وقال ابن أبى حاتم :

تنبيهات

١ ـ ألحقنا فى نهاية العدد (٢٧) من هذا المجلد صفحتى : ٣٣٣، ٣٣٤ ؛ رجاء أن توضع هذه الورقة فى مكانها من المجلد ، أى : فى العدد (٢٦) ؛ حيث إنه سقطت فيه من صفحة ٣٣٣ الآيات : ٩٦ ــ ٩٨ .

٢ ـ نشكر السادة الذين يتابعون عملنا ، ويوافوننا برسائلهم واستدراكاتهم ، ونحب أن نطمئن الجميع إلى أننا نبذل غاية الجهد فى هذا العمل ، وما يقع فيه من خطأ فهو من قبيل السهو الذى لا يخلو منه إنسان ، وسوف ننبه على ملاحظاتهم فى صواب الخطأ آخر كل مجلد ، والله المستعان .

